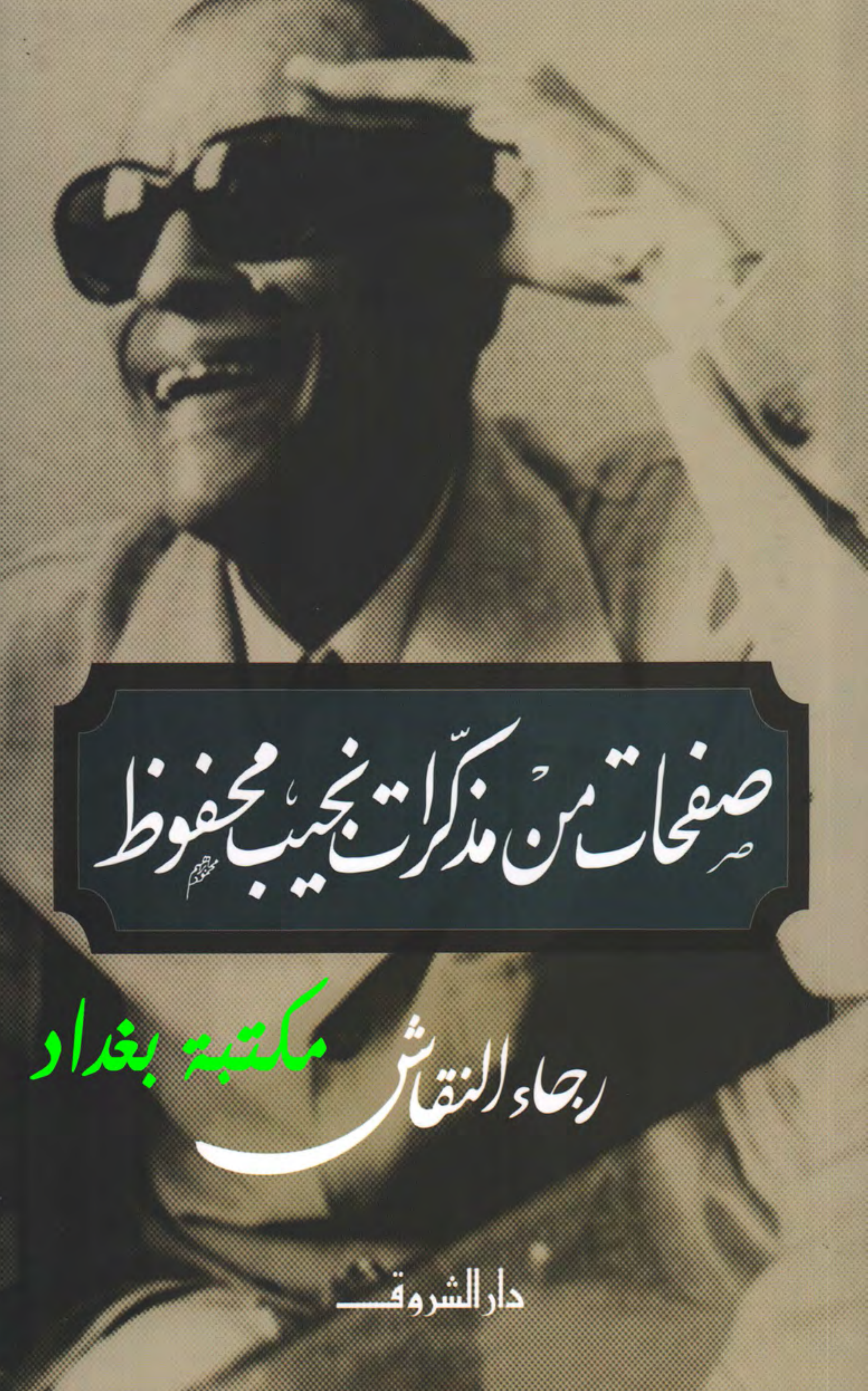

صفحات من مذكّرات نجيب محفوظ
رجاء النقاش
دار الشروق

رجاء النقاش

صفحات من مذكرات نجيب محفوظ

دار الشروق

المحتـويات

مقـدمـة

لا أظن أننى عانيت فى حياتى الثقافية كلها مثلما عانيت فى إعداد هذا الكتاب، وهذا اعتراف صريح أقدمه للقارئ الكريم، وللكثيرين من الأصدقاء المخلصين الذين كانوا ينتظرون صدور هذا الكتاب منذ أربع أو خمس سنوات، وظل الكثيرون منهم يسألون عن الكتاب مرة بعد أخرى، حتى يئسوا منى، وانصرف بعضهم عنى فى غضب وعتاب، وقد ظن البعض منهم أننى قد صرفت النظر عن الكتاب بصورة نهائية، أو أن الكتاب لم يكن سوى وعد لن يتم إنجازه، أو كان حلمًا من الأحلام الثقافية الكثيرة التى ابتلعتها مشاغل الحياة فضاعت فى الزحام وكنت أسمع هذا كله أو أقرأه فى عيون أصحابى، ولا أجد أى تعليق مناسب أقدمه للسائلين والمنتظرين والعاتبين، لأن لومى لنفسى وتأنيبى لها وقلة حيلتى معها كانت أكبر من كل لوم وتأنيب.

وقصة هذا الكتاب تبدأ عندما عرض علىّ «مركز الأهرام للترجمة والنشر»، فكرته فى أوائل سنة ١٩٩٠، وعندما استمعت إلى الفكرة رحبت بها وتحمست لها أشد الحماس.

وقد سارعت الأستاذة نوال المحلاوى مدير عام مركز الأهرام للترجمة والنشر بلقاء الأستاذ نجيب محفوظ وعرضت عليه فكرة الكتاب، كما ذكرت له أننى المرشح لتنفيذ الفكرة، ورحب الأستاذ نجيب محفوظ بالمشروع، وأبدى استعداده الكامل لإعطاء فكرة الكتاب كل ما تحتاج إليه من وقت وجهد، كما رحب ـ كرمًا منه ـ بترشيحى لإجراء هذه الحوارات الشاملة معه، وكانت موافقتى على فكرة الكتاب بهذه السرعة، وعلى غير عادتى فى التردد والمراجعة والتأنى، تعود إلى أننى أحببت الفكرة كلها من اللحظة الأولى، فكيف يتاح لى وأنا العاشق لنجيب محفوظ، فنانًا وإنسانًا، أن أجلس معه جلسات طويلة ومفتوحة وصريحة لمدة عام على التقريب، ثم أتردد فى الرضا والقبول وسرعة التنفيذ؟ والحق أننى،

منذ سنوات بعيدة وأنا أحلم بهذه الفكرة نفسها وأتمنى تنفيذها، بل لقد فاتحت الأستاذ نجيب محفوظ فى هذه الفكرة نفسها منذ أكثر من ثلاثين عامًا مضت، ولكن الظروف لم تسمح لى بتنفيذها؛ فبقيت حلمًا جميلاً نائمًا فى صدرى مع كثير غيره من الأحلام التى لم تتحقق، ولذلك لم أتردد فى الموافقة عندما جاءتنى الفكرة من «مركز الأهرام للترجمة والنشر»، بل لقد أحسست بسعادة غامرة وأنا أجد هذه الفكرة تعود إلى الحياة من جديد، ورأيت فى عودة الروح إلى هذه الفكرة ما يمس وترًا حساسًا فى نفسى، هو إيمانى بالأقدار وما تفعله بالإنسان، وهو إيمان لا أحب أن تمتد إليه يد بأى نوع من المراجعة أوالتعديل، فقد علمتنى تجارب الحياة أننا مهما حاولنا إخضاع الأمور للتخطيط والعقل والمنطق، فسوف تظل هناك مساحة مهمة للأقدار تتصرف فيها وحدها بغير شريك، وتختار لنا الزمان والمكان لتحقيق ما نحلم به ونفكر فيه.

وأعود إلى فكرة الكتاب الأساسية، وهى إجراء أحاديث وحوارات موسعة مع نجيب محفوظ، تتناول بالدقة والتفصيل كل ما يتصل بأدبه وحياته، حتى تتكون من هذه الحوارات صورة كاملة أو شبه كاملة لهذه الشخصية الأدبية النادرة، خاصة بعد ما حققه نجيب محفوظ من نصر عالمى للأدب العربى بحصوله عن استحقاق وجدارة على جائزة نوبل الدولية فى الأدب سنة ١٩٨٨، وما تلا ذلك من ترجمات واسعة لأعماله الأدبية إلى كل لغات العالم الحية، حتى لقد أصبح نجيب محفوظ ومعه اسم مصر، واسم الشخصية العربية والأدب المعاصر، حديثًا متكررًا له أهميته وقيمته فى الصحف العالمية، وفى الجامعات المهمة فى أوروبا وأمريكا، وأصبحت روايات نجيب محفوظ أفلامًا سينمائية فى عدد من دول العالم المختلفة، وأصبحت هذه الروايات فى طبعاتها الأجنبية على رأس قوائم الكتب الأكثر توزيعًا والأكثر شعبية فى مختلف أنحاء العالم.

ففكرة الكتاب إذن فكرة ناجحة وطيبة، وهى فرصة لا يمكن تعويضها للاقتراب من العالم الإنسانى والفكرى والفنى لهذا الأديب المصرى العربى العالمى، ومما زادنى حماسًا لفكرة الكتاب، أننى ـ كما أشرت فى البداية ـ عاشق قديم من عشاق نجيب محفوظ، حيث تابعت كتاباته بحب وإعجاب دائمين منذ أن قرأت له أول رواية وقعت فى يدى سنة ١٩٤٩، وكنت فى الخامسة عشرة من عمرى، وهى رواية «رادوبيس»، وبعدها لم أترك كلمة كتبها نجيب محفوظ دون أن أقرأها، ثم أعود إلى قراءتها مرة بعد أخرى، وحين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل شعرت ـ بشىء قليل من السذاجة ـ أن ذلك كان انتصارًا شخصيًا

لى، وكأن هذه الجائزة كانت تقول لى ولأمثالى إننا فى هوانا لنجيب محفوظ لم نكن من الخاطئين أو الضالين.

وفى أول أغسطس سنة ١٩٩٠ بدأت لقاءاتى مع نجيب محفوظ، وكنت أطرح عليه الأسئلة فيجيبنى عنها بصبر شديد ورحابة صدر كاملة وتوضيح لكل استفسار من أى نوع، وكنا نلتقى فى الصباح الباكر فى حدود الساعة الثامنة، ونواصل هذا اللقاء ما يقرب من ثلاث ساعات، واستمرت هذه اللقاءات حتى أواخر عام ١٩٩١، وكنت ألتقى مع نجيب محفوظ فى هذه المواعيد أربعة أيام فى الأسبوع، وأحيانًا كنا نعيد الأسئلة ونعيد تسجيل الإجابات طلبًا لمزيد من الدقة والوضوح، وأخيرًا توافر لى من هذه التسجيلات ما يقرب من خمسين ساعة كاملة، وكانت لقاءاتنا تتم فى مقهى صغير بميدان التحرير فى وسط القاهرة، هو مقهى «على بابا». وقد حرصت على أن أعرف شيئًا عن هذا المقهى الذى نلتقى فيه، وهو مقهى من دورين، وقد تعود نجيب محفوظ لسنوات طويلة فى الثمانينيات وأوائل التسعينيات، أن يجلس فى ركن من أركان هذا المقهى فى الدور العلوى، على منضدة صغيرة تطل على ميدان التحرير، وتعود أن يصل إلى هذا المقهى قبل الثامنة صباحًا، ويبقى لأكثر من ساعتين، وهو يطلب فنجانًا واحدًا من القهوة «على الريحة»، وقد اعتاد أن يشرب كمية قليلة جدًا من هذا «الفنجان» ثم يترك معظم الفنجان كما هو، ويقضى وقته الباقى فى حالة من الصمت والتأمل حتى يحين موعد انصرافه.

ولم يكن نجيب محفوظ يجرى فى هذا المقهى أى مقابلات صحفية أو تليفزيونية، ولكن بعد حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨ انقلبت الحال، حيث سجل العديد من المقابلات الصحفية والتليفزيونية والإذاعية مع مختلف الصحف ومحطات الإذاعة وقنوات التليفزيون العربية والعالمية.

كان بعض رواد المقهى يطلبون الحديث معه، والسلام عليه، وكان «الجرسون» يصعد ليستأذنه أولاً، ولم يحدث أن رد نجيب محفوظ أحدًا من الذين يطلبون تحيته وتبادل حديث سريع معه.

وبعد نوبل، زاره فى هذا المقهى رسام أوروبى وطلب أن يرسم له صورة، وبعد أن أكمل الصورة، أخذها صاحب المقهى ووضعها فى إطار جميل، وعلقها فى الجزء العلوى من المقهى، بالقرب من المكان الذى تعود نجيب محفوظ أن يجلس فيه، ولا تزال هذه الصورة الجميلة معلقة فى مكانها إلى الآن.

فى هذا المقهى أجريت أحاديثى التى سجلتها مع نجيب محفوظ والتى يضمها هذا الكتاب، وعندما انتهيت من هذه الأحاديث، وبدأت فى نقلها إلى الورق والعمل على ترتيبها وصياغتها بصورة مناسبة، سيطر على نفسى إحساس رهيب بالمسئولية، فكيف أتحمل أنا وحدى أمام الناس والتاريخ هذا العبء الكبير؟ كيف أنقل إلى الورق كل هذا الحشد من الأفكار والآراء الجريئة، بل والمثيرة أحيانًا والتى سمعتها من نجيب محفوظ وهو يجيب عن أسئلتى الكثيرة؟ أليس من الضرورى أن أقوم بشىء من التقديم والتعليق والتعقيب بالموافقة أو النقد على هذه الأحاديث الخصبة الصريحة؟ أليس من الضرورى أن أقدم توضيحًا لخلفيات هذه الأحاديث، وأن أعقد المقارنات بينها وبين روايات نجيب محفوظ وشخصياته الفنية المختلفة؟ لقد تزاحمت الأسئلة المطروحة أمامى عن الشكل الصحيح لهذا الكتاب، واضطربت فى ذهنى الأفكار حول الصورة النهائية التى ينبغى أن تظهر بها هذه الأحاديث، وأحسست فى وقت من الأوقات أننى أغرق وحدى فى بحر من الأفكار المتضاربة، وكنت كلما اهتديت إلى شكل يبدو لى مناسبًا أواصل العمل، ثم يفاجئنى فى منتصف الطريق إحساس بأننى بعيد عن الصواب فأمزق مئات الصفحات التى أعددتها وأبدأ من جديد.

كانت مسئولية تقديم أحاديث نجيب محفوظ كبيرة، وكان خوفى من الوقوع فى أى خطأ يعطلنى ويدفعنى إلى التراجع كلما خطوت خطوة إلى الأمام.

على أننى فى آخر الأمر عزمت على تقديم أحاديث نجيب محفوظ كما سمعتها منه، مع تلخيص أسئلتى فى مقدمة كل فصل من فصول الكتاب، بالإضافة إلى تلخيص آخر لمضمون كل فصل، أما التقديم لهذه الأحاديث والتعليق عليها والمقارنة بينها وبين أعماله الفنية، فلم أجد مفرًا من تأجيل هذا كله إلى كتاب جديد، وقد كان هذا القرار المتأخر هو الحل العملى الوحيد لإصدار هذه الأحاديث، حتى لا يصبح حجم الكتاب من الضخامة بحيث يصعب نشره، وحتى أتخلص، وهذا هو الأهم، من القلق الذى يعصف بى حول الصورة اللائقة التى يجب أن تظهر فيها هذه الأحاديث، وحتى أنقذ نفسى من حالة «الذهول» التى عطلتنى سنوات طويلة عن تقديم الأحاديث، وفاء منى لنجيب محفوظ الذى أعطانى من وقته وجهده كل ما طلبت، ووفاء منى «لمركز الأهرام للترجمة والنشر»، وهو صاحب فكرة الكتاب، ثم وفاءً منى للحياة الثقافية والأدبية كلها.

وهذا هو الكتاب أقدمه، بالطريقة البسيطة، التى غابت عنى فى البداية، ثم اقتنعت بها

واهتديت إليها بعد صراع طويل مع نفسى، وبعد أن أضعت وقتًا ثمينًا، حيث كان يمكن لهذا الكتاب أن يكون بين أيدى القراء منذ سنوات.

ولا أريد أن أطيل أكثر من ذلك فى هذه المقدمة، ولكن الاعتذار عن كل هذا التأخير فى إصدار هذه الأحاديث كان واجبًا لا مفر منه، ولعل هذا الاعتذار يكون مقبولاً عند كل الذين وجهوا اللوم والعتاب إلى شخصى المتواضع.

ولا بد من كلمة شكر صادقة ومخلصة أوجهها إلى كل الذين ساندونى وتحملونى فى فترة إعداد هذه الأحاديث، وعلى رأس الجميع الأستاذة العزيزة نوال المحلاوى التى صبرت معى صبرًا غير محدود، وكذلك الصديق الكريم الأستاذ كمال السيد نائب مدير عام مركز الأهرام للترجمة والنشر والمسئول عن النشر، والذى عاملنى فى فترة إعداد الكتاب بمنتهى الرفق والحنان والتشجيع.. أما الأصدقاء الذين ساعدونى مساعدة أساسية فى تفريغ شرائط الأحاديث وترتيبها ترتيبًا موضوعيًا، فهم الإخوة الأعزاء الأساتذة: فكرى النقاش وفؤاد المنصورى وأيمن الحكيم وعاصم النقاش. فلهم جميعًا خالص الشكر والتقدير، أما صديقى الصحفى الأديب الأستاذ محمد الشاذلى فقد بذل معى جهدًا لا أنساه، إذ قام بمراجعة الكتاب كلمة كلمة، وقدم لى ملاحظات ثمينة استفدت منها جميعًا، وتولى مساعدتى مساعدة أساسية فى إعداد فهرس الأعلام والأماكن، ولولا مساعدة هذا الصديق الكريم لتأخر صدور الكتاب فترة طويلة أخرى.

ولعل أهم ما خرجت به وأنا أقوم بإعداد هذا الكتاب هو أن الإحساس بالمسئولية هو إحساس ضرورى ونبيل، ولكننا عندما نترك هذا الإحساس يزيد على حده المعقول فإنه يملأ الإنسان بالهواجس والشكوك، ويؤدى إلى التعطيل والشلل، وقد تعلمت من هذه التجربة أن الإحساس بالمسئولية يجب أن يكون متوازنًا، وأن يكون مرتبطًا بالقدرة على وضع هذا الإحساس فى موضعه الصحيح، حتى لا يتحول الإحساس بالمسئولية إلى عجز وتردد ومخاوف كثيرة لا تؤدى إلا إلى الجمود.

رجاء النقاش

القاهرة ديسمبر ١٩٩٧

الفصل الأول

الطفولة والشباب

مولدى «فى بيت القاضى» ـ أمى: السيدة الأمية التى كانت مخزنًا للثقافة الشعبية، عشقها لسيدنا الحسين وزياراتها الدائمة للأديرة والمتاحف، كانت مغرمة بسماع أغانى سيد درويش ولم تدخل السينما إلا مرة واحدة، عاشت حتى سن المائة ولم تذهب يومًا لطبيب، أبى: كان «سميع» للأغانى ويحب المنيلاوى وصالح عبدالحى، ضربنى علقة واحدة بسبب الإنجليز، ورثت عنه حبه للوفد ولسعد باشا زغلول، الكتاب الوحيد الذى قرأه بعد القرآن هو «حديث عيسى بن هشام»، كان يتمنى أن أصبح وكيل نيابة أو طبيبًا ولكنى خيبت أمله، كان متفتحًا جدًا وليس فيه طباع «سى السيد»، توفى عام ١٩٣٧ قبل أن يقرأ روايتى الأولى «عبث الأقدار».

■ **الحديث فى هذا الفصل يدور حول فترة النشأة والطفولة والصبا فى حياة نجيب محفوظ. والأسئلة فيه منصبة على مكان ولادته فى حى سيدنا الحسين، وتأثره بالجو الذى كان محيطًا به.. ثم أسرته، وخاصة والدته التى تعلق بها، ووالده الذى ورث عنه حبه للوفد وزعيمه سعد زغلول.. وأبرز الخصائص التى ميزت تلك المرحلة، وذكرياته عنها، ثم أشقاؤه ـ الصبيان والبنات ـ ومصيرهم الآن..** ■

هنا ولدت

نجيب محفوظ: منذ مولدى فى حى سيدنا الحسين، وتحديدًا فى يوم الاثنين ١١ ديسمبر عام ١٩١١ ميلادية وهذا المكان يسكن فى وجدانى، عندما أسير فيه أشعر بنشوة غريبة جدًا، أشبه بنشوة العشاق، كنت أشعر دائمًا بالحنين إليه لدرجة الألم، والحقيقة أن ألم الحنين لم يهدأ إلا بالكتابة عن هذا الحى، حتى عندما اضطرتنا الظروف لتركه والانتقال إلى العباسية كانت متعتى الروحية الكبرى هى أن أذهب لزيارة الحسين.

وفى فترة الإجازة الصيفية أيام المدرسة والتلمذة كنت أقضى السهرة مع أصحابى فى الحسين، ونقلت عدوى الحب لهذا الحى إلى أصدقائى، فتحت أى ظرف لابد أن تكون السهرة فى الحسين، وحتى لو ذهبنا لسماع أم كلثوم وتأخرنا إلى منتصف الليل، لا نعود إلى منازلنا إلا بعد جلسة طويلة فى «الفيشاوى» نشرب الشاى والشيشة ونقضى وقتًا فى السمر والحديث.

كل إخوتى ولدوا فى بيت «بدرب القزازين» وأنا الوحيد بينهم الذى ولدت فى «بيت القاضى»، والمكانان فى الجمالية، وإذا لم تخنى الذاكرة فقد كان عنوان بيتنا هو رقم (٨) فى ميدان «بيت القاضى»، وكان مواجهًا لقسم الجمالية، وكانت أبواب البيت مفتوحة على الميدان، أما نوافذه الجانبية فتطل على «درب قرمز»، وكنا نتبع مشيخة «قرمز».

كان ميدان «بيت القاضى» يتميز بالهدوء والاتساع، وتكثر فيه أشجار كنا نسميها «دقن الباشا»، ونظرًا لاتساع الميدان وتفرع الحوارى الكثيرة منه فقد كانت تتجمع فيه المظاهرات. وأظن أن شكله الآن اختلف وأصبح مزدحمًا للغاية.

بعد ثورة ١٩١٩، وتحديدًا سنة ١٩٢٠، انتقلنا من حى الحسين إلى العباسية، وسكنا فى البيت رقم (٩) شارع «رضوان شكرى». والحقيقة أن انتقالنا إلى العباسية له سبب، وهو أن العائلات الكبيرة فى «درب قرمز» مثل: المهيلمى والسيسى والخربوطلى بدأت فى النزوح من المنطقة، عائلة وراء الأخرى. وبعد انتقال «الأعيان» فقدت الحارة بهجتها وروحها وانطفأت الأنوار وانتهت السهرات، وشعرنا ـ بعدهم ـ بوحشة شديدة.

كانت منطقة العباسية الغربية ـ التى انتقلنا إليها ـ عبارة عن بيوت نمطية صغيرة، كل بيت من دور واحد وفى خلفيته حديقة صغيرة. وبجانب تلك البيوت تمتد الحقول الخضراء حتى المنطقة التى يسمونها الآن بـ«حدائق القبة». وكان شارع أحمد سعيد المزدحم حاليًا خاليًا من أى نوع من العمران، وكله عبارة عن حدائق وأشجار، كنا نعيش كأننا فى الريف مع توافر الكهرباء والمياه والمجارى وكافة الخدمات.

كنا نملك بيتنا الجديد فى العباسية، ولكننا بعناه بعد وفاة والدى ـ رحمه الله ـ، وأظنه الآن تحول إلى عمارة، ورغم هذا الانتقال كنت ـ كما قلت ـ دائم التردد على حى سيدنا الحسين، ولم أكن وحدى المسكون بعشق هذا الحى، فقد ورثت ذلك عن أمى ـ رحمها الله ـ، كانت كل صباح تركب العربة التى تجرها الخيول والتى تسمى «السوارس» من العباسية وتذهب لزيارة الحسين وزيارة أقاربنا وجيراننا القدامى ثم تعود، ولم تنقطع عن تلك العادة اليومية طوال حياتها، وكان والدى ـ رحمه الله ـ يتردد يوميًا على حى الحسين بحكم عمله، حيث إنه بعد إحالته للمعاش التحق بعمل فى محل تجارى يملكه أحد أصدقائه، وكان هذا المحل فى «الصاغة» أو «الصالحية»، فكان كأنه لم يغادر الحسين.

أمى

كانت أمى سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك كنت أعتبرها مخزنًا للثقافة الشعبية، كانت ـ كما قلت ـ تعشق سيدنا الحسين وتزوره باستمرار، وفى الفترة التى عشناها فى «الجمالية» كانت تصحبنى معها فى زياراتها اليومية، وعندما انتقلنا إلى العباسية كانت تذهب بمفردها، فلقد كبرت أنا ولم أعد ذلك الطفل المطيع، ولم يعد من السهل أن تجرنى وراءها، وفى كل المرات التى رافقتها فيها إلى سيدنا الحسين كانت تطلب منى قراءة الفاتحة عندما ندخل المسجد وأن أقبّل الضريح، وكانت هذه الأشياء تبعث فى نفسى معانى الرهبة والخشوع.

والغريب أن والدتى كانت أيضًا دائمة التردد على «المتحف المصرى» وتحب قضاء أغلب الوقت فى حجرة «المومياوات»، ولا أعرف السبب، ولا أجد تفسيرًا لذلك، فحبها للحسين والآثار الإسلامية كان ينبغى أن يجعلها تنفر من تماثيل الفراعنة، ثم إنها كانت بنفس الحماس تذهب لزيارة الآثار القبطية، خاصة دير «مارجرجس» وتأخذ المسألة على أنها نوع من البركة، ومن كثرة ترددها على الدير نشأت صداقة بينها وبين الراهبات، وكن يحببنها جدًا. وذات مرة مرضت والدتى ولزمت البيت، وفوجئنا بوفد من الراهبات يزورها فى البيت، وفى ذلك اليوم حدث انقلاب فى «شارع رضوان شكرى»، لأن الناس لم يروا مثل هذا المنظر من قبل. وكنت عندما أسألها عن حبها «للحسين» و«مارجرجس» فى نفس الوقت تقول: «كلهم بركة».. وتعتبرهم «سلسلة واحدة». والحقيقة أنى تأثرت بهذا التسامح الجميل لأن الشعب المصرى لم يعرف التعصب، وهذه هى روح الإسلام الحقيقية.

وأحب أن أوضح أن حب والدتى لزيارة المتحف والآثار الفرعونية لم يكن من منطلق دينى أبدًا، لأنها كانت تعتبر هذه الآثار «مساخيط»، كما يسميها أهالى الجبل فى الأقصر وسوهاج وأسوان، والحقيقة أن أول زيارة لى للمتحف المصرى كانت مع والدى ـ رحمه الله ـ ويومها زرنا الهرم ثم ذهبنا إلى «المتحف الفرعونى» ثم إلى «المتحف الإسلامى» بباب الخلق، بعد ذلك كانت كل الزيارات مع والدتى، كانت تصحبنى لأننى كنت أصغر أولادها أو ولدها الوحيد فى البيت بعد أن تزوج إخوتى، كما أن أخى الأكبر منى مباشرة كان طالبًا فى الكلية الحربية، وعندما تخرّج وأصبح ضابطًا ذهب إلى السودان، وكانت زياراته للبيت نادرة جدًا، وكنت أعتبره مثل الطيف الذى يأتى فجأة ويختفى، استمر أخى فى السودان حتى عام ١٩٢٤ عندما اغتيل السردار «سير لى ستاك» وأصدر الملك فؤاد أمرًا ملكيًا بعودة الجيش المصرى من السودان. خدم أخى فى الجيش حتى وصل إلى رتبة «لواء»، ومات فى عام ١٩٧٥، وأذكر هذا التاريخ لسبب، وهو أننى مشيت معه فى جنازة «محمد» ابن أختى الذى استشهد فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد أن اعتبروه من المفقودين. وأذكر أن ابن أختى هذا كان له ابن اسمه «طارق» استشهد معه فى الحرب، والاثنان كانا ضابطين فى حرب أكتوبر.

نعود إلى والدتى وأقول إننى لا أجد تفسيرًا حتى الآن لغرامها بالآثار القديمة، ففى أسرتنا الآن سيدات تعلمن فى مدارس أجنبية ويجدن اللغات الأجنبية والعزف على الآلات الموسيقية، ومع ذلك ليس لديهن ثقافة أمى أو غرامها بالآثار، إننى أجد فى أمى عراقة وأصالة أكثر من سيدات هذا الجيل، وإلى جانب عشقها للآثار كانت مغرمة بسماع الأغانى،

خاصة أغانى سيد درويش، على الرغم من أن والدها الشيخ إبراهيم مصطفى كان شيخًا أزهريًا وله كتاب فى النحو طبع فى المطبعة الأهلية.

والحقيقة أن علاقتى بوالدتى ـ واسمها فاطمة ـ كانت أوثق من علاقتى بوالدى لأسباب كثيرة، منها أن والدى كان مشغولاً، ودائمًا كان خارج البيت فى عمله، فى حين أننى كنت ملازمًا لأمى باستمرار، وفى حين أن والدى مات عام ١٩٣٧ عاشت أمى بعده سنوات طويلة، إلى أن تجاوز عمرها المائة عام، وتوفيت إلى رحمة الله عام ١٩٦٨، وفى نفس السنة التى حصلت فيها على جائزة الدولة التقديرية، ولقد ظللت أعيش معها فى منزلنا بالعباسية حتى تزوجت عام ١٩٥٤ وجاءت شقيقة لى مات زوجها لتعيش مع أمى.

كانت والدتى تتمتع بصحة جيدة طوال عمرها، ولا أتذكر أنها ذهبت إلى طبيب فى يوم ما، أو اشتكت من مرض ما، باستثناء العام الأخير من حياتها، حيث رقدت فى سريرها وهى عاجزة عن الحركة تمامًا، لقد ظلت أمى حتى حدود التسعين من عمرها تزور الحسين بشكل يومى، كما لم تنقطع عن زيارة أقاربنا، وكانت تحظى بمكانة وحضور كبيرين بينهم، ورغم أنها عاصرت ظهور التليفزيون فإنه لم يدخل بيتها، بل لم تدخل السينما إلا مرة واحدة، لمشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» بعد أن وصل إلى مسامعها أن من يشاهد هذا الفيلم يكون بمثابة من ذهب لأداء فريضة الحج، وبما أنها لم تتمكن من الحج ذهبت لمشاهدة الفيلم.

وعندما ماتت والدتى تبعثرت بين أيدى أفراد العائلة أوراق كثيرة وأشياء شخصية، ومن بينها صور خاصة بى، ولا أعرف ما هو مصير هذه الصور والأوراق وأين استقر بها المطاف.

كان لى شقيقان وأربع من الأخوات، ومع ذلك نشأت كأننى وحيد أبويه، فكل إخوتى تركوا المنزل بعد أن تزوجوا، سواء منهم الرجال أو النساء وبقيت وحدى. كنت أصغر الأبناء ـ كما قلت ـ ويبلغ فارق السن بينى وبين الأخ الذى يكبرنى مباشرة حوالى ١٠ سنوات، ولم يكن مقيمًا معنا فى المنزل، فهو ـ كما أشرت ـ التحق بالكلية الحربية، وبعد تخرجه أرسلوه إلى السودان وأمضى فيها عدة سنوات، وعندما عاد إلى مصر تزوج وترك البيت. وكان كل إخوتى يقيمون فى أماكن متفرقة وبعيدة، ونظرًا لهذه الظروف كانت والدتى تحيطنى برعاية كبيرة، وتصحبنى معها فى كل مكان تذهب إليه، سواء فى زياراتها للحسين والمتحف والأديرة، أو زياراتها لإخوتى المتزوجين، وكانت زيارتى إلى بيوت إخوتى لطيفة جدًا، وأحيانًا كانت أمى تتركنى أقيم بضعة أيام عند أخت لى متزوجة فى حى الحسين.

كانت المنطقة التى عشنا فيها فى الجمالية أشبه بـ«بيت جحا»، شوارعها معقدة وضيقة، ولذلك كانت والدتى تحرص على بقائى فى البيت خشية أن تفقدنى، فقد كان مألوفًا فى ذلك الوقت أن تسمع صوت المنادى يبحث عن طفل تائه، ونظرًا لأن والدتى كانت من هواة تربية الطيور فقد تحول سطح البيت إلى عالم للحيوان، وكنت أفرح بهذه الطيور وأمضى أمتع الأوقات على السطح مع الكتاكيت والأرانب والدجاج، وأحيانًا كانت أمى تسمح لى باللعب أمام البيت مع أولاد الجيران، ولما زادت «شقاوتى» بعض الشىء اصطنع والدى معى الحزم، وبعد أن دللنى حتى سن معينة، بدأ فى سياسة الشدة، وأخيرًا تخلص منى بأن أرسلنى إلى «الكُتاب»، صحيح أننى كنت صغير السن ولا أفهم شيئًا، ولكن أهل البيت ارتاحوا منى، وعلى ذلك أستطيع القول بأننى عشت طفولة سعيدة لولا بعض المنغصات مثل «الكُتّاب» والحزم وسياسة الشدة.

وبالنسبة لشقيقاتى كان والدى يرسلهن إلى المدرسة، حتى إذا ما ظهرت على الواحدة منهن علامات الأنوثة يمنعها عن المدرسة، ويحدد إقامتها فى البيت، وتكون حينئذ ملمة وبشىء من الصعوبة بالقراءة والكتابة، بل إن منهن واحدة نسيت القراءة والكتابة تمامًا بعد الزواج، أستثنى من ذلك شقيقة واحدة تمكنت من تنمية قدراتها حتى أصبحت تقرأ الجرائد والمجلات بسهولة، وحاليًا لم يبق أحد من إخوتى، ماتوا جميعًا، وآخرهم كانت أختى «أمينة» التى توفيت فى الثمانينيات، ومن اسمها أخذت اسم «أمينة» بطلة «بين القصرين».

أبى

والدى اسمه عبدالعزيز إبراهيم أحمد الباشا.. من مواليد عام ١٨٧٠ وتوفى عام ١٩٣٧، وجدتى لأبى من عائلة «عفيفى»، وهى من العائلات الإقطاعية بالفيوم، أما جدى فمن رشيد أصلاً ثم هاجر بعد ذلك إلى الإسكندرية، وعندما ذهبت ذات مرة إلى رشيد سألت عن عائلة «الباشا» ووجدت أن لها بقايا ما زالت موجودة فى منطقة «البرج». ولا أستطيع أن أدلى بشىء له قيمة عن حياة أبى وشخصيته عندما كان موظفًا فى الحكومة، لأننى كنت حينئذ طفلاً رضيعًا، ولكن عندما أحيل إلى المعاش كنت قد كبرت وبدأت أفهم.



عبد العزيز إبراهيم الباشا والد نجيب محفوظ

من أبرز سمات أبى الشخصية أنه كان يرتدى نوعين من الأزياء، نوعًا للشتاء وآخر للصيف، ففى الشتاء يرتدى «البدلة» وفوقها «البالطو»، وفى الصيف يرتدى «الجبة والقفطان». أما الطربوش فعامل مشترك يرتديه شتاء وصيفًا، وكان ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة لما هو شائع فى تلك الأيام، فالذى يرتدى الملابس الأفرنجية لا يرتدى الملابس الأزهرية، والعكس صحيح. كما كان والدى ـ رحمه الله ـ شديد الالتزام والتنظيم، حيث يعود إلى البيت كل يوم بعد انتهاء العمل ويظل جالسًا فى البيت، ويمضى وقته بين الصلاة وقراءة القرآن والجلوس فى صمت، وكانت له قدرة غريبة على الجلوس فى حالة صمت تام لساعات طويلة، وبعد أن يتناول طعام العشاء ينام. ولم يكن أبى من هواة القراءة، والكتاب الوحيد الذى قرأه بعد القرآن الكريم هو «حديث عيسى بن هشام»، لأن مؤلفه محمد المويلحى كان صديقًا له ويسكن فى نفس المنطقة.

عندما أحيل أبى إلى المعاش عمل فى «فابريكة» أو «مصنع» للنحاس، وكانت إجازته الأسبوعية يوم الأحد، فيقضى مساء السبت فى «الكلوب الحسينى» أيام كنا نعيش فى

الجمالية، وفى «قهوة الجندى» عندما انتقلنا إلى العباسية، ويقع هذا المقهى فى المكان الذى أقيم فوقه «كازينو بديعة» فيما بعد، وهو أمام دار الأوبرا القديمة، وفى أغلب سهراته كان أبى يصطحبنى معه ويشترى لى «جيلاتى» ويجلس هو مع أصدقائه، ويقضون وقتهم فى الضحك والنكات ثم نعود سويًا مستقلين الترام.

كان والدى يعاملنى بحنان ولطف ولم يضربنى فى حياته إلا مرة واحدة، ولهذه «العلقة» قصة، كانت عساكر الإنجليز تحتل ميدان «بيت القاضى» حيث نسكن، وكانت تعليمات أبى تمنع فتح النوافذ المطلة على الميدان مطلقًا، لأن الإنجليز كانوا يعتبرون النوافذ المفتوحة بمثابة تهديد لهم، فقد يكون هناك من يحاول إطلاق الرصاص عليهم من النافذة المفتوحة، وذات يوم انتهزت فرصة انشغال أمى فى المطبخ وفتحت النافذة، وجلست أشاهد العساكر الإنجليز وأقلد حركاتهم وأصواتهم عند تغيير الطابور العسكرى، وفجأة وجدت أبى واقفًا فوق رأسى وهو ينظر لى بغضب شديد، ثم أحضر عصاه وهوى بها علىّ وجاءت أمى تساعده، وطرحانى أرضًا، وأمسكت أمى بساقى ورفعتهما إلى أعلى، ليتمكن أبى من ضربى بالعصا على باطن قدمى، وتركانى وأنا أعرج، وكانت المرة الأولى والأخيرة التى يضربنى فيها والدى ـ رحمه الله.

أما أمى فلم تضربنى ـ أيضًا ـ إلا مرة واحدة، فذات يوم كنت ألعب مع خادمتنا الصغيرة «زكية»، وأحضرت شفرة حلاقة وأقنعتها ـ ببراءة الأطفال ـ أننى طبيب وأستطيع أن أجرى لها عملية جراحية فى يدها، وصدقتنى، وأعطتنى ذراعها، فجرحتها، ولما رأت «زكية» منظر الدم صرخت، وجاءت أمى فزعة، وصفعتنى على وجهى وتوعدتنى بقطع يدى بالشفرة، وعند سماعى لهذا التهديد شعرت بالرعب وهربت منها.

اهتم والدى بتعليمنا، وبالنسبة للبنات أتاح لهن قدرًا من التعليم يعتبر معقولاً فى ذلك العصر، وهو أوائل القرن العشرين، أما بالنسبة للأولاد فقد اهتم بتعليمهم حتى النهاية. وكانت غاية أمله أن نلتحق بسلك القضاء أو الطب، ولذلك غضب عندما التحق شقيقى محمد بالكلية الحربية، واضطر أخى للاستعانة بأحد أقاربنا واسمه «عفيفى» لكى يذهب معه إلى الكلية ويضمنه بعد أن رفض أبى مجرد الذهاب معه إلى الكلية. أما شقيقى الثانى «إبراهيم» فقد تخرج فى مدرسة المعلمين العليا، وعمل مدرسًا للرياضيات والعلوم، وعندما أصبح «ناظر مدرسة» نقل إلى ديوان المحاسبة، وأحيل إلى المعاش وهو بدرجة «مراقب حسابات»، وتوفى إلى رحمة الله فى العام الذى قتل فيه الرئيس الراحل أنور السادات، أى فى سنة ١٩٨١.

أما بالنسبة لى فلقد تغيرت حالى منذ المرحلة الابتدائية، وأحببت الدراسة، وشعرت بالمسئولية، وكنت دائمًا من الأوائل وأحصل على نتائج طيبة جدًا، هذا التفوق كان مصدر سعادة لوالدى الذى بدأ يدللنى ويزيد فى مصروفى وفى الهدايا التى يقدمها لى، حتى ظن كثيرون من أصحابى أنى من أسرة ثرية. وطوال دراستى الابتدائية والثانوية كانت علاقتى بوالدى طيبة للغاية، ولم أسمع منه أى عبارة لحثى على الدراسة أو أى إنذار أو عقاب فى حالة إهمالى لدروسى، لم يقل لى شيئًا من هذا القبيل، لأنه كان يلاحظ اهتمامى بالتعليم وحرصى على التحصيل. وعندما وصلت إلى الشهادة العليا فى آخر المرحلة الثانوية، وكان اسمها «البكالوريا» على أيامنا، كان أمل والدى أن ألتحق بكلية الحقوق أو الطب، لأكون إما وكيل نيابة أو طبيبًا؛ فهاتان الوظيفتان فى رأيه هما أحسن وظيفتين فى مصر. ولذلك أصيب بصدمة عندما أخبرته أننى أنوى الالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب، وقال لى: «يا بنى التحق بكلية الحقوق تصبح مثل ابن عمك وكيلاً للنيابة، تمشى ووراءك عسكرى». ودارت بيننا مناقشات كثيرة حول هذا الأمر، وكانت المناقشة الديمقراطية بين الآباء والأبناء فى ذلك الوقت أمرًا غريبًا، لأنه فى إمكان الأب حسم أى مشكلة بكلمة واحدة وتنتهى فورًا، ولكن يبدو أن كثرة عدد أولاده «٤ بنات وثلاثة أولاد»، علمت أبى المرونة.

والحقيقة أن التحاقى بكلية الآداب كان شيئًا غريبًا بالنسبة لكل المحيطين بى؛ لأننى كنت متفوقًا فى الرياضة والعلوم، حتى أننى عندما اخترت القسم الأدبى فى «البكالوريا» احتج المدرسون وقالوا لى: «ما الذى فعلته بنفسك؟» وكأننى ارتكبت جريمة، كانت وجهة نظرهم أننى متفوق فى المواد العلمية، بل كانوا يراهنون علىَّ طوال دراستى، وكان عندهم حق لأننى كنت أنجح بصعوبة فى المواد الأدبية، خاصة الجغرافيا والتاريخ واللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأحصل بمشقة على «الميديوكر» أو الدرجة المتوسطة، والمادة الأدبية الوحيدة التى تفوقت فيها هى اللغة العربية، ورغم تلك الاحتجاجات دخلت القسم الأدبى، ونجحت فى البكالوريا عام ١٩٣٠، وكان عدد طلبة البكالوريا فى تلك السنة حوالى ٢٠ ألفًا، حصلت على مجموع ٦٠٪ وجاء ترتيبى العشرين على المدرسة، وبهذا المجموع كان فى إمكانى الالتحاق بكلية الحقوق مجانًا، ولكننى فضلت كلية الآداب قسم الفلسفة.

حصلت من والدى على مكافأة النجاح فى «البكالوريا» وكانت عشرة جنيهات، لأقضى إجازة الصيف فى الإسكندرية، وأصيب عمى بالذهول لضخامة المكافأة، وعاتب والدى

بشدة، وكان عمى يعمل موظفًا فى مصلحة التلغراف بمنطقة القناة، ثم انتقل إلى القاهرة وتخرج أولاده الثلاثة فى الجامعة، وكان أحدهم مستشارًا والثانى مهندسًا، أما الثالث فكان طبيبًا.

بعد التحاقى بالجامعة تحولت العلاقة بينى وبين والدى إلى ما يشبه الصداقة، وعندما اشترى جهاز «راديو» كنا نجلس لنستمع إليه سويًا، وأحيانًا كان يطلب منى دعوة أصدقائى ويصطحبنا إلى «نادى الموسيقى» فى عابدين، حيث كنا نستمع إلى المطربين القدامى: عبداللطيف البنا، والشيخ إدريس وغيرهما، وبعد أن تنتهى السهرة نعود مع أبى مستقلين «الحنطور»، ولم تكن هناك مناقشات سياسية بيننا، فوالدى وفدى وأنا كذلك، فلم يكن هناك مجال للجدل أو الاختلاف، ومن المحتمل أن يكون حبى للوفد نابعًا من تأثير والدى وتأثير أستاذى الشيخ عجاج الذى سوف أحدثك عنه فيما بعد، وعندما مات سعد زغلول كنت فى الخامسة عشرة من عمرى، إلا أننى أعتبره أفجع يوم فى حياتى. وكان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت قيام المظاهرات المؤيدة للوفد ولسعد باشا، وأول مرة أشاهد فيها مظاهرة كان عمرى ثمانى سنوات، وحسبتها فى البداية «زفة فتوات» مثلما كان يحدث فى الحسينية، وعندما رأيت المتظاهرين فى ميدان «بيت القاضى» سألت أمى عن اسم الفتوة صاحب المظاهرة!!

كان والدى «سميع» أغانٍ حتى قبل ظهور الراديو، وإذا عرف أن «المنيلاوى» أو «صالح عبدالحى» أو «عبد الحى حلمى» أو غيرهم من كبار المطربين فى ذلك الوقت سوف يغنى أحدهم فى حفل زواج بالمنطقة، فلابد أن يذهب لسماعه، وكانت الأفراح تقام أيامها فى سرادقات مفتوحة للجميع، ويمكن لأى شخص أن يدخل، والفرق الوحيد بينه وبين المدعو أن أصحاب الحفل يأخذون المدعو فى نهاية الحفل لتناول العشاء بينما ينصرف الباقون، هذا هو الفرق الوحيد، وأحيانًا كان هناك من يذهب إلى سرادقات العزاء دون أن يعرف اسم المتوفى، إذا علموا أن المقرئ فى المأتم واحد من الكبار مثل الشيخ «على محمود» أو «الشيخ السيسى».

وبصراحة كانت شخصية والدى تتحلى بقدر كبير من التسامح والمرونة والديمقراطية، وليس فيها استبداد أو عنف، ولا علاقة لها بشخصية «السيد أحمد عبدالجواد» بطل «الثلاثية». بل كانت شخصية «سى السيد» تنطبق أكثر على جار لنا شامى الأصل اسمه «عم بشير»، استقر هو وزوجته ـ وهى شامية أيضًا ـ فى مصر، وكان بيته مواجهًا لبيتنا فى «بيت

القاضى». هذا الرجل ـ عم بشير ـ رغم طيبته كان جبارًا، وكان يعامل زوجته بقسوة، لدرجة أنها كانت تأتى إلى والدتى باستمرار تبثها الشكوى من سوء معاملة الزوج، وفى ليالى القمر كانت تجلس مع أمى فوق السطح وتطلب منى الغناء فألاحظ الدموع على خديها.

وشخصية الزوج الحازم القاسى كانت من الأمور المألوفة فى ذلك العصر، ولكن لم تكن تنطبق على أزواج شقيقاتى: نعيمة ورتيبة، وكان زوج أمينة عصبيًا بعض الشىء ولكن بدون قسوة، والوحيد الذى كان فيه بعض ملامح «سى السيد» هو زوج شقيقتى «زينب». فقد كان صعيديًا من أصل كردى، كان فظيعًا، ومع ذلك كانت عندما يفيض بها الكيل تقف فى وجهه بشراسة، أما والدى فربما أخذت منه فى شخصية «السيد أحمد عبدالجواد» حبه للفن فقط.

على المستوى الشخصى كان والدى ـ رحمه الله ـ رجلاً مستقيمًا، وصحيح أننى لا أعرف شيئًا عن فترة شبابه ولكن كان من الواضح أنه ملتزم، ولم يتزوج غير والدتى، ولم تكن له علاقات نسائية، لأن مثل هذه العلاقات تنكشف، على عكس عمى «سعيد» الذى كان معروفًا بكثرة غرامياته وعلاقاته، وكانت زوجته تتشاجر معه لهذا السبب وتشكوه باستمرار لوالدى الذى هو بمثابة أبيه نظرًا لفارق السن بينهما. كنت أسمع والدى وهو يعاتب عمى «سعيد» لأن ما يفعله عيب، خاصة وبناته اقتربن من سن الزواج، وسوء سيرة والدهن قد يؤثر على فرصهن فى الزواج. والحقيقة أنى كنت أحب عمى «سعيد» لأنه كان شخصية لطيفة، والمغرمون بالنساء دائمًا تجدهم يتميزون باللطف وحسن الحديث والقدرة على الغزل، كما أنه كان شخصية متفتحة ومحبًا للحياة، وكان وجيهًا وسيمًا، وعندما يرتدى البدلة البيضاء ويضع وردة حمراء فى «السترة» يلفت انتباه حى العباسية كله.

أما العلاقة بين والدى ووالدتى فقد كانت مثالاً للاحترام والحب، فلم أرهما مرة فى حالة شجار. صحيح أن أمى كانت عصبية إلى حد ما، وأحيانًا يعلو صوتها، إلا أنها كانت تحترم أبى، وكان لابد أن تقف وهو خارج من البيت أو داخل إليه، ولابد أن تساعده فى ارتداء ملابسه، وتعتنى بطعامه وشرابه ومظهره، وكان حزنها عليه عندما مات شيئًا لا يتصوره عقل. ولقد حزنت أنا على أبى وتلقيت نبأ وفاته بصدمة شديدة، فالأب فى المجتمع الشرقى هو الركن الأساسى للأسرة، وعندما يرزقك الله بأب ملتزم لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار فهذه نعمة كبيرة.

مات والدى عام ١٩٣٧ ولم يطَّلع على أولى رواياتى «عبث الأقدار»، لقد قرأ لى بعض قصصى الأولى المنشورة فى الصحف، وكان يشعر بسعادة غامرة عندما يقرأ اسمى على هذه القصص، ومع ذلك لم تكن اهتماماتى الأدبية تعنيه كثيرًا، وعندما تخرجت سنة ١٩٣٤ فى الجامعة ساعدنى فى الحصول على وظيفة، تحدث إلى أقارب له من عائلة «شوشة»، وأذكر أنهم «توفيق شوشة باشا» فى وزارة الصحة، وهو الذى توسط لى عند «صادق باشا جوهر» سكرتير عام الجامعة وكانا زميلين فى البعثة، و«صادق جوهر» كان شخصية معروفة فى تلك الأيام، وكانت له مؤلفات دراسية للتلاميذ، كما كان مكروهًا من الرأى العام باعتباره من أتباع الملك، ولأنه لهذا السبب صعد فى السلم الوظيفى حتى درجة «وكيل وزارة المعارف»، وهو منصب خطير فى ذلك الحين، ثم أصبح «صادق جوهر» من أسباب فصل الدكتور طه حسين من الجامعة، وكان أن توسط «شوشة باشا» لدى «صادق جوهر» لتوظيفى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان لى ابنة عمة متزوجة من رجل يعمل مع «أحمد لطفى السيد باشا» فتوسطت هى الأخرى، وأخيرًا حصلت على الوظيفة.

كنت سعيدًا للغاية براتبى إلى أن طلب منى والدى إعطاء والدتى جزءًا من هذا المرتب، وقال لى: «أنا لن أعيش إلى الأبد وأحب أن أطمئن على والدتك، ولذا يجب أن تساهم فى مصروف البيت». ويبدو أن والدى كان يشعر بدنو الأجل، فمنذ حصلت على الوظيفة بدأ أبى يشكو من متاعب فى القلب، كما كان مريضًا بضغط الدم مما أثر على قلبه. وفى يوم وفاته أصيب بنزيف فى المخ قرب الظهر، وأسلم الروح فى منتصف الليل، ولا تتصور حزنى عليه، خاصة أنها كانت أول تجربة لى مع الموت، وكان مصابى فى إنسان عزيز جدًا على نفسى.

مشاهدات من الطفولة

بيتنا فى الحسينية كان له سحر خاص وقد ترك تأثيرًا عميقًا فى نفسى، هذا على الرغم من أنه كان بيتًا قديمًا وخاليًا من وسائل الحياة الحديثة، لم تكن هناك كهرباء، بل مصابيح معلقة فى السقف ننزلها ثم تضاء، ويتم رفعها إلى السقف من جديد، ولا أدرى كيف كانت هذه العملية تتم، وكنا نستخدم «لمبات الجاز»، ولكننى لم أستذكر دروسى على «لمبات الجاز» هذه، لأننى لم أكن قد دخلت المدرسة بعد، وكنا فى تلك الأيام ندخل المدرسة فى سن كبيرة نسبيًا بالقياس إلى ما هو معروف الآن، وقد دخلت المدرسة الابتدائية عندما انتقلنا

إلى العباسية. وكان عمرى تقريبًا تسع سنوات، وكانت أول مدرسة ألتحق بها هى مدرسة «خليل أغا»، وظللت بها عدة شهور ثم تركتها.

وفى البيت القديم كان عندنا خزان مياه كبير فوق السطح، وكان نظام السقا ما زال موجودًا، وكان بالحمام سخان لكنه لا يعمل بالكهرباء، وإنما يتم التسخين يدويًا فى حجرة مجاورة للحمام مخصصة للتسخين، وأذكر أن والدتى كانت تقوم بعملية غريبة، حيث تضع الزهر وماء الورد فى مكان معين وتقوم بالتسخين فيتحول إلى بخار ثم تجرى له عملية تنقيط فى زجاجات، ونظل نشرب منه طوال السنة، وأحيانًا كانت تخلط جزءًا منه بماء الاستحمام لتكسبه رائحة طيبة، وهذه العملية كانت تتم مرة واحدة فى السنة. أما مصدر المياه فكان «حنفية عمومية» فى ميدان بيت القاضى، وهى موجودة حتى الآن، ولا أعرف إذا كانت تعمل أم تعطلت، وكان لهذه «الحنفية» مدير اسمه «نجيب حنفى» من «النصارى الشوام» الذين استقروا فى مصر، كان الرجل يجلس بجانب «الحنفية» لكى يفتحها لمن يريد الماء، وذات مرة تشاجر مع بعض نساء الحى، ويبدو أنه شهد ضدهن شهادة زور، فأخذن يغنين ضده أغنية على وزن أغنية أخرى كانت شائعة أيامها تقول كلماتها:



نجيب محفوظ فى مقهى الفيشاوى بالحسين يطالع كتبا يحملها بائع كتب متجول

عــجــايــب والــلـــه عــجــايــب

مـــا يــصــحــش يـــا مـنـصـفـيـن

تــهــجــرنــى وتــعــشــق غــيــرى

وعـــوازلـــى مـهـنـيـيـن..

فحرَّفت النساء هذه الأغنية وقلن:

عــمــلــوا لــنــا الــنــاس قـضـيـة

قـــدام قـــســـم الــجــمــالــيــة

وشـــهـــد بـــتـــاع الــحــنــفــيــة

أشـــكـــى الـــشـــمـــاع لـــمـــين؟..

و«الشماع» تعنى المسئول عن فتح «الحنفية» وإدارتها، وكانت النساء يتعمدن ترديد هذه الأغنية أمامه، وكان «نجيب حنفى» يعرفنى ويعرف أن صوتى جميل فعندما يرانى أقف فى نافذة البيت المطلة على الميدان ينادينى طالبًا منى أن أغنى، وكنت أغنى له من النافذة.

عندما انتقلنا إلى العباسية كان بيتنا على النظام الحديث، ولم تكن به مشربية مثل البيت القديم، وكان كل شىء فيه جديدًا، كما أن به مياها وكهرباء، وكانت له حديقة خلفية جميلة، والمنطقة الموجود بها واسعة ومليئة بالخضرة. وكثيرًا ما كنت أخرج للنزهة فى العباسية الشرقية، وأشاهد «السرايات» الجميلة المنتشرة بها، ورغم أننى اعتدت على وسائل المدنية الحديثة إلا أن البيت القديم كان له سحره الخاص ومازالت له صورة فى قلبى.

أنا لا أنسى أبدًا مظاهر الاحتفال بشهر رمضان وأيام العيد فى «بيت القاضى»، كنت أشعر «بالتجلى» فى أقصى درجاته، ولا يزال هذا التجلى موجودًا حتى الآن فى الحارات الشعبية القديمة وإن لم يكن بنفس المستوى، وإذا قلنا إن الاحتفال بشهر رمضان تراجع درجتين مثلاً، فإن هاتين الدرجتين تظهران فى منطقة مثل الزمالك مثلاً وكأنهما عشرون درجة أما فى حى مثل الحسين فإن الاحتفال بالشهر الكريم لم يختلف كثيرًا عن الأيام الخوالى.

فى نهار رمضان كنت تجد كل شىء هادئًا، المقاهى والمحلات مغلقة احترامًا للصائمين، ثم يختلف الأمر فى الليل: السهر حتى الفجر، والأطفال فى الشارع بالفوانيس، والأنوار والإضاءة فى كل مكان، وكأن هناك مهرجانًا لا ينقطع طوال الليل، أما فى العيد فكانت فرحة الناس ـ وخصوصًا الأطفال ـ لا تقدر، لأننا كنا ننتظره من العام للعام.

وبالنسبة لمظاهر التسلية فى الجمالية فإنها كانت متعددة، فى بيتنا يوجد «فونوغراف» لسماع الأغانى، ولم يخل بيتنا أبدًا من «الفونوغراف» حتى دخل «الراديو». كانت أغلب الأسطوانات لأغانى سيد درويش، لأن والدتى كانت من عشاق صوته وألحانه، كان هناك أيضًا الشاعر الشعبى الذى يغنى على الربابة فى مقهى فى «خان جعفر» ما بين ميدان «بيت القاضى» و«الحسين» ويصطف الجمهور على الكراسى كأنهم فى دار سينما يستمعون للشاعر، وإذا حكى قصة «أبوزيد الهلالى» ينقسم الجمهور إلى فريقين، الأول: يؤيد «أبوزيد»، والثانى يؤيد «دياب»، مثل جماهير كرة القدم الآن والذين ينقسمون بين نادي «الأهلى» و«الزمالك»، وكان شاعر الربابة يجد نفسه فى موقف حرج لا يعرف أى الفريقين يرضى، وكانت مشاجرات تقع بين أنصار الفريقين.



نجيب محفوظ يشترى فطائر فى شارع المشهد الحسينى بالحى الذى دارت فيه العديد من أحداث رواياته

وكنت أحيانًا أذهب للاستماع إلى شاعر الربابة وأقف على باب المقهى أستمع إلى حكايات لا أدرك معناها بسبب صغر سنى فى ذلك الوقت، لكننى تأثرت بها، وظهر هذا التأثر فى بعض أعمالى التى تناولت الحارة الشعبية مثل «زقاق المدق».

وكانت هذه الظاهرة ـ شاعر الربابة ـ منتشرة قبل ظهور «الراديو» الذى ما إن ظهر حتى كان من الأسباب القوية فى اختفاء شاعر الربابة، والحقيقة أن الحكايات المسلسلة التى نسمعها فى الإذاعة أو نشاهدها فى التليفزيون هى صورة حديثة من شاعر الربابة الذى كان يلتف حوله فى مقاهى الأحياء الشعبية.

وكانت المسارح مزدهرة فى ذلك الوقت، وذهبت مع والدى مرتين، الأولى: لمشاهدة مسرحية لنجيب الريحانى، والثانية: لمشاهدة رواية «البربرى حول العالم» بطولة بربرى مصر الوحيد «على الكسار». وكان «الكسار» مشهورًا بأنه يدخل فى حوارات ساخرة دائمًا مع المتفرجين، وفى الليلة التى ذهبنا فيها لمشاهدته دخل فى حوار ساخر أو «قافية» مع زوج «عقيلة راتب» الأول، وهو ممثل ومطرب اسمه «حامد مرسى»، وهو من تلاميذ الشيخ سيد درويش. وكان «حامد مرسى» مطربًا مشهورًا أيامها وله شكل مميز فى الأداء، ومعروفًا بأنه «زير نساء»، وأظنه مات منذ فترة، ليلتها قال «حامد مرسى» لـ«على الكسار»: «لف بنا حول الأرض». أحد المتفرجين فى الصالة «ظرط» له بفمه، فرد «على الكسار» بسخرية: «يظهر إننا رجعنا لمصر تانى.. حتى اسمع».. وأشار بيده حيث يجلس المتفرج الذى أخرج من فمه هذا الصوت.

والحقيقة أن «على الكسار» كان سريع البديهة وكان ممتعًا، ولكننى أحببت «نجيب الريحانى» أكثر، لأن الريحانى لديه موهبة إلهية، وهو فنان كوميدى ليس له نظير، عمل «الريحانى» فى البداية فى الروايات القديمة وتعرض لأزمة مالية وأشهر إفلاسه، ولكنه عاد مرة أخرى بلون جديد هو النقد الاجتماعى الذى استمر فيه حتى مات، رحم الله الريحانى الذى كان فنانًا كوميديًا رهيبًا، ولهذا ذهلت عندما قرأت دراسة ليحيى حقى يفضل فيها الكسار على الريحانى على أساس أصالة الكسار وبساطته وأنه أقرب للشخصية المصرية المسحوقة، فى حين أن الريحانى ـ فى رأى يحيى حقى ـ طبعة غربية. صحيح أن «الكسار» كان صادقًا فى بساطته، ولكن لم يكن له تعبيرات «وجهية» ـ إذا صح التعبير ـ وكان يضحك الجمهور من خلال حركاته وطريقة كلامه، إنما «الريحانى» كان يضحك الجمهور بنظراته وتعبيرات وجهه، وأحب هنا أن أشير لملاحظة هامة وهى أن تلاميذ الريحانى جمعوا بين النجاح فى المسرح والسينما أكثر من الريحانى نفسه، لأن المسرح هو بيت الريحانى ونجاحه فيه كان ساحقًا، أما فى السينما فقد نجح بنسبة ٦٠٪ فقط.

وكما قلت شاهدت الريحانى مرة واحدة على المسرح وأنا طفل، ولكن عندما كبرت

أصبحت من عشاقه، وكنت أذهب لمشاهدة مسرحياته باستمرار فى فترة الثلاثينيات والأربعينيات عندما بدأ يعيد أعماله القديمة مثل: «كشكش بيه» و«ألف ليلة وليلة». وفى تلك المرحلة كانت مسرحياته من البيئة المحلية مثل «عمدة كفر البلاص» الذى باع القطن وجاء ليسهر فى ملاهى القاهرة فيتعرض لعملية نصب، وهى أعمال غير مقتبسة، ولكن فى المرحلة التالية من حياته، عندما بدأ يجدد نفسه، اعتمد على التمصير والاقتباس، وساعده فى ذلك بديع خيرى. ولقد صافحت «بديع خيرى» ذات مرة عندما كنت أعمل فى مصلحة الفنون، فى تلك المرحلة حضرت كل أعمال الريحانى، وأتذكر مسرحية «حكم قراقوش» التى شاهدتها عشرين مرة لأنها كانت عملاً هائلاً، وفى رأيى أن الريحانى يتفوق على فنانين كوميديين عالميين كبار مثل «فرنانديل» الفرنسى، ولم يسبق الريحانى فى عصره سوى «شارلى شابلن». وشابلن أذهلنى هو الآخر بحركاته وغرابته وطرافته، لقد تابعت «شابلن» منذ أيام السينما الصامتة، كانت فى حى الحسين أقدم دار سينما فى القاهرة، واسمها «الكلوب المصرى»، وقد أغلقت الآن، ودخلتها وعمرى خمس سنوات وربما أقل. كنت أذهب إلى هذه السينما مع الخادمة، وأقضى فيها أوقاتًا طويلة حتى تمنيت أن أنام فيها ولا أغادرها إلى البيت. كنت مغرمًا «بشارلى شابلن»، و«ماكس ليندر»، والشجيع، والشخصيات المشهورة على شاشة السينما فى ذلك الزمان.

بعد ذلك جاءت السينما «السونور» وكانت أكثر تطورًا من السينما الصامتة، حيث كنا نسمع أصواتًا من غير كلام، لم نكن نحتاج إلى كلام أو ترجمة لأن أغلب رواد السينما كانوا أميين، كنا نتتبع الصور ونفهم معنى الأحداث بدون كلام أو شرح، وإذا ما ركع البطل على ركبتيه أمام البطلة ومد لها يديه، نفهم مباشرة أنه يقول لها: «أحبك»!..

ولما بدأت أعرف القراءة كنت أتابع الترجمة العربية على الشاشة، وأحيانًا يكون الحوار المكتوب ـ المترجم ـ لا يتفق مع المشهد، عندها كنا نطلق صفارات الاستهجان ونهتف: «اعدل.. اعدل..»، وكانت هناك هتافات ظريفة نرددها أحيانًا داخل دار العرض، فإذا تعطلت مراوح الهواء فى سقف السينما ـ مثلاً ـ نهتف فى صوت واحد: «مراوح.. مراوح»!..

الفتوة

كانت ظاهرة «الفتوة» معروفة ومنتشرة فى الحارات الشعبية، وكان نظام «الفتونة» يكاد يكون معترفًا به، بمعنى أن البوليس كان يعرف الأشخاص الذين يمارسون «الفتونة»،

وأحيانًا يستعين بهم عند حدوث سرقات أو جرائم أخرى، فيتم تكليف الفتوة بالبحث عن الفاعل، كان الفتوة هو حامى الحارة، وكان أغنياء الحارة يغدقون عليه العطايا خاصة فى الأعياد والمناسبات، وهذه ليست إتاوة، بل هى مقابل حماية الفتوة للحارة، ففى حفلات الزفاف والأفراح والمناسبات الأخرى كان الفتوة يسير أمام الزفة حتى لا يعترضها أحد. وكانت تحدث مصادمات بين فتوات الحارات المجاورة، ويخرجون للعراك والتشاجر فى أرض فضاء اسمها «أرض المماليك»، وكان «اللورى» يذهب عقب نهاية المعركة لحمل الجرحى والمصابين إلى المستشفى، وكأنها معركة عسكرية، ويعود المنتصر من أرض المعركة مزهوًا بقوته.

وظل نظام الفتوة شبه معترف به من البوليس حتى حدثت واقعة «عرابى» فتوة الحسينية، وكان رجلاً رهيبًا له سطوة وبطش، كما كان مشهورًا فى المنطقة كلها، وحدث أن شابًا غنيًا يدعى «عبدالحليم البرى»، وهو ابن لأحد الجزارين، تعرض للضرب من فتوة منطقة «القبيصى» عندما ضبطه وهو يغازل فتاة فى الحى التابع له، فذهب «عبدالحليم» إلى «عرابى» يشكو له فتوة «القبيصى»، واعتبرها «عرابى» إهانة شخصية له لأن «عبدالحليم» من أبناء الحسينية، فذهب عرابى إلى «القبيصى» وضرب وكسر وحطم وأطاح بعين أحد الأشخاص، قبض البوليس على «عرابى» وقُدم للمحاكمة التى قضت بسجنه ٢٠ عامًا. وقررت الحكومة بعد هذه الحادثة إلغاء نظام «الفتونة»، وكان ذلك فى بداية الثلاثينيات. عندما وقعت حادثة «عرابى» ـ واسمه «كامل عرابى» ـ كنت فى الإسكندرية، وقرأت التفاصيل فى الصحف التى تابعت الحادثة بدقة باعتبارها حدثًا مهمًا، وشاهدت صورة «كامل عرابى» تتصدر مواضع مهمة فى الصحف الوفدية التى كنت أتابعها مثل «الجهاد» و«كوكب الشرق». ونشرت له صور وهو يمتطى الحصان، لأنه عندما هاجم منطقة «القبيصى» كان يركب حصانه، وربما كان سر الاهتمام الإعلامى به يرجع إلى أنه كان أكبر وأشهر فتوة فى مصر، وكان فتوة الحسينية بالذات مهما وله شأن للدرجة التى ظهرت معها أغنية تعبر عن هذه الأهمية، وأذكر من كلماتها:

إيش يابو داود..
ده إحنا فرى جود..
ده إحنا فتوات الحسينية..

وعندما خرج «عرابى» من السجن افتتح مقهى، وهو موجود حتى الآن ومشهور، ومازال

يحمل اسمه، ولم يكن المقهى يحمل اسمه فى البداية، حيث كان ممنوعًا من ذلك، فاضطر لوضع اسم خاله «أحمد عطية» عليه، ولكنه اشتهر باسم «عرابى».

تعرفت على عرابى بعد خروجه من السجن وكنا ـ أنا وأصدقائى ـ نذهب للجلوس فى مقهاه، وكان أحيانًا يتشاجر معنا لأنه كان محبًا للهدوء والنظام، ويكره أن يصفق أحد بيديه لاستدعاء «الجرسون». وكان صوتنا يعلو كثيرًا وندخل فى فاصل من المشاغبة البريئة، فلما يضيق بنا يتجه نحونا ويقول فى غضب: «هذا مقهى أم مدرسة أيها الأفندية؟ من الغد لا تدخلوا هذا المقهى».. فننتقل إلى مقهى «الفقى»، وهو مقهى صغير فى آخر العباسية. وبعد عدة أيام يمر علينا «عرابى» فى بيوتنا، يصالحنا ويعلن انتهاء فترة الطرد، ونعود إليه من جديد.

فى أيام الانتخابات كانت «قهوة عرابى» تتحول إلى معسكر لأنصار الوفد، لأن عرابى كان وفديًا، وكان كبار السياسيين من أهل الحسينية مثل الشواربى باشا وأحمد ماهر باشا يخطبون ودّ «عرابى» حتى يساعدهم فى كسب أصوات الناس بما يتمتع به من تأثير جماهيرى رهيب. ورغم السنوات العشرين التى قضاها فى السجن إلا أنها لم تؤثر على شخصيته، وكان شكله وتركيبته يوحيان بالزعامة، وفيه هيبة سعد زغلول، وكان فى صوته شموخ لأنه تعود أن يأمر فيطاع.

وعندما كان نظام الفتوات شبه معترف به من الحكومة، كان الفتوة لابد أن يتمتع بصفات خاصة مثل القوة الجسمانية والبدنية والشجاعة ـ لأنه يدخل فى معارك مستمرة ـ وكان لابد أن يتمتع بالذكاء الحاد حتى يستطيع كسب الناس، كما كان يتمتع بقدر كبير من الشهامة والرجولة، وبعد إلغاء نظام الفتوة تحول الفتوة إلى «بلطجى» لا يتورع عن فعل أى شىء، ومنهم من تحول إلى «قوّاد» فى البيوت السرية فى فترة الحرب العالمية الثانية. وسبحان مغير الأحوال، فقد كان للفتوات دور وطنى حين كان معترفًا بهم، وخاصة فى أيام ثورة ١٩١٩، وأكبر مقاومة واجهها الإنجليز على المستوى الشعبى كانت من الفتوات، وأحيانًا كانوا يحفرون فى الأرض حفرًا كبيرة للإيقاع بالسيارات العسكرية التابعة للجيش الإنجليزى.

ومن الحوادث التى لا أنساها أيام اشتداد المظاهرات والثورة، قيام الفتوات باحتلال قسم الجمالية، ففى يوم كنت أجلس فى النافذة المطلة على ميدان «بيت القاضى» ـ وكنا فى عز

النهار ـ وفجأة شاهدت مجموعة فتوات خلرجين من حارة «الكبابجى»، ومجموعة أخرى تخرج من حارة «الحسينى»، وثالثة تخرج من «خان جعفر»، ورابعة من عطفة «النحاسين»، والتقت المجموعات الأربع فى ميدان «بيت القاضى»، وكانوا يحملون «شوم» ـ عصا غليظة ـ فى أيديهم، وهجموا على مقر قسم الجمالية وقاموا بالاستيلاء على الأسلحة التى كانت بحوزة عساكر البوليس فى القسم، هذا الهجوم رأيته بعينى وأتذكر كل تفاصيله، وظلت هذه الذكريات عن الفتوات مختزنة فى ذاكرتى منذ أن شاهدتها فى طفولتى وصورتها فى عدد كبير من أعمالى الروائية.

المجاذيب

فى حى الحسين توجد منطقة مشهورة تسمى «الكوم الأخضر»، وهو مرتع للمجاذيب ـ رجالاً كانوا أم نساء ـ يفترشون أرصفتها، وكان شكلهم مخيفًا، وكل مجذوب منهم يدّعى «أن فيه شيئًا لله»، وأحيانًا يصرخ أحدهم ويقول كلامًا غريبًا، وكان أشهرهم «حسن تهامى» الذى رشح نفسه ضد جمال عبدالناصر!.

وفى نفس المنطقة كنت تجد مجاذيب محترفين، الواحد منهم يجلس خلف طاولة وتلتف من أمامه وحوله السيدات الجاهلات لكى يقرأ الطالع، حيث تقدم له كل سيدة منديلاً قماشيًا يسمونه «الأثر»، فيأخذه المجذوب وينظر فيه ويبشرها بشىء أو بحل مشكلة، ويحصل منها على الأجر. وكنت اضطر للمرور من هذه المنطقة عندما أذهب مع أمى لزيارة الحسين، حيث كان باب دخول السيدات فى مسجد الحسين قريبًا من شارع «الكوم الأخضر»، وكنت صغيرًا فى السن، فكنت أمر منه وأنا أشعر بالرعب من منظر المجاذيب، فشكلهم غريب وحركاتهم وكلامهم أشد غرابة، ولم أحاول الاقتراب منهم أبدًا. وفى أيام مولد الحسين كنت تجد مجاذيب من نوع آخر، وهم هؤلاء الذين يقومون بأداء ألعاب غريبة مثل «أكل النار»، وكانوا من معالم المولد، وهؤلاء كنت أستمتع بالفرجة عليهم.

الكُتّاب

أول مدرسة دخلتها فى حياتى هى «كُتّاب» يقع فى بيت قديم فى حارة «الكبابجى». وعندما ذهبت إليه مع جمال الغيطانى منذ سنوات قليلة، وجدناه متهالكًا، سقط سقفه، ولم

يبق منه إلا درجات السلم، وفى ذلك الكُتّاب حفظت جزءًا من القرآن وبدأت أتعلم مبادئ القراءة والكتابة. «الكُتّاب» فى تلك الأيام كان مهمًا جدًا، لأن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية يتم عن طريق امتحان، ولا يُقبل التلميذ إلا إذا كان لديه قدر من المعرفة.

كنت أذهب إلى الكُتّاب سيرًا على الأقدام لأنه كان قريبًا من بيتنا، ويقع الكُتّاب فى بيت قديم يعد من الآثار، وكنا نفترش الأرض. والحقيقة أن «الكُتّاب» لم يكن وحده من الآثار، وإنما هناك مبان كثيرة فى تلك المنطقة كانت مشيدة على الطراز الإسلامى الجميل خاصة فى حى الصاغة، وما زال بعضها قائمًا حتى الآن، ولكنها للأسف معرضة للانهيار حاليًا بسبب الإهمال، وقد لا تصمد كثيرًا أمام تحديات الزمن، وتجد بيوتًا كثيرة فى حى «الصاغة» الآن بعد أن خلا منها السكان يستغل منها ـ فقط ـ دكاكين بيع المشغولات الذهبية أسفل هذه البيوت. وأذكر، عندما كنت طفلاً، بيتًا يقع على ناصية «الصالحية» كان عامرًا بالحياة وتخرج منه فتيات ونساء جميلات، وعندما شاهدته أخيرًا، أصبح خاليًا من السكان ونوافذه محطمة، وأناشد الدولة بالتدخل لتجديد حى «الصاغة» لأنه من الممكن أن يتحول وبسهولة شديدة إلى منطقة تجارية عالمية.

النيل

النيل هو أحب الأماكن إلى نفسى بعد الحسين وكنت أستمتع وأنا صغير بمنظر النيل، عندما أقف مع أمى فوق كوبرى أبوالعلا أو كوبرى قصر النيل. وعندما التحقت بالجامعة، كنت أحب الجلوس على النيل فى المكان الذى شيدت فوقه حاليًا الكازينوهات، ولكنه فى تلك الأيام كان أرضًا خضراء، كنت أحمل معى «مخدة» من المطاط وأجلس عليها أمام النيل إلى منتصف الليل، خاصة فى الليالى القمرية. وكان الشارع المجاور للنيل هادئًا وتصطف فيه «السرايات»، وعندما تكونت «شلة الحرافيش» أرشدتهم إلى هذا المكان. وأظن أن أول من أطلق اسم «الحرافيش» على الشلة هو الفنان أحمد مظهر، ويبدو أنه قرأ اللفظ فى كتاب قديم للجبرتى، ووجدناه مناسبًا لحالة الصعلكة التى كنا نعيشها، وبدأت «الحرافيش» تسهر فى هذا المكان الذى اكتشفته، وأطلقوا عليه اسم «الدائرة المشئومة». ولا أذكر من هو صاحب هذه التسمية، ولكنها كانت تدل على حالة الإحباط والتشاؤم التى كنا نعيشها فى تلك الفترة، وظللنا نلتقى فى هذه «الدائرة المشئومة» إلى أن انتقلنا إلى بيت محمد عفيفى فى شارع الهرم.

وفى الأوقات التى كنت أجلس فيها بمفردى على شاطئ النيل، كنت أشعر وكأن هناك علاقة حب ومودة تربطنى بالنيل، فأناجيه وأتحاور معه كأنه شخص آخر، وأحيانًا كنت أظل محدقًا فيه لا أشبع من النظر إليه، كنت أغادر العباسية بعد الظهر لكى أمشى على شاطئ النيل مارًا بالجزيرة والروضة، وكانت أرضًا خلاء، ليس فيها مقاهٍ أو كازينوهات، وأستمر فى المشى والنزهة حتى أصل إلى «الدائرة المشئومة».. أما تأثير النيل علىَّ فقد ظهر فى أكثر من رواية بداية من «كفاح طيبة»، والتأثير الأوضح فى رواية «ثرثرة فوق النيل»، وبشكل أقل فى «بداية ونهاية». و«بداية ونهاية» كتبتها من وحى قصة حقيقية لأسرة مصرية كنت أعرفها جيدًا، وإن اختلفت النهايات. فبعد أن مات عائل هذه الأسرة عاش أفرادها فى ضيق، وبدأوا فى ممارسة أنواع من النصب والاحتيال على الناس حتى يستطيعوا تدبير أمور معيشتهم، مما أصابنى بالغيظ والحنق، وخطر لى أن أكتب رواية كوميدية عن هذه الأسرة، وبعد أن بدأت الكتابة وجدتها رواية مأساوية وليست كوميدية. وبالنسبة للنهاية الحقيقية لهذه الأسرة، فقد مات الأخ الأكبر فى مستشفى «قصر العينى» بسبب إدمان الكوكايين، أما الأخت «نفيسة» فظلت عانسًا لسنوات طويلة إلى أن تزوجها رجل طاعن فى السن وكان بحاجة لمن يخدمه، ولم يكن مصيرها كما صورته فى الرواية.

إن روايات قليلة هى التى كتبتها بوحى من أحداث حقيقية جرت فى الحياة من حولى، ومن هذه الروايات «خان الخليلى» التى كتبتها تأثرًا بموت صديق عزيز لى اسمه «شكرى عاكف» تربينا ونشأنا سويًا ومات هو بالسل، ولذلك تجد فى الرواية دراسة عن السل وآثاره النفسية والصحية. وموت «شكرى عاكف» لم يكن السبب الوحيد الذى دفعنى لكتابة «خان الخليلى»، كان هو السبب الأقوى، ولكن هناك أسبابًا أخرى منها حبى للخان وذكرياتى عنه، وعندما كنا نحتمى فى مخبأ عمارات الأميرة «شويكار» زوجة الملك فؤاد الأولى أثناء الغارات فى الحرب العالمية الأولى وكانت الأميرة «شويكار» تمتلك عدة عمارات قديمة فى الخان، وعندما قامت بهدمها لبناء عمارات حديثة مكانها ثار الناس عليها وقالوا لها: «أنت أضعت أجمل أثر فى القاهرة». فبنت العمارات الجديدة على نفس طراز العمارات القديمة، وأسفلها كانت توجد مخابئ جميلة تحتوى على مقاعد وإضاءة كهربائية ومياه نظيفة وحمامات. ولكن هذا المخبأ أطاح بمقهى «أحمد عبدالله» الشهير الذى كان موجودًا تحت الأرض، فاضطرت الأميرة «شويكار» لهدمه وضمه إلى المخبأ، وعندما ذهبت منذ فترة إلى خان الخليلى، وجدت المبانى أصبحت أحدث، والشوارع أفضل، وحالة الدكاكين أحسن من الدكاكين القديمة مليون مرة.

الإسكندرية

علاقتى بالإسكندرية تعود إلى عام ١٩٢٠، حيث اصطحبنى والدى لقضاء إجازة الصيف فى ضيافة صديق حميم له اسمه «محمد بك عمرو»، وهو من عائلة «عمرو» المعروفة والتى منها الآن السفير عبدالفتاح عمرو صديق الملك فاروق، وسفيرنا فى لندن على أيامه، وكان «محمد بك عمرو» من الأعيان، وله سرايا كبيرة فى «سان استيفانو»، وفى حديقة «السرايا» يوجد بيت صيفى صغير أقمنا فيه طوال فترة الإجازة، فى حين سافر «محمد بك» إلى أوروبا حيث اعتاد قضاء الصيف مع أسرته، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها الإسكندرية.

وكان مكان إقامتنا قريبًا من كازينو وحمام «سان استيفانو»، ورسم دخول الكازينو والحمام «قرشان صاغ». وبالحمام قسمان، الأول: للرجال، والثانى: للسيدات. ونظرًا لصغر سنى كانوا يسمحون لى بدخول حمام السيدات، وكانت نساء الطبقة الراقية يرتدين «المايوه» ويضعن قبعات على رؤوسهن. لم يكن فى الإسكندرية الكورنيش الموجود حاليًا، وكانت الحمامات فى منطقتين فقط: «سان استيفانو» و«الأنفوشى»، وبعد ذلك تم إنشاء الكورنيش المعروف سنة ١٩٣٠ فى عهد حكومة إسماعيل صدقى باشا، كانت الإسكندرية هادئة، وكان الأثرياء يذهبون لقضاء الصيف فى أوروبا، فى حين كانت الطبقات الشعبية تفضل قضاء الصيف فى روض الفرج حيث تتمركز الفرق المسرحية، أما شواطئ رأس البر فكانت خاصة بأهل دمياط.

بعد الزيارة الأولى انقطعت عن الإسكندرية سنوات، حتى عدت إليها فى الثلاثينيات تقريبًا، بعد حصولى على شهادة «البكالوريا». وكان لى صديق تعيش أسرته فى قرية قريبة من الإسكندرية، فعرضت عليه أن نذهب لقضاء الصيف هناك، فوافق. وأبلغت والدى الذى أسعده تفوقى فى الشهادة، فرحب، ومنحنى عشرة جنيهات كاملة، رغم معارضة أمى وثورة عمى الذى قال لوالدى: «أنت سوف تفسد الولد.. تعطيه عشرة جنيهات مرة واحدة». كانت الجنيهات العشرة فى ذلك الوقت مبلغًا محترمًا، حيث كان مرتب الموظف الحاصل على البكالوريا لا يزيد على ستة جنيهات.

أخذت منحة أبى وذهبت مع صديقى «إبراهيم فهمى دعبس» إلى الإسكندرية وأمضينا

ثلاثين يومًا فى الأكل والشرب والسهر اليومى، وأحيانًا كنا نشرب الخمر، ونذهب إلى «الكباريهات» وتوابعها التى كانت أرخص من «كباريهات القاهرة» وتوابعها، وكان ذلك من عبث الشباب.

بعد ذلك اعتدت أن أمضى شهرًا من كل عام فى الإسكندرية، وكنا ننزل فى «بنسيون» فى شارع السلطان حسين، ومن هناك نستقل الترام حتى نصل إلى الكورنيش. وعندما بدأ صدقى باشا فى تنفيذ مشروع الكورنيش الحالى، تعرض لهجوم شديد فى الصحف واتهامات بالرشوة والتشكيك فى ذمته المالية، على الرغم من أهمية الكورنيش الذى أضاف للإسكندرية بعدًا جماليًا آخر. وعندما تخرجت فى الجامعة وعملت فى وزارة الأوقاف، كنت أحرص على ادخار جنيه واحد كل شهر إلى أن يأتى الصيف فأجد بحوزتى ميزانية مناسبة للسفر وقضاء شهر بالإسكندرية. واستمرت هذه العادة السنوية حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأصبحت الإسكندرية منطقة خطيرة، وهاجر منها بعض أهلها بعد أن تعرضت للقصف الألمانى، وانقطعت عن عادتى السنوية حتى انتهت الحرب عام ١٩٤٥، وعدت من جديد. وحتى عندما أصابنى مرض الحساسية ونصحنى الأطباء بعدم النزول إلى البحر والابتعاد عن جو الإسكندرية المشبع بالرطوبة، والذهاب إلى منطقة صحراوية حيث الهواء الجاف، لم أعمل بالنصيحة، وكنت أذهب إلى الإسكندرية، وتتورم عيناى ولا أتنازل عن شهر الصيف. بل ازددت تعلقًا بها بعد أن تزوجت من الإسكندرية، ورغم حبى للإسكندرية فإن تأثيرها لم يظهر فى رواياتى الأولى، ولذلك أسباب موضوعية. فلم يكن من المعقول أن يأتى ذكرها فى «الثلاثية» لأن أجواء الإسكندرية لا تتفق مع شخصية «السيد أحمد عبدالجواد» الحادة الصارمة، المنعزلة عن أسرتها، فلم يكن من المقبول أن يصحب أسرته أو أحد أبنائه إلى الإسكندرية مثلاً. فى حين ظهرت الإسكندرية بشكل واضح فى رواية «السمان والخريف» وفى رواية «ميرامار»، وكانت فى الروايتين بمثابة الملجأ والمفر من المشاكل التى يتعرض لها الأبطال خاصة عامر وجدى الصحفى العجوز فى «ميرامار». وفى الإسكندرية كانت لى ذكريات مع توفيق الحكيم سيأتى ذكرها فى حديث لاحق.

الريف والصعيد

لم أذهب إلى الريف إلا مرة واحدة عندما كنت طفلاً، أخذنى أقرباء والدى من أسرة «آل عفيفى» بالفيوم لقضاء الصيف هناك. وكانوا يملكون دوَّارًا كبيرًا، أمامه حديقة عنب،

وبجانبه أرض فضاء واسعة كنت ألعب فيها كرة القدم، ورغم استمتاعى إلا أننى طلبت إعادتى إلى القاهرة ولم يمض على إقامتى فى الفيوم أسبوع واحد. حاولوا إرضائى لأبقى، ولكننى كنت شديد التصميم فأعادونى.

كانت تلك هى تجربتى الوحيدة فى الريف. وخلال هذه التجربة لم أر الفلاحين ولم أتعمق فى تفاصيل حياتهم، وربما كان ذلك هو السبب القوى الذى جعلنى لا أتناول حياة الفلاح وقضاياه فى رواياتى. بعكس الطبقة العاملة المسحوقة فى المدينة والتى تناولتها بشكل مكثف، وإن كنت أعتقد أن المعاناة متشابهة فى الحالتين، والفرق الوحيد أن العامل أو الموظف المسحوق فى المدينة لديه وعى أعمق من الفلاح.

وإذا كانت لى تجربة واحدة مع الريف، فإننى لم أذهب للصعيد فى حياتى كلها، ولم أزر الأقصر أو أسوان أو أيًا من الأماكن الأثرية المشهورة هناك، مع أننى أسمع أنها مناطق جميلة ويأتى إليها السائحون من كل أنحاء العالم، ولكنه الكسل، ورغم عدم زيارتى للصعيد، فقد تعرفت عليه من خلال الأعمال الأدبية التى تناولته مثل رواية «دعاء الكروان» و«الأيام» لطه حسين، ومازالت معرفتى بالصعيد تتم من خلال القراءة والاستماع إلى الآخرين.

الفصل الثانى

الوظيفة والأدب

الوظيفة أخذت نصف يومى لمدة ٣٧ سنة - الوظيفة علمتنى النظام وأمدتنى بنماذج بشرية - القيمة الحقيقية للإنسان فى مجتمعنا لا تزال مستمدة من البيروقراطية وقيمة الوظيفة - لم يتفرغ للأدب بطريقة كاملة فى مصر سوى العقاد - أحمد عاكف شكرنى لأنى جعلته بطل «خان الخليلى» - كنت أرد على شكاوى الناس فى وزارة الأوقاف - الأسباب الحقيقية لإلغاء ترقيتى إلى الدرجة الرابعة بعد الحصول عليها بأقل من ٢٤ ساعة - كامل كيلانى نصحنى بإخفاء شخصيتى الأدبية عن زملائى الموظفين - عرفت «برلنت» بطلة فيلم «أميرة حبى أنا» فى وزارة الأوقاف - فى «المرايا» كثيرون ممن قابلتهم بالوزارة - الحارة والوظيفة والمقاهى مصادر أساسية فى أدبى - رئاستى لمؤسسة السينما أسوأ فترة فى حياتى الوظيفية - أعلى مرتب وصلت له ١٠٠ جنيه شهريًا، ومعاشى الآن وصل إلى ١٦٠ جنيهًا.

■ فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن أهم مصادره التى اعتمد عليها فى حياته وأدبه وهى «الوظيفة الحكومية». حيث عمل موظفًا لمدة ٣٧ سنة بعد تخرجه فى الجامعة مباشرة، تنقل خلالها فى وظائف عدة بوزارة الأوقاف والجامعة ثم مؤسسة السينما التابعة لوزارة الثقافة. وارتقى وظيفيًا حتى وصل إلى درجة «نائب وزير» فى مؤسسة السينما ثم أحيل إلى المعاش سنة ١٩٧١. ويعترف نجيب محفوظ بأنه رغم استفادته القصوى من الوظيفة كمتحف حى للنماذج البشرية، ونقله تفاصيل كثيرة من شخصيات عرفها إلى أدبه، وهو نوع من النقل الفنى وليس نقلاً تسجيليًا فوتوغرافيا، إلا أنه كان يتمنى أن يكون للأديب وضع مختلف فى مصر، يمكنه إذا ما أصدر كتابًا مميزًا من التفرغ للأدب بصورة كاملة. إن محفوظ ينقلنا فى هذا الفصل إلى دهاليز الوظيفة الحكومية فى مصر وأسرارها فى عصر ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وما بعدها، وفى هذا الحديث عن الوظيفة يساعدنا نجيب محفوظ على رسم خلفية دقيقة لفهم أدبه، ويتميز محفوظ هنا كعادته بخفة الظل والروح الفكاهية وهو يتذكر تفاصيل دقيقة مرت عليها سنوات طويلة. ■

نجيب محفوظ: أعطتنى حياتى فى الوظيفة مادة إنسانية عظيمة وأمدتنى بنماذج بشرية لها أكثر من أثر فى كتاباتى، ولكن الوظيفة نفسها كنظام حياة وطريقة لكسب الرزق، لها أثر ضار أو يبدو كذلك. فلقد أخذت الوظيفة نصف يومى ولمدة ٣٧ سنة، وفى هذا ظلم كبير، ولكن الوظيفة فى الوقت نفسه علمتنى النظام، والحرص على أن أستغل بقية يومى فى العمل الأدبى قراءة وكتابة، وجعلتنى أستغل كل دقيقة فى حياتى بطريقة منظمة، مع عدم تجاهل أوقات الراحة والترفيه، وهذا فى تصورى هو أثر إيجابى للوظيفة فى ظل ظروف المجتمع الذى نعيش فيه، فمن المستحيل أن يتفرغ الأديب فى مصر، ولو كنا مثل أوروبا، وصدر لى كتاب متميز لتغيرت حياتى، وكنت استقلت من الوظيفة وتفرغت للأدب، لأن الكتاب المتميز يحقق إيرادًا يكفى لاتخاذ مثل هذه الخطوة.

أمدتنى الوظيفة بنماذج بشرية كانت غائبة عن حياتى. فأنا أعرف الأسرة والجيران والمدرسة والجامعة والمقهى، ثم أتاحت لى الوظيفة مجالاً حيويًا مختلفًا فعرفت نماذج جديدة لم أكن أعرفها، وعرفت مكانة الوظيفة فى مجتمعنا، وكيف أنه مجتمع «بيروقراطى» والقيمة الحقيقية فيه هى قيمة «البيروقراطية» والمكانة الوظيفية، والجميع يحرص على

الوظيفة حتى أن أى متخصص فى مجال فنى أو هندسى قد يحرص على الترقية ليصبح إداريًا، وينسى الفن والهندسة وهما عماد حياته وتألقه، ويكون هدفه الوحيد أن يصبح «وكيل وزارة» مثلاً، الوظيفة أهم شىء وهى القيمة والمكانة ومصدر الوجاهة والنفوذ. جوائز الدولة تذهب كلها إلى موظفين كبار، ولذلك لا أستغرب رؤية أديب نابغ يبحث عن وظيفة فى مؤسسة إعلامية أو صحفية، أو يرأس صفحة أدبية ليصبح نجمًا بالموقع وليس بالقيمة الحقيقية. وقد يكون إنتاج هؤلاء الأدباء جيدًا ويستحق الإشادة به، ومع ذلك فإنهم لا يتألقون إلا إذا تمكنوا من الحصول على وظيفة تتيح لهم الترقية والظهور.

ولقد كان عباس محمود العقاد استثناء من هذا كله، وأصبح عظيمًا ومرموقًا بلا وظيفة أو مكانة «بيروقراطية». وكان يدافع عن مكانته بكل قوة، وكان أى وزير يتجنب هجوم العقاد عليه لسطوته ونفوذه بين الناس، وهو الوحيد «غير البيروقراطى» الذى كان يخشاه «البيروقراطيون». فهم العقاد أن مصر «بلد وظائف»، وعندما يأتى أديب ورائد فى فن القصة مثل «محمود تيمور» المستغنى عن الوظيفة لثرائه، فإنه يحصل على منزلته بماله الخاص، هذه هى مصر منذ أيام الفراعنة، الفرعون إله، وهؤلاء الموظفون أنبياؤه ورسله. وقد دعم المجتمع هذه النظرة للوظيفة. فالمريض لا يذهب إلى عيادة طبيب ليس موظفًا فى وزارة الصحة أو فى كلية الطب. والمحامى الشهير الذى يكسب الآلاف سنويًا يترك المهنة وربما يغلق مكتبه ليصبح مستشارًا ويعتبرها ترقية. وكما قلت فإن تركيبة المجتمع فى مصر على هذه الحال منذ قديم الزمان، ربما منذ أن فكر مينا فى توحيد القطرين، وتأمين الفلاح على رزقه، وتوزيع المياه، وأصبح للحاكم مندوبون فى الأقاليم، ومن يومها تكوّن جهاز وظيفى بيروقراطى مقدس، وينظر أغلبية المصريين لهذا السبب إلى الموظف على أنه مندوب الله، وصرفوا النظر عن العقل والذوق والمهارات. تذكرنا مينا، ونتذكر خوفو، ولكننا لا نعرف صاحب المعجزة الهندسية فى بناء الأهرامات، ولا أحد منا يعرف اسم المهندس الذى بناها، وهذا شىء غير طيب، ومعظم فنوننا القديمة مجهولة الأسماء، أما على الجدران فنجد أسماء بعض المحترفين على شكل إمضاء.

وقد يحمل المستقبل أملاً فى تغيير نظرة المجتمع إلى الوظيفة والموظفين، ونحن نسمع الآن عن بعض الذين يحملون شهادات عليا ومع ذلك فهم يعملون فى مجالات بعيدة عن تخصصهم تمامًا، وقد حكى لى صديقى المخرج السينمائى توفيق صالح أنه زار ابنته ذات مرة فوجدها مهمومة لأن الرجل الذى ينفذ لها أعمالاً فى حمام بيتها تأخر عن موعده، ولما

سألها عن هذا الرجل قالت: إنه يعمل فى الصباح مأمور ضرائب وفى المساء يقوم بأعمال «السباكة». وهذه ظاهرة طيبة خاصة إذا كان من يمارسها يحترمها ويحترم نفسه معها، فهو يقوم بعمل شريف لترقية حياته وسد احتياجاته. وسوف ينظر المجتمع بالتدريج إلى مثل هذه الظاهرة بالاحترام، لأنها سعى شريف من أجل الرزق، ومحاولة للبحث عن النجاح فى أى مهنة ذات موارد جيدة قد تغنى عن الوظيفة الحكومية، بصرف النظر عن الشهادة الجامعية التى يحملها صاحبها، والتى ينبغى أن يكون الأصل فيها هو التحصيل والتعليم أولاً وقبل كل شىء.

ومع التغيير فى نظرة المجتمع إلى الوظيفة ونوعها، تعودنا على احترام كل جهد يقوم به الإنسان من أجل ترقية حياته مهما كان هذا الجهد متواضعًا، ومن الممكن أن تساعدنا هذه النظرة الجديدة على تعميق الديمقراطية، فى حياتنا، ولن نجد صعوبة فى تقبل وضع وزير سابق يدير مكتبة لبيع الكتب، أو رئيس جمهورية ترك منصبه بعد نهاية مدته المقررة، وأخذ يعيش حياته العادية، وقد نراه يجلس بيننا فى مقهى «ريش» بعد أن انتقل من وظيفته الرسمية كرئيس وأصبح مواطنًا عاديًا يعيش بين الناس كما يعيش كل الناس. وهذه هى روح الديمقراطية الحقيقية التى نأمل أن تتحقق فى بلادنا بالتدريج.

وقد روى لى الأديب القاص مصطفى أبوالنصر أنه كان فى رحلة له إلى روما، وأثناء جلوسه فى أحد المقاهى العامة، سأل «المرشد السياحى» الذى كان معه عن شخص جالس يتكلم ويضحك مع مجموعة تلتف حوله، فأجابه بأنه رئيس جمهورية إيطاليا السابق. وفى مصر إذا ما أنهى الوزير عمله فإنه يسعى إلى العمل فى وظيفة أستاذ فى الجامعة، وذلك على طريقة هنرى كيسنجر فى أمريكا، ولكن الوزير عندنا بعد أن يترك الوزارة لا يعمل مزارعًا مثلاً ولا يتحمل أن يصبح مواطنًا عاديًا من بين الملايين فى المجتمع. ويظل هذا الوزير متمسكًا بلقب «وزير سابق» إلى النهاية. كذلك فإن من ذيول نظرة المجتمع المتخلفة إلى الوظيفة إصرارنا على أن يلحق باسم الموظف لقب دكتور أو أستاذ أو كاتب كبير، وكلها أشياء يجب أن نتخلص منها فى المستقبل حتى يصبح الإنسان فى حد ذاته أكبر من أى وظيفة مهما كانت قيمتها، وحتى تصبح حياة المواطن العادى محترمة، ولا تؤدى بصاحبها إلى فقدان احترام الآخرين لمجرد أنه فقد وظيفته.

وقد عملت فى وزارة الأوقاف ومجلس النواب وإدارة الجامعة، ففى الأوقاف كنت ألتقى بالمستحقين فى الوقف للعائلات القديمة. وفى مجلس النواب كنت أتابع الصراعات

الحزبية. وكنت أرد على مشاكل الناس التى تصل إلى وزير الأوقاف مباشرة أو عن طريق النواب. ولاحظت كم أن الحزبية والمصالح الشخصية تتدخل بشكل سافر يضر بمصالح الناس. أما فى إدارة الجامعة فقد اصطدمت بنماذج بشرية أخرى، فبطل «القاهرة الجديدة» عرفته وهو طالب وتتبعته إلى أن حصل على وظيفة، ولكن «سقوطه» بدأ وهو طالب. وبطل «خان الخليلى» كان زميلاً لنا فى إدارة الجامعة واسمه أحمد عاكف، وقد جاء يشكرنى بعد قراءته للرواية على محبتى له، للدرجة التى جعلتنى أطلق اسمه على بطل الرواية. والإبقاء على اسم «أحمد عاكف» كما هو كان تحديًا منى، لأننى أغيّر فى الشخصية ومصيرها للدرجة التى تجعل صاحب الشخصية لا يعرفها. وشخصية «أحمد عاكف» فى «خان الخليلى» بها الكثير من ملامح الشخصية الحقيقية ولكنه لم يكن يشعر بها، ومن هذه الملامح الأساسية: غروره الكاذب. ولأن أحدًا لا يعترف بأن لديه غرورًا كاذبًا، فإننى كنت مطمئنًا وأنا أضع اسمه كبطل للرواية، من أن الأمر لا يحمل أى خطر. كان «أحمد عاكف» أعلى منى وظيفيًا، وأذكر أنه تم تكليفه بتأسيس إدارة جامعة الإسكندرية عند إنشائها، وكان أول مدير لجامعة الإسكندرية «جامعة فاروق الأول فى ذلك الوقت» هو الدكتور «طه حسين». وقد كتب «أحمد عاكف» إحدى الرسائل فأدخل عليها الدكتور «طه حسين» بعض التعديل. فثار «أحمد عاكف» ودخل وهو نصف مجنون على «طه حسين» مستنكرًا أى تعديل على ما يكتبه، قائلاً له: «أنا لا أقل عن أى أحد منكم». فرد «طه حسين»: «إن هذا شىء يسعدنا جدًا»، واتصل بالقاهرة ونقله فورًا. لم يستمر «أحمد عاكف» فى جامعة الإسكندرية بضعة أيام وكانت خسارة كبيرة له، وضيّع عليه غروره الكاذب وظيفة السكرتير المساعد لإدارة جامعة الإسكندرية والتى كانت تعنى حصوله على رتبة البكوية، مثل أحمد بك عمر السكرتير المساعد فى الجامعة. هذا هو «أحمد عاكف» الذى خسر الكثير بسبب كبريائه الزائفة عندما رفض تعديل طه حسين لكلمة واحدة فى خطاب له.

كذلك عرفت شخصية تتميز بالانتهازية الذكية وهو «عباس محمود» سكرتير كلية الآداب، وكان حاصلاً على ماجستير آداب فى موضوع يتصل «بدائرة المعارف الإسلامية»، وترجم بعض الكتب مثل «التجديد فى الفكر الإسلامى». وقد عينه الشيخ مصطفى عبدالرازق مديرًا لمكتبه.

كما اصطدمت فى الوظيفة بأشياء كثيرة مثل الشذوذ الجنسى بين الموظفين، وهو ما أتاح للبعض الحصول على وظائف كبيرة لا لشىء إلا بسبب ممارسته للشذوذ مع أحد

كبار الموظفين، وكان شذوذ البعض معروفًا ولا يكاد صاحبه يخفيه، وأذكر أن رئيس لجنة المستخدمين بوزارة الأوقاف قدم لى فى أحد الأيام تهنئة على اختيارى للدرجة الرابعة، حيث إننى أمتاز على منافسى فى الدرجة وأتفوق عليه فى كل شىء، فأنا حاصل على الليسانس وهو حاصل على «الكفاءة» فقط، وأنا «سكرتير برلمانى» وهو «فى موقع وظيفى أقل» والوزير الشيخ على عبدالرازق يعرف صلتى بشقيقه الشيخ مصطفى عبدالرازق، فحصلت على الدرجات النهائية والترقية، وانصرفت من العمل وذهبت لأبلغ والدتى بالترقية، كما أبلغت أصدقاء مقهى عرابى، خاصة أننى قبل انصرافى اطلعت على القرار وإمضاء الوزير. ثم حدث لى أمر محرج، وهو من أشد المواقف التى صادفتنى فى حياتى حرجًا. ففى اليوم



الشيخ على عبد الرازق (١٨٨٧ ـ ١٩٦٦)
تولى وزارة الأوقاف سنة ١٩٤٧ بعد وفاة شقيقه مصطفى عبد الرازق،
وأبقى نجيب محفوظ فى نفس وظيفة السكرتير البرلمانى لوزارة الأوقاف.

التالى مباشرة دخلت على زملائى فى مكتب الوزير فوجدتهم فى حالة وجوم، كنت على علاقة صداقة مع رئيس السكرتارية فى المكتب «عبدالسلام فهمى»، وهو زوج الفنانة مارى منيب، وله صلة قرابة بعبد الحميد باشا بدوى، وقد بدأ «عبدالسلام فهمى» حياته ممثلاً

فى فرقة عبدالرحمن رشدى، ونشأت الصداقة بيننا بسبب النزعة الفنية لكلينا، وقد رحل «عبدالسلام» فى مطلع التسعينيات، وعاش سنواته الأخيرة حزينا على وفاة رفيقة عمره «مارى منيب». وجدت «عبدالسلام» واجمًا وهو يستقبلنى فى مكتب الوزير، وانتحى بى جانبًا، وقال لى: «إن هناك شيئًا سيئًا، وهو أن ترقيتك للدرجة الرابعة ألغيت»!. ذهلت، وقلت له: «كيف حدث هذا وقد وقعها الوزير؟!». وحكى لى «عبد السلام فهمى» أن «عمر باشا» وكيل الوزارة ـ وهو قريب الوزير ـ أخذ كشف الترقيات بعد توقيعه من الوزير ومزقه أمام الوزير. وقال له: إن إبراهيم باشا عبد الهادى، رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت، أوصى بحصول شخص آخر على الدرجة الرابعة، وأصبح علينا أن نقوم بإعداد كشف جديد بذلك، وكان لإبراهيم عبد الهادى علاقة شخصية خاصة بمنافسى على الدرجة الرابعة هذه. ونادانى الشيخ على عبدالرازق واعتذر لى ووعدنى بالتعويض فى أقرب فرصة، وقال لى: إن ما جرى تم فى ظروف قهرية. وانتابنى الخجل، فماذا أقول لأمى ولأصدقاء مقهى عرابى عن الترقية التى لم أحصل عليها أكثر من ٢٤ ساعة؟ ومن المؤكد أن حرمانى من الترقية هو خطأ قانونى، فمادام الوزير وقعها فلا يلغيها إلا قرار وزارى آخر، ولم أكن أستطيع أن أتخذ أى إجراء أو شكوى ضد على عبدالرازق. كانت مثل هذه الحادثة من الأشياء المتكررة فى الحكومة، وكان الشاذون جنسيًا فى نعيم حقيقى، وكانوا يجدون دائمًا من يساندهم، وكان الأديب «كامل كيلانى» يسخر من هؤلاء الشاذين، ويقول لى إذا كان الشذوذ أوصلهم للدرجة الرابعة فإنه لن ينفعهم أكثر من ذلك، سيظلون فى الرابعة. وكان كامل كيلانى، وهو باحث وفنان ومن ظرفاء تلك الأيام، موظفًا معنا فى وزارة الأوقاف، ونصحنى ذات يوم بضرورة ألا يعرف أحد أننى أديب، وأن أعمل فى صمت، حتى إذا سألنى أحد عما إذا كنت أنا الأديب الذى تنشر له الصحف قصصا، فينبغى أن أنفى ذلك. لقد شرب «كامل كيلانى» السم لأنه أديب، ولم يسلم من التعليقات الحادة ومن الحقد، خاصة إذا جاء وزير يكن احترامًا للأدب، فيهيج الجهاز البيروقراطى كله، وإذا منحه الوزير ترقية فإن الموظفين لا يسكتون، ويسخرون منه لأنه «كاتب الأطفال»، وقد حملوا له كراهية شديدة بسبب منزلته الأدبية، ويزدادون كراهية له بعد أن رأوا كل الوفود العربية القادمة إلى مصر فى مكتبه ومنهم وزراء. ولذلك نصحنى بألا أقول للموظفين فى الوزارة إننى أديب حتى لا أضيف إلى حياتهم هاجسًا جديدًا ينذر بالخطر عليهم. قبلت النصيحة وعملت بها على قدر المستطاع، وتقريبًا عندما تركت العمل فى وزارة الأوقاف لم يكن أحد يعرف أننى أديب سوى «كامل كيلانى»، و«عبدالسلام مصطفى فهمى» رئيس السكرتارية وزوج «مارى منيب».

وتجد فى أعمالى، خاصة رواية «المرايا»، شخصيات عديدة من تلك التى قابلتها فى حياتى الوظيفية، ومنها شخصية البطلة فى إحدى قصص «المرايا» والتى أفسدوها وحولوها إلى فيلم «أميرة حبى أنا». وهى قصة واقعية كانت تصلح لفيلم كوميدى، لأن اثنين من الانتهازيين أراد كل منهما استغلال الآخر، فضاعا وهلكا. ولا أذكر أسماء الأبطال فى أعمال مثل «المرايا» و«أحاديث الصباح والمساء»، لأن بها شخصيات كثيرة. ولكننى أتذكر الشخصيات الحقيقية لهذه القصة الواقعية التى تحولت إلى فيلم «أميرة حبى أنا». فبطلها «مدكور» ـ وهذا ليس اسمه الأول إنما اسم العائلة ـ شاب من عائلة معروفة وعمه هو «عبدالخالق باشا مدكور»، وكان متزوجًا من ابنة عمه الغنية، وألحقوه بوظيفة فى وزارة الأوقاف، وكان شديد التأنق. والبطلة واسمها «برلنت» كانت موظفة جديدة فى إدارة «التحرى» بالوزارة، وعملها هو إجراء تحريات عن العائلات التى تتقدم للوزارة طالبة الإحسان، وكانت بهذه الإدارة فتيات وسيدات، حتى لا تتحرج العائلات أثناء هذه التحريات. و«برلنت» فتاة جميلة ومتحررة، وكثيرًا ما كنا نمازحها أنا و«عبدالسلام فهمى»، ولقد قمت بتغيير اسمها فى الرواية. وضع «مدكور» عينه على «برلنت» التى لم تمانع فى إقامة علاقة معه، واتفقا على الزواج فى السر، خوفًا من بطش حميه «الباشا»، وأمضيا أسبوع عسل فى الإسكندرية، وفى نهاية الأسبوع طلقها، بعد أن استمتع معها ونال ما اشتهاه. عادت «برلنت» إلى العمل وقصت علينا ـ أنا وعبدالسلام فهمى ـ ما جرى، ووجهنا إليها اللوم.. واكتشفت «برلنت» بعد ذلك أنها حامل، ولم يكن مصيرها مأساويًا، لأن شخصًا آخر يعمل مقاولاً أعجب بها وتزوجها، ومنحها الستر، وكانت نهايتها حسنة.

وأذكر أن «برلنت» كانت زميلة لابنة «رتيبة رشدى» أخت «فاطمة رشدى»، وكانت «رتيبة» صاحبة صالة، وابنتها بطبيعة الحال تعرف تاريخ أمها، وكانت مثالاً للأخلاق الضعيفة، وحصلت على ترقيات وعلاوات، وسمعت أنها سهلت الأمور لكبار الموظفين من الوزراء ووكلاء الوزارة، وأصبحت أقوى شخصية فى وزارة الأوقاف.

أما «مدكور» فإن نهايته جاءت مثل روايات يوسف بك وهبى. فبعد سنوات طويلة كنت أسير فى ميدان التحرير وسط الحديقة المواجهة للميدان، ووجدت أمامى شخصًا شكله بائس للغاية، واقترب منى، وصافحنى، وعرفته، إنه «مدكور». وعلمت أن عمه «عبدالخالق باشا» حاول إصلاحه وعلاجه من الشم والإدمان ولم يفلح، فأجبره على طلاق ابنته، وأخذ أحفاده ورباهم. وكان «مدكور» قد تم فصله من وزارة الأوقاف، هذا الشاب الذى كان

وسيمًا وجميلاً ويتمتع بالصحة والعافية طلب منى بضعة قروش ليأكل، وحين لقيته لم يكن قد ذاق الطعام لمدة ثلاثة أيام، ولم أره بعد ذلك.

أخذت من الجمهور وأصحاب المصالح نماذج لقصصى ورواياتى، وكان يتردد علينا كثيرون فى وزارة الأوقاف، ومن هؤلاء نماذج كثيرة فى رواية «المرايا»، ووزارة الأوقاف كانت بمثابة حكومة مصغرة، وزارات مصر كلها تلتقى عند الأوقاف، من زراعة وصحة وتربية وتعليم، والحقيقة أن وزارة الأوقاف ظلت شبه مغلقة حتى فتحها الوزير «عبدالحميد عبدالحق باشا». حيث كان لوزارة الأوقاف ميزانية محدودة، بالإضافة إلى ما يرد من الأوقاف الخيرية لإنفاقه على الخير. فى الوقت الذى كانت توجد فيه للوزارة ملايين الجنيهات هى ودائع فى البنوك لا تمس، وليس لها فوائد، لأن فوائد البنوك حتى ذلك الحين فى نظر وزارة دينية كالأوقاف كانت تعتبر من الربا المحرم. فتظل الأموال فى البنوك بلا أرباح وأصحابها لا يجدون قوت يومهم. فجاء «عبدالحميد عبدالحق»، وهو رجل صاحب خيال، وكان محاميًا وسياسيًا ومحبًا للفن، وكان صديقًا للموسيقار محمد عبدالوهاب، وكان ضد الروتين.

وجد عبدالحميد عبدالحق أرضًا خرابا تابعة للأوقاف، فأمر ببيعها، وحول الأرض إلى نقود، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الثانية، فبيعت الأراضى بأسعار جيدة، وتحققت للأوقاف موارد مالية لم نكن نحلم بها، واستثمرت هذه الأموال فى بناء أجمل عمارات فى تاريخ الأوقاف، بعد أن كانت عماراتها قديمة متهالكة تشبه السجون. وأصبحت وزارة الأوقاف فى عهده من أغنى الوزارات فى الحكومة. واستفاد من هذا التطوير المنتفعون بالوقف من الأهالى، وأصبحوا شركاء للوزارة، كما قام الوزير بتجديد مبنى الوزارة.. وهو فى كل ذلك لم يخالف الدين أو اللوائح، إنما حارب الخوف والجمود.

وأتذكر أن الوزير عبدالحميد عبدالحق عيّن الشاعر البائس المعروف عبدالحميد الديب فى الوزارة أثناء خدمتى بها. كنت أعرف «الديب» وألتقى به فى مقهى «الفيشاوى». وعندما تم تعيينه فى الوزارة، احتفل به أصحابه واشتروا له بدلة جديدة لكى يسافر ويستلم الوظيفة التى كانت بمحافظة القليوبية تقريبًا. ثم وجده أصدقاؤه جالسًا على مقهى الفيشاوى مرتديًا البدلة الجديدة، ولم يسافر إلى عمله، ولكنه على كل حال تسلم وظيفته. وهنا أربط بين نموذجين، الأول نموذج تقديس المجتمع للموظف ورفضه لوظيفة الفنان، والثانى نموذج الشاعر «الديب»، وهو الفنان الذى لا يطيق أن يصبح موظفًا. كان «الديب» صعلوكًا كبيرًا،

حياته هى الشعر فقط، وليس مهما أن يسكن أو يأكل أو يرتب أمور معيشته، أو يبحث عن مصدر رزق من أى نوع، وإذا ما حل النوم فإنه ينام فى أى مكان، وكان مغرمًا بالنوم فى المراحيض العمومية. لم أختلط بالشاعر «الديب» جيدًا، وأحيانًا كنا نلتقى وأسمع منه قصيدة جديدة، أما بؤسه وشقاؤه وحكايات صعلكته المثيرة، فكنت أعرفها عن طريق الآخرين، كما كنت أعرف أنه شخصية ظريفة وساخرة ومحبوبة من أصدقائه.

أعطتنى الوظيفة فكرة جيدة عن النظام والبيروقراطية، وعرفتنى بنماذج بشرية كثيرة. وأظن أن الوظيفة والمقهى والحارة هى مصادر ثلاثة رئيسية فى أدبى، وتجد الموظف فى الكثير من أعمالى القصصية والروائية. أما بالنسبة لرواية «حضرة المحترم»، فإن المستوى المادى فى الرواية هو الوظيفة والموظف، ولكن فى المستويات الداخلية لها فإن البطل يتطلع للعناية الإلهية، ولذلك غلبت عليها اللغة الدينية، ومن يقرأ «حضرة المحترم» ـ خطأً ـ على أنها رواية عن موظف وحياته فى الوظيفة، سوف يجد تناقضًا بين موضوعها وأسلوبها. فبطل «حضرة المحترم» يتدرج فى مقامات الصوفية، ويترقى فى الوظيفة، وكلما وقع فى خطيئة فإنه يعتبرها خطايا السائر فى الطريق الصوفى، وكل مطالعاته ليست بهدف التغيير أو الصعود الاجتماعى وإنما من أجل «الوصول» بالمعنى الصوفى أيضًا. وعندما تأتيه الترقية فى الوظيفة فإنه يسمع المرسوم أو القرار وهو راقد، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى أكثر من ذلك، وفى كتاباتى أعتنى بالجزء المادى وأعطيه حقه الواقعى، وربما بسبب هذا حدثت مشكلة رواية «أولاد حارتنا». ولو كنت معنيًا بالرمز وحده لكنت غيرت من رسم شخصيات هذه الرواية إلى شخصيات نظيفة فى المظهر والسلوك، بدلاً من هؤلاء الصعاليك والفتوات والحشاشين، وبعد صدور الرواية قال البعض إن أبطالها هم الأنبياء وهذا غير صحيح بالمرة.

أما عملى فى السينما فقد أمدنى بنماذج من ممثلين وممثلات ومخرجين ومنتجين اختلطت بهم، بالضبط كما أمدتنى وزارة الأوقاف والجامعة ومجلس النواب بمثل هذه النماذج من قبل. الأخلاق العامة واحدة ومتقاربة، ولكن اختلاف المهنة يعطى هذه النماذج ألوانًا مختلفة. ولكل فنان رؤية واحدة، وقد يكتب ثلاثين رواية لكى يصل إلى رواية واحدة فى آخر الأمر.

ومن نماذج الشخصيات التى التقيت بها فى مجال السينما والمسرح، استفدت من بعضها فى «الحب تحت المطر» و«أفراح القبة» وأعمال أخرى. إلا أن عملى فى وزارة

الأوقاف يظل هو أكبر احتكاك لى مع الوظيفة والموظفين. وجاء وقت عملت فيه فى مكتبة تابعة لوزارة الأوقاف «بقبة الغورى»، وكان مديرها اسمه «السندوبى». كانت المكتبة تطل على الغورية، حيث المشهد من الشرفة يجعلنى فى نشوة، وكنت أتمنى أن أبقى فيها حتى أصل إلى المعاش. وأنا الذى اخترت المكتبة فى أعقاب تغيير وزارى حيث طلب منى مدير المستخدمين الجديد اختيار وظيفة أخرى بعيدًا عن مكتب الوزير الجديد، فاخترت المكتبة، وتصور مدير المستخدمين أن اختيارى للعمل فى المكتبة كان احتجاجا منى، ولم يكن الأمر كذلك. كنت سعيدًا بالعمل فى المكتبة ـ كما قلت ـ فمن يعمل فيها لا يتذكره أحد بعدها أبدًا، وتكون بذلك فرصة لى لكى أعمل وسط الكتب، مثل مديرها «السندوبى» الذى لم يكن يفعل شيئًا سوى القراءة والتأليف، وأظنه أصدر شرحًا وتحقيقًا لديوان المتنبى. ولكن لم يمض وقت طويل على هذه «النعمة» حتى عيننى مدير الشئون الدينية الشيخ «سيد زهران» مديرًا لمكتبه وقال لى: «نحن الوفديين لا نضطهد الآخرين». وكان الوفديون فى وزارة الأوقاف يعتبروننى من الأحرار الدستوريين بسبب صلتى بالشيخ مصطفى عبدالرازق، بينما أنا وفدى، وعملت مع «الشيخ سيد زهران» بسعادة بالغة، ولكن كم كنت أتمنى البقاء فى المكتبة هناك فى «قبة الغورى» حيث قرأت الروائى العظيم بروست. كان ذلك فى فترة وزارة الوفد بين ١٩٥٠ و١٩٥٢. و«الشيخ سيد زهران» الذى عملت معه كان يمت بصلة نسب للنحاس باشا، فشقيق الشيخ سيد كان متزوجًا من بنت شقيق النحاس. وقال لى «الشيخ سيد زهران» يوم أن ألغى النحاس المعاهدة[1]: «الوفد انتهى». كان النحاس بعد المعاهدة صديقًا للديمقراطية ولم يكن التفاهم بينه وبين الإنجليز عسيرًا، وبإلغائه للمعاهدة وضعه الإنجليز فى سلة واحدة مع الملك فاروق، هذه كانت وجهة نظر الشيخ زهران. والشيخ زهران كان رجلاً كبيرًا وصاحب خبرة ويعيش فى الأجواء السياسية، ومن هنا أصدر حكمه بانتهاء الوفد. أوجدت المعاهدة عند توقيعها سنة ١٩٣٦ نوعًا من الصداقة بين الإنجليز والوفد، فانقطعت هذه الصداقة بإلغاء المعاهدة، والملك لا يريد الوفد، والشعب سلبى، ومن هنا فإن استنتاج الشيخ زهران كان قائمًا على قراءة دقيقة للواقع الحى، ولكن الواقع السياسى لم يكن متفقًا مع رؤية الشيخ زهران، فقد ظن الوفديون أنهم الرابحون بمعاهدة

---

(١) كان ذلك مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ حيث أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وقال كلمته المشهورة: من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها. وكان يتحدث إلى نواب الأمة. «ر. ن»

١٩٣٦ ولكن اتضح أن الرابح الوحيد هو الملك فاروق، فلم يحكم الوفديون بعدها إلا فى وزارة الحرب «١٩٤٢ ـ ١٩٤٤» ثم فى الوزارة الأخيرة (٥٠ ـ ١٩٥٢). أى أنهم لم يكونوا فى السلطة أغلب سنوات ما بعد المعاهدة.

لقد اقتربت من المجال السينمائى من قبل أن أصبح موظفًا فيه. حيث أخرج لى حسن الإمام «بين القصرين»، وتعاقدت على «قصر الشوق» و«السكرية». فى تلك الأيام شغلت منصب رئيس صندوق دعم السينما. وعندما أصبح الدكتور ثروت عكاشة وزيرًا للثقافة حوّل الصندوق إلى مؤسسة دعم السينما، وأصبحت رئيسًا لها طوال فترة وزارة ثروت عكاشة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٢) أى حوالى ثلاث سنوات. وطلبت تأجيل تنفيذ «قصر الشوق» و«السكرية» لأننى أخجل من إنتاج قصص لى عن طريق مؤسسة دعم السينما وأنا رئيس لها، فرفض المسئولون ذلك لسبب اقتصادى وهو أننى كنت أخذت «عربونًا» عن القصتين. كان عمل مؤسسة دعم السينما التى أرأسها محدودًا، ولم تكن تنتج أكثر من فيلم واحد فى السنة. وبعد د.ثروت عكاشة جاء الدكتور محمد عبدالقادر حاتم فقرر إدماج مؤسسة دعم السينما مع مؤسسة السينما، ورأس المؤسسة الجديدة المهندس صلاح عامر، وعُينت أنا فى وظيفة مستشار أدبى. كان حاتم يعتبرنا رجال ثروت عكاشة. ولكن فى الحقيقة فإن حاتم عاملنا معاملة غاية في الذوق، وأنا والدكتور على الراعى لم يتعرض أحد منا للتجريح فى عهده، ولكن حاتم لجأ إلى أسلوب آخر، حيث استبعدنا فى ركن من أركان وزارة الثقافة من غير عمل أو سلطة. حتى عاد ثروت عكاشة مرة أخرى سنة ١٩٦٦ وعرض علىّ رئاسة المؤسسة واعتذرت. قبل الدكتور ثروت عكاشة اعتذارى عندما قلت له إن هذه الوظيفة سوف تقضى على حياتى، وأريد أن أعطى معظم وقتى للكتابة الأدبية. ووعدنى بالبحث عن شخص غيرى، ثم فوجئت به يستدعينى من الإسكندرية ليقول لى: «انتهى الأمر.. أنت رئيس مؤسسة السينما.. هل تحب أن تخذلنى أمام عبدالناصر؟»، وقبلت الوظيفة. وهذه أول وظيفة كبيرة أقبلها كارهًا ومرغمًا. وعرفت أن الدكتور ثروت عكاشة رشحنى لهذا المنصب أمام الرئيس عبدالناصر، فرد عليه الرئيس بأن آرائى فى السينما سلبية فكيف أتولى هذا المنصب؟ وكنت تحدثت فى مجلة الكواكب مستهينا بالسينما فدافع ثروت عكاشة عن آرائى، وأكد أننى الأصلح لهذه الوظيفة، ولذلك طلب منى ألا أخذله بعد أن حصل على موافقة من الرئيس. ولم يكن رأى عبدالناصر فى ذلك الحوار بينه وبين عكاشة رأيًا سياسيًا، وأنا لم تأت لى أبدًا من ناحية عبدالناصر ملحوظة واحدة عما أكتبه أو عن آرائى السياسية.

وعملت رئيسًا لمؤسسة السينما لمدة عامين لم أفتح فيهما كتاباً ولم أكتب كلمة، وعشت فى اكتئاب عام، وكانت السينما مفلسة ولا توجد لدينا سيولة، وأستطيع القول إنها أسوأ فترة فى حياتى الوظيفية. لكننا حاولنا تحريك الأمور واقترضنا مليون جنيه من البنك الصناعى وبدأنا نعمل فى بطء. كانت وظيفة مقلقة للراحة، كان الممثلون يأتون لمكتبى فى شارع طلعت حرب ويهددون بإلقاء أنفسهم من النافذة بسبب البطالة. وكنا نعمل فى أجواء من الاتهامات والتشكيك، وهى الفترة التى حدثت فيها هزيمة ٦٧. وعندما اقترضنا مبلغ المليون جنيه وبدأنا نعمل فى بطء وجدت أمامنا ثمانية أفلام فى اللمسات الأخيرة، فانتهينا منها، وبدأنا بعرضها فى دور السينما. وتزامن العرض مع هزيمة ٦٧، فتعرضنا كمؤسسة سينما لهجوم حاد، كيف نعرض هذه الأفلام والبلد فى هذه الحال. ولم يتذكر أحد أن تلك الأفلام تم إنجازها قبل الكارثة. كانت أجواء جحيم، فالرأى العام لا يرضى، والصحافة معه، بهذه الأفلام، وديوان المحاسبة يطالبنا بالعمل وعرض الأفلام، والدكتور ثروت عكاشة يطلب منا إنتاج روائع سينمائية، وإذا طلبنا ميزانية من وزير المالية آنذاك الدكتور عبدالعزيز حجازى يقول لنا: «اعملوا مثل فؤاد المهندس واكسبوا. البلد خربت». كانت ورطة كبيرة لى، خرجت منها بالعناية الإلهية. فقد اختلف الدكتور عبدالرازق حسن المسئول المالى عن الإنتاج مع الأديب والضابط جمال حماد كاتب قصة «شروق وغروب». طلب حماد من عبدالرازق حسن أن يكون كاتب السيناريو هو عبدالرحمن الشرقاوى. فانفجر فيه عبدالرازق كعادته ووقعت مشاجرة هائلة، خرج حماد على أثرها إلى جمال عبدالناصر مباشرة. ويبدو أن عبدالناصر طلب من ثروت عكاشة إبعاد عبدالرازق حسن. واستدعانى ثروت عكاشة فى حضور الأستاذ حسن عبدالمنعم وكيل الوزارة، وكان حسن عبدالمنعم ـ رحمه الله ـ على خلاف مع عبدالرازق، بسبب عصبيته وانفعالاته الحادة المتكررة، حيث جمعهما اجتماع فى لجنة التنسيق وكنت موجودًا، وأراد حسن عبدالمنعم أن يبدى رأيًا فأسكته عبدالرازق طالبًا منه عدم الكلام قائلاً له ـ وهو كلام غريب: «أنت هنا فقط كوكيل وزارة وليس لك الحق فى إبداء الرأى»! قال لى ثروت عكاشة إن عبدالرازق فشل فى تنفيذ الخطة، فقلت له أبدا أنا مقتنع أنه نفذ الخطة الاقتصادية كأحسن ما يكون. وهنا لم يجد عكاشة منى ما يريد أن يعتمد عليه فى إبعاد عبدالرازق. قلت له: «كلنا تحت أمرك، وأنا مسئول عن عبدالرازق رسميًا، وإذا تم إبعاده فلابد من إبعادى أنا أيضًا». أبلغنى ثروت عكاشة أننى يمكن أن أستمر فى منصبى إذا أردت، فقلت له: «إننى أفضل أن أكون مستشارك وهى الوظيفة التى عرضتها علىّ من قبل». وتم إبعادى أنا وعبدالرازق حسن عن مؤسسة السينما. وما شهدت به كان

هو الحقيقة فى نظرى وكانت هذه الشهادة لصالح الدكتور عبدالرازق حسن، فأنا رئيسه فى العمل، وكان الرجل موقفه سليمًا من الناحية المالية والاقتصادية والإدارية، فهو أستاذ من أكفأ أساتذة الاقتصاد فى مصر. أما انفعالاته وتصرفاته مع الفنانين، فأنا لم أختره، بل ثروت عكاشة هو الذى قدمه لى، ثم هو يشكو منه بعد ذلك، ويطلب منى التدخل لأصلح علاقاته مع الفنانين، والتى كانت تتعرض للفساد بسبب انفعالاته، مع ماجدة وكمال الشناوى وغيرهما. وكان عبدالرازق رجل اقتصاد، ولم تكن له علاقة بالسينما. ولا حتى عن طريق المشاهدة، وإنما أتى به ثروت عكاشة ليحل المشاكل المالية للسينما، وبعد هذه الواقعة بين عبدالرازق وحماد ثم لقائى مع ثروت عكاشة فى حضور حسن عبدالمنعم، استدعانى ثروت عكاشة مرة أخرى، وقال لى: «إن المنطق يقتضى إبعادكما أنت وعبدالرازق عن مؤسسة السينما، ولكن إذا كان هذا سيضايقك فبإمكانك البقاء رئيسًا للمؤسسة، وسأعين عبدالحميد جودة السحار رئيسًا للإنتاج». رجوت ثروت عكاشة أن يعفينى، وذكرته باعتذارى قبل ذلك عن هذا العمل لولا أن طلب منى ألا أخذله أمام عبدالناصر، وأكدت له أننى أفضّل أن أكون مستشارًا له، وتقبل الرجل منى هذا الموقف، وحقق مطلبى بتعيينى مستشارًا له.

حل عبدالحميد جودة السحار مكانى كرئيس للمؤسسة، وغيّر كثيرًا فى نظامها الإدارى، ولم يعد رؤساء الشركات مستقلين عن رئيس المؤسسة، وإنما أصبحوا نوابا له فى القطاعات المختلفة بالمؤسسة. أما أنا فأصبحت مستشارًا لوزير الثقافة حتى خرجت للمعاش سنة ١٩٧١ مختتمًا حياتى الوظيفية الحافلة. وكانت أعلى درجة وظيفية حصلت عليها هى «رئيس مؤسسة»، وهى تساوى درجة «نائب وزير». أما أعلى مرتب حصلت عليه فى الحكومة فكان ١٠٠ جنيه شهريًا، وحاليًا أحصل على معاش يصل إلى ١٦٠ جنيهًا شهريًا بعد ٣٧ سنة فى الوظيفة والحمد لله.

الفصل الثالث

هكذا اخترت طريق الأدب

فى الابتدائية كتبت قصة حياتى وأسميتها «الأعوام» ـ فى عام الحسم تركت الفلسفة وفضلت الأدب ـ كدت أصبح شاعرًا لولا سوء ذاكرتى ـ من الرواية التاريخية إلى الواقعية ـ الجلوس فى المقاهى للتعرف على الناس والاستماع إلى الحكايات ـ توفيق الحكيم كان عنده حق ـ قلت لأنصار اللا رواية: «أفهمونى ما تقصدون وخذوا أموالى»! ـ الغموض فى الأدب مطلوب بشروط ـ «اللص والكلاب» ولغة الشعر.

■ فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن بدايته الأدبية ويكشف لنا لماذا اختار فن الرواية بالذات، مع أنه سار فى طريق الدراسات الفلسفية عقب التحاقه بكلية الآداب جامعة القاهرة. ثم كتب الشعر وتخلى عنه. وأخيرًا سار فى طريق الرواية الصعب. ويجيب نجيب محفوظ بصراحة عن هذا السؤال: لماذا رفض تيار اللا رواية واللا معقول؟ وما هو رأيه فى تنقل توفيق الحكيم بين المذاهب الأدبية المختلفة.. ■

نجيب محفوظ: فى سنوات الدراسة الابتدائية قرأت لكبار الأدباء فى ذلك الوقت وحاولت تقليد أساليبهم، حاولت تقليد أسلوب المنفلوطى فى «النظرات» و«العبرات»، وحاولت كتابة قصة حياتى على غرار «الأيام» لطه حسين، وأسميتها «الأعوام». وكان عام ١٩٣٦ هو العام الفاصل فى حياتى، فيه قررت احتراف كتابة القصة، بعد أن مررت بصراع نفسى رهيب فى المفاضلة بين الفلسفة والأدب. ولم أحاول أن أشرك أحدًا فى تفكيرى أو أطلعه على ما يعتمل فى نفسى من صراع، اخترت طريق الرواية رغم صعوبته، وتركت طريق الفلسفة رغم سهولته بالنسبة لى، حيث كنت قد كونت أساسًا متينًا فى الدراسات الفلسفية. وصعوبة الطريق الذى اخترته تعود إلى عدة أسباب، أهمها: أن الأدب العربى كان يفتقر إلى فن الرواية بشدة، وكان التراث الروائى الموجود فى ذلك الوقت محدودًا للغاية، والأعمال الموجودة قليلة، وهى أقرب إلى فن «السيرة الذاتية» مثل «عودة الروح» لتوفيق الحكيم و«زينب» للدكتور محمد حسين هيكل و«الأيام» للدكتور طه حسين. كما أن هذا الطريق كان يقتضى منى قراءات واسعة فى الأدب العربى والعالمى على حد سواء.

فى تلك الأثناء كان أمامى طريق ممهد هو طريق الشعر، كنت أحب الشعر، وكتبته، وكان فى إمكانى الاستمرار خاصة أن الشعر له تراث عريق فى الأدب العربى، بل هو كما يقال ـ بصدق ـ ديوان العرب. والسبب الأساسى الذى جعلنى أتراجع عن كتابة الشعر هو افتقادى لملكة الحفظ التى يقوم عليها الشعر.

كانت الرواية هى الفن الذى وجدت نفسى فيه، وكانت أعمالى الأولى عبارة عن روايات

تاريخية كتبتها تأثرًا بقراءاتى فى التاريخ الفرعونى القديم، خاصة أعمال «رايدر هاجارد» صاحب الرواية المعروفة «هى أو عائشة» والذى حصل على لقب «سير». وأعمال «هوك كين» الأديب الإنجليزى الذى اشتهر بالكتابة عن التاريخ الفرعونى، وزار مصر وأقيم له احتفال مشهور فى دار الأوبرا، وكتب أحمد شوقى قصيدة له احتفاء به. هذا بالإضافة إلى سلسلة الروايات التاريخية المعروفة «لجورجى زيدان»، والتى أوحت إلىّ بكتابة تاريخ مصر كاملاً من خلال الأعمال الروائية، وهو المشروع الذى توقف ولم يتم.

عندما بدأت قراءاتى تتسع وتتعمق خاصة فى الأدب الحديث قل حماسى للكتابة التاريخية. بل مات الحماس فى داخلى، بعد أن أدركت أن المسألة أخطر وأعمق، وأن الرواية يمكن أن يكون لها دور مؤثر فى معالجة قضايا المجتمع والتعبير عن هموم الناس ومشاكلهم، ومن هنا اتجهت إلى الرواية الواقعية.

وفى تلك الفترة كنت أجلس فى المقاهى، أتابع تفاصيل الحياة اليومية وحكايات الناس. لأن الواقعية تقتضى الاهتمام بالتفاصيل مهما كانت صغيرة، واستغرقتنى الواقعية فترة طويلة، حتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، فوجئت عندئذ بواقع جديد وقضايا جديدة ونوع جديد من التفكير طرأ على المجتمع، يختلف عما كان سائدًا من قبل، هذه التغيرات أدخلتنى فى حالة من التأمل والتفكير استمرت خمس سنوات، لم أكتب خلالها أى عمل أدبى. وكان العمل الأول الذى كتبته بعد الثورة وبعد سنوات الانقطاع هو «أولاد حارتنا». ولا تحتاج هذه الرواية إلى تفكير عميق حتى يدرك القارئ أنها لا تنتمى إلى الأدب الواقعى، وليس فيها الإغراق فى التفاصيل، الذى كان يميز أعمالى السابقة، بل تنتمى إلى منهج مختلف أقرب إلى مستوى الرمز.

والحقيقة أن المذاهب الأدبية لا تجذبنى لذاتها، ويظل المذهب الفنى بالنسبة لى مجرد أداة، وليس هدفًا فى ذاته، مثلما حدث مع توفيق الحكيم. ففى أوقات كثيرة كان الحكيم يتجاوب مع المذاهب الفنية لذاتها. فعندما كان التيار الماركسى له سطوة ونفوذ فى الأوساط النقدية كتب «الصفقة»، ولما ازدهر تيار اللا معقول فى أوروبا ومصر كتب «يا طالع الشجرة». وفى مرحلة ازدهار الدعوة للفرعونية كتب «إيزيس». ولما بدأت الفكرة الإسلامية تظهر وتؤثر كتب عددًا من الأعمال فى هذا المجال، منها كتابه المعروف «محمد»، وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان التيار النقدى السائد متجاوبًا مع المذهب الأدبى الذى يميل إليه. وإن كنت أعتقد أن الحكيم كان لديه إحساس داخلى ـ وهو فيه على حق ـ بأنه

رائد ومن واجبه أن يعطى نماذج للأجيال الأدبية الناشئة عن كل مذهب أدبى جديد يظهر فى الآداب العالمية.

وإذا كانت المذاهب الأدبية لم تستهونى لذاتها، إلا أننى كنت أتابعها متابعة جيدة وأنظر إليها بعين الناقد، وبعض هذه المذاهب رفضته رفضًا تامًا، خاصة تيار اللا رواية. ولقد قرأت ما كتبه رموز هذا التيار مثل «آلان روب جرييه» و«ناتالى ساروت» فى فرنسا، وكنت أجد



وهب نجيب محفوظ حياته للأدب والفن والثقافة ولم يشغل نفسه بأى شيء آخر

صعوبة كبيرة فى فهم ما يقصدون، وعرضت على بعض النقاد المؤيدين لهذا التيار أن نجلس معًا لنقرأ أى عمل ينتمى لهذا التيار، وقلت لهم إننى على استعداد لتسديد خمسة جنيهات عن كل ساعة قراءة، وكان لدىّ النية للدفع، ولم أكن أرغب من وراء فهم هذا التيار أن أقوم بتقليده أو الاستفادة منه، بقدر ما كنت أبغى الاستمتاع الفنى لذاته. ومع ذلك هرب هؤلاء النقاد منى، وحاولت أن أقرأ بنفسى الكتابات النقدية عن تيار اللا رواية، فلم تزدنى إلا غموضًا. وهذا الموضوع يقودنى إلى مناقشة نقطة هامة. حيث ينادى بعض النقاد بضرورة أن يكون الأدب به بعض الغموض، وأنا لا أعترض على هذه الأفكار، لأن الأدب الواضح المباشر الذى يعطى القارئ كل شىء بطريقة بسيطة ومباشرة، يعطل ملكة الخيال لدى القارئ، ولا يمنحه الفرصة للتفكير والتحليل. والأدب بطبيعته رمزى، حتى الواقعى منه يجب أن يتصف بمستوى من الرمزية والغموض، بشرط ألا يصل لحد الإبهام والتعتيم وإرهاق ذهن القارئ. وحتى الشعر العربى القديم رغم واقعيته وبساطته، كان يتضمن هذا المستوى المقبول من الرمز.

وفى الروايات الواقعية نفسها تجد مستوى من الغموض. صحيح أنها لا تتيح لمؤلفها الإغراق فى الغموض، ولكنها تمنحه منطقة لا بأس بها. ففى رواية «زقاق المدق» توقف النقاد عند شخصية «حميدة». منهم من اعتبرها شخصية إنسانية حية تجسد شخصية الفتاة فى الحارة الشعبية، ومنهم من اعتبرها معادلاً موضوعيًا لأحوال مصر فى تلك الفترة، على أساس أن ظروف «حميدة» تتشابه مع الظروف التى كانت تمر بها مصر، فهى جميلة ومغرية ومطمع للكثيرين، فهذا يحاول تضليلها عن طريق السياسة، وهذا عن طريق الحب... وهكذا.

ومع المتاعب التى واجهتها فى محاولة فهم اللا رواية، فإننى لم أجد الصعوبة نفسها فى فهم المدرسة التعبيرية[1]. وقرأت أعمال كافكا وغيرها من رواد هذه المدرسة،

---

(١) أعتقد أن من الضرورى تقديم تفسير سريع لمعنى كلمة «التعبيرية» الواردة هنا، والفرق بين هذه المدرسة الفنية ومدرسة «اللا معقول»، فالتعبيرية هى مذهب أدبى وفنى ظهر فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والأصل فى هذا المذهب أن الفنان لا يصور الأشخاص والأحداث عن طريق التقليد والمحاكاة للواقع، بل يعتمد على إحساسه الخاص بالواقع كما يبدو له فى داخل نفسه وليس كما يراه بعينيه فى واقع الحياة، فالفنان إذا أحس بأن المرأة هى زهرة، رسم صورتها على شكل زهرة، وهكذا «فالمذهب التعبيرى» هو تصوير للحياة كما يحس بها الفنان وليس كما هى عليه فى الواقع الخارجى، ومن أشهر أعلام «المذهب التعبيرى» فى الرسم «فان جوخ» و«جوجان»، وفى الموسيقى «ريتشارد فاجنر»، وفى الأدب «يوجين أونيل» الأمريكى و«كافكا» =

ووجدت فيها عالمًا موازيًا للواقع، بل أشد واقعية. لقد قرأت لكافكا عملاً جميلاً، هو رواية «المحاكمة»، حول شخص يجد نفسه متهمًا فى جريمة ولا يعرف تهمته أو الذنب الذى ارتكبه، حتى يبدو للقارئ أن الحكاية أقرب إلى النكتة مع أنها منطقية جدًا. فأحيانًا تقابل فى الطريق شخصًا شاردًا ينظر إلى السماء ويتحدث إلى الله: «يارب.. ماذا فعلت حتى يجرى لى ما جرى؟». منتهى الواقعية فى تصورى. ورواية كافكا «مصير صرصار» تدور حول شخص يستيقظ فى الصباح فيجد نفسه وقد تحول إلى صرصار. رواية جميلة ومفهومة وتعبر عن حالة الانسحاق التى يتعرض لها الإنسان فى العصر المادى. أما أعمال «صمويل بيكت» الروائية فلم أفهم منها شيئًا، أجواء غريبة وأحداث غير مبررة وشخصيات مجنونة ورؤية عبثية للعالم. أين هذا العبث من بعض أعمال «بيكت» المسرحية الجميلة مثل «لعبة النهاية»، و«فى انتظار جودو»، وغيرها من الأعمال التى تتميز بجمال فى الأسلوب والإيحاءات والسرد، وقد كان لهذه الأعمال المسرحية تأثيرها على بعض الأدباء العرب مثل إدوار الخراط فى «حيطان عالية» حيث يتأثر الخراط بأعمال بيكت، وقد قرأت «حيطان عالية» وأعجبتنى كثيرًا.

= التشيكى الأصل الألمانى اللغة، وهو الذى تصور تحول الإنسان الحديث إلى «صرصار» نتيجة لما يتعرض له من انسحاق وقهر، فكتب روايته القصيرة «مصير صرصار»، وتابع حياة هذا «الصرصار البشرى» وما يعانيه حتى نهاية الرواية. هذه هى المدرسة «التعبيرية». التى أشاد بها نجيب محفوظ واعتبر أنها مفهومة ومقبولة فنيًا وفكريًا، أما مدرسة «اللا معقول» التى رفضها فهى مدرسة أخرى تختلف عن «التعبيرية» تماما. وكلمة «اللا معقول» هى المقابل العربى لكلمة «drusba» الإنجليزية، وهى فلسفة أدبية وفنية، تقوم على الاعتقاد بأن الإنسان يعيش حياة غير قائمة على العقل، وغير محكومة به، وغير مفهومة منه، وأن الوجود كله «عبث»، وأنه «خال من المعنى»، وأنه «فوضى لا نظام فيه»، وأن صراع الإنسان من أجل الوصول إلى معنى واضح محدد للحياة هو صراع بلا نتيجة، وقد انتشر «مذهب اللا معقول» فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ ـ ١٩٤٥» وما شاهده الناس فيها من أهوال وتجارب أليمة، وامتدت موجة هذا المذهب إلى الخمسينيات وما بعدها، وعرفها أدبنا العربى فى الستينيات، وبعد تقديم مسرحيات لـ «بيكت» و«يونسكو» على خشبة المسرح المصرى، وكتب رائد المسرح المصرى توفيق الحكيم مسرحيته الشهيرة «يا طالع الشجرة» متابعًا فيها مدرسة «اللا معقول» أو«العبث». ولكن هذه المدرسة خفت صوتها الآن بعد أكثر من ثلاثين سنة. ومدرسة «اللا معقول» أو«العبث» يسودها الغموض والتعقيد فى التعبير والأفكار والمشاعر، كما أنها تعتمد على التجريد الشديد للأشخاص والأحداث، وتنزع إلى الانفصال التام عن الواقع. ومدرسة «اللا معقول» تنطوى على فلسفة شديدة التشاؤم تقول بعدم جدوى الحياة أو العقائد الدينية أو المذاهب السياسية أو أى أفكار منطقية منظمة أخرى. ويوحى إنتاج مدرسة «اللا معقول» بأن الحياة مأساة تستعصى على الفهم أو التفسير أو التبرير، وأن وجود الإنسان فى هذه الحياة لا هدف له ولا معنى فيه. «ر. ن»

أعتقد أن مذهب اللا رواية أصبح الآن فى ذمة التاريخ، ولم يعد له صوت فى ساحة الأدب الأوربى. وبعد فوزى بجائزة نوبل زارنى بعض الأدباء الفرنسيين، فسألتهم عن مذهب اللا رواية وهل ما زال له أنصار فى أوروبا، فتبسموا ضاحكين فى سخرية، وقالوا لى إنه كان بدعة وانتهت، ومما يزعجنى أنهم ينسبون الروائية «دوارس» صاحبة رواية «هيروشيما حبيبتى» لهذه المدرسة، مع أن رواياتها مفهومة وبديعة وليس فيها أى تعقيد، بدليل أن رواية «هيروشيما حبيبتى» قد تحولت إلى فيلم سينمائى، ولا يمكن لرواية أن تتحول إلى السينما إن لم تكن مفهومة للجمهور.

يتبقى لنا أن نتحدث عن عدة نقاط:

الأولى: خاصة بالعلاقة بين فن الرواية والتاريخ. وفى رأيى أن العلاقة وطيدة، فالرواية عبارة عن استعراض للحياة اليومية بكل مشاكلها وقضاياها وأشخاصها. وهذا جزء من التاريخ لم يكتبه المؤرخون. ثم إن التاريخ عبارة عن أحداث وتفسير ورؤية وأشخاص، والرواية كذلك.

الثانية: عن العلاقة بين الرواية والشعر، وفى اعتقادى أن الشعر هو روح الأدب، وكما أشار النقاد، فإن هناك عددًا كبيرًا من رواياتى يتضمن لغة شعرية كانت تصل فى بعض الأحيان إلى لغة صوفية كما فى «اللص والكلاب»، بل إن هناك رواية أدخلت فيها الشعر بشكل مباشر هى «الحرافيش»[1].

والأمر الذى لا شك فيه أن الفنون الأدبية تستفيد من بعضها البعض، لذلك تجد أن دراسة الفن تتم بشكل شامل وليس كفروع منفصلة. وفى أوروبا نلاحظ أن المدارس أو المذاهب الفنية لا تقتصر على مجال دون آخر. فالمذهب الرومانسى امتد - مثلاً - إلى الرواية والقصة والشعر والفن التشكيلى، بل وصل إلى فن العمارة. وإن كان هذا لا يمنع أن يستقل كل فن بذاته، ويكون له خصائصه المميزة، وأنا أعتبر نفسى من قراء الشعر ومحبيه ومتذوقيه، وكان لى تجربة فى كتابته، ولو كان عندى ملكة الحفظ لاستمرت التجربة، لأن الشاعر لابد أن يتمتع بهذه الصفة التى لا غنى عنها، ولكن القدر كان له تصريف آخر.

---

(١) فى هذه الرواية استخدم نجيب محفوظ نصوصًا كاملة من ديوان «حافظ الشيرازى»، ووضعها نجيب فى رواية «الحرافيش» بنصها الفارسى، وقد قدمت ترجمة لهذه النصوص فى كتابى «فى حب نجيب محفوظ»، وذلك اعتمادًا على ترجمة الدكتور أمين الشواربى لديوان حافظ الشيرازى. «ر. ن»

الفصل الرابع

هؤلاء علمونى

الشيخ عجاج علمنى الوطنية واللغة العربية ـ البوليس يحاصر مدرستنا والطلاب يقاومون بالملاعق والأطباق ـ الشيخ عجاج يتهمنى بالخروج عن المقدسات ـ الشيخ مصطفى عبدالرازق مثال للحكيم كما تصورته كتب الفلسفة ـ «مسيو كوربيه» الأستاذ الذى توقع لى النبوغ فى مجال الفلسفة. أستاذ اللغة الإنجليزية الذى دخلت معه فى معركة ـ كرهت الإنجليز ولكننى تعلمت لغتهم وقرأت أدبهم ـ «مستر بلا كنبرى» الإنجليزى الذى عشق مصر.

■ فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن أساتذته فى مراحل الدراسة المختلفة، وهو يتوقف طويلاً عند الشيخ عجاج مدرس اللغة العربية بمدرسة فؤاد الأول الثانوية. ذلك الرجل الذى علمه معنى الوطنية وأرشده إلى عيون الأدب العربى. ومن الشيخ عجاج إلى الأساتذة الإنجليز. وهو هنا يجيب عن عدد من الأسئلة الهامة، مثل: علاقته بهؤلاء الأساتذة الأجانب ونظرته إليهم وصراعه معهم بسبب آرائهم الاستعمارية.. ■

نجيب محفوظ: قبل أن أتحدث عن أساتذتى فى المدرسة والجامعة والحياة الذين تركوا أثرًا فى شخصيتى وحياتى. أحب أن أتوقف أولاً عند ملاحظة جديرة بالتسجيل، وهى أن ذلك الجيل من الأساتذة لا يمكن أن يتكرر فى ظل ما نسمع عنه الآن من المستوى الذى انحدر إليه الجيل الحالى. كان ذلك الجيل من الأساتذة متمكنًا من عمله، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والموهبة، وانعكس ذلك بالطبع علينا نحن تلامذة ذلك الزمان، وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين علمونى الشيخ عجاج أستاذ اللغة العربية بمدرسة فؤاد الأول الثانوية، وهو من خريجى دار العلوم إن لم تخنى الذاكرة، ولم يكن الشيخ عجاج مدرسًا للعلم فقط بل كان معلمًا للوطنية، حيث كان أحد الأسباب المباشرة التى جعلتنا نحن تلاميذ تلك المدرسة ننفعل بثورة ١٩١٩ ونعشق زعيمها سعد زغلول، كان الشيخ عجاج داعية من دعاة الثورة، وحتى فى دروس اللغة العربية كان يستشهد بمواقف وأقوال زعمائها، وأذكر أنه ثار ذات مرة ثورة عارمة على زميل لنا من أبناء الذوات لأنه رفض الخروج معنا فى إحدى المظاهرات، ويبدو أن أسرته كانت قد حذرته من المشاركة فى هذه المظاهرات أو الخروج من المدرسة مع الخارجين، حتى لو بقى وحده فى المدرسة، ونال ذلك التلميذ قسطًا هائلاً من التعنيف والتوبيخ على لسان الشيخ عجاج الذى اتهمه بالخنوع وقلة الوطنية، وقال له فى غضب: «زملاؤك يعرضون أنفسهم للموت من أجل استقلال الوطن وأنت جالس هنا. إنك تأتى للمدرسة من أجل اليمخانة»!. و«اليمخانة» هو المكان الذى يتناول فيه التلاميذ وجبة الغداء. فاليوم الدراسى كان يمتد ساعات طويلة مما جعل وزارة المعارف تقدم وجبة غداء مجانية فى المدارس، وحدث ذات مرة أن حاصر البوليس مدرستنا فى عهد حكومة

إسماعيل صدقى باشا، فدخل التلاميذ إلى «اليمخانة» وأخذوا منها السكاكين والملاعق والأطباق والأوانى لمقاومة قوات البوليس ومنعهم من اقتحام المدرسة، وكان أن عاقبتنا إدارة المدرسة بالحرمان من وجبة الغداء، وكم تألمنا من هذا العقاب!!

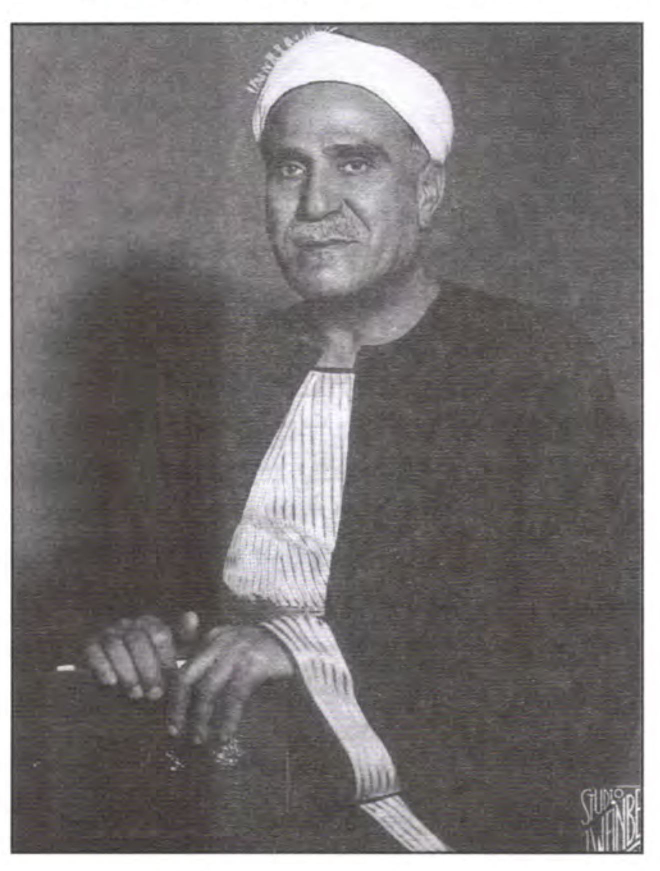
كان الشيخ عجاج من أوائل الذين لفتوا انتباهى إلى جمال التراث العربى وروعته وثرائه، ففى دروس «البيان» كان يستشهد بأبيات شعرية ـ وأغلبها من شعر الغزل ـ وبحوادث ليست فى المقرر الدراسى، وكنت أسأله عن مصادرها فيدلنى على عيون التراث العربى، مثل: «البيان والتبيين» للجاحظ. وذهبت إلى مكتبات خان الخليلى وبحثت عن هذه الكتب طويلاً حتى اهتديت إليها، ونفعتنى قراءتها كثيرًا فيما بعد.

كانت العلاقة بينى وبين الشيخ عجاج ودية للغاية، وكان من المعجبين بأسلوبى فى الكتابة، كما كان يعتبر موضوعاتى فى الإنشاء نماذج تحتذى للتلاميذ. وكان يعكر صفو هذه العلاقة أحيانًا بعض الأفكار التى أضمنها هذه الموضوعات ويعتبرها الشيخ مساسًا بالدين، ففى تلك الفترة كانت نظرتى للدين تتسم ببعض التحرر، ولكنى أؤكد أنها كانت نظرة تحررية وليست كافرة، كنت مثلاً أكتب موضوعًا عن عظماء التاريخ وأضع من بينهم محمدًا «ص»، فكان الشيخ عجاج يعتبر هذا مساسًا بقدر النبى وإنزالاً من شأنه، ويعتبرنى خارجًا على المقدسات. وكان الشيخ عجاج عندما رأيته لأول مرة يصر على ارتداء الملابس الأزهرية، وهى القفطان والعمة، وبعد فترة خلعها وارتدى الملابس الأفرنجية.

كانت تلك هى نقطة الخلاف الوحيدة بينى وبين الشيخ عجاج، وما عدا ذلك كانت العلاقة بيننا على أحسن ما يكون بين تلميذ وأستاذ، ولهذا الرجل فضل كبير فى إتقانى لقواعد اللغة العربية، والملاحظة الجديرة بالذكر هى أن أساتذة اللغة العربية فى تلك الفترة كانت لديهم مقدرة هائلة على تبسيط قواعد اللغة العربية للتلاميذ، ولذلك تجد أغلبية تلاميذ تلك الأيام لديهم تفوق واضح فى قواعد اللغة العربية إذا ما قورنوا بمستوى التلاميذ الآن، كان عندى اهتمام خاص باللغة العربية فى سنوات دراستى الأولى، وانعكس ذلك فى موضوعات الإنشاء التى كنا نقوم بكتابتها، وفى إجادتى لقواعد النحو والصرف. وإلى وقت قريب كنت أحرص على وجود قواميس اللغة العربية وكتب النحو بجوارى أثناء الكتابة، حتى أستعين بها إذا اختلط علىّ الأمر بين الكلمات الفصحى والعامية. ومنذ بدأت الكتابة وأنا حريص على استعمال العربية الفصحى والبعد قدر الإمكان عن استعمال العامية، خاصة أن لدينا عدة لهجات من العامية. فتجد لأهل الصعيد لهجة، ولأهل الوجه البحرى لهجة،

وداخل البلد الواحد قد لا يفهم سكانه بعضهم بعضا بسبب اختلاف اللهجات المحلية، وأذكر أن فيلم «بياع الخواتم» بطولة فيروز ترجم إلى اللغة العربية الفصحى عندما عرض فى القاهرة بسبب صعوبة اللهجة المحلية اللبنانية بالنسبة للمشاهد المصرى.

وتمسكى باللغة العربية الفصحى يرجع إلى أسباب عديدة منها، أنها لغة عامة وقومية ودينية وغير ملفقة. ولكن كان علىّ أن أعطيها نوعًا من الحياة وأعمل على تقريبها إلى أذهان الناس. وأبتعد عن الألفاظ الصعبة التى تزخر بها، حتى تصلح للاستخدام الأدبى الروائى، وإن كان هذا لم يمنع استعمالى بعض الألفاظ العامية عندما تكون أكثر دلالة وتعبيرًا عن المعنى، خاصة إذا كانت ـ هذه الألفاظ ـ لها أصول فى اللغة الفصحى.



الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥ ـ ١٩٧٤)

أستاذ نجيب محفوظ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) ثم وزير الأوقاف سنة ١٩٣٨ حيث اختار تلميذه نجيب محفوظ سكرتيرا برلمانيا.

وإذا كان الشيخ عجاج هو أكثر أساتذتى تأثيرًا فى نفسى أثناء مرحلة المدرسة، فإن الشيخ مصطفى عبدالرازق هو أكثرهم تأثيرًا خلال الدراسة الجامعية. والشيخ مصطفى عبدالرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت، لا ينفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب. كان الشيخ مصطفى عبدالرازق من أنصار حزب الأحرار الدستوريين، ويعرف أننى وفدى صميم، ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا أبدًا. كان جيلنا يتمتع بصفة جميلة، وهى التفرقة بين قضايا الأدب والسياسة. فنحن مثلاً كنا نختلف مع الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين فى السياسة على طول الخط، ومع ذلك نحترمهما كأديبين ونعتبرهما على رأس أساتذتنا الذين نتعلم منهم. وكان هذا الجيل يحافظ على تلك الصفة بشكل يدعو للإعجاب، كان العقاد وطه حسين مختلفين سياسيًا وبينهما خلافات مستحكمة، ولكن عندما تعرض طه حسين لحملة ضارية بعد صدور كتابه «فى الشعر الجاهلى» وقف العقاد إلى جانبه ودافع عنه على صفحات الصحف وتحت قبة البرلمان. كما أننا كنا فى صدام مع الإنجليز ونتظاهر ونهتف ضدهم: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام»[1]، وفى الوقت نفسه نضع الأدب والفكر الإنجليزى فوق رؤوسنا ونقدره ونتابع بشغف ما يكتبه هـ.ج. ويلز وبرنارد شو وغيرهما. كنا نفرق بين الوجه الاستعمارى القبيح والوجه الحضارى المشرق. وإن لم يمنع هذا التفريق من ظهور أصوات بيننا تنادى برفض تعليم الإنجليزية والفرنسية لأولادنا، وتعتبر اللغتين تجسيدًا للغزو الاستعمارى. وهى أصوات لم تفرق بين الوجهين.

أذكر أن من بين الذين زارونى بعد حصولى على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ إعلاميا إنجليزيا كبيرا. وفى أثناء حديثه معى قال لى إن «بريتشارد» يرسل لك تحياته. وأذهلتنى المفاجأة ورن الاسم فى أذنى وقلت فى انفعال: «هل ما زال يذكرنى؟»... و«بريتشارد» هذا كان مدرسًا إنجليزيًا شابًا درس لنا علم الاجتماع بقسم الفلسفة فى كلية الآداب حوالى سنة ١٩٣٤. والعلاقة بيننا لم تكن وطيدة، خاصة أن مادة علم الاجتماع لم تكن من المواد الأساسية، وكنت مجرد طالب يتلقى على يديه العلم. وأصبح «بريتشارد» بعد ذلك من كبار علماء الاجتماع أو «السوسيولوجيا» فى أوروبا، وهو واحد من بين أساتذة أجانب عاصرتهم فى

---

(١) الموت الزؤام هو الموت العاجل، وكلمة الزؤام أطلقها سعد زغلول فى ثورة ١٩١٩ ورددها شعب مصرى كله وراءه. وهكذا أصبحت هذه الكلمة الصعبة المهجورة كلمة شعبية بفضل زعيم مثقف. «ر. ن»

المرحلة الجامعية. أذكر منهم «مسيو كوربيه» أستاذ الفلسفة وهو فرنسى الجنسية، وكان يتوقع لى النبوغ فى مجال الفلسفة، حتى أن أحد زملائى فى قسم الفلسفة قابله بعد تخرجنا بسنوات، فسأله عنى. ولما عرف أننى تركت الفلسفة واتجهت إلى المجال الأدبى أبدى «مسيو كوربيه» انزعاجًا شديدًا وأسفًا عميقًا، وقد أصبح من أساتذة الفلسفة المعدودين فى أوروبا.

فى أثناء دراستى بالمرحلة الثانوية كان بعض أساتذتى من الإنجليز والفرنسيين. وبينما كانت علاقاتنا بالأساتذة الفرنسيين يشوبها قدر من الود وتربطنا بهم صداقات وإن لم تصل إلى درجة العمق، كانت علاقاتنا بالأساتذة الإنجليز سيئة، ولم يقم بيننا وبينهم أى نوع من الصداقة والتعاون، لقد كنا ننظر إليهم باعتبارهم مستعمرين دخلاء، وكان أغلب هؤلاء المدرسين ـ إن لم يكن كلهم ـ غير مؤهلين للتدريس، وجاءوا إلى مصر سعيًا وراء المال والراتب المجزى، وليس حبًا فى العلم. وكان هؤلاء الأساتذة يعيشون فى مجتمع شبه مغلق لا تربطهم بنا أى علاقات إنسانية، وكانوا يرفضون التحدث معنا فى غير الموضوعات الدراسية. وذات مرة تغيب مدرس اللغة الإنجليزية وكنا فى نهاية العام الدراسى، وكان هناك عدد قليل من التلاميذ داخل الفصل، وفضل أغلب التلاميذ البقاء فى المنازل لمراجعة دروسهم استعدادًا للامتحانات، فى ذلك اليوم دخل الفصل مدرس إنجليزى اسمه «مستر براين» كبديل لأستاذنا الأصلى الذى غاب، ولأنها حصة إضافية فقد جلس «مستر براين» على مقعده دون أن يفعل أى شىء، كنت أجلس أمامه فى المقعد المواجه له مباشرة، وبدون مقدمات قال «براين» باللغة الإنجليزية إنه مندهش من أن بلدًا مثل الهند وبلدًا آخر مثلكم ـ مصر ـ يريدان الاستقلال عن التاج البريطانى. وواصل كلامه: «الاستقلال ليس لعبة، أنتم شعوب غير مؤهلة للحكم وعندما يأتى بلد مثل إنجلترا العظمى لتحكمكم، فإن هذا فضل منها ونعمة تستحق عليهما الشكر»!

اعتبرت كلام «مستر براين» ورأيه بمثابة إهانة وهو كذلك بالفعل، فدخلت معه فى حوار ساخن، محاولاً إقناعه بخطأ فكرته عن دول العالم الثالث مثل مصر والهند. قلت له إنها دول ذات حضارات عريقة وأنها أهل للاستقلال، وقادرة على أن تحكم نفسها بنفسها، ولكن الدول الاستعمارية هى التى لا تمنحها الفرصة، وتريد إبقاء الوضع القائم على ما هو عليه حيث تستنزف خيراتها وثرواتها وتستعبدها للأبد.

والحقيقة أن النظرة الاستعمارية العنصرية كانت تسيطر على الإنجليز، والأوربيين بشكل

عام، فى تعاملهم معنا فى تلك الفترة. واستطاعت الحكومات الأوروبية أن تخدع شعوبها حتى تقبل إرسال أبنائها إلى تلك البقاع البعيدة ليواجهوا مصيرًا مجهولاً، ويقوموا بارتكاب أعمال وحشية ضد سكان هذه البلاد. كان هناك فى أوروبا شعب مسيحى يحمل ضميرًا إنسانيًا، يتساءل ويريد إجابة تقنعه باستعمار دول العالم الثالث. وحاولت الحكومات الأوروبية تشويه صورة شعوب العالم الثالث وتقديمهم للرأى العام هناك على أنهم همج ومن أكلة لحوم البشر، وأن رسالة الرجل المسيحى الأبيض، تقتضى أن يقوم بنشر الحضارة فى هذه البلاد مهما كانت التضحيات. وفى سبيل ترسيخ تلك النظرة حاول الغرب تشويه صورة الإسلام وتقديمه على أنه السبب الرئيسى لتخلف الشعوب التى تعتنقه. ولم تكن المشاريع والإصلاحات التى قام بها الإنجليز فى مصر نابعة من نظرة إنسانية أو من رسالة الرجل الأبيض التى خدعوا بها شعوبهم، بقدر ما كانت ضرورة لخدمة مصالحهم الذاتية.

فإنشاء إدارة الأمن العام وحفظ النظام كان بهدف حماية الموظفين والرعايا الإنجليز. وإنشاء الإدارة الصحية كان خوفًا على أنفسهم من الأوبئة والأمراض، وإنشاء السكك الحديدية كان لتسهيل مهمة نقل الأقطان إلى الموانئ ومنها إلى إنجلترا.

وهكذا كانت كل المشروعات من أجل الإنجليز وفى خدمة مصالحهم قبل أن تكون فى خدمة أهل البلد، وحتى إنشاء المدارس والجامعات لم يكن الهدف منه بعث النهضة العلمية، بل تخريج موظفين محليين لخدمة الإدارة الإنجليزية.

وكما قلت فإن المفكرين المصريين كانوا يفرقون فى نظرتهم للأوربيين بين وجههم الاستعمارى القبيح، والوجه الحضارى المشرق. وحدثت معركة شهيرة بين أنصار الاتجاه الساكسونى، أى الإنجليزى، وعلى رأسهم العقاد، وأنصار الاتجاه اللاتينى، أى الفرنسى، وعلى رأسهم طه حسين، وكان لكل فريق حججه ومبرراته. ولم يكن لى موقف شخصى من هذه المعركة، وعندما دخلت المجال الأدبى قرأت فى كل آداب العالم بلا تفرقة، ذلك لأننى دخلت مجال الأدب باعتباره أدب الأسرة البشرية كلها، لا أدب الإنجليز أو الفرنسيين أو غيرهما. لدرجة أننى فى قراءاتى للآداب العالمية كانت تختلط عندى جنسية الأدباء، لأننى كنت أتوقف أمام المعانى الأدبية والمضامين الإنسانية وليس أمام الجنسيات، ولم تمنعنى وطنيتى وانتمائى لحزب الوفد من تعلم اللغة الإنجليزية، ولم أجد أى غضاضة فى ذلك كما لم أجد فيه تعارضًا مع الوطنية.

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن هناك عددًا من الرعايا الإنجليز الذين عاشوا فى مصر قد أحبوا هذا البلد من قلوبهم، ومن هؤلاء «مستر بلاكنبرى» مؤلف كتاب «الأجرومية الإنجليزية» الذى كان مقررًا علينا فى المرحلة الثانوية. وبعد خروجه إلى المعاش، فضل البقاء فى مصر، والعيش فيها، وتعلم اللغة العربية. ولقد قابلته مرة بصحبة «كامل كيلانى» وجلست معه وأدركت مدى حبه لمصر. ورغم ندرة هذه الحالات التى يمثلها «بلاكنبرى» إلا أنها كانت موجودة ولا يمكن إغفالها.

الفصل الخامس

أدباء عرفتهم

ارتبطت بتوفق الحكيم وجدانيًا وروحيًا ـ اكتشفت مقهى «بترو» بالإسكندرية وأسست فيه «ركن الحكيم» ـ لماذا تمنيت الموت ذات يوم للحكيم؟ ـ فيلم «السراب» يتسبب فى طلاق زينب الحكيم ـ هل كان الحكيم بخيلا أو عدوًا للمرأة؟ ـ الحكيم لم يكن روائيًا وعظمته فى المسرح ـ ما هى مآخذى على الحكيم وملاحظاتى على شخصيته؟ ـ الحكيم أطلعنى على «عودة الوعى» قبل نشرها فى كتاب ـ ما هو سر عنف العقاد وعصبيته وشخصيته الصعبة؟ ـ لم يعجبنى هجوم العقاد الظالم على أحمد شوقى ـ أضاعت الصحافة وعدم المبالاة موهبة أدبية فذة مثل المازنى ـ المازنى تنبأ لى بالمتاعب بسبب الواقعية ـ سلامة موسى أول من نشر لى، وكان تأثيره كبيرًا علىّ وعلى جيلنا كله.

■ يعترف نجيب محفوظ بأن واحدًا من أبرز عيوبه يتمثل فى عدم سعيه للقاء الأدباء الكبار الذين أحبهم وتأثر بكتاباتهم وتركه الأمور للمصادفة. لذلك فإن ذكرياته مع الأدباء قليلة إذا ما قورنت بذكرياته مع الفنانين.

وفى هذا الفصل يتوقف نجيب محفوظ أمام أربعة من الأدباء الذين التقى بهم وعاش فى عصرهم ويحمل لهم فى نفسه كل تقدير واحترام وهم: توفيق الحكيم والعقاد والمازنى وسلامة موسى. فماذا قال نجيب محفوظ عن كل واحد من هؤلاء؟... ■

نجيب محفوظ: توفيق الحكيم له مكانة خاصة فى قلبى. وربما أكون أحببت العقاد وتعلقت به وتربيت على يديه، وربما أكون تأثرت بطه حسين إلى حد بعيد، ولكن توفيق الحكيم هو الوحيد الذى ارتبطت به وجدانيًا وروحيًا وعشت معه سنوات طويلة كظله. وعلاقتى بالحكيم تعود إلى عام ١٩٤٧. ففى ذلك العام صدرت روايتى «زقاق المدق»، وكان الحكيم من نجوم الأدب، وقد قرأ هذه الرواية بناء على نصيحة من مدير الأوبرا آنذاك محمد متولى. ثم طلب الحكيم مقابلتى، وذهبت إليه فى مقهى «اللواء» الذى كان يقع فى مواجهة البنك الأهلى المصرى وجلست معه فى حضور مترجم اللغة الألمانية المعروف «محمود إبراهيم دسوقى[1]. فى نهاية اللقاء سألنى الحكيم عما إذا كنت أسافر إلى الإسكندرية لقضاء الصيف ومتى. فأبلغته بأننى أسافر فى شهر سبتمبر بانتظام. فطلب منى مقابلته فى مقهى بسيدى بشر، ولما كان لقاؤنا الأول فى القاهرة فى نهاية صيف عام ١٩٤٧، فلم يكن هناك بد من مرور عام كامل قبل أن ألتقى بالحكيم فى الإسكندرية فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨. وفى الطريق إلى المقهى الذى يجلس عليه الحكيم فى سيدى بشر اكتشفت مقهى آخر أجمل وأنسب اسمه «بترو»، كما أنه أقرب إلى البيت الذى يسكن فيه الحكيم. وعرضت عليه أن ننتقل إلى هذا المقهى ونشئ ركنًا نسميه «ركن الحكيم» ووافق.

---

(١) محمود إبراهيم دسوقى مترجم مشهور فى الجيل وله ترجمات كثيرة عن الألمانية، منها كتاب «نابليون بونابرت» للكاتب الألمانى إميل لودفيج. «ر. ن»

كان «ركن الحكيم» فى «مقهى بترو» يؤمه الباشوات والإقطاعيون من المهتمين بالأدب والثقافة، وأذكر منهم شمس الدين باشا عبدالغفار وبرهان باشا نور. وعندما انضممت إليهم شعرت بتحفظهم نحوى وخوفهم من وجودى. ولاحظ الحكيم ذلك فحاول إزالة هذه التحفظات والمخاوف ونجح فى ذلك، وأصبحت من أعضاء الشلة، ودخلت فى نسيجها الإنسانى، وأخذنا نتبادل الضحك والمزاح.



لم ينقطع الحوار بين نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم منذ لقائهما فى عام ١٩٤٧، والصورة بمكتب الحكيم فى الأهرام

وبعد قيام الثورة استمرت لقاءات «شلة الحكيم» وأصبح روادها من الباشوات السابقين، وكنت أستغل تحفظهم فى أحاديث السياسة لأداعبهم وأسخر منهم. فمثلاً أتحدث عن أحد الأفلام السينمائية المعروضة، وأستخلص منه مغزى سياسيًا خطيرًا وأشير إلى اتفاق شمس الدين باشا معى فى الرأى الذى توصلت إليه، فيقفز شمس باشا من مقعده وهو فى حالة هلع مؤكدًا أنه لا رأى له فى شىء، كان الإقطاعيون والباشوات القدامى فى تلك الأيام يعيشون فى حالة خوف وذعر بعد قيام الثورة خشية الاعتقال والمطاردة.

منذ أن قابلت الحكيم لأول مرة فى عام ١٩٤٧ لم تنقطع علاقتنا حتى آخر مرة زرته فى المستشفى عام ١٩٨٧، وكانت قبل وفاته بأيام. كانت حالة الحكيم الصحية متدهورة جدًا،

حتى أنه لا يكاد يتعرف على زواره. ويبدو أنه أصيب بضمور فى عروق رأسه أثرت على ذاكرته، وهى شبيهة بالحالة التى أصابت الأستاذ أحمد بهاء الدين رحمهما الله. وعندما خرجت من حجرة توفيق الحكيم بالمستشفى قلت لمرافقى خلال الزيارة، الدكتور محمد حسن عبدالله، إننى لم يحدث أن تمنيت الموت لأحد من قبل، ولكن حالة الحكيم جعلتنى لا أتمنى له الحياة بهذا الشكل. لقد أحزننى أن الحكيم يتوهم أشياء غريبة، ويشتكى لى من ممرضته وكيف أنها تريد دس السم له، وكانت الممرضة تنظر إلينا بإشفاق وهى تسمع ما يقوله الحكيم وهى صامتة لأنها تعرف مدى خطورة حالته.

كانت علاقتى بالحكيم حميمة للغاية، وكان يأتمننى على أسراره الشخصية والعائلية. فحكى لى بالتفصيل قصة فشل ابنته «زينب» فى زواجها الأول، وقال لى إننى السبب فى اكتشاف الأسباب الحقيقية لفشل زواجها، حيث إنها ذهبت مع أختيها من أمها لمشاهدة فيلم «السراب» المأخوذ عن رواية لى، وفوجئن ببكاء زينب الحار أثناء عرض الفيلم. وضغطن عليها لمعرفة أسباب هذا البكاء وعلمن بمشاكلها مع زوجها، وقصصن الأمر على الوالد، فأحضر الحكيم زوجها وأقنعه بالانفصال عنها.

على المستوى الإنسانى كنت أحب الحكيم إلى أقصى حد، فهو لطيف، وعلى خلق، وحلو الحديث، وخفيف الروح. أما الحكايات الشهيرة عن بخله وعدائه للمرأة، فهى أقرب إلى الدعاية منها إلى الحقيقة. فكيف يكون بخيلاً من يزوج ثلاث بنات فى عام واحد وينفق على زواجهن ١٥ ألف جنيه، ومنهن اثنتان هما ابنتان لزوجته من زواج سابق، أى أنه أنفق خمسة آلاف على كل بنت فى وقت كان هذا المبلغ يشكل ثروة طائلة. ولو كان بخيلاً حقًا ما أنفق مليمًا واحدًا.. ومما أعرفه أنه أعطى كل مدخراته لابنته عندما تزوجت، ووصل هذا المبلغ إلى ثلاثين ألف جنيه، أعطتها بدورها إلى زوجها الذى خسر تجارته وكاد يشهر إفلاسه وأنقذته مؤقتًا، لأن زوجها خسر الثلاثين ألفًا من الجنيهات بعد ذلك، ولو كان الحكيم بخيلاً حقًا لحدثت له صدمة عنيفة بسبب ضياع أمواله، وعندما حكى لى الحكيم تلك الواقعة ضرب كفًا بكف ثم استغرق فى ضحك متواصل وانتهى الأمر.

ولكن للحكيم عيبًا أعتبره عيبًا ظريفًا لابد أن نقبله. كنا ـ نحن أبناء الجيل القديم من الأدباء ـ معتادين فى أحاديثنا الخاصة أن نحيل أمورنا الشخصية إلى حالة عامة فتتسع المناقشة وتمتد، وكان الحكيم يفعل العكس، إذ يحوّل القضايا العامة إلى قضايا شخصية. وقد سافر إلى أوروبا مرارًا وتعرف على تيارات أدبية وفنية حديثة، وبدلاً من أن يحدثنا عن

هذه التيارات أحال الموضوع إلى حديث عن حياته الخاصة ومواقف له مع أسرته التى اعترضت على اشتغاله بالأدب وهكذا، وكانت جلساتنا كثيرًا ما تستغرق ست ساعات كاملة يستولى خلالها توفيق الحكيم على هذه الجلسات ويظل يتحدث ونحن نستمع إليه. ولكننا لم نكن نمل منه. وكان هو وزكريا أحمد الوحيدين اللذين نقبل منهما الانفراد بالحديث. ومن المآخذ التى أخذتها على توفيق الحكيم عدم اعتنائه بالسؤال عن أصدقائه إن غابوا، وكنت أنا الذى أسأل عن بعض الأصدقاء الذين قدمهم هو لى، أما هو فلا يهتم. والحكيم من الشخصيات المنحصرة فى ذاتها، ولديه ساتر نفسى يحصنه ضد العالم الخارجى، وأظن أن هذه الصفات قد وفرت له الحماية من الإصابة بالانهيار العصبى أمام فواجع عديدة مر بها فى حياته مثل موت زوجته، وموت ابنه إسماعيل فى عز شبابه. لقد حزن الحكيم عليهما ما فى ذلك شك، ولو أن إنسانًا آخر غيره ابتلى بما جرى له ما استطاع أن يتحمل ما تحمله الحكيم. وكثيرًا ما حكى لى عن ابنه إسماعيل وعشقه للموسيقى وأنه شجعه على ذلك، وقد ذهبت مع الحكيم عدة مرات إلى حفلات يعزف فيها إسماعيل واستمعنا إليه ونحن فى غاية السرور والسعادة. كان إسماعيل الحكيم موهوبًا حقًا، ولمع نجمه باعتباره أول من أدخل موسيقى الجاز إلى مصر، ولكنه للأسف أدمن الخمر التى تسببت فى وفاته.

وبعد وفاة إسماعيل ووالدته عاش توفيق الحكيم وحيدًا فى بيته باستثناء سيدة كانت تقوم بتجهيز طعامه ورعاية البيت. ولم أزر الحكيم فى بيته إلا فى مرات نادرة، مع إبراهيم باشا فرج، ومرة أخرى مع ثروت أباظة. فالحكيم لم يكن يحب أن يزوره أحد فى البيت، ويفضل أن تتم الزيارات فى مكتبه بجريدة الأهرام أو فى المقهى.

كان العمل الأول الذى قرأته للحكيم هو «أهل الكهف»، أما أكثر أعماله تأثيرًا فى نفسى فهو رواية «عودة الروح». فلم أقرأ قبلها رواية بهذا الجمال وهذه الخفة والرشاقة. وعندما نضجت أدركت أن منزلة الحكيم الحقيقية هى فى الكتابة المسرحية وليست فى الرواية. وأن «عودة الروح» ما هى إلا مسرحية مكتوبة بأسلوب روائى، وأنها عبارة عن حوار ومناظر مسرحية. ولقد تأثرت بـ«عودة الروح» فى أعمالى الروائية مثلما تأثرت بأعمال المازنى وطه حسين. وكان تأثير «عودة الروح» علىّ يفوق تأثير رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل، والتى لم تترك فى نفسى أثرًا يذكر وأظن أننى نسيتها بعد قراءتها.

توفيق الحكيم هو أول أديب مصرى يتفرغ للكتابة، ويعطى كل وقته للأدب الذى أصبح حرفته التى يعيش منها. وقبله كان أدباؤنا الكبار غير متفرغين للكتابة، ويعملون بها على

هامش وظيفة أساسية أخرى. فالدكتور طه حسين كان أستاذًا فى الجامعة وناقدًا ومفكرًا. وفى فصل الصيف يكتب رواية على الهامش. وأذكر أن العمل الوحيد الذى عرضه علىّ توفيق الحكيم لأقرأه قبل نشره هو كتاب «عودة الوعى»، كما عرضه على كثيرين غيرى. وماعدا ذلك لم يعرض علىّ أى عمل له قبل النشر، وربما يعود ذلك فى تصورى إلى أن أعظم أعمال الحكيم ظهرت قبل عام ١٩٤٧ أى قبل تعرفى عليه وبدء صداقتنا التى استمرت ٤٠ عامًا إلى آخر يوم من حياته.

وكان عباس محمود العقاد هو سبب معرفتى بتوفيق الحكيم. حيث قرأت مقالاً للعقاد وكنت مازلت طالبًا فى الجامعة عن مسرحية «أهل الكهف»، ولم أكن سمعت اسم الحكيم من قبل. وقلت لنفسى إنه مادام العقاد كتب عن هذا المؤلف الشاب فلابد أنه موهوب حقًا، وكتابة العقاد تلك شهادة خطيرة لصالح الحكيم. وعلى الرغم من أن شهرة توفيق الحكيم تعود إلى المقال الشهير الذى كتبه عنه الدكتور طه حسين، فإن طه حسين كان إذا ما أعجبه مؤلف أو كتاب فإنه يطرب له ويتغنى به، أما العقاد فقليلاً ما تقرأ فى كتاباته كلمات الإطراء والثناء. ولذلك فمقالته عن الحكيم كانت أوقع فى نفسى من مقالة طه حسين. فالناقد المخلص يجب أن تتصف أحكامه بالموضوعية والبعد عن المجاملة. ولذلك تعجبنى طريقة النقاد الأوروبيين الكبار فى العمل، حيث يكون الناقد وكأنه مرشد يوضح لك طريقة السير فى معبد الكرنك، ويشرح لك لماذا كان هذا التمثال هنا، ولماذا بنيت تلك الأعمدة هناك، ولا يستخدم تعبيرات مثل «المؤلف العبقرى» أو «الكاتب الكبير» أو أى من كلمات المدح والذم، بل يلتزم الموضوعية.

وثقافة العقاد الموسوعية كان من المفترض أن ينتج عنها نوع من التسامح وسعة الصدر، ولكن حدث العكس، واتصف العقاد بالعنف والتعصب اللذين يميزان ضيق الأفق. وتفسير ذلك عندى أن العقاد له عقل موسوعى، كان له جهاز عصبى مشدود على آخره، ولذلك كانت طبيعته الداخلية صعبة وكلها حساسية لا تتحمل أى شىء، مما جعله ـ ولم يكن يصح ـ يدخل سنة ١٩٦٣ فى معركة مع كاتب من سن أحفاده فى ذلك الوقت وهو رجاء النقاش، وربما كان لعدم حصول العقاد على شهادة جامعية دور فى عصبيته الزائدة وعنفه. فالعقاد بدأ الكتابة عام ١٩٠٦ ولم تكن فى مصر جامعات فعلم نفسه بنفسه. وحكى لى الدكتور عبدالحميد يونس أن الجامعة كلفته بالذهاب إلى العقاد ليعرض عليه «الدكتوراه الفخرية» تكريمًا له، والدكتور يونس من أصدقاء العقاد ومن المترددين عليه. وقد ثار

العقاد وهاج وسب الجامعة، ورد على الدكتور يونس فى سخرية: «من الذى سيسلمنى الشهادة؟!».

هذه العصبية أفسدت حياة العقاد الحزبية، وضيعت عليه فرصًا كثيرة وتسببت فى خروجه من حزب الوفد. كان زعيم الوفد سعد زغلول مدركًا لأبعاد شخصية العقاد، وحاول التعامل معها بذكاء، فعندما خالف العقاد سعدًا فى بعض مقالاته قال الزعيم لأنصاره: «دعوه يختلف معى أو حتى يسبنى»!.. وعندما شوهد العقاد بعد ذلك خارجًا من بيت الأمة، وهو بيت سعد زغلول، تعجب أصدقاء سعد زغلول الذين ظنوا أن هناك ثأرًا بين سعد وبين العقاد، وشرح لهم سعد أنه طلب العقاد وتحاور معه واستطاع تهدئته. وظل العقاد كاتب الوفد الأول حتى سنة ١٩٣٥ ثم اختلف مع النحاس باشا وخرج على الوفد.

ورغم حبى الشديد للعقاد فإن موقفه وهجومه الحاد على أحمد شوقى والمدرسة الكلاسيكية فى الشعر العربى لم يعجبنى، ففى دعوته للتجديد حاول العقاد أن يهدم الكلاسيكية، وشن حملته المشهورة على أحمد شوقى باعتباره رائدًا لهذه المدرسة. وموقف العقاد من شوقى يتضمن كثيرًا من التجنى والظلم الفادح، فقد تتراجع الكلاسيكية ولكن تبقى أصوات منها تفرض نفسها على الساحة والزمن، ولا يمكن أن نهدم رمزًا من رموز المدرسة الكلاسيكية مثل شوقى لمجرد التبشير بظهور مدرسة جديدة. فالهرم الأكبر مثلاً مازال إعجازًا على مر التاريخ ولم يفكر أحد فى تقليده، وننظر إليه باعتباره من الآثار التاريخية القديمة، ولم يحدث أن وصفناه يومًا بالتفاهة أو اتهمنا الفراعنة بأنهم تركوا أثرًا فارغًا من المعنى. ولقد سمعت أن أحمد شوقى ـ رغم ذلك ـ صمم على حضور العقاد لمهرجان تتويجه أميرًا للشعراء، وذهب إليه ودعاه وقال له إن الحفلة لن تتم بغير حضورك، وأخذ يكيل المدح للعقاد، الذى تركه وخرج دون أن ينطق بكلمة، ولم يحضر العقاد الاحتفال.

بينما كانت شخصية إبراهيم عبدالقادر المازنى على النقيض تمامًا من شخصية العقاد، فهو رجل لطيف ومحب للنكتة ولديه قدر كبير من التسامح والمرونة، ومع ذلك كان أقرب أصدقاء العقاد إلى قلبه، وكان العقاد يحبه إلى درجة العشق، والفضل فى الحفاظ على هذه الصداقة يعود إلى المازنى بسبب طبيعته المرنة السهلة والتى تتناقض تمامًا مع شخصية العقاد.

وأرى أنه كان من الممكن أن يكون للمازنى شأن خطير فى عالم الأدب لو أنه أخذ الأمر بجدية أكثر مما سار عليه فى حياته، فلم يكن يكتب إلا عندما يطلب منه ذلك، واستغرقه العمل الصحفى بدافع من الاحتياجات المالية، فكان الأدب يأتى فى مرتبة متأخرة من اهتماماته. لذلك بلغ به الاستهتار ـ ربما بسبب ضيق الوقت ـ لأن ينقل فصلاً مترجمًا[1] من عمل أدبى عالمى ويضيفه إلى إحدى رواياته، وهى رواية «إبراهيم الكاتب»، ويبدو أن حس السخرية عنده كان مرتفعًا لدرجة أنه ينظر لهذه الأمور باستهانة، وكانت مسألة الاقتباس فى ذلك الوقت شائعة ومقبولة.

كل هذا لا يمنع أن المازنى كان يملك موهبة جبارة وأسلوبًا فريدًا فى الكتابة الساخرة، ولم يكن أحد يجاريه فى أسلوبه أو ترجمته البديعة أو خدمته للغة العربية.

وكانت لدى المازنى قدرة عجيبة على انتقاء الألفاظ الشعبية ذات الأصول العربية، وأنا أعتبره فريدًا فى التعبير الساخر السهل العميق، ولو أن المازنى استغل موهبته الاستغلال الأمثل لأصبحت له مكانة أكبر بكثير من المكانة التى وصل إليها فى تاريخ الأدب العربى. فالأسلوب الساخر والحس الفكاهى يمكن أن يصل تأثيرهما وسحرهما إلى مرتبة الجنس، بل إن السخرية يمكن أن يكون تأثيرها أقوى وأشمل.

وللأسف لم يستغل المازنى هذه الموهبة الكبيرة النادرة التى كان يملكها، واستغرقه العمل بالصحافة والبحث عن لقمة العيش والتى فى سبيلها تنقل بين الأحزاب المختلفة، ولم يثبت على ولاء حزبى واحد، لدرجة أن العقاد قال عنه ذات مرة إنه يترك المازنى فى الصباح منتميًا لحزب الوفد ويعود إليه فى الليل ليجده مع الأحرار الدستوريين. ومع أن المازنى يمتلك ثقافة عظيمة وأسلوبًا بديعًا وقدرة على الاستيعاب، فإنه كان محرومًا من إرادة العقاد الصلبة وكبريائه، فأضره ذلك كثيرًا. ولم يقدِّر المازنى نفسه التقدير اللائق بها، وضاعت علينا موهبة جبارة. وأنا لم ألتق بالمازنى سوى مرة واحدة بعد صدور روايتى «زقاق المدق»، حيث أبلغنى عبدالحميد جودة السحار أن المازنى يريد أن يرانى. كنت فى ذلك الوقت من قراء المازنى المدمنين وأحبه كأديب. وكان من عاداتى السيئة أن كثيرًا من الأدباء الذين أحببتهم، لم أحاول الاتصال بهم أو زيارتهم، إذ كنت أترك هذه الأمور

---

(١) اعترف المازنى نفسه بهذه السرقة وسجلها على نفسه فى مقال طريف له عنوانه «السرقات الأدبية»، مجلة الرسالة ـ العدد ٢١٣ فى ٢ أغسطس ١٩٣٧. «ر. ن»

للمصادفة. ذهبت إلى المازنى فى موعد حدده هو مع السحار، واستقبلنى استقبالاً حارًا وأفاض علىّ من المديح ما أخجلنى منه. ثم صمت قليلاً وقال لى إنه يريد أن ينصحنى وأنا فى بداية حياتى الأدبية، ومازالت كلمات المازنى محفورة فى ذاكرتى حتى الآن. قال لى إن الأدب الذى أكتبه هو الأدب الواقعى، وأن هذا النوع من الأدب يسبب لصاحبه مشاكل كثيرة، وفى أوروبا حدثت مشاكل متعددة للأدباء الواقعيين، وطالبنى المازنى بالحرص لأننا فى مصر لم نتعود على فن الرواية، والفكرة الشائعة عن الروايات هى أنها اعترافات شخصية، فطه حسين كتب حياته فى «الأيام»، والدكتور هيكل فعل نفس الشىء فى رواية «زينب»، وأنا ـ أى المازنى ـ فى رواية «إبراهيم الكاتب». ثم قال لى المازنى: «إذا كنت سوف تستمر فى كتابة الأدب الواقعى فسوف تجلب لنفسك المتاعب والمنغصات دون أن تدرى». وقد شكرت المازنى على النصيحة وانصرفت ولم ألتق به بعدها.

عرفت سلامة موسى عن طريق متابعتى لمجلته «المجلة الجديدة» وأنا تلميذ فى المرحلة الثانوية. وفى تلك المرحلة المبكرة بدأت فى إرسال كتاباتى الأولى إلى «المجلة الجديدة» عن طريق البريد. وأدهشنى أن سلامة موسى ينشر كل ما أرسله إليه، كانت كتاباتى عبارة عن مقالات فلسفية، وملخصات لأعمال إبداعية لكبار الأدباء الغربيين خاصة «هنريك إبسن» و«تشيكوف» و«سترندبرج» و«برنارد شو»، بالإضافة إلى قصص قصيرة هى أول ما كتبت. وذات مرة ذهبت إلى مقر «المجلة الجديدة» لأسلم أعمالى مباشرة إلى سلامة موسى، وكم كانت دهشة سلامة موسى حينما رآنى، فقد ظن أنى أكبر من ذلك، ولست مجرد تلميذ فى المرحلة الثانوية، وقد استمرت علاقتى «بالمجلة الجديدة» وأنا طالب فى الجامعة، وبعد تخرجى أصبحت من كتّابها، إلا أن علامات الدهشة لم تفارق سلامة موسى فى كل مرة يرانى فيها، ولم أحصل على مليم واحد مقابل كل ما نشرته فى «المجلة الجديدة».

لا أستطيع أن أحكم على سلامة موسى الإنسان من خلال تلك اللقاءات البسيطة. أما سلامة موسى الأديب والمفكر، فأستطيع القول إن تأثيره كان كبيرًا فى جيلنا. ولقد أضاءت كتبه ومؤلفاته الطريق أمامنا نحو الحياة الحديثة والأفكار المعاصرة، فمن خلال سلامة موسى عرفنا معنى «الفابية» و«الاشتراكية» و«حرية الفكر»، وكل المصطلحات الغربية الجديدة بالنسبة لنا. وقبل لقائى مع سلامة موسى كنت قرأت معظم كتبه، وجذبنى إليه أسلوبه البسيط المعبر وحججه القوية المقنعة، وثقافته الواسعة وحماسه الشديد لآرائه. وقد صدرت أول طبعة من روايتى «عبث الأقدار» عن دار «المجلة الجديدة» التى يملكها

سلامة موسى، وكان أجرى عن التأليف عبارة عن ٥٠٠ نسخة. وقد احترت ماذا أصنع بكل هذه النسخ، فاستأجرت عربة «حنطور» ووضعت الكتب فيها وسرت حائرًا لا أدرى إلى أين أذهب بها، ولم يكن باستطاعتى حملها معى إلى المنزل، وفى «باب اللوق» لمحت مكتبة اسمها «مكتبة الوفد»، وبدون تردد أوقفت العربة وناديت على صاحب المكتبة الذى أنزل النسخ، ثم عرضت عليه شراءها دفعة واحدة، وبيعها فى مكتبته. وبعد فترة من التفكير وافق الرجل وعرض قرشًا واحدًا للنسخة، أى ما مجموعه خمسة جنيهات. ولكنه اشترط أن يحاسبنى بعد البيع، وأنه كلما باع نسخة سيدفع لى قرشًا. واضطررت للموافقة على هذه الصفقة العجيبة. وأذكر أن سلامة موسى أثناء عملية تجهيز طبعة «عبث الأقدار» أعطانى بروفات الرواية لأصححها بنفسى، ولم تكن عندى أى فكرة عن مسألة التصحيح



سلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨)
المفكر المصرى المستنير والذى كان أول من اكتشف موهبة نجيب محفوظ الروائية ونشر له أولى رواياته، وهى «عبث الأقدار».

هذه، فأخذت البروفات وجلست أقرؤها، وكلما وجدت كلمة خطأ أشطبها وأكتب الكلمة الصواب فوقها مباشرة. وعرفت بعد تلك التجربة أن التصحيح ينبغى أن يكون فى هامش الصفحات. لأننى عندما أعدت البروفات بعد تصحيحها لعمال المطبعة ووجدوا أن هامش الصفحات نظيف، طبعوا الرواية كما هى. وظهرت طبعتها الأولى مليئة بأخطاء غريبة، لم أتداركها إلا فى الطبعات التالية، بعدها طبعت عند سلامة موسى كتابى «مصر القديمة»، وكان أجرى ـ أيضًا ـ عدة نسخ من الكتاب. وبعد ظهور رواية «زقاق المدق» بدأ اسمى فى الانتشار، وفوجئت بصاحب «مكتبة الوفد» يخبرنى أن نسخ «عبث الأقدار» تلاقى إقبالاً من القراء الذين بدأوا يتابعون أعمالى الأولى، ومع ذلك لم أحصلْ منه على المبلغ المتفق عليه وهو خمسة جنيهات!

استمرت علاقتى مع سلامة موسى، وأذكر أنه كتب عنى مقالاً وحيدًا عن صدور رواية «بين القصرين» وأشاد بها، وذلك فى «يوميات الأخبار» عام ١٩٥٧ أى قبل رحيله بعام واحد. وقام سلامة موسى بزيارة واحدة لشلة كازينو «أوبرا»، وجلس معنا وقتًا طويلاً، وتناقشنا فى مجالات شتى، ومن يومها لم أر سلامة موسى حتى طالعت فى الصحف نبأ وفاته بعد زيارته لنا فى كازينو «أوبرا» بشهور قليلة. ولا يزال تأثير سلامة موسى حيًا فى نفسى.

عرفت الأستاذ يحيى حقى فى الوظيفة. فقد أنشأ وزير الإرشاد فتحى رضوان «مصلحة الفنون»، واستمرت هذه المصلحة خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩، وتم تعيين يحيى حقى فى منصب مدير المصلحة. وطلب حقى اثنين من المساعدين واختارنى أنا وعلى أحمد باكثير وعملت مديرًا لمكتبه. كان «حقى» هو أول وآخر من تولى إدارة مصلحة الفنون، وبسبب علاقتى الوظيفية معه اقتربت منه أكثر. كنت قرأت له رواية «قنديل أم هاشم» سنة ١٩٤٥، ووجدت فيها عذوبة وفنًا رفيعين، وتعرفت على «حقى» أول مرة فى نادى القصة، ثم حضرت دعوات فى بيته بالزمالك ضمن آخرين. البساطة التى وجدتها فى أدب يحيى حقى، كانت هى نفسها ما يميزه فى الوظيفة، قد كان صديقًا لمرؤوسيه، أما صداقتنا الخاصة فقد ازدادت بمرور الأيام عن طريق الحوار والمؤانسة، وكنا نمضى اليوم معًا فى مصلحة الفنون، ثم يصطحبنى فى سيارته، لتوصيلى إلى بيتى فى العباسية، قبل أن ينطلق إلى مسكنه الجديد بحى مصر الجديدة. كان «حقى» يقضى يوم العمل كله تقريبا فى مكتبى الملاصق لحجرة مكتبه وقد استنكر منى القيام لتحيته إذا أقبل فى الصباح، قائلاً

لى: «أنت أديب كبير»، ولكننى كنت موظفًا، وهو المدير، وهذا الوضع الأدبى الذى يقدره لى يحيى حقى لا يجيز لى التجاوز فى علاقتى الوظيفية معه، نعم كنا أصدقاء ولدينا ما نتواصل فيه إنسانيًا، ولكننى دائمًا كنت أعطى الوظيفة حقها. وبعد إغلاق مصلحة الفنون، لم تعد الوظيفة تجمعنى مع يحيى حقى، ولكن صلاتنا الإنسانية لم تنقطع، وكان كل منا دائم السؤال عن الآخر عبر التليفون وعن طريق أصدقاء مشتركين، ولقد تذكرت يحيى حقى بقوة حينما فزت بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨، وقلت لأول من سألنى عمن يستحق نوبل من الأدباء العرب، فوضعت اسم «حقى» فى المقدمة، كما أننى أهديت له الجائزة باعتباره واحدًا من الأدباء العرب الكبار الذين يستحقونها عن جدارة. لقد أسس «حقى» للقصة القصيرة فى مصر والعالم العربى قاعدة قوية، وأخلص لهذا الفن طوال حياته، وقدم فى هذا النوع من الأدب أجمل ما كتب وأعذبه، وبخلاف القصة القصيرة فإننى استمتعت واستفدت من كتابات «حقى» فى فن المقال وفى النقد.

الفصل السادس

مع أهل الفن

الشيخ زكريا أحمد كان «ابن نكتة»! ـ الشيخ زكريا يلحن أغانى أم كلثوم فى سهرات السمر! ـ مغامرات مع سيد درويش فى حوارى القاهرة ـ الشيخ الكفيف صاحب أجمل حنجرة عرفتها مصر ـ بيرم التونسى الساخر الحزين ـ حفلات «العوالم» فى بيتنا ـ الذوق المصرى من الفرانكو آراب إلى الأغنية الشبابية ـ أسمهان «لم أستخف دمها» وكذلك شقيقها فريد الأطرش ـ التحاقى بمعهد الموسيقى العربية عام ١٩٣٣ ـ العقاد بك صاحب «الشخير» الغريب ـ شاهد على حفلات أم كلثوم فى مسرح «الماجستيك» ـ لقائى الوحيد مع كوكب الشرق ـ حضرت آخر حفلات منيرة المهدية التى اعتزلت بعدها الغناء ـ عبدالحليم نويرة وهل استغل صلة نسبه بالسادات؟! ـ أحمد مظهر ودوره فى ثورة يوليو و«شلة الحرافيش».

■ ما هي أغرب هواية كان يمارسها الشيخ زكريا أحمد مع صديقه سيد درويش؟! ولماذا شعر نجيب محفوظ بصدمة عندما قابل بيرم التونسى لأول مرة؟ وما رأى نجيب محفوظ فى الأغانى الشبابية؟ ولماذا امتنع عن حضور حفلات أم كلثوم فى حديقة الأزبكية؟. وما قصة المطرب الكفيف الذى يعتبره نجيب محفوظ صاحب أقوى حنجرة عرفتها مصر؟. وما قصة عميد معهد الموسيقى العربية صاحب «الشخير» العجيب؟ وهل استغل صديقه عبدالحليم نويرة صلة نسبه بالرئيس السادات؟. الإجابات عن هذه الأسئلة كلها تعرفها من خلال هذا الفصل الذى يتحدث فيه نجيب محفوظ عن ذكرياته مع الفنانين الذين التقى بهم خلال مشواره.. ■

نجيب محفوظ: الشيخ زكريا أحمد من أظرف الشخصيات التى قابلتها فى حياتى. فهو على المستوى الإنسانى ابن بلد لطيف «حبوب» و«ابن نكتة». بالإضافة إلى صفة طريفة كانت تجمع بينه وبين صديقه توفيق الحكيم، فكلاهما إذا جلس فى مجلس فإنه يظل ممسكًا بناصية الكلام منذ حضوره حتى نهاية الجلسة. والفارق الوحيد بينهما أن «الحكيم» يتحدث عن نفسه فقط، وعن ذكريات مر بها أو حوادث وقعت له. أما «الشيخ زكريا» فإنه يقوم بدور الراوى، ويتحدث ربما طوال الليل دون أن يذكر كلمة عن نفسه، حتى يبدو للسامعين أن مؤلف قصص «ألف ليلة وليلة» والشيخ زكريا أحمد هما من نسيج واحد وتجمعهما العقلية نفسها، كانت حكايات الشيخ زكريا لا تنتهى، حكاية تجرك إلى حكاية أخرى فى تسلسل عجيب وترابط مذهل، وقد يبدأ فى سرد حكايته الأولى فى «التاسعة مساء» ويعود إلى نقطة معينة من نفس الحكاية فى الثالثة صباحًا، وما بينهما عبارة عن استدراك وملاحظات وتنويعات.

وكان من الأسباب التى تجعل أصدقاء الشيخ زكريا أحمد يتحملون سطوته وسيطرته على الجلسة، إلى جانب حبهم له، أنه يمثل الحكايات التى يرويها بخفة دم ليس لها مثيل. وكل من يحضر مجلسه لم يكن يتمالك نفسه من الضحك وهو ينظر للشيخ زكريا أثناء تمثيل حكاياته، وربما تكون الحكاية بسيطة وسطحية ولا معنى لها من نوع أن جارة له مرت به وقالت له «صباح الخير يا زكريا يا ابنى». فيقلد صوت السيدة، وطريقة سيرها وحركاتها،

ورد فعله على «صباح الخير» هذه بشكل «كاريكاتيرى» ساخر ومثير للضحك الشديد. وكثيرًا ما كنا نفاجأ به وهو يسرد الحكاية مندمجًا ومنفعلاً وفى منتهى التركيز، فإذا به يترك حكايته بدون مقدمات ويمسك عوده ويغنى، وكنا نحب هذا أيضًا، فصوت الشيخ زكريا أحمد يتميز بقوة ورخامة لا نظير لهما، وقد يترك العود ويعود لحكايته من النقطة التى توقف عندها!

تعود معرفتى بالشيخ زكريا أحمد إلى صديق مشترك هو «صلاح زيان»، وهو من «الأعيان». كان «صلاح زيان» من سكان العباسية، وقد تعود على إقامة سهرة يومية فى منزله يحضرها الشيخ زكريا أحمد. وكنت أسأل نفسى: متى يعمل الشيخ زكريا ويتم ألحانه وهو يداوم على تلك السهرات اليومية؟ واكتشفت أن لديه القدرة على أن يلحن فى أى وقت. وأذكر أنه لحن أغنية «حبيبى يسعد أوقاته» لأم كلثوم وهو يجلس معنا، وفى مرات عديدة كان يضع لحنين مختلفين لأغنية واحدة ويعرضهما علينا لنختار الأفضل.

عندما كان الشيخ زكريا يتحدث لا تشعر أبدًا فى كلامه بأى محاولة من جانبه لاستخدام مصطلحات ثقافية أو فكرية، ولكنك تشعر أنك أمام رجل شعبى وابن بلد، رأسه ملىء بالموسيقى، أما شخصيته فكانت فى غاية الطيبة والإحساس بالمودة الدافئة نحو الناس، وما كنت أظن أنه يمتلك كل هذا القدر من الكبرياء الذى جعله يختلف مع أم كلثوم.

كانت أم كلثوم تدفع للشيخ زكريا أجرًا مماثلاً لما تدفعه لبقية الملحنين الذين يتعاملون معها، فى حين أنه كان يشعر بالتفوق وبأن ألحانه متميزة عن ألحانهم، ولقد عاصرت فترة خلافه مع أم كلثوم عن قرب، وكان يعتبرها مسألة كرامة.

لم يكن الشيخ زكريا يحب القراءة، وربما كانت «زقاق المدق» هى روايتى الوحيدة التى قرأها، وأبدى إعجابًا بها للدرجة التى جعلته يعيد صياغتها ويحكيها أمامنا كأنه المؤلف، بطريقته المثيرة لضحكنا وضحكه هو أيضًا، ولا أعرف من أين جاء الشيخ زكريا بالوقت اللازم لقراءة «زقاق المدق»؟ فقد كان يسهر يوميًا حتى الصباح، وينشغل دائمًا بألحانه وأعماله الجديدة والكثيرة جدًا التى لا يجد لها الوقت الكافى، لدرجة أنه ـ كما قلت ـ كان يلحن وهو يجلس بيننا. ويذكرنى الشيخ زكريا بما سمعته عن أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى كان يستقل الترام أحيانًا ويأتيه الإلهام فيخرج علبة سجائره ويكتب قصيدة عليها. وكان الشيخ زكريا ينقطع عن سهراتنا أحيانًا، وذلك عندما يرتبط بألحان عاجلة فى إحدى تمثيليات الإذاعة المصرية.

كان الشيخ زكريا يحب سيد درويش إلى درجة العبادة، وكان يتكلم عنه بانفعال شديد، ولا يمل أبدًا من الحديث عن أيام صعلكة مشتركة بينهما، وأنه كثيرًا ما كان يصطحب الشيخ سيد درويش فى جولة بعد منتصف الليل فى حوارى القاهرة الشعبية المظلمة، ثم يختاران نوافذ منخفضة ومساوية لسطح الأرض، يجلسان القرفصاء بجوار هذه النوافذ، ويتصادف أن يكون صاحب البيت فى حالة خاصة جدًا مع زوجته، فيسمعان الأصوات الصادرة عن ذلك الوضع فى سعادة، وربما تلهمهما تلك الأصوات الليلية نغمة موسيقية جديدة.

ويبدو أن الشيخ سيد درويش كان مثل الشيخ زكريا أحمد يميل إلى حياة الصعلكة والتحرر الكامل من القيود، وجاء موت سيد درويش المفاجئ صدمة للشيخ زكريا. وطبقًا لروايته التى قصها علينا، فإن سيد درويش كان يجهز لحنًا جديدًا لاستقبال الزعيم سعد زغلول. وحجز لنفسه حجرة فى أحد الفنادق القديمة بالإسكندرية حتى ينتهى من اللحن سريعًا، وحدث أن تناول جرعة زائدة من المخدر، ولأنه بمفرده فى حجرته أخذ ينزف حتى مات، وأظن أن الرواية صحيحة، لأن سيد درويش كان قوى البنيان وفى عز الشباب، ومن ثم لابد أنه ارتكب غلطة من هذا النوع أودت بحياته، وهو نفس ما حدث لموسيقى آخر كنت أحبه، وهو الشيخ محمود صبح. ورغم أن محمود صبح كان ضريرًا، فإنه كان يهوى «الملاكمة» و «رفع الأثقال» و «ركوب الدراجات»، وكان يتمتع بصحة جيدة، ويبدو أنه أخذ كمية زائدة من المخدرات سببت له هبوطًا حادًا فى الدورة الدموية فمات، وكما قال لى ذات مرة صديقى الدكتور أدهم رجب، إن هناك خطـًا أحمر فى تعاطى المخدرات، وأى تجاوز له يكلف صاحبه حياته كلها.

جلست إلى الشيخ محمود صبح أكثر من مرة وكنت أجده شخصية ممتعة، ومتحدثًا لبقًا، وعاشقًا للنكتة، وللشيخ محمود صبح صوت رهيب لم تر الحنجرة المصرية مثله. وأطرف ما فى حياته تلك المشاجرات على الهواء والتى كان يمارسها فى محطات الإذاعة الأهلية، وأذكر مشاجرة له مع مدحت عاصم على الهواء، حيث دخل الشيخ صبح الاستوديو وغنى لبضع دقائق ثم سكت فجأة ليقول: «اسمع الأغنية القادمة يا مدحت عاصم يا أعمى»! ثم واصل الغناء. والطرافة هنا أن الشيخ محمود صبح هو الذى كان ضريرًا وليس مدحت عاصم، والشيخ «صبح» مثله مثل الشيخ «زكريا» وكل الملحنين فى ذلك العصر، لم يدرس الموسيقى فى مدرسة أو معهد، إنما تعلمها مباشرة على يد أستاذ فى الموسيقى الشرقية،

وهو نوع من التعليم أشبه بطريقة دراسة الأدب العربى قديمًا، حيث كان طالب العلم يذهب إلى أستاذ معروف يدرس على يديه ويتعلم منه ويلازمه فترة طويلة حتى يأخذ عنه العلم، وكان الشيخ صبح صاحب موهبة عظيمة وله شخصية جبارة، ولكن المخدرات أضاعته كما أضاعت سيد درويش.

عن طريق الشيخ زكريا أحمد تعرفت على الشاعر والساخر الكبير «بيرم التونسى»، وكان اللقاء الأول بيننا فى سهرة «صلاح زيان». وكنت أظن أن الجلسة سوف تنقلب إلى المزيد من الفكاهة والضحك فى وجود بيرم التونسى، ولكننى فوجئت بشخص مختلف تمامًا عن تلك الصورة التى رسمتها له فى ذهنى. جلس بيرم فى ركن بعيد عنا ولم يفتح فمه طوال الجلسة، وفى المرات القليلة التى تحدث فيها كانت كلماته مقتضبة ومليئة بالأسى والمرارة، ويبدو أن مرد ذلك للمآسى التى مر بها فى حياته ومعاناته وعذاباته.

توطدت صلتى ببيرم التونسى إلى حد ما بعد أن عملنا معًا فى كتابة سيناريوهات بعض الأعمال السينمائية مثل فيلم «ريا وسكينة»، حيث شارك بيرم فى كتابة الحوار والأغانى. وعلى الرغم من ندرة اللقاءات بيننا والفترة القصيرة التى جمعتنا معًا فى العمل، فإن بيرم كان متابعًا لأعمالى كأديب أكثر مما تابعنى الشيخ زكريا فى عملى الأدبى.

من أبرز ما يميز الشيخ زكريا كموسيقى ألحانه الشرقية الأصيلة، ومع ذلك لم يكن له موقف معاد من الموسيقى الغربية، ولم أسمعه يومًا يهاجمها، بل كان يرى فيها فنًا جميلاً، ولكنه كان يرى أن مذاقها مختلف تماما عن موسيقانا. وفى رأيى الخاص أن الانفتاح على الثقافة الغربية لا يعنى بالضرورة إضاعة أصالتنا وتراثنا، ولذلك فإننى أختلف مع الذين زعموا أن محمد عبدالوهاب أفسد الموسيقى الشرقية، بإدخاله للآلات الغربية وبتأثره بالموسيقى الغربية، وأرى أن عبدالوهاب أغنى موسيقانا وأثراها وطورها من خلال هذا التأثر بالغرب، وقد مزج بين اللونين الشرقى والغربى ببراعة، وجعل منهما نسيجًا واحدًا متناغما. وهذا هو سر عبقرية عبدالوهاب، لأن المزج يحتاج إلى حس وذكاء غير عاديين. أما الآخرون الذين حاولوا مزج الموسيقى الشرقية بالغربية، فأشعر فى ألحانهم بالتناقض بين هذين اللونين وبالافتعال فى التراكيب الموسيقية.

وفى اعتقادى أن سيد درويش لو امتد به العمر لفعل ما فعله محمد عبدالوهاب وسار فى نفس الطريق، خاصة أنه كان ينوى السفر لدراسة فن الأوبرا فى أوروبا. ومن المعروف

أن سيد درويش كان ثائرًا على الموسيقى التقليدية السائدة فى أوائل هذا القرن، ولديه رؤية عصرية متطورة، ويميل إلى أسلوب الأغانى الجماعية والاستعراضية، كما وجد نفسه فى «الأوبريت» المسرحى.

استمرت علاقتى بالشيخ زكريا أحمد منذ بداية الحرب العالمية الثانية وحتى وفاته عام ١٩٦٢ . ولقد تأثرت بشخصيته فى قصة قصيرة كتبتها بعنوان «الزعبلاوى».

تعلقت بالغناء منذ الطفولة، وفى بيتنا وجدت عددًا كبيرًا من الأسطوانات لكبار مطربى ذلك الزمان. وفى بيتنا أيضًا أقيمت حفلات غنائية فى المناسبات السعيدة، وكانت هذه الحفلات تجمع بين لونين من الغناء: «العوالم» فى مكان خاص بالسيدات، والمطربين فى مكان خاص بالرجال. وبما أننى كنت طفلاً فقد تنقلت بين المكانين واستمعت إلى اللونين فى تلك الحفلات. وصل حبى للغناء إلى درجة العشق، وحفظت ذاكرتى الكثير من الأغنيات كنت أرددها مع نفسى أو بين الأصدقاء وفى الرحلات، وكنت أشعر بمتعة بالغة عندما يصطحبنى والدى إلى مسارح روض الفرج، وكانت «روض الفرج» هى مصيف أهل القاهرة فى شهور الصيف آنذاك. كانت الفرق المسرحية فى «روض الفرج» تقلد فرق شارع عماد الدين الشهيرة، فتجد من يقلد «على الكسار» أو «نجيب الريحانى» أو يعرض «أوبريت» لسيد درويش. ومن خلال مسارح روض الفرج شاهدت كثيرًا من العروض المسرحية الشهيرة التى لم تتح لى الفرصة لمشاهدتها عند أصحابها الأصليين فى مسارح عماد الدين.

وعندما بدأت الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ أخذت مسارح روض الفرج فى التلاشى. فقد قدمت الإذاعة الأوبرا والأوبريتات القديمة فاكتفى الناس بسماعها فى الراديو. وأذكر يومًا أننى كنت أجلس فى غرفتى منهمكًا فى الكتابة، وفجأة سمعت فى الراديو مشهدًا من إحدى المسرحيات التى شاهدتها فى «روض الفرج»، فقفزت من مكانى وألصقت أذنى بالراديو، واكتشفت أن المسرحية من أعمال سيد درويش، وكنت أحفظها وأرددها دون أن أعرف اسم المؤلف. وكثير من الأعمال التى شاهدتها فى روض الفرج كنت أحفظها وأرددها دون أن أعرف مؤلفها الأصلى.

وإذا كنت لم أحضر حفلات مطربى الجيل القديم مثل «صالح عبدالحى» و«عبداللطيف البنا» وغيرهما إلا أننى عرفتهم جيدًا، وحفظت أغانيهم من خلال الأسطوانات. وعندما

ظهر «عبدالوهاب» و«أم كلثوم» تعلقت بهما وتابعتهما فى شغف. ولقد ظهرت أصوات أخرى مواكبة لهما زمنيًا إلا أنها لا تقارن بهما. ثم ظهر نوع آخر من المطربين الذين يقلدون الفرق الغنائية الغربية وروجوا للأغانى المسماة «الفرانكو آراب»، ورغم أننى اعتبرتها خارجة عن الموضوع وعن الغناء والطرب الشرقى، فقد وجدت فيها بعض الملاحة وكنت أتابعها. ثم جاءت الموجة الحالية من الأغانى (الشبابية) وأحيانًا أستمع إليها وأنا أركب السيارة مع ابنتى، ولكننى لا أستطيع التمييز بين أصوات أصحابها، ودائمًا ما أخطئ فى أسمائهم، لأن الأنغام متقاربة والأصوات متقاربة، استمعت منهم إلى أغنيات لطيفة، ولكنى لم أجد فرقًا يذكر بين حنجرة وأخرى، كما لم أجد من بينها صوتا له شخصية خاصة. والمطرب الوحيد الذى استطاع الحفاظ على تميزه وسط هذا الطوفان الغنائى منذ وفاة عبدالحليم حافظ وحتى الآن هو «أحمد عدوية». و«عدوية» فى رأيى صاحب صوت قوى ومؤثر، وله أسلوبه الشعبى المميز، وأغانيه «الكاريكاتيرية الظريفة» لا يجاريه فيها أحد.

قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت هناك أصوات ممتازة، لكنها كانت بالنسبة لى ثانوية إلى جوار عبدالوهاب وأم كلثوم. كانت هناك «أسمهان» بصوتها القوى المعبر الذى لا تستطيع أن تجد فيه عيبًا واحدًا، ومع ذلك لم أتعاطف مع هذا الصوت، بالضبط كما تلتقى بشخص جميل ولا تميل نفسك إليه رغم جماله، وكان إحساسى بصوت شقيقها «فريد الأطرش» هو نفس الإحساس، فهو يمثل نوعًا من الجمال لا تميل إليه نفسى، هذا على الرغم من إعجابى بالغناء الجبلى الشامى، وخاصة أصوات «صباح فخرى» و«وديع الصافى» ومن قبلهما «فيروز». فصوت فيروز يسحرنى ويترك فى نفسى تأثيرًا عميقًا.

وقد بلغ من حبى للموسيقى والغناء أننى التحقت بمعهد الموسيقى العربية ودرست فيه لمدة عام كامل، ويبدو لى الآن أننى لو كنت وجدت توجيهًا سليمًا من أحد لتغير مسار حياتى واخترت طريق الموسيقى وليس الأدب. أنا لم أفكر يومًا فى أن أصبح فنانًا تشكيليًا رغم حبى للفن التشكيلى، ولكن كان ممكنًا أن أحترف «الموسيقى» من شدة افتتانى بها، ولكن ـ على أى حال ـ فقد كان للقدر تصاريف أخرى.

كان التحاقى بمعهد الموسيقى العربية عام ١٩٣٣، وكنت وقتذاك طالبًا بالسنة الثالثة فى كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن). وكانت النظم الجامعية المعمول بها تسمح لمن هم فى السنة الثالثة بأداء امتحان الليسانس مباشرة، وبذلك لا أكون ملزما بأداء

امتحانات السنة الثالثة. فانتهزت الفرصة وقررت دراسة الموسيقى، والتحقت بالمعهد لمدة عام وحصلت فى نهايته على أعلى الدرجات. ولكننى لم أواصل الدراسة فى العام التالى، فقد كان علىّ الاستعداد لامتحان الليسانس فى كلية الآداب. وإلى وقتنا هذا مازلت أحفظ أدوارًا من تلك التى درستها فى معهد الموسيقى العربية، ومازلت أحفظ من دور «السماعى الدارج» أجزاء «بالصولفيج»، وذلك لأنى كنت أعزف على آلة القانون، وعزفت خمسة «بشارف». ولكننى نسيتها الآن. وكان أستاذى فى آلة القانون حفيدًا للعقاد الكبير عازف آلة القانون فى فرقة أم كلثوم الأولى، وابن العقاد بك مدير المعهد. و«للعقاد بك» حادثة معى لا أنساها. حيث كان لديه عيب فى حنجرته يجعل صوته أشبه «بالشخير» أحيانًا، وفى أول مرة أذهب فيها إلى المعهد طلبوا منى مقابلة المدير، فدخلت مكتبه، وطلبت الالتحاق بالمعهد، فجعلنى أجلس أمامه وأبدى ملاحظة عن تقدمى فى السن قليلاً بالنسبة لمبتدئ فى الموسيقى. وأبلغته أننى طالب فى الجامعة، فوافق على انتسابى للمعهد، وسألنى عما إذا كنت اخترت آلة موسيقية معينة لكى أدرسها، فقلت له إذا كانت دراسة الآلة الموسيقية إجبارية فإننى أختار آلة القانون. ففوجئت به يصدر هذا الصوت الذى هو أشبه «بالشخير»، فاعتقدت أنه يعبر به عن رفضه لى أو احتجاجه على اختيارى لآلة القانون، فتألمت واحمر وجهى خجلاً ولكنى التزمت الصمت. إلا أنه قدم لى استمارة بيانات لأملأها، وأثناء تدوينى للبيانات المطلوبة تكرر منه هذا الصوت الغريب وهو صوت «الشخير» أكثر من مرة، ففهمت أن ذلك صادر عن عيب فى الحنجرة وليس فيه أى قصد، ولم يكن أحد قد نبهنى إليه قبل أن ألتقى به، كما حكى لى المرحوم الموسيقار عبدالحليم نويرة حكاية طريفة عن هذا الرجل. ففى افتتاح معهد الموسيقى صمم «العقاد بك» على أن يشارك فى الأوركسترا التى ستقوم بعزف السلام الملكى فى الحفل الذى سيحضره الملك فؤاد. وحاول كثيرون إثناءه عن عزمه وشرحوا له إمكانية أن تفاجئه عادته الغريبة وهى «الشخير» أمام الملك، لأن الصالة ستكون هادئة وإذا خرج هذا الصوت فلابد أن يسمعه الملك، ولابد أن يعتبر ذلك إهانة شخصية له فيغلق المعهد قبل أن يفتتحه. ولكن الرجل صمم على موقفه ووعدهم بألا يتنفس، وبأنه سوف يسيطر على نفسه ويتحكم فى صوته إلى أن تنتهى الحفلة. وبالفعل صدق فيما وعد طوال الحفلة التى ما إن انتهت حتى اختبأ خلف الستار وفعلها وكأنه كان مكتومًا.

أما العقاد الكبير، وهو والد «العقاد بك»، فكان أعظم عازف قانون فى عصره، ومن

الأعضاء البارزين فى فرقة أم كلثوم الأولى. ولقد استمعت إلى عزفه فى حفلات أم كلثوم فى مسرح «الماجستيك»، الذى تحول بعد ذلك إلى عمارة ضخمة فى أول شارع عماد الدين من ناحية شارع فؤاد. كانت هذه الحفلات فى العشرينيات، وواظبت على حضورها منذ أن كنت طالبًا فى الصف الأول الثانوى وحتى التحاقى بالجامعة. بعدها انتقلت أم كلثوم بحفلاتها إلى حديقة «الأزبكية».

فى حفلات «الماجستيك» كانت أم كلثوم تبدأ بـ «مونولوج»، أى أغنية فردية، وكل أغانيها الفردية كانوا يسمونها «المونولوج»، ثم تغنى قصيدة، ثم تختتم حفلتها بـ «طقطوقة»، أى أغنية خفيفة من نوعية «حود من هنا». وأحيانًا تستبدل «بالمونولوج» دورًا من أدوارها القديمة. و «الدور» يتميز بوجود «كورال» يرد وراء المطرب. وكان لمحمد عبدالوهاب فى بداياته أدوار يستعين فيها «بالكورال». وعندما ظهر «الراديو» كنت أفضل الاستماع إلى حفلات أم كلثوم فى راديو المقهى. خاصة أن أسعار تذاكر الدخول أخذت ترتفع بمرور الوقت، بل تحول أمر الحصول على تذكرة لإحدى حفلاتها إلى أمر شاق. وكانت آخر حفلة حضرتها لأم كلثوم فى مسرح «الماجستيك»، ورافقنى فيها مثل كل الحفلات صديقى «إبراهيم فهمى دعبس»، وهو ضابط مهندس تولى فيما بعد رئاسة شركة كبرى وأظنه مازال حيًا يرزق.

ومع حبى لأم كلثوم لم أعرفها معرفة شخصية ولم أتحدث إليها مباشرة إلا مرة واحدة فقط، وذلك فى الحفلة التى أقامتها جريدة الأهرام لتكريمى بمناسبة بلوغى الخمسين من عمرى سنة ١٩٦١. حيث اتصل بها الأستاذ محمد حسنين هيكل وعرض عليها حضور الحفلة فوافقت بدون تردد. وكانت مفاجأة لى، لأننى لم أتوقع أن يكون لها اهتمامات بالقصة والرواية، وكنت أسمع الكثير عن ثقافتها واهتمامها بالشعر. ولم أتخيل أن توافق بهذه السهولة على المشاركة فى احتفال أدبى خالص. وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى ألتقى فيها مباشرة بالسيدة «أم كلثوم» ويدور بيننا حوار. وكذلك لم أقابل محمد عبدالوهاب سوى مرتين، وكانت المرتان فى منزل الدكتور مصطفى محمود، ولم أتمكن من التعرف على شخصيته عن قرب نظرًا لوجود عدد كبير من الضيوف، أذكر منهم محمود السعدنى، الذى سيطر كعادته على الجلسة بخفة ظله وحديثه المتصل، ومن خلال ما سمعته عن محمد عبدالوهاب تأكد لى أنه من نفس فصيلة الشيخ زكريا أحمد: عاشق الكلام، وخفيف الظل.



نجيب محفوظ بين السيدة أم كلثوم والأستاذ هيكل فى احتفال «الأهرام»
بعيد ميلاد نجيب محفوظ الخمسين فى ديسمبر سنة ١٩٦١.

فى بداية عصر أم كلثوم كانت توجد مطربة أعتبرها من أجمل الأصوات النسائية التى عرفتها مصر، وهى «منيرة المهدية». فصوتها من نفس طبقة صوت أم كلثوم أو أقل درجة، وقد شاهدت منيرة المهدية واستمعت إليها مرتين، الأولى فى مسرح رمسيس فى أحد العروض المسرحية مع يوسف بك وهبى. والثانية فى إحدى حفلاتها العامة وكان معى صديقى «إبراهيم فهمى دعبس». واكتشفنا أننا الشابان الوحيدان بين جمهور حفلة «منيرة المهدية»، أما باقى الحاضرين فقد كانوا من كبار السن، مما أدهش صديقى «إبراهيم» فسألنى: «ما الذى جعلك تأتى بنا وسط هؤلاء العجائز؟». وعندما غنت «منيرة المهدية» ظهر عليها التأثر بتقدم العمر، فكانت تغنى قليلاً وتسعل قليلاً، إلى أن أتمت الحفل، وأعلنت بعده اعتزالها الغناء. فكان لى شرف حضور آخر حفلة من حفلات «منيرة المهدية» التى حملت لها فى قلبى إعزازًا بالغًا. وقد أسست «منيرة المهدية» مجدها على خشبة المسرح، عندما كان المسرح فى أوج ازدهاره وعظمته، ويعود الفضل فى شهرة عبدالوهاب

الأولى إلى «منيرة المهدية». فبعد الموت المفاجئ لسيد درويش دون أن يتم ألحان مسرحية «كليوباترا»، أسندت منيرة إلى عبدالوهاب مهمة إكمال الألحان، كما أسندت إليه القيام بدور البطولة «الرجالية» أمامها، وكان عبدالوهاب لا يزال شابًا صغيرًا فى سن أبنائها، وكانت هذه الفرصة نقطة فاصلة فى حياة محمد عبدالوهاب دفعته كثيرًا إلى الأمام، ووفرت عليه سنوات من المعاناة.

ربطتنى صداقة بالموسيقار المرحوم عبدالحليم نويرة، وكانت أسرته تسكن بجوارنا فى العباسية، وشقيقه فؤاد نويرة الذى أصبح طبيبًا بعد ذلك، كان يلعب معنا كرة القدم، رغم أنه أصغر منا بحوالى خمس سنوات. درس عبدالحليم نويرة الموسيقى الشرقية وتتلمذ على يد أستاذ إيطالى. واشترك فى وضع ألحان كثير من الأعمال السينمائية الغنائية، وكانت له أمنية حاول تحقيقها قبل وفاته ولم يتمكن، وهى تحويل روايتى «رادوبيس» إلى أوبريت موسيقى. وقد عرض نويرة هذه الرواية على عدد من الشعراء الكبار مثل أحمد رامى لتحويلها إلى أشعار يسهل تلحينها، ولكنهم رفضوا، لأن اسمى لم يكن معروفًا لديهم فى ذلك الوقت (سنة ١٩٤٣). وقد جاءنى بعد فوزى بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨ موسيقار هاو من كندا، وطلب موافقتى على تحويل رواية «اللص والكلاب» التى قرأها مترجمة فى الإنجليزية، إلى عمل أوبرالى شبيه بأوبرا «عايدة». تعجبت وتذكرت «نويرة»، وقلت للشاب الكندى إن «رادوبيس» تصلح أكثر لهذا الغرض، وربما تجد فيها أجواء موسيقية أكثر من «اللص والكلاب» لأن «رادوبيس» تتصل بتاريخ الفراعنة المعروف والمحبوب فى العالم كله، ولكنه صمم على موقفه، مؤكدًا لى أنه وجد فى رواية «اللص والكلاب» جوًا موسيقيًا دراميًا يبحث عنه، وقال لى إنه استمع إلى كثير من الأغانى الدينية التى تناسب شخصية «على الجنيدى» وهى شخصية الشيخ المتصوف الموجودة فى الرواية. ولما رأيت تصميمه أعطيته توقيعى بالتنازل عن الرواية ليقوم بهذه التجربة الغريبة، فكانت فرحته لا توصف. وقال لى إنه ظن بعد فوزى بجائزة نوبل أن التعامل معى سيكون أمرًا صعبًا، وأنه ما كان يتصور أن أوافق على طلبه بهذه السهولة. وأرسل لى خطابًا بعد سفره يخبرنى فيه بأنه انتهى من الجزء الأول من العمل الأوبرالى حيث حول الرواية إلى أشعار ومناظر، ثم انقطعت أخباره عنى.

أعود إلى عبدالحليم نويرة لأروى قصة طريفة عنه.ففى أحد الأيام زارنى شقيقه «مختار» وقص علىَّ بعض الأخبـار، ومن بين أخباره تلك أن عبدالحليم تزوج، فسألته

من هى الزوجة؟ فقال لى بالحرف الواحد: «تزوج أخت الضابط أنور السادات الذى كان متهمًا فى قضية أمين عثمان». وكان ردى أن دعوت لهما بالتوفيق، وقلت لشقيقه «مختار»: إن الزوجة ليس لها ذنب ولم ترتكب جريمة. كان ذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ قبل أن يلمع اسم السادات، وأنا أختلف مع الذين زعموا أن نويرة استغل صلة النسب بينه وبين الرئيس السادات، وصحيح أن بعض الذين يحتلون المناصب العليا فى مصر يصلون إلى مناصبهم عن طريق «الواسطة»، ولكن بالتأكيد توجد نسبة من بين هؤلاء تستحق المنصب لكفاءتها وجهدها وموهبتها الخاصة بها، و«عبدالحليم نويرة» من هذه النسبة، فهو لم يأخذ إلا ما يستحق، بل وأقل مما يستحـق، ويكفى أن «نويرة» من خلال الفرقة الموسيقية التى كونها أعاد تراثًا موسيقيًا لا تعرفه الأجيال الحالية مثل أعمال داود حسنى ومحمد عثمان وغيرهما.

وفى سنوات الشباب دخلت فى معارك مع أعداء الموسيقى الشرقية وضد المتحمسين إلى أقصى حد للموسيقى الغربية مثل الدكتور حسين فوزى، والذين كانوا يرون أن أفضل مكان لموسيقانا الشرقية هو «صناديق القمامة». كان عندى ـ ولا يزال ـ اعتقاد كامل بأن الموسيقى الشرقية فن عظيم، والواقع أن عبدالحليم نويرة له أياد بيضاء على هذه الموسيقى، وقد أحدث فيها نهضة رائعة من خلال إعادة التراث القديم.

ومن أمتع البرامج الإذاعية التى كانت تشدنى إليها، تلك البرامج التى كانت تقدم الأعمال القديمة، خاصة ألحان سيد درويش ومحمد عثمان وداود حسنى. وعن طريق عبدالحليم نويرة تعرفت على «عزيز عثمان»، الذى كانت له شخصية ظريفة ومرحة للغاية انعكست على ألحانه وأغانيه مثل أغنيته الشهيرة «بطلوا ده واسمعوا ده» من فيلم «لعبة الست»، وكذلك مشاركته فى أوبريت «اللى يقدر على قلبى» من فيلم «عنبر»، والذى غنى فيه «مربوط على الدرجةالثامنة» حيث تميز بأدائه الخاص والجميل. وعزيز عثمان هو ابن محمد عثمان الذى يعتبر «قاموس» الألحان المصرية. وكان المنافس الأول لمطرب يقال عنه «صاحب أجمل صوت عرفته مصر»، وهو «عبده الحامولى» الذى انفرد بالساحة الغنائية بعد إصابة محمد عثمان فى حنجرته أو إصابته بمرض الزهرى، لا أعرف على وجه الدقة. المهم أن جهد محمد عثمان بعد المرض انحصر فى التلحين، وهو فى هذا المجال يتفوق على الحامولى بعشرة أضعاف. فألحانه تميزت بالأصالة والطرب الشرقى الجميل، أما الحامولى فقد اعتمد على جمال صوته لا جمال ألحانه، وإذا ما غنى «ريان يا فجل» فهو قادر على جذب الجمهور حتى الصباح.

لم أحضر حفلات الحامولى أو محمد عثمان، فقد ماتا قبل أن أولد، فالحامولى مات سنة ١٩٠١، ومحمد عثمان مات سنة ١٩٠٠، ولكننى استمعت إلى أعمالهما بصوت صالح عبدالحى، حيث كنت أستمع إلى سهرته الأسبوعية فى محطة الإذاعة، وكان أصدقائى يسخرون منه ويسمونه «حمار المحطة»، أى محطة الإذاعة. أما أنا فكنت أحبه وأقدره وأحترم فنه وموهبته.

لم أتعصب فى حياتى للون من ألوان الغناء، وفى الغالب تجد أن من يحب القديم فإنه لا يميل إلى الجديد، والعكس صحيح، أما أنا فأحببت القديم والجديد معا، الشرقى والغربى، البلدى والريفى والأفرنجى. ووجدت فى كل لون مزاياه وأسلوبه ونكهته، وأعطيت وقتًا للاستماع إلى كل الألوان، وهى نفس الروح التى تعاملت بها أيضًا مع المذاهب الأدبية. فلم أنكر أى لون أو مذهب أدبى باستثناء مذهب واحد عجزت عن فهمه هو «اللا رواية» كما سبق أن ذكرت.

ومن الفنانين الذين عرفتهم واقتربت منهم والتقيت بهم كثيرًا باعتباره من رواد «شلة الحرافيش» الفنان أحمد مظهر. وهو من الضباط الأحرار الأوائل على الرغم من أنه حين قامت الثورة كان خارج مصر. و«مظهر» من نفس دفعة جمال عبدالناصر فى الكلية الحربية، وكان له دور فى التمهيد لقيام الثورة، حيث اختاره تنظيم الضباط الأحرار للاتصال بالدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير خارجية الوفد، وكان فى الوقت نفسه والد زوجة أحمد مظهر، وذلك لينقل للنحاس باشا رئيس حزب الوفد ورئيس الوزراء فى تلك الفترة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) رسالة خطيرة. كان مضمون الرسالة أن تنظيم الضباط الأحرار يرتب لانقلاب يخلع به الملك، وأن التنظيم مستعد للتعاون مع «النحاس باشا» إذا أعلن موافقته على الانقلاب. ولكن «النحاس» رفض الفكرة على أساس أن الجيش لا يصح أن يتدخل فى السياسة، وقال الدكتور صلاح الدين لمظهر على لسان النحاس: «إن الجيش إذا دخل فى السياسة فإنه لن يخرج منها ثانية». وكلف التنظيم «أحمد مظهر» مرة ثانية بالذهاب إلى والد زوجته الدكتور محمد صلاح الدين باشا برسالة أخرى مضمونها يتعلق بالخلاف بينه وبين فؤاد سراج الدين، حيث كان صلاح الدين يتهم فؤاد باشا بالابتعاد عن مبادئ الوفد، وأنه من كبار الإقطاعيين الذين يحاولون أن يجعلوا من الوفد حزبًا مستأنسًا. وعرض الضباط فى رسالتهم إلى «صلاح الدين» القيام باغتيال فؤاد سراج الدين، ولكن صلاح الدين رفض الفكرة بشدة. وكما عرفت من أحمد مظهر فيما بعد فإن «النحاس باشا» و«سراج الدين باشا»

كانا على علم بوجود تنظيم الضباط الأحرار، خاصة بعد الانتخابات التى جاءت بالنحاس وحزب الوفد إلى السلطة سنة ١٩٥٠، ولكنهما تسترا على التنظيم ولم يبلغا الملك.



نجيب محفوظ وأحمد مظهر عضوان مؤسسان فى «شلة الحرافيش»

وحتى تلك الفترة لم أكن أتوقع ـ ومعى كثيرون ـ أن يقوم الجيش المصرى بالثورة لأسباب كثيرة. أولها: أن تصورى عن ضباط الجيش آنذاك أنهم مجموعة شبان لا يهتمون بالسياسة، وأن الكثيرين من الضباط كانوا موالين للملك. وثانيها: أن أى حركة للجيش سوف تعيد «السيناريو» الذى حدث مع أحمد عرابى. ولذلك عندما قامت الثورة أصبت برعب شديد على استقلال مصر، وقلت لنفسى إن كل ما بنيناه سوف يهدم. وكان تصورى أن هناك قوة أجنبية ساعدت الجيش فى القيام بالانقلاب، فلم أتخيل أن جيشًا ضعيفًا يمكن أن يقف فى وجه ما بين ٨٠ إلى ٩٠ ألف جندى بريطانى يرابطون بسلاحهم فى منطقة القنال. وقد شرحت رأيى بالتفصيل فى حديثى معك عن ثورة يوليو.

والفنان أحمد مظهر هو أحد مؤسسى «شلة الحرافيش»، بل إنه صاحب هذه التسمية. فكما قال لى إنه قرأ هذا اللفظ «الحرافيش» فى كتاب تاريخ قديم ـ أظنه تاريخ الجبرتى ـ وأعجبه اللفظ فأطلقه على «شلتنا» لأنه معبر عنها. «فالحرافيش» تعنى الصعاليك، وكنا نحن أقرب إلى هذا المعنى بالفعل. و«مظهر» بالإضافة إلى ذلك كله هو من أكثر الفنانين الذين التقيت بهم ثقافة واحترامًا وحبًا للحياة وللوطن.

الفصل السابع

الحرافيش وشلة العباسية

معنى الصداقة عندى ـ شلة العباسية ودور شقيق زوجة الرئيس عبد الناصر فيها ـ وزارة المعارف كانت السبب فى تكوين الحرافيش ـ صديقى الطيب الذى راح ضحية مؤامرة خسيسة ـ عرفت هؤلاء: صلاح جاهين، محمد عفيفى، وعادل كامل ـ محمد عفيفى كان يعشق الخمور الرديئة ـ أختلف مع «إبسن» فى هذا الرأى ـ التزامات الصداقة لم تعطلنى عن الأدب أبدًا.

■ ماذا تعنى الصداقة عند نجيب محفوظ؟ وما هى ذكرياته عن أصدقائه القدامى؟ وما الذى بقى فى ذاكرته عن «شلة» العباسية التى ارتبط مع أفرادها بصداقة قوية ما زالت مستمرة حتى الآن مع من بقى منهم على قيد الحياة؟.. ثم ما هى حكاية الحرافيش؟ وكيف تكونت؟ ومن هم أقرب أصدقائه فى هذه «الشلة» إلى قلبه؟... أسئلة كثيرة يجيب عنها نجيب محفوظ فى هذا الفصل، ثم يتوقف عند ثلاثة نماذج من أصدقائه يراهم نماذج ليس من السهل أن تتكرر.. ■

نجيب محفوظ: لعبت الصداقة فى حياتى دورًا مهمًا. ولا تخلو مرحلة فى حياتى من مجموعة أصدقاء أجد عندهم ومعهم التسلية والتجاوب. وفى مرحلة الطفولة والصبا كانت الصداقة تحكمها الانفعالات، فبين عشية وضحاها يمكن أن تتحول الصداقة إلى خصومة. وفى اليوم التالى تعود من جديد، وهكذا طبيعة الأطفال وتقلباتهم. وفى العباسية تكونت أول «شلة» فى حياتى، ارتبطنا معًا بعلاقة قوية حميمة، وبعض أفراد هذه الشلة ما زالت علاقتى بهم مستمرة حتى الآن، ولم تنقطع على مدار سبعين عامًا.

كانت شلة العباسية تضم «آل نويرة» وخاصة فؤاد ومختار. ومنها الدكتور «أدهم رجب» وشقيقه «إسماعيل طلعت»، واسم كل منهما مركب. وعلاقتى بالدكتور «أدهم» مازالت مستمرة حتى الآن، ونلتقى فى المناسبات، أو عند زيارتى للإسكندرية، وأحيانًا يتصل بى تليفونيًا. والدكتور «أدهم رجب» من المهتمين بالثقافة والأدب، ساعده فى ذلك اتساع وقته حيث اختار دراسة الطب غير «الإكلينيكى». فليس لديه عيادة خاصة تستنزف وقته وجهده، كما أنه من أسرة ثرية. وأذكر أنه عندما بلغ سن الرشد كان يأتيه إيراد شهرى من العقارات والأراضى يصل إلى خمسمائة جنيه مصرى، وهو مبلغ هائل فى ذلك الوقت من منتصف الثلاثينيات. ونظرًا إلى أنه لم يحرص على تنمية هذه الثروة أبدا، فإن هذا الإيراد تراجعت قيمته مع مرور السنين، وأصبح هذا الإيراد ـ خاصة فى سنوات الانفتاح ـ لا يساوى شيئًا، ووضع صاحبه ضمن فئة الفقراء.

ومن شلة العباسية: مصطفى كاظم شقيق السيدة تحية كاظم زوجة الرئيس عبدالناصر، وأحمد الحفناوى وهو غير الموسيقار المعروف، والألفى مأمون، والمعلم كرشو.

كما ضمت الشلة «نجيب الشويخى» الذى كنا نعتبره شرير الشلة، وقد اعتدى بالضرب على معظم أعضائها، حاملا تهديده الدائم لأى عضو يختلف معه، بألا يخرج من بيته حتى لا يتعرض للضرب. وكان «نجيب الشويخى» من عائلة «الشويخ» المعروفة فى العباسية، وكان من بين أفراد هذه العائلة شخص ثرى، ولكنه مات فقيرًا. أما «نجيب» فهو أساسًا من الفرع الفقير فى العائلة، ولم يكمل تعليمه، ومع ذلك كان بإمكانه الحصول على أى عمل فى أفضل الأماكن، لأن لديه الاستعداد التام لفعل أى شىء دون وازع من ضمير. فمثلاً إذا طلب منه رئيسه فى العمل أن يجلب له نساء عاهرات فلن يتورع عن القيام بهذه المهمة غير النظيفة، وأعتقد أننى قدمت مثل هذه الشخصية فى رواية «المرايا». ورغم طابع الشر الغالب على شخصية «نجيب الشويخى»، فإنه كان لا يخلو من طرافة. وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعلنا نُبقى عليه ضمن الشلة بعد أن فشلنا مرارًا فى طرده منها.

وأذكر أن «نجيب الشويخى» تسلل فى إحدى الليالى إلى بيت فى العباسية لسرقة «تكعيبة» عنب، فوقع فى يد صاحب البيت الذى سلمه للشرطة. وقُدم «الشويخى» للمحاكمة وحرصنا على حضور جلسة المحاكمة، وكان معنا حسن عاكف طيار الملك. وكنا على ثقة من أن «الشويخى» سينال عقابًا رادعًا يلحقه برواد السجن، كما كنا على ثقة من أن العدالة الإلهية ستخلصنا من شروره بعد أن فشلنا فى التخلص منه، وفوجئنا بالقاضى يطلق سراحه ـ بعد أن قام بتوبيخه ـ نظرًا لحداثة سنه. فخرجنا من القاعة ونحن فى غاية الأسف، نجر أذيال الخيبة والإحباط. أما حسن عاكف فكان مذهولاً يضرب كفا بكف ومرددًا: «هذا ظلم»..

كان مقهى «عرابى» هو المكان الدائم للقاء شلة العباسية، وظللنا سنوات طويلة نحرص على هذا اللقاء حتى باعدت بيننا الأيام، ولقد بقى أغلب الشلة فى العباسية، فى حين لم يهاجر منها سوى عدد محدود: مصطفى كاظم وأدهم رجب وأنا بعد الزواج. ولم يبق على صلة بى من شلة العباسية حتى الآن سوى أدهم رجب.

وإذا كانت شلة العباسية تكونت لأسباب غير أدبية، وإنما بسبب الارتباط بالمكان، فإن الأدب كان هو السبب الرئيسى لنشأة «الحرافيش». فمن خلال مجموعة الأدباء الشبان الذين فازوا بجائزة وزارة المعارف فى مطلع حياتهم الأدبية تكونت «الحرافيش»، وضمت: عادل كامل، على أحمد باكثير، يوسف جوهر، محمد عفيفى، وأنا. وتوطدت صداقتنا بعد أن أنشأ عبدالحميد جودة السحار «لجنة النشر للجامعيين» وطلب منى الاتصال بهذه المجموعة لينشروا أعمالهم من خلال هذه اللجنة. ووافقوا جميعًا على العرض باستثناء محمد عفيفى

الذى قرر طبع مؤلفاته على نفقته الشخصية، كما رفض يوسف جوهر لأنه وجد عملية النشر عند السحار غير مجزية من الناحية المادية.

وتمت عدة لقاءات فيما بيننا من أجل الاتفاق على الأسلوب الذى سنتعامل به مع اللجنة، وفى أحد هذه اللقاءات أخبرنى عادل كامل بأنه ومجموعة من أصدقائه يلتقون فى سهرة أسبوعية منتظمة، وطلب منى الانضمام إليهم فوافقت. وعندما انضممت إليهم وجدت بينهم أحمد مظهر والكابتن عاصم حلمى ـ رحمه الله ـ ولم يكن للقب «الكابتن» الذى أطلقناه عليه أى ارتباط بممارسة الألعاب الرياضية. ووجدت بينهم أحمد زكى مخلوف الذى كنت أعرفه حيث عملنا معًا فى إدارة الجامعة. وتوطدت صداقتى بهذه المجموعة، وحرصت على حضور الجلسة الأسبوعية. كان «الكابتن» عاصم حلمى يقوم باستضافتنا مرة واحدة كل عام فى مزرعة يمتلكها بناحية «أسطنها» بمحافظة المنوفية. وكان والده وهو من أصل تركى موظفًا فى الديوان الخديوى. «والكابتن» نفسه موظف ويتمتع بخفة ظل لا مثيل لها، وهواياته المفضلة هى: الطعام والحشيش وأم كلثوم، فى حين يكره الكلام فى السياسة. ومن سخرية القدر أنه مات بسبب السياسة. فبعد النكسة فى عام ١٩٦٧ قرر الرئيس عبدالناصر زيارة الجبهة. وبسبب تأمين رحلة الرئيس من القاهرة إلى الجبهة تشكلت لجنة أمنية قررت القبض على أعداء الثورة فى المناطق التى يمر بها موكب الرئيس خشية تعرضه لأى اعتداء. كما قررت اللجنة اعتقال كل الإقطاعيين ممن صادرت الثورة أراضيهم لصالح الفلاحين. وكان خط سير الرئيس يمر بالمنوفية، فاستغل أحد خصوم «عاصم حلمى» الفرصة، وأوعز للجنة بأنه من بين الإقطاعيين الذين يضمرون عداءً للثورة وزعيمها. ورغم أن الرجل يكره السياسة ولا يطيق الكلام فيها. كما لم يحمل فى يوم من الأيام صفة «إقطاعى» إلا أن اللجنة أمرت بالقبض عليه، وتركته منسيًا لمدة شهرين فى إدارة المخابرات، لقى خلالهما معاملة غير كريمة.. وخرج من هذه المحنة فاقدًا لذاته وكارهًا للحياة وانعزل عن الناس، وأغلق عليه باب حجرته، وأطلق لحيته. وحكى لنا الدكتور لويس عوض، وكان أحد زملائه فى فترة اعتقال سابقة عن المعاملة التى تعرض لها وكيف أنها أثرت على حالته النفسية، وذهب «الكابتن» عاصم حلمى ضحية مؤامرة لا ذنب له فيها.

والحديث عن الصداقة يجعلنى أتوقف أمام ثلاثة نماذج من الأصدقاء:

● أما الأول فهو المرحوم محمد عفيفى، ومعرفتى به جاءت عن طريق المرحوم صلاح أبو سيف، فقد استعان به أبو سيف لكتابة حوار أحد الأفلام بعد أن اتفق معى على كتابة

السيناريو. كان ذلك عام ١٩٤٩، ومن يومها توطدت صلتى بمحمد عفيفى، فقد اكتشفت فيه شخصية إنسانية رائعة، دعانى محمد عفيفى للانضمام إلى شلة «العوامة»، وهى مجموعة من الأصدقاء كانوا يستأجرون «عوامة» على النيل لقضاء السهرات، التى لم تكن تخلو من البيرة والحشيش، وكما دعانى لشلة «العوامة» دعوته إلى شلة الحرافيش التى سرعان ما اندمج فيها.

بدأت اجتماعات الحرافيش وسهراتهم فى شوارع القاهرة ومقاهيها، ثم انتقلت إلى بيت محمد عفيفى فى الهرم، ولم ننتقل إلى بيت عادل كامل إلا فى السنوات الأخيرة، وبعد وفاة محمد عفيفى.

وإلى جانب شخصيته الممتعة وأخلاقه الرفيعة كان «محمد عفيفى» يتمتع بموهبة أدبية نادرة، ويمتلك حسًا ساخرًا أعتبره امتدادًا للمازنى والجاحظ وفولتير ومارك توين. كانت الصور الفكاهية التى يكتبها محمد عفيفى من أمتع وأرقى ما قرأت فى حياتى، ولم تكن السخرية عند محمد عفيفى نابعة من الألم أو المعاناة فى حياته الشخصية، فقد كان يعيش حياة عائلية مستقرة، كما أن مرض السرطان الذى أودى بحياته لم يكتشفه أو يعلم به إلا مصادفة فى أواخر أيامه، ففى أحد الأيام لاحظ ابنه، وهو طبيب، شيئًا يشبه النبقة الصغيرة فى ذقن أبيه، وأصر على اصطحابه إلى طبيب، ولم يوافق محمد عفيفى إلا بعد إلحاح، معتقدًا أن الأمر بسيط، ثم اكتشف حقيقة مرضه، ومات بعدها بقليل، وأغرب ما فى شخصية عفيفى من طباع حبه للخمور الرديئة وإقباله بشغف على تناولها، بينما يرفض الأنواع الجيدة ولم يذق هذه الأنواع الجيدة طوال حياته. وخسارتنا فى هذا الكاتب الساخر عظيمة، وربما يعوض جزءا من هذه الخسارة أن تتولى إحدى دور النشر تجميع مقالاته المتفرقة من الصحف والمجلات المختلفة التى عمل بها وتصدرها فى مجموعة واحدة حتى تستفيد منها الأجيال الجديدة، وهذا هو ما بدأت تقوم به إحدى دور النشر حاليًا.

● أما النموذج الثانى من الأصدقاء فهو صلاح جاهين ـ رحمه الله ـ ولقد تعرفت عليه بعد تكوين شلة الحرافش بوقت طويل، ولكنه ما إن انضم إلينا حتى واظب على حضور جلساتنا إلى أن اقترن بزوجته الثانية، السيدة «منى قطان»، فشغلته أمور الزواج ومسئولياته، وانقطع عن الحضور، مثلما انقطع الدكتور مصطفى محمود بعد أن دخل فى دور «الدروشة». وفى تاريخ الحرافيش تعودنا على ظاهرة الأعضاء غير الدائمين، الذين يواظبون لفترة من الزمن ثم

ينقطعون، أو الذين ينضمون إلينا فى مواسم معينة ثم يختفون بقية السنة، مثل الدكتور لويس عوض وأحمد بهاء الدين، وعندما مات صلاح جاهين بالطريقة المأساوية التى نعرفها، حيث يقال إنه ابتلع كمية كبيرة من الحبوب المهدئة قضت عليه، حزنت وتأثرت لوفاته، وقررت أن أكتب كل ما أعرفه عنه فى عمل روائى، وكنت أعرف الكثير، واتضح لى أن هذا القرار قد يسبب لى مشاكل كثيرة، خاصة أن الرواية إذا ما كتبتها سوف تتضمن شخصيات معاصرة بالإضافة إلى وقائع وأحداث ليس لى الحق فى سردها، وتوصلت فى النهاية إلى أن أكتب رواية عن «شخصية» صلاح جاهين، على أن أعدل وأغير قليلاً فى ملامحها حتى لا يتعرف عليها القراء، وكتبت رواية «قشتمر» وعبرت فيها عن مأساة هذا الرجل. والطريف أن ابنه ـ بهاء جاهين ـ تعرف على «شخصية» والده بسهولة عندما قرأ الرواية على الرغم مما حاولته من إدخال تغييرات فى ملامحها، وإلى جانب صلاح جاهين ضمت رواية «قشتمر» «شخصية» أخرى أكن لها كل التقدير والاحترام والمودة، وكان صاحبها من خارج الوسط الأدبى، وهو المرحوم الألفى مأمون.

أما بقية الشخصيات فى رواية «قشتمر»، فهى شخصيات خيالية قصدت بها تصوير نماذج مختلفة تعيش فى مجتمعنا.

● والنموذج الثالث الذى أتوقف عنده هو الصديق عادل كامل[1]، الذى كانت له بداية

---

(١) اشتهر عادل كامل فى الأوساط الأدبية بروايتيه: «مليم الأكبر» و«ملك من شعاع». ولكن عادل كامل كان يكتب إلى جانب ذلك القصة القصيرة والمسرحية. وفى سنة ١٩٦٤ قدم له «المسرح الحديث» مسرحيته الوحيدة الطويلة واسمها «ويك عنتر». وقد ظهرت المسرحية فى «المسرح الحديث» بعد تعديل اسمها إلى «عنتر وأنجه». و «أنجه» هو اسم بطلة المسرحية. والمسرحية جميلة جدًا فى نسيجها الفنى الناعم وفى دعوتها الاجتماعية القوية التى كانت تهاجم تعالى الطبقة الغنية على الطبقات الفقيرة. وقد كتبت عن هذه المسرحية مقالاً فى جريدة «الجمهورية» سنة ١٩٦٤. ثم أتبعته فى نفس السنة، وفى جريدة «الجمهورية» أيضًا بمقال عنوانه «بين الحلم والكابوس» حاولت فيه أن أقدم اجتهادًا خاصًا أفسر فيه توقف عادل كامل عن الكتابة واستمرار نجيب محفوظ فيها، وهما قد بدآ معا فى وقت واحد على التقريب، وخلاصة هذا المقال أن عادل كامل كان من «الحالمين»، وكان يتصور أنه يستطيع أن يغير المجتمع بكتاباته ويمحو ما فيه من ظلم وأخطاء، ولكنه بعد أن أصدر عدة أعمال، لم يجد صدى لها أكثر من الصدى الأدبى، ولم يتغير المجتمع، فانسحب، لأن أحلامه لم تتحقق أما نجيب محفوظ فقد كان يكتب منذ البداية وهو يشعر أن الواقع الاجتماعى هو «كابوس» كبير وليس حلمًا، وأن هذا الكابوس لا يمكن أن يزول بين يوم وليلة، وأنه بحاجة إلى صبر شديد ووقت طويل. ولذلك استمر نجيب محفوظ فى الكتابة، ولم يتعرض للصدمة التى تعرض لها «الحالم» عادل كامل. «ر. ن»

أدبية متميزة، ولقيت أعماله خاصة روايتيه «مليم الأكبر» و «ملك من شعاع» استحسان النقاد والقراء، وذهبت التوقعات إلى انتظار مولد موهبة أدبية كبيرة. وكان من رأيى أن عادل كامل هو الأديب الوحيد فى جيلنا الذى يمكنه التفرغ للأدب مثلما فعل محمود تيمور، فقد كانت أحواله المالية مستقرة إلى حد كبير، وكنا نعتبره من الأعيان. فعندما تعرفنا عليه كان يمتلك سيارة خاصة، فى وقت كان فيه عدد السيارات الخاصة فى القاهرة محدودًا، ونعرف أسماء أصحابها بالاسم، وفجأة انقلب عادل كامل على الحياة الأدبية وبدأ يشكك فى الأدب وقيمته، وترجم شكه إلى هجرة عن الأدب واعتزال للكتابة، والاتجاه إلى ممارسة مهنة المحاماة.

وقصة عادل كامل مع الأدب تذكرنى بقصة مشابهة لصديق آخر هو أحمد زكى مخلوف، الذى كتب روايتين، لفتت إحداهما الأنظار إليه وهى «نفوس مضطربة» وقد أعجبتنى، وفجأة اعتزل الحياة الأدبية وترك الكتابة بصورة نهائية.

وفى حديثى عن الصداقة والأصدقاء أحب أن أتوقف عند ملاحظة هامة عن تبعات الصداقة والتزاماتها، فالصداقة لم تؤثر فى وقت من الأوقات على التزاماتى أو مسئولياتى الأدبية، ولم يعطلنى الأصدقاء أبدًا عن الكتابة، ومن هنا أختلف مع ما نقلته أنت لى من رأى «لهنريك إبسن» صاحب مسرحية «بيت الدمية» وغيرها، حيث يقول: «إن الأصدقاء من الكماليات الباهظة وليس فى وسع إنسان يستثمر رأس ماله فى دعوة ورسالة فى الحياة أن يحتفظ بهم، وليست تكاليف الصداقة ناجمة عما يتكبده الإنسان من أجل أصدقائه، ولكن عما يحجم عنه إكراما لهم». وفى رأيى أن كلام «إبسن» هو كلام إنسان لا يعرف قيمة الصداقة، ولم يستمتع يوما بها، وإذا كان هناك بين الأصدقاء من يمكن أن يزعجك أو يسبب لك متاعب أو يضيع وقتك، ففى إمكان الأديب أو صاحب الرسالة أن يتغلب على هذه المتاعب بسهولة، ولا يسمح لأحد أن يعطله أو يعيقه عن أداء واجباته والتزاماته. وبشىء من التنظيم والانضباط يمكن أن ينسق الأديب بين التزاماته الأدبية والتزاماته تجاه أصدقائه، بحيث لا تجور إحداهما على الأخرى.

الفصل الثامن

نساء فى حياتى

فتاة العباسية التى سحرتنى وعشت معها أول قصة حب فى حياتى ـ قبل الزواج عشت حياة من العربدة الكاملة ـ نظرتى للمرأة كانت فى البداية جنسية ـ زوجتى غيرت مفهومى للزواج وللمرأة ـ الفتاة الثرية التى هربت منها وعصيت أمى ولم أتزوجها ـ تزوجت سرًا و «دخلت» فى بيت شقيقى ـ زوجتى وابنتاى لا أستشيرهن فى أعمالى الأدبية.

■ يصف نجيب محفوظ حياته قبل الزواج بأنها كانت حياة من العربدة الكاملة، ويشير إلى أنه لم يفكر فى الزواج ظنًا منه أن قيود الزواج ومسئولياته ستعطله عن التفرغ والتركيز فى الكتابة والأدب.
فماذا حدث وأدى إلى تغيير رأيه فى الزواج ونظرته للمرأة، والتى كانت نظرة جنسية خالصة؟
فى هذا الفصل يحكى نجيب محفوظ عن زوجته وطبائعها والأسباب التى دفعته للزواج منها، ويعود قبل ذلك بذاكرته إلى سنوات الطفولة والصبا ليحكى عن تجاربه الأولى فى الحب... ■

نجيب محفوظ: علاقتى بالمرأة بدأت فى سن مبكرة، ففى سنوات طفولتى والتى أمضيتها فى حى «الجمالية»، كان متاحًا لنا اللعب مع البنات من نفس عمرنا، وخاصة فى شهر رمضان، وكانت الصداقة الطفولية تلك تستمر حتى تصل البنت إلى أعتاب مرحلة المراهقة، وعندها تستقر فى المنزل انتظارًا للزواج، فى ذلك الجو الطفولى المفعم بالبراءة عشت أول قصة حب، وكانت قصة ساذجة وبريئة وقصيرة، وانتهت بمجرد انتقالنا إلى العباسية.

وفى العباسية عشت أول قصة حب حقيقية فى حياتى، وهى قصة غريبة ما زلت أشعر بالدهشة لغرابتها كلما مرت بذهنى، وكنت أيامها على أعتاب مرحلة المراهقة، وقبل أن أدخل هذه التجربة كانت علاقتى بالبنات لا تزيد على مداعبات تتجاوز الحد أحيانًا. وكانت هذه التجاوزات البريئة تصطدم بالإحساس الدينى وهو على أشده فى تلك الفترة. لدرجة أننى كنت أتوجه بالتوبة إلى الله يوميًا، وأعيش فى عذاب مستمر من تأنيب الضمير، واستمرت هذه الحالة حتى رأيتها. كنت ألعب كرة القدم فى الشارع مع أصدقائى، وكان بيتها يطل على المكان الذى نلعب فيه، وأثناء اللعب شدنى وجه ساحر لفتاة تطل من الشرفة، كنت فى الثالثة عشرة من عمرى، أما هى فكانت فى العشرين، فتاة جميلة من أسرة معروفة فى العباسية، رأيت وجها أشبه بلوحة «الجيوكندا» التى تجذب الناظر إليها من اللحظة الأولى، ربما جذبنى إليها ـ بالإضافة إلى جمالها ـ أنها كانت مختلفة عن كل البنات اللائى عرفتهن قبلها. لم تكن فتاة تقليدية مثل بنات العباسية، بل كانت تميل إلى الطابع الأوروبى فى مظهرها وتحركاتها، وهو طابع لم يكن مألوفًا آنذاك.

ظل حبى قائمًا لهذه الفتاة الجميلة من بعيد ومن طرف واحد، ولم أجرؤ على محادثتها أو لفت انتباهها إلى حبى الصامت، واكتفيت منها بمجرد النظر، وكانت متعتى الكبرى أن أجلس بعد انتهاء مباراة الكرة قبيل المغرب، وأوجه نظرى صوب الشرفة التى تقف فتاتى فيها، وأطيل النظر إلى وجهها الجميل، استمر الحب الصامت لمدة عام كامل، وكم كان حزنى شديدًا عندما تزوجت فتاتى وانتقلت إلى بيتها الجديد، كنت أعلم أن ارتباطى بها شبه مستحيل، رغم ذلك همت بها حبا، وصبرت على الصمت عامًا كاملاً دون أن أظفر بأى فرصة للحديث معها، وصدمت لزواجها بشدة. انقطعت عنى أخبارها، ومضت الأيام، وبدأ حبها يخفت وتنطفئ نيرانه، خاصة بعد أن تخرجت فى الجامعة، وانشغلت بالوظيفة وبحياتى الأدبية ثم زواجى بعد ذلك، إلا أن حبى لها لم يهدأ أبدًا، وظلت آثاره عالقة بقلبى وذاكرتى، وبعد سنوات طويلة من الفراق، قابلت شقيقتها بالصدفة فى مصيف رأس البر، كان ذلك عام ١٩٥١ على وجه التقريب، لأننى سافرت فى صيف ذلك العام إلى رأس البر لتمضية أسبوعين هناك، فوجئت بشقيقة الحبيبة القديمة فى نفس المصيف بصحبة أسرتها، وكان بين أفراد هذه الأسرة شخص أعرفه، فوجدتها فرصة سانحة لأتحدث معهم، وعرفت أن أصل الأسرة من دمياط ثم نزحت إلى القاهرة، ودار بيننا حديث طويل لم أجرؤ خلاله على السؤال من قريب أو بعيد عن فتاتى القديمة، ولقد صورت قصتى مع تلك الفتاة فى رواية «قصر الشوق» مع تعديلات تتفق مع الإطار العام الذى وضعته للرواية.

وأعترف صراحة بأن شخصية كمال عبدالجواد فى الرواية تتشابه معى إلى حد كبير، حتى فى قصة حبى الأول، وإن كان «كمال» استطاع الوصول إلى حبيبته.

فى الفترة التى سبقت زواجى عشت حياة عربدة كاملة، كنت من رواد دور البغاء الرسمى والسرى، ومن رواد الصالات والكباريهات، ومن يرانى فى ذلك الوقت لا يمكن أن يتصور أبدًا أن شخصًا يعيش مثل هذه الحياة المضطربة، وتستطيع أن تصفه بأنه حيوان جنسى، يمكن أن يعرف الحب أوالزواج، كانت نظرتى للمرأة فى ذلك الحين جنسية بحتة، ليس فيها أى دور للعواطف أو المشاعر، وإن كان يشوبها أحيانًا شىء من الاحترام، ثم تطورت هذه النظرة وأخذت فى الاعتدال بعدما فكرت فى الزواج والاستقرار.

كان زواجى من «عطية الله» زواجًا عمليًا، بمعنى أننى اخترت الزوجة المناسبة لظروفى، ولم تنشأ بيننا قصة حب سابقة على الزواج، كنت فى حاجة إلى زوجة توفر لى ظروفًا مريحة تساعدنى على الكتابة ولا تنغص حياتى، زوجة تفهم أننى لست كائنًا اجتماعيًا، ولا أحب



نجيب محفوظ فى ركن صغير من شقته البسيطة اقتطعه ليضع فيه المكتب وبعض الكتب
والسيدة الفاضلة زوجته تقدم إليه الصحف.

أن أزور أحدًا أو أن يزورنى أحد، وأننى وهبت حياتى كلها للأدب. ووجدت فى «عطيةالله» هذا التفهم وتلك الصفات المناسبة لى، واستطاعت هذه الزوجة أن توفر لى جوًا مناسبًا جعلنى أتفرغ للكتابة والقراءة، حتى أن إخوتى عندما كانوا يقومون بزيارتهم المعتادة لنا، كانت زوجتى تستقبلهم وتجلس معهم لتتركنى وشأنى، حتى لا أضيع وقتى فى مثل هذه الواجبات الاجتماعية.

وليس معنى هذا أننى كنت مشغولاً عنها على الدوام، ففى أوقات الراحة عندما أنتهى من عملى وتفرغ هى من أعمال المنزل، نجلس سويًا لسماع الإذاعة أو مشاهدة التليفزيون. وبعد إنجاب البنتين «أم كلثوم» و«فاطمة» خصصنا يومًا فى الأسبوع نخرج فيه، وفى الغالب نذهب لمشاهدة أحدث الأفلام السينمائية أو التنزه فى الحدائق العامة، والآن أصبح الخروج بالنسبة لى ولزوجتى أمرًا صعبًا لأسباب كثيرة منها حالتى الصحية، وطوال حياتى الزوجية لم يحدث أن طلبت مشورة من زوجتى أو بنتىَّ فى أى عمل أدبى أكتبه، ولم يحدث أن عرضت عليهن عملاً لى قبل صدوره، وكن يقرأنه عندما يخرج للنور مع القراء، وأعمالى التى نقلتها السينما أو تحولت إلى أعمال تليفزيونية، كن يشاهدنها أيضًا مع

الجمهور، ويبدين رأيهن فيها، وآراؤهن فى الغالب انطباعية غير متخصصة، مما لا يفيدنى على المستوى الأدبى.

ولا أفشى سرًا إذا قلت إننى لم أكن أنوى الزواج أبدًا، فقد كنت أحسب أنه سيعطلنى عن حبى للأدب الذى قررت أن أعطيه كل وقتى واهتمامى، وساعدنى فيما انتويته طبيعة الحياة التى كنت أحياها، فمنذ مولدى وأنا أجد من يقوم بخدمتى ويقضى لى احتياجاتى. فى البيت والدتى تقوم بتجهيز طعامى وملابسى وحجرتى، وكنت أعيش حياة منظمة لا أثر فيها للتعب أو المشقة، ولم أجرب أبدًا العيش خارج القاهرة بعيدًا عن أهلى مثل صديقى «فؤاد نويرة» الذى اضطرته ظروف عمله لتمضية بعض الوقت فى مدينة أبوتيج بالصعيد، فعاش



أسرة نجيب محفوظ الصغيرة: الزوجة عطية الله، والابنتان: أم كلثوم (يمين الصورة) وفاطمة (يسار الصورة).

فى لوكاندة متواضعة عدة أيام حتى عثر على شقة، وكان يخدم نفسه بنفسه، وكنت أتعجب حينما أسمع عن أدباء يعيشون حياة الصعلكة، ولم أتخيل نفسى أبدًا أعيش هذه الحياة. وعندما تقدم العمر بوالدتى وضعفت صحتها، وأصبحت لا تقدر على الأعباء الكثيرة المطلوبة منها، بدأت أشعر بالوحدة، وبدأت أمى تدرك ضرورة زواجى، وعرضت علىّ أمرَ الزواج مرارًا وألحت فيه، ولكننى كل مرة كنت أرفض وأتذرع بحجج واهية، لم تقبل أمى الهزيمة، وكررت عرضها، واختارت لى بالفعل فتاة من بين أقاربى وتحدثت مع أمها فى الموضوع. والدة تلك الفتاة رحبت بى، فابنتها ثرية ومطمع للرجال، وتخشى عليها من زوج غريب لا تعرفه قد يحيل حياتها إلى جحيم ويستنزف ثروتها، بينما أنا شاب من الأسرة، ولن تكون لى أطماع فى مال ابنتها، كما أننى سأكون حريصًا عليها، وعندما فكرت وجدت أن هذه الزيجة ستكون ماسة بكرامتى بسبب أوضاع الفتاة المالية، فهى شديدة الثراء، وقد تعلمت فى أحسن المدارس الأجنبية، ولا يوجد تكافؤ بيننا من الناحية المادية، وليس هناك ما يجبرها على الزواج من أديب له مزاج خاص وطريقة حياة مختلفة ولا يمكن السيطرة عليه، بينما هى تستطيع بحكم ظروفها الممتازة الاقتران بشخص أكثر ثراء واستقرارًا وقدرة على منحها كل متع الحياة. ورفضت عرض أمى هذا، خاصة بعد أن علمت أن أهل الفتاة سيتكفلون بكل تكاليف الزواج من مهر وشبكة وأثاث المنزل. ومرت سنوات، إلى أن قابلت «عطيةالله»، ووجدت فيها الصفات التى أبحث عنها كأديب، وتزوجنا فى السر، أخفيت أمر زواجى عن أمى، ودخلت بزوجتى فى شقة شقيقى «محمد» حتى أتجنب ثورة أمى، لأنها كانت رتبت أمر زواجى من قريبتها الثرية، وأنا خذلتها أمام الجميع، فلم أستطع أن أفاجئها بزواجى من امرأة أخرى.

والآن وبعد كل هذه السنوات لا يمكننى أن أنكر حقيقة أن زوجتى «عطيةالله» تحملتنى كثيرًا وساعدتنى على تطبيق النظام الصارم الذى فرضته على حياتى، ووفرت لى جوًا مكننى من التفرغ للكتابة، وحاولتْ بقدر طاقتها أن تبعدنى عن كل ما يعطلنى ويشغل تفكيرى، وإذا كان لأحد فضل فى المكانة التى وصلت إليها، فزوجتى فى المقدمة، جزاها الله كل خير.

الفصل التاسع

فى عالم السينما

علاقتى بالسينما بدأت فى سن الخامسة ـ مغامراتى مع الشغالة فى سينما الكلوب المصرى ـ قرأ صلاح أبوسيف، عبث الأقـدار، فدخلت إلى عالم السينما كسيناريست ـ مصور أمى يكتشف صلاحية رواياتى للسينما ـ اختارنى ثروت عكاشة كمدير للرقابة فقررت اعتزال كتابة السيناريوهات ـ جريدة «الأهرام» تنقذنى من ورطة مالية ـ لماذا قبلت أن أكون رقيبًا على الإبداع رغم إيمانى المطلق بالحرية؟ ـ رقيب الأغانى يمنع «أنا بحبك يا مصطفى» لأسباب عجيبة ـ مدير الأفلام يتحدانى ويصرح بعرض فيلم يسىء إلى اليابان ـ عزالدين ذوالفقار يشكونى لأننى منعت أغنيات للمطربة صباح ـ حلمى سلام يهاجمنى بعنف وعبدالمنعم الصاوى يتدخل ـ وزير يتسبب فى تركى للرقابة ـ استفدت ماديًا من السينما ودفعت الثمن من دمى وأعصابى ـ كم من مهازل ترتكب باسم الفن ـ منتج فيلم يصر على تعديل السيناريو حتى لا يموت فريد شوقى فى الفيلم ـ تعرضت لعملية نصب غريبة ـ هذا رأيى فى مخرجى أفلامى ـ توفيق صالح أقرب المخرجين إلى قلبى ولكن... أزمة السينما المصرية ومشاكل النقد السينمائى.

■ فى سينما «الكلوب المصرى» بدأت علاقة نجيب محفوظ بالسينما، حيث دخلها وعمره خمس سنوات، ومنذ ذلك الحين سيطر حب السينما على قلبه مما جعله فى ذلك الحين يتمنى لو يقيم طوال حياته أمام الشاشة الفضية ولا يتركها أبدًا، فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن علاقته بالسينما، ويتوقف عند الفترة التى اشتغل فيها بكتابة السيناريو، ويتناول نجيب محفوظ بالتفصيل أيامه فى الرقابة عندما أسند إليه الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة منصب «مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية»، وقد أدى نجيب محفوظ من خلال هذا المنصب خدمات جليلة للفن والإبداع فى مصر، ولم يخن مبادئه فى الإيمان بحرية الفن والفنانين، ويتحدث نجيب محفوظ عن ذكرياته مع مخرجى السينما، ويجيب بصراحة عن هذا السؤال: من هو أقرب مخرج إلى قلبه؟ ويتناول محفوظ أزمة السينما المصرية ويحللها ويكشف أبعادها، ويتطرق إلى قضايا النقد السينمائى.. ■

نجيب محفوظ: علاقتى بالسينما بدأت فى سن مبكرة جدًا، كنت لا أزال طفلاً فى الخامسة من عمرى عندما دخلت سينما «الكلوب المصرى» فى «خان جعفر» المقابل لمسجد سيدنا الحسين، وكانت سينما «الكلوب» من أقدم دور السينما فى مصر، وإلى جوارها لوكاندة وكافيتريا يحملان الاسم نفسه، ومنذ اللحظة الأولى عشقت السينما وواظبت على الذهاب إليها مع الشغالة، حيث كانت أمى ترسلها معى، وتظل ملازمة لى حتى انتهاء العرض، ثم تصحبنى إلى المنزل، كانت كلمة «النهاية» على آخر الشريط، من أشق اللحظات على نفسى، فقد كنت أتمنى أن أمضى اليوم كله داخل دار العرض، وتمنيت لو أننى أسكن فى دار عرض سينمائى فلا أخرج منها أبدًا، كانت السينما وقتذاك تعرض الأفلام الصامتة، ولا نرى فى دار العرض إلا صورًا متحركة بدون أصوات، ومع ذلك كانت متعة مشاهدة فيلم صامت لا تعادلها ـ عندى ـ أى متعة أخرى.

أما علاقتى المباشرة بفن السينما، فقد بدأت فى أواخر الأربعينيات، وعلى وجه التقريب عام ١٩٤٧، ففى ذلك العام أخبرنى صديقى «فؤاد نويرة»، وكان من المهتمين بالفن ويهوى التمثيل وله علاقات بالوسط الفنى، بأن المخرج صلاح أبوسيف يرغب فى مقابلتى، لكى أعمل معه فى كتابة سيناريوهات الأفلام، فرفضت متعللاً بعدم معرفتى بهذا المجال، حيث

إننى أفهم فى الكتابة الأدبية أما السينما فهى أمر صعب بالنسبة لى.. إلا أن «فؤاد نويرة» أقنعنى بأن المخرج صلاح أبوسيف سيعلمنى ما يفيدنى فى مجال كتابة السيناريو، وهمس «فؤاد» فى أذنى بأننى سأتقاضى مبلغًا محترمًا نظير كتابة السيناريو وأنا الذى أصرف من جيبى على الأدب ولم أكسب منه مليمًا واحدًا حتى ذلك الحين.

وذهبت إلى صلاح أبوسيف، وعرفت منه أنه يعد لفيلم جديد عن «عنتر وعبلة»، ويريد أن يكلفنى بكتابة سيناريو الفيلم. وعلى مدار عدة جلسات متواصلة، علمنى صلاح أبوسيف التفاصيل والدقائق فى كتابة السيناريو، ثم بدأت فى الشروع فى كتابة السيناريو بالفعل، واستطعت إنجاز ما طلبه أبوسيف، وكانت النتيجة مبهرة من وجهة نظره، ثم أعطانى أبوسيف مجموعة كتب عن فن السيناريو فقرأتها بنهم شديد، كما قمت بشراء مجموعة كتب أخرى ودرستها بعناية، حتى أتقنت هذا الفن.

الغريب أن صلاح أبوسيف عندما طلبنى للعمل معه فى فيلم «عنتر وعبلة» لم يكن قرأ من أعمالى المنشورة سوى رواية «عبث الأقدار»، واستشف من بين سطورها أننى أصلح لكتابة السيناريو، وحصلت على مبلغ مائة جنيه مصرى نظير عملى فى الفيلم الذى كان حدثًا فريدًا فى حياتى وفتحًا جديدًا أشبه بظهور «النفط» فى دول الخليج العربية!!.

ورغم الكسب المادى كنت أشعر ببعض الضيق فى عملى الجديد، فقد تعودت فى الأدب أن أكون أنا كل شىء فى العمل، أمضى بأحداثى وشخصياتى طبقًا لرؤيتى الخاصة، ودون تدخل من أحد، أما السينما فهى عمل جماعى، لا تستطيع أن تنفرد فيه بالقرار، حيث تحكمه أهداف مختلفة منها ما هو فنى وما هو تجارى، وله أطراف عديدة من منتج وموزع ومخرج وممثلين، وينبغى أن ترضى كل الأطراف رغم اختلاف أهداف كل منها.

والحقيقة أن «حلاوة» المكسب المادى جعلتنى أتغاضى عن تلك المتاعب وأبلع ضيقى، خاصة أن كتابة سيناريوهات الأفلام لم تعطلنى عن عملى الأساسى وهو الأدب. فصلاح أبوسيف الذى أعمل معه لم يكن يخرج سوى فيلم واحد فى السنة، ويبدأ عمله فى الفيلم خلال الصيف، وكنت أنقطع عن الكتابة فى ذلك الفصل من العام بسبب مرض الحساسية الذى يصيب عينى فى شهور الصيف، فكنت أعمل مع أبوسيف فى هذه الشهور، واستغرقتنى كتابة السيناريو طيلة الفترة ما بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٧، وسجلت اسمى خلالها كسيناريست محترف فى نقابة المهن التمثيلية، وبعد «عنتر وعبلة» توالت أعمال سينمائية أخرى، أذكر منها: «ريا وسكينة» و «الوحش» و «إحنا التلامذة».

وفى تلك الأيام لم يفكر منتج أو مخرج فى الاستعانة بأعمالى الروائية المنشورة وتحويلها إلى أعمال سينمائية. فقد كان الاعتقاد السائد آنذاك قائمًا على التفرقة بين الأدب والسينما، ويعتبر المجالين يسيران فى خطين متوازيين لا يلتقيان، ولكن بعد ذلك تم هذا اللقاء بين الأدب والسينما بطريق المصادفة، وذلك عندما قام أحمد عباس صالح بتحويل رواية «بداية ونهاية» إلى مسلسل إذاعى فى «صوت العرب»، وتصادف أن تابع المسلسل المنتج والمصور السينمائى عبدالحليم نصر. ونصر هو نابغة التصوير السينمائى فى عصره على الرغم من أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وإلى جانب التصوير كان يقوم أحيانًا بإنتاج الأفلام لحسابه الخاص، أعجب نصر بالرواية وهو يستمع إليها فى الإذاعة، ولاحظ أنها تصلح لأن تكون فيلمًا سينمائيًا، وقام بالاتفاق معى، واشترى الرواية لاستغلالها سينمائيًا فى أواخر الخمسينيات، وأسند الإخراج إلى صلاح أبوسيف، وكتابة السيناريو إلى صلاح عزالدين. ولم أشارك فى كتابة سيناريو هذا الفيلم، ولم أشارك فى كتابة السيناريو لأى عمل سينمائى مأخوذ عن رواية لى، ومع ذلك أعتبر نفسى من خلال أعمالى الأدبية ومساهماتى فى كتابة سيناريو عدد من الأفلام من أكثر الأدباء الذين أفادوا السينما، ولا يسبقنى فى ذلك إلا إحسان عبدالقدوس. واستمرت إسهاماتى فى كتابة سيناريوهات الأفلام حتى عام ١٩٥٩ حيث اختارنى الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة لمنصب مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية، فاشترطت بشكل أساسى اعتزال كتابة السيناريو حتى لا يتعارض ذلك مع طبيعة منصبى، مضحيًا ـ فى ذلك ـ بدخل مالى كبير كنت أحصل عليه من عملى فى كتابة سيناريوهات الأفلام، وواجهتنى عقبة أخرى تتمثل فى مجموعة من العقود وقعتها مع منتجين لكتابة سيناريوهات خلال فترات زمنية محددة سلفًا، وحتى أتخلص من الحرج عند عرضها على الرقابة اتفقت مع الدكتور عكاشة على إحالة أعمالى أنا تحديدًا إلى عبدالمنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة فى ذلك الحين.

ومنذ اليوم الأول الذى تسلمت فيه عملى كرقيب انقطعتْ صلتى بالمنتجين، ولم أعد أبيع لهم أى قصص لى، إغلاقًا لباب المجاملات، ولكن قبولى لمنصب مدير عام الرقابة رسم على وجه الكثيرين من أصدقائى وقرائى علامة استفهام كبيرة، فكيف أكون رجلاً يدعو للحرية وينادى بها ويتخذ من الديمقراطية شعارًا ثابتًا له ثم يرضى أن يكون رقيبًا على الفن ويحد من حرية الفنانين؟

ولكى أزيل علامة الاستفهام الكبيرة هذه، أقول إن الرقابة كما فهمتها ليست فنية ولا

تتعرض للفن أو قيمته، ووظيفتها ببساطة هى أن تحمى سياسة الدولة العليا وتمنع الدخول فى مشاكل دينية قد تؤدى إلى الفتنة الطائفية، ثم المحافظة على الآداب العامة وقيم المجتمع وتقاليده فى حدود المعقول، وفيما عدا ذلك يحق للفنان أن يقول ما يشاء ويعبر عن نفسه بالأسلوب الذى يراه مناسبًا، وأثناء عملى حاول البعض أن تمتد الرقابة إلى الفن وتتدخل فى مضمونه، ولكننى قاومت هذه المحاولات، وطوال الفترة التى أمضيتها فى الرقابة كنت منحازًا للفن، وكانت الأجواء داخل الرقابة عندما تسلمت عملى بها تحمل روح العداء للفن، وكانت وظيفة الرقابة ـ لدى البعض ـ سبيلاً للرشوة والفساد.

فكان السائد هو أن يتقدم صاحب الفيلم بالسيناريو إلى الرقابة التى ترده إليه بعد الاطلاع عليه، ومرفقا به عديد من الملاحظات والتعديلات المطلوب إجراؤها، حتى يحصل على الموافقة ويبدأ تنفيذ فيلمه. وكانت هذه الملاحظات والتعديلات تستوجب كتابة السيناريو من جديد، وقد تعرضت أنا شخصيًا قبل عملى فى الرقابة لمثل هذا الموقف، فقد عملت مع المخرج نيازى مصطفى فى كتابة سيناريو أحد الأفلام، وبعد أن كتبته طلبت الرقابة تعديل أجزاء كثيرة منه، مما يعنى إعادة كتابته بصورة كاملة، وفهمت من نيازى مصطفى أننى لن أكتب السيناريو ثانية ولن أعدل فيه شيئًا، وسنحصل على موافقة الرقابة، وأنه يفهم فى مثل هذه الأمور جيدًا، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى تسلمنا السيناريو مصحوبًا بموافقة الرقابة، وسألت نيازى مصطفى عما فعله؟ فأجابنى بأنه فعل مثل كل مرة، أى أنه لجأ إلى طريق الرشوة، ومن خلال احتكاكى بالوسط السينمائى عرفت أن شركات الإنتاج لها طرق خاصة مع الرقابة لتمرير السيناريوهات، وهذا ليس له سوى معنى واحد، أى الرشوة.

وعندما توليت إدارة الرقابة كنت أمتلك فكرة شاملة عما يجرى، وفى أول اجتماع لى مع الرقباء أوضحت لهم الأسلوب الجديد الذى سأتبعه، وشرحت لهم وجهة نظرى فى الرقابة وأسلوبها وهدفها. أتذكر أننى قلت لهم إن الرقابة ليست قيدًا على الفنان، والرقيب ينبغى أن يكون صديقًا للفن لا عدوًا له، وأن دورنا كرقابة هو مساعدة شركات الإنتاج حتى لا تتعرض لخسارة مادية لا داعى لها، وبالتالى فإن أى ملاحظات فى السيناريوهات المقدمة لنا يمكن حلها بالمناقشة والحوار، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأصل فى الفن هو «الإباحة»، أما «المنع» فهو مثل الطلاق، أى أبغض الحلال.

لم يمض وقت طويل حتى أصبح تمرير السيناريوهات عن طريق الرشوة من ذكريات الماضى، حتى أن أحد ضباط الشرطة من العاملين فى جهاز الرقابة أعرب لى عن دهشته،

ليس لأننى لا أقبل الرشوة، وإنما لأننى استطعت أن أمنع الرشوة فى الجهاز الرقابى كله. والإجابة ببساطة أن شركات الإنتاج لم تعد فى حاجة إلى رشوة الرقباء، لأنها شعرت أن الرقابة أصبحت مع الفن ولا تقف فى طريق الفن أو تتعامل معه بشكل متعسف، فكانت الملاحظات التى تصر الرقابة على إجرائها فى السيناريوهات، تقوم الشركة المنتجة بتنفيذها فى رضاء تام ودون العودة لممارسة الأسلوب القديم، وربما لأول مرة فى تاريخ الرقابة تصلها خطابات شكر من شركات الإنتاج السينمائى لتعاونها معهم وتذليل كافة العقبات أمامهم. وأستطيع القول إننى أديت من خلال عملى فى الرقابة خدمة للفن ما كان يمكن أن أؤديها فى موقع آخر، ولم أشعر فى لحظة من اللحظات أننى أخون نفسى كأديب وفنان. بل كانت أسعد أيام حياتى الوظيفية هى تلك التى أمضيتها فى الرقابة، رغم المضايقات الكثيرة التى تعرضت لها من هؤلاء الذين لا يؤمنون بأن الرقابة يمكن أن تكون نصيرًا للفن. لقد اختلفت مع أصحاب هذه العقليات، وكثيرًا ما ذهبوا ـ خاصة أولئك الذين تربطهم صلات مع القيادة السياسية - للشكوى منى عند وزير الثقافة، وفى كل مرة يأمر الوزير بتشكيل لجنة لبحث الشكوى، وفى كل مرة تنحاز اللجنة لموقفى وتؤيد وجهة نظرى، ولم تخذلنى اللجنة مرة واحدة، والأمثلة كثيرة. فعندما ظهرت الأغنية التى تقول كلماتها:

يــــا مـــصـــطـــفـــى يـــــا مـــصـــطـــفـــى

أنــــــا بـــحـــبـــك يــــا مـــصـــطـــفـــى

ســبــع ســنــيــن فـــى الـــعـــطـــاريـــن...

إلخ.. فوجئت بمراقب الأغانى يصدر قرارًا بمنعها، وكانت الأغنية تذاع فى الراديو ويغنيها الناس فى الشارع، ولم يكن أمام المراقب سوى مشروع لطبعها فى أسطوانات، ولكنه أصدر قرارًا بالمنع، ولما سألته عن سبب قراره أعطانى أغرب إجابة يمكن أن أسمعها فى حياتى، إذ قال لى إن مؤلف الأغنية يقصد «مصطفى النحاس» وأن «سبع سنين» الواردة فى الأغنية تشير إلى مرور سبع سنوات على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، إلى هذا الحد من ضيق الأفق كانت العقليات التى تعمل معى فى جهاز الرقابة.

كما اختلفت ذات مرة مع مدير الرقابة على الأفلام محمد على ناصف لأنه سمح بعرض فيلم سينمائى أجنبى يسىء إلى اليابان، وكنت أرى ضرورة منعه من العرض. فاليابان فى ذلك الوقت كانت قد وقفت إلى جانب مصر والرئيس عبدالناصر، وساندتنا ضد الولايات

المتحدة الأمريكية، مما وضع اليابان فى موقع الرضا والصداقة من النظام والشعب فى مصر. واستند محمد على ناصف فى موقفه على العلاقة القوية التى تربطه بالمشير عبدالحكيم عامر وسمح بعرض الفيلم، وفى اليوم الأول للعرض - بعد حفلة العاشرة صباحًا - فى دور السينما، كان السفير اليابانى فى مكتب عبدالناصر لتقديم احتجاج على عرض الفيلم. وأمر عبدالناصر برفع الفيلم من دور العرض فورًا، وبالفعل لم يعرض فى حفلة الثالثة من بعد الظهر فى نفس اليوم الأول، وحدث ارتباك لدى هذه الدور خاصة أن الجماهير حصلت على تذاكر حفلة الثالثة، مما اضطرها إلى رد ثمن التذاكر وإلغاء العرض.

وفى أحد أفلام المخرج الراحل عزالدين ذوالفقار رأيت حذف بعض الأغانى لأن المطربة صباح تؤديها بطريقة مثيرة، وألحان عبدالوهاب لهذه الأغانى كان فيها إثارة جنسية فاضحة. ولأن عزالدين ذوالفقار كانت له علاقة قوية بالضباط الأحرار، فقد استطاع بنفوذه استصدار قرار بتشكيل لجنة للفصل فى أمر تلك الأغانى، وأيدتنى اللجنة فى موقفى بإجماع الآراء وأقرت ضرورة حذف هذه الأغانى.

وأثناء عملى بالرقابة لم أنقطع عن كتابة السيناريوهات المتفق عليها، وحتى أتخلص من الحرج عند عرضها على الرقابة، كنت أترك القرار النهائى لمدير الرقابة على الأفلام، وأعطيه حرية اتخاذ ما يراه بشأنها دون تدخل منى، ومع ذلك هاجمنى حلمى سلام فى بعض مقالاته مستنكرًا أن يكون كاتب السيناريو هو الرقيب، حيث لا يجوز أن يكون الخصم هو نفسه القاضى، ولم تكن كتابات حلمى سلام هجومًا صريحًا بقدر ما حملت روح العتاب، لأنه سرعان ما عاد واعتذر بعد أن اتصل به عبدالمنعم الصاوى وشرح له موقفى وطريقة عملى فى الرقابة، وعدم تدخلى أو تصرفى حيال السيناريوهات التى أقوم بكتابتها.

وعلى الرغم من أننى بقبولى لمنصب فى الرقابة قد ضحيت بدخل مالى كبير، وكانت أسرتى أكثر الناس تأثرا بعملى فى الموقع الجديد، لأن راتبى فى الرقابة يقل كثيرا عما كنت أحصل عليه من كتابة السيناريو، إلا أننى لم أسقط فى أزمة مالية. فسرعان ما حدث تحسن سريع فى دخلى ببدء جريدة «الأهرام» فى نشر رواياتى المسلسلة، مع دفع مقابل مادى عن النشر، ورغم أن ما تدفعه «الأهرام» لا يصل إلى أجرى عن السيناريو، فإنه أحدث نوعا من التوازن فى الدخل الذى كاد يهتز بسبب قبولى لوظيفة مدير الرقابة.

ظللت فى موقعى كرقيب لمدة عام ونصف العام تقريبًا، وجاء خروجى منه كنتيجة

من نتائج أزمة رواية «أولاد حارتنا» التى نشرتها «الأهرام» مسلسلة فى تلك الفترة. ففى مجلس الوزراء شن الدكتور حسن عباس زكى وزير الاقتصاد حملة على ثروت عكاشة، وكانت وجهة نظر حسن عباس زكى هى أن الدكتور عكاشة أسند مهمة الرقابة لرجل «متهم فى عقيدته الدينية»! وفى تلك الأثناء تعرضت لمواقف كان بعضها أشبه بمسرحية هزلية، ففى أحد الأيام اتصل بى مدير مكتب كمال الدين حسين، وفوجئت به يبلغنى لوم الوزير لأننى سمحت بعرض «أولاد حارتنا» على المسرح القومى، ولم تكن الرواية تحولت إلى مسرحية، واكتشفت أن كمال الدين حسين خلط بينها وبين «بداية ونهاية» التى كانت تعرض آنذاك بالفعل على خشبة المسرح القومى. ولوضع حد للمشاكل طلب منى الدكتور ثروت عكاشة ترك الرقابة والانتقال إلى رئاسة مؤسسة دعم السينما التى كانت تحت الإنشاء، وكانت مهمتها تنحصر فى إعانة نقابة السينمائيين ودعم جوائز السينما والاشتراك فى المهرجانات وإنتاج أفلام قصيرة، ولم يكن لها علاقة مباشرة مع المنتجين السينمائيين.

بعد خروجى من الرقابة انهالت على عروض كثيرة لكتابة سيناريوهات الأفلام من جديد، ووجدت المنتجين يأتوننى أفواجًا حتى أصبحوا مثل «طابور العيش»، ولكننى اعتذرت لهم جميعًا ورفضت العودة إلى هذه المهنة. وكان آخر الذين عرضوا على العودة لكتابة السيناريو المخرج صلاح أبوسيف الذى زارنى وهو يحمل فى يده قصة أدبية طالبًا منى تحويلها إلى قصة سينمائية، وهى عملية لا تستغرق منى أكثر من أسبوع، على أن يتولى هو كتابة السيناريو. ولكننى اعتذرت - أيضًا - لصلاح أبوسيف، فلم يعد لدى استعداد لذلك، كما أن ظروفى الصحية لم تعد هى الأخرى تمكننى من هذا العمل.

لا أنكر أننى استفدت ماديًا من السينما، بل كنت أستغل عائدها المادى من كتابة السيناريوهات فى الإنفاق على الأدب. ولكننى فى المقابل دفعت من دمى وأعصابى ووقتى، ولم أشعر براحة فى تعاملى مع السينمائيين، فكم من مهازل ارتكبت باسم الفن ورأيتها بعينى، ولم أكن أفرض شروطًا فى التعامل مع المنتجين والمخرجين طوال فترة كتابتى لسيناريوهات الأفلام، لأننى أفهم اللعبة جيدًا، وكنت أضع كل جهدى فى كتابة السيناريو، وأترك لهم حرية اختيار الممثلين، ولا أتدخل إلا إذا طلب المنتجون منى ذلك.

ومن خلال تجربتى فى السينما لفتت انتباهى ملاحظة جديرة بالتوقف عندها، وهى أن

الموزع الخارجى يفرض ذوقه وشروطه لدرجة قد تصل إلى التدخل فى سيناريو الفيلم وبشكل يخل بالقصة المتفق عليها. وأذكر فى أحد الأفلام التى قمت بكتابة السيناريو لها أن الموزع اللبنانى اعترض على موت البطل، وكان بطل الفيلم، وهو فريد شوقى، يجسد شخصية مجرم شرير يلقى حتفه فى النهاية جزاء ما ارتكب من جرائم. وأصر المنتج على تعديل السيناريو بحيث يبقى فريد شوقى على قيد الحياة، وكان مبرره أن الجمهور يحب فريد شوقى، ومن هنا يجب أن يظل فريد شوقى أمام أعين الجمهور حتى المشهد الأخير من الفيلم، مهما كانت الجرائم التى ارتكبها ومهما كانت النتيجة وجاءنى منتج الفيلم يرجونى أن أصنع أى شىء حتى لا يموت فريد شوقى.

وفى سبيل الكسب المادى قد لا يتورع البعض فى الوسط الفنى عن ارتكاب عمليات نصب وخداع، وكنت ضحية لإحدى هذه العمليات، وسأروى القصة دون ذكر الأسماء، فقد خطر لأحد الممثلين المعروفين بلعب الأدوار الجادة على الشاشة، أن يجرب نفسه فى الأدوار الكوميدية، ولأنه كان منتجًا لأغلب أفلامه، فقد استدعى المجموعة التى اعتاد العمل معها من إخراج وتمثيل ودعاية، مقترحًا عليهم فكرة فيلم كوميدى، وحدد الفكرة بأنها تتناول شخصًا فقيرًا هبطت عليه ثروة ضخمة فانقلب حاله إلى الغرور وأخذ يمارس حياة العربدة حتى فقد الثروة وعاد إلى الفقر من جديد، وتحمس المخرج للفكرة واتصل بى يخبرنى بأنه اختارنى لكتابة السيناريو، وفى جلسة العمل التى ضمتنى مع الممثل والمنتج وبحضور المخرج وكاتب الحوار تم توقيع ثلاثة عقود وتقاضينا الأتعاب. وبدأت فى كتابة السيناريو واستغرق ذلك منى شهرين كاملين، حتى انتهيت منه وأنا راضٍ عنه، ولدى اعتقاد جازم بأننى أنجزت ما طلب منى، وانتظرت من يتسلم منى السيناريو ويدفع لى بقية أتعابى، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وبدأت أرتاب وأخذت أبحث عن حقيقة الأمر، واكتشفت أن كل ما جرى هو مجرد تمثيلية قصد بها كل من المخرج وكاتب الحوار الحصول على شىء من المال من الممثل والمنتج، وبعد أن حصلا على ما أرادا أقنعاه بأنه لا يصلح للأعمال الكوميدية، ومن الأفضل له أن ينسى فكرته حتى لا يخسر جمهوره، وأقنعاه بأن نصيحتهما مبعثها الوحيد ودافعها الأول هو الصداقة، وأنهما يضحيان بالمال الذى يمكن أن يأتيهما من هذا الفيلم فى سبيله وخوفًا عليه من الفشل. وعندها لم يستطع صاحبنا أن يطالبهما برد مقدم الأتعاب، وبذلك أفلتا بالغنيمة. إلى هذه الدرجة يمكن أن يصل الكذب والخداع فى الوسط الفنى، فمن أجل المال يمكن ارتكاب أى شىء حتى ولو على حساب صديق أو كاتب مثلى ظل يعمل لمدة شهرين متواصلين، وكان عمله بلا جدوى ولا فائدة.

ربما تكون رواية «ميرامار» هى الوحيدة من بين أعمالى التى تعرضت لبعض التغييرات عند تحويلها إلى فيلم سينمائى. حيث ركز الفيلم على شخصية «طلبة بك» التى جسدها يوسف وهبى، وهى شخصية خفيفة الظل وقريبة من المزاج الشعبى. هذا التركيز قدم الشخصية فى صورة تقلب الهدف الذى قصدته منها رأسًا على عقب، ففى الرواية حاولت تقديم هذه الشخصية فى صورة رجعية مكروهة، أما الفيلم فقد حولها إلى شخصية محبوبة، فتحولت بذلك إلى وسيلة دعاية للرجعية، وساعد على ذلك الأداء البارع للفنان الكبير يوسف وهبى. وما عدا «ميرامار» التزم المخرجون بروح النص الأصلى لأعمالى، ولا شك أن الفضل فى ذلك يعود إلى أن رواياتى كانت فى أيدى كبار مخرجينا من أمثال صلاح أبوسيف وكمال الشيخ وحسين كمال وعاطف سالم وحسام الدين مصطفى وعلى بدرخان وحسن الإمام.

ورغم أن حسن الإمام التزم إلى «حد ما» بروح النصوص التى قدمها لى فى السينما، وهى «الثلاثية» و «زقاق المدق»، إلا أنه أخضعها لمدرسته التى تميل إلى الإثارة الحسية والميلودراما، حتى بدا السيد أحمد عبدالجواد بطل «الثلاثية» وكأنه شخص لا هم له سوى «العوالم» والمتعة الجسدية. وربما كان لنشأة حسن الإمام فى جو «العوالم» بمدينة المنصورة حيث ولد، ثم عمله فى مطلع حياته بالقاهرة فى «صالات» عماد الدين أثر كبير فى الأسلوب الذى سار عليه عندما عمل بالإخراج السينمائى، دخل حسن الإمام السينما وهو ممتلئ بالحس «البلدى»، وهو شىء آخر غير الحس الشعبى. فالثانى متأثر بالثقافة والتراث، أما الأول فهو حس مصرى صميم غير مخلوط.

ويعتبر صلاح أبوسيف أكثر مخرج تعاملت معه. فمن بين اثنى عشر سيناريو كتبتها للسينما، أخرج أبوسيف تسعة منها. كما أخرج من رواياتى التى نقلت إلى السينما روايتى «بداية ونهاية» و «القاهرة ٣٠»، ومع ذلك فأقرب مخرجى السينما إلى قلبى هو توفيق صالح الذى لم يجمعنا سوى عمل واحد هو فيلم «درب المهابيل». وكان من المفروض أن يقوم توفيق صالح بإخراج «الثلاثية» بعد أن أسند إليه صلاح أبوسيف مهمة إخراجها عندما كان رئيسًا لشركة السينما، حيث يعرف أبوسيف العلاقة الحميمة التى تربطنا، وبدأ توفيق صالح فى التحضير للجزء الأول، وفجأة اختلف مع صلاح أبوسيف ووقعت بينهما مشادة عنيفة، ترك على أثرها الفيلم، فأسندوه إلى حسن الإمام.

إن المشكلة الأساسية عند توفيق صالح، أو قل عيبه الأساسى هو التشدد، ولا يختلف

اثنان فى مصر على موهبته وقدرته الفنية وثقافته، وأنا أعتبر أفلامه على قلتها من أفضل الأعمال فى تاريخ السينما المصرية. ولكن تشدده وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة وشروطه الصعبة التى يفرضها، أضاعت عليه فرصًا كثيرة، وجعلت المنتجين والنجوم يهربون من العمل معه، وبعد عودة توفيق صالح أخيرًا من سفره الطويل نصحته بتغيير سلوكه هذا وأن يحاول التأقلم مع الظروف الجديدة التى تحكم حال السينما الآن، ولكنه مازال مصرًا على أسلوبه وسلوكه القديم.

لقد راودنى أمل كبير عندما بدأت الكتابة للسينما فى أن يصبح هذا المجال امتدادًا لحياتى الفنية، وقلت لنفسى إن الكتابة للسينما تتضمن عناصر مشابهة إلى حد كبير للعناصر التى يقوم عليها بناء الرواية من خيال وحبكة وشخصيات وصراع... إلخ، فلماذا لا تكثف عملك فى هذا المجال وتعطيه مزيدًا من الاهتمام، مادام هو قريبًا من الأدب؟

وبعد فترة اكتشفت استحالة الاستمرار فى هذا الميدان، فقد وجدت أن عملية الكتابة للسينما تقوم على جهد جماعى، وأننى لست حر التصرف مثلما هو الحال فى الرواية. فهناك قيود كثيرة تكبل حركتك ولا تعطيك الفرصة لأن تكتب ما تريد، هناك شروط المنتج والموزع الخارجى والمخرج، بالإضافة إلى الشرط الأهم وهو الجمهور ومطالبه ورغباته التى ينبغى أن تراعى مهما كانت النتائج. وجدت أن تلك الضغوط الخارجية مزعجة، ولا أستطيع الاستمرار فى ظلها، وفى أول فرصة للانسحاب من مجال الكتابة للسينما انسحبت غير آسف على ذلك، وبعد أن اكتشفت تلك القيود فى بداية عملى بالسينما، وضاع الأمل الذى راودنى فى لحظة من اللحظات، تحولت نظرتى لهذا العمل على أنه مجرد حرفة أو صنعة لزيادة دخلى المالى فحسب، بدليل أننى كتبت اثنى عشر عملا للسينما ولم أنشرها فى كتاب أو أحتفظ بأصولها، بل لا أتذكر حتى أسماءها. تحولت المسألة عندى إلى حرفة، وتحولت أنا إلى «صنايعى» أو «حرفى» أعمل ما يطلبه منى الآخرون، وأستجيب لرغبات صاحب العمل الذى هو المنتج، وهو فى أغلب الأحيان يحمل عقلية التاجر، بما فيها من نظرة مادية واقعية هدفها الربح أولاً وقبل كل شىء.

والحقيقة أن كلمة «الإنتاج السينمائى» التى تحمل معنى ماديًا عندنا تجدها تحمل معنى مغايرًا فى السينما العالمية، فمعناها هناك أقرب إلى الفن والتذوق، ولذلك تجد فى السينما العالمية أعمالاً رفيعة من الناحية الفنية وهى أيضًا ناجحة تجاريًا، وحتى فى التجارب الجديدة التى لا يتوقع أحد أن يقبل عليها الجمهور، تجد أن هناك جمعيات فنية

تدعمها وتقف وراءها. هذا الدعم للفن الرفيع ليس مقصورًا على السينما وإنما يمتد إلى مجال الأدب، ففى أغلب البلدان الأوروبية تجد نوادى أدبية تدعم دور النشر التى تصدر أعمالاً رفيعة المستوى فنيًا وغير مضمونة التوزيع، حدث هذا مع روايتى «زقاق المدق» عند ترجمتها إلى اللغة الألمانية، حيث قام أحد هذه النوادى بدعم دار النشر التى ترجمت الرواية تشجيعًا لدور النشر فى ترجمة الأدب العربى لتحقيق مكاسب متعددة، منها تدعيم العلاقات العربية - الألمانية - وتعريف القارئ الألمانى والأوروبى بصفة عامة بثقافة جديدة بالنسبة له. وفى اعتقادى أن تلك النوادى تقوم بنفس الدور الذى كان يقوم به الأمراء والنبلاء فى أوروبا القديمة تشجيعًا للأدب والفن، وعندما توليت مسئولية مؤسسة دعم السينما حاولت تقديم أكبر دعم للأعمال الرفيعة، وفى فترة رئاستى لها أنتجنا عددًا من الأعمال الجيدة على رأسها فيلم «المومياء»، الذى ما كان ليرى النور لولا دعم المؤسسة، فقد عرض علىّ الدكتور ثروت عكاشة سيناريو «المومياء» طالبًا إبداء الرأى فى مسألة إنتاجه، وعندما قرأته وجدت فيه عملاً رائعًا يجب أن ينفذ فورًا، وحدث ما توقعت، حيث حقق نجاحًا فنيًا هائلاً، ولكنه أخفق جماهيريًا.

وإلى جانب فيلم «المومياء» قدمنا عددًا من الأعمال السينمائية المتميزة ومنها: «الأيدى الناعمة» و «الناصر صلاح الدين». وإن كان هذا لا يسلب القطاع الخاص السينمائى دوره فى إنتاج أعمال جيدة ومتميزة فنيًا فى نفس الفترة، لكن عددها قليل مقارنة بمجموع الأفلام المنتجة عن طريق مؤسسة دعم السينما.

لا يخفى على أحد أن السينما المصرية مرت بمأزق حاد أثناء حرب الخليج الثانية وظروف غزو العراق للكويت ثم إخراجه منها، ذلك لأن سوق التوزيع الخارجية الرئيسية للأفلام المصرية، وهى البلدان الخليجية، أغلقت أبوابها، ومن أكبر أخطاء السينما المصرية اعتمادها على سوق التوزيع الخارجية، ذلك لأن هذه السوق معرضة فى أى وقت لأزمة حادة تهددها بالتوقف، نظرًا لارتباطها بالأحداث السياسية، والسياسة متقلبة ولا تدوم على حال، ونتيجة لهذا الارتباط توقفت سوق التوزيع الخارجية للسينما المصرية مرات عديدة. فقد توقفت فى عهد عبدالناصر نتيجة لخلافاته العربية، وفى فترة ما بعد نكسة٦٧، وهذه السوق معرضة للتوقف فى أى وقت، وهذا يقتضى إيجاد حل حاسم لهذا المأزق، وهو فى تصورى، الاعتماد على سوق التوزيع الداخلية، هذا يقتضى بدوره إصدار «قانون للفيديو» يحمى حقوق المنتجين، ويمنع عمليات السرقة والقرصنة، ويحمى حقوق الفيلم المصرى فى الأسواق الخارجية.

وفى اعتقادى أن النقد السينمائى هو أحد أبعاد الأزمة التى تعيشها السينما المصرية. ومن خلال متابعتى المحدودة لما ينشر فى الصحف والمجلات، تعرفت على مجموعة من الأسماء، تمتلك أدوات النقد السينمائى ولديها موهبة الكتابة، أذكر منها سمير فريد والمرحوم سامى السلامونى وهاشم النحاس. ومع تقديرى لهؤلاء وغيرهم فإننى آخذ عليهم مسألة تحيزهم «الأيديولوجى»، فهم لا يفرقون بين الفن والسياسة، وما يتفق مع فكرهم السياسى يرفعونه إلى أعلى عليين، وما يختلف معه، ينزلونه إلى أسفل سافلين بدون أسباب موضوعية. وهذه نقطة خلاف أساسية بين جيلنا والجيل الحالى، فقد كان جيلنا يفرق تمامًا بين السياسة والأدب ولا يخلط بينهما، الدكتور طه حسين مثلاً كنا نختلف مع مواقفه السياسية ونعارضها بشدة أحيانًا، ولكننا كنا نتتلمذ على يديه كأديب ومفكر ومبدع، ونقف إلى جواره فى معاركه الأدبية والفكرية، فالفنان أو المبدع يجب أن تحاسبه على فنه أو إبداعه فقط، ولا تخلط بينهما وبين مواقفه الشخصية أو السياسية، فالفنان الكبير أحيانًا يحمل بداخله إنسانًا ضعيفًا، وتاريخ الأدب العربى ملىء بنماذج كثيرة من هذا الصنف، وعمر بن أبى ربيعة مثلاً كان شاعرًا عبقريًا، ولكنه فى المقابل كان إنسانًا تافهًا، فلماذا نحاسبه كشاعر على هفواته الشخصية؟ هذا هو مأخذى الأساسى على الجيل الحالى من نقاد السينما.

الفصل العاشر

متاعبى مع السلطة

السعى إلى السلطة لا يتوافق مع طبعى ومزاجى ـ سلطة الأدب أهم عندى من السلطة الإدارية ـ من أجل الأدب ابتعدت عن العمل السياسى ـ توقعات أصدقائى التى خابت بعد زواجى ـ لهذه الأسباب كنت أنتقد عبدالناصر دون خوف من العقاب ـ فريد أبوحديد أنقذنى من ورطة ـ المشير يهدد بتأديبى بعد «ثرثرة فوق النيل» وعبدالناصر يتدخل ـ المخبرون يراقبون زوجتى فى سوق الخضار ـ هيكل رفض نشر «الكرنك» فى «الأهرام» وراح يشكونى إلى توفيق الحكيم ـ طلعت خالد هو الرقيب الذى قام بتشويه «الكرنك» ـ أزمة «ميرامار» والمفاجأة التى لم أتوقعها من السادات ـ صلاح نصر يستجوبنى حول رواية «أولاد حارتنا» دون أن أعرفه ـ البيان الشهير ومتاعبى مع السادات ـ الصديقان اللذان نسيا ما بيننا من ود وهاجمانى لإرضاء السادات ـ فى عهد عبدالناصر أطلقوا سراح «الأدب» واعتقلوا «الفكر».

■ لم يدخل نجيب محفوظ معتقلات عبدالناصر أو السادات، رغم الانتقادات الصريحة التى كان يوجهها عن طريق رواياته وقصصه لسلبيات موجودة فى المجتمع فى عهدهما، محاولاً تعريتها ولفت الأنظار إليها، ومع ذلك فلم يكن محفوظ بعيدًا عن المخاطر أو «نائمًا فى العسل» ـ على حد تعبيره ـ وفى مرات كثيرة كاد يتعرض لمشاكل جدية تحد من حريته الأدبية والشخصية معًا.

وفى هذا الفصل يحكى نجيب محفوظ عن متاعبه مع السلطة فى عهدى عبدالناصر والسادات، والمآزق التى تعرض لها بعد صدور روايات «ثرثرة فوق النيل» و«الكرنك» و«أولاد حارتنا» و«ميرامار» وكذلك بعد البيان الشهير الذى وقع عليه بالاشتراك مع كتاب وصحفيين آخرين قبيل حرب أكتوبر لحث السادات على كسر حالة «اللا سلم واللا حرب».. ■

نجيب محفوظ: «أنا مش بتاع سلطة»... هذه حقيقة ليس فيها أى نوع من المبالغة. فلم تكن السلطة فى يوم من الأيام هدفى ومأربى وذلك لسبب بسيط، هو أننى ما كنت أستطيع الجمع بين السلطة والأدب، فالأديب الذى يقدس مهنته ويعشق قلمه، يفضل أن يبتعد عن السلطة بهمومها ومتاعبها ومشاغلها والتزاماتها، وفى خلال المدة التى عملت فيها بمؤسسة السينما ـ وتبلغ حوالى عام ونصف العام ـ لم أقرأ أو أكتب كلمة، وكان كل وقتى محصورًا فى الوظيفة وما يتصل بها من متاعب وقيود.

وليست السلطة هى الهدف الذى يتوافق مع مزاجى وطبعى، بل إننى أعتبرها معطلة لى عن مهنتى الأساسية وهى الأدب، والسلطة الحقيقية التى طالما حلمت بها هى سلطة الأدب والفن، وليست السلطة الإدارية، فالأدب فى حد ذاته يمكن أن يكون سلطة مؤثرة إذا أحسن الأديب استخدامه، والأديب يمكن أن يكون صاحب سطوة ونفوذ وتأثير على الرأى العام بكتاباته، خاصة إذا تحولت هذه الكتابات إلى أعمال سينمائية أو تليفزيونية أو مسرحية أو إلى أى شكل من هذه الأشكال الجماهيرية، وسلطة الأدب أسمى وأرفع وأبقى من السلطة الإدارية.

وأحب هنا أن أؤكد نقطة هامة، وهى أن هذا الرأى هو توجه خاص بى لا أفرضه على أحد، ولا أعيب على أى مفكر أو أديب عمل بالسياسة أو سعى إلى السلطة وتمناها، فربما

عن طريق السلطة يخدم الأدب والحياة الثقافية أكثر من تأليف كتاب أو رواية، وهناك نماذج كثيرة لأدباء ومفكرين قدموا خدمات جليلة للحياة الثقافية، بل للمجتمع كله، عندما وصلوا إلى مناصب قيادية، الدكتور طه حسين مثلاً ما كان يمكن أن يصل بأفكاره الخاصة بالتعليم إلى حيز التنفيذ، ويطبق شعاره الشهير «التعليم كالماء والهواء» ما لم يصل إلى السلطة، ويشغل منصب وزير المعارف من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٢.

وربما كان توفيق الحكيم من القلائل الذين توافق مزاجهم مع مزاجى فى تفضيل سلطة الأدب على السلطة الإدارية، فقدم استقالته من النيابة العامة، فى وقت كان فيه منصب «وكيل النيابة» من أرفع المناصب وأسماها، وقد يتعرض للاتهام بالجنون من يتخلى عنه من أجل الأدب والتفرغ له.

من أجل الأدب ابتعدت عن العمل السياسى، فلم أنضم إلى حزب أو تنظيم سياسى لا قبل الثورة أو بعدها، لقد كنت من أنصار حزب الوفد، بل من عشاقه، ولا يقل ولائى له عن ولاء أى زعيم من زعمائه، كما لم تجر أى انتخابات برلمانية إلا واشتركت فيها بصوتى لصالح الوفد، كما لم تقم مظاهرة مؤيدة له وأتيحت لى الفرصة للمشاركة فيها وأنا شاب إلا وفعلت ذلك، ومع هذا كله لم أنضم إلى لجنة من لجان الحزب، ولم تكن هناك أى صلة رسمية تربطنى به، حتى الدكتور محمد مندور وعزيز فهمى، وهما من كبار كتاب الوفد، فقد عرفتهما عن طريق الأدب لا عن طريق السياسة.

لم تكن وفديتى نابعة من تأثرى بأسرتى فقط، بل كان مصدرها الرئيسى هو الشارع. فقد تفتحت مداركى على مظاهرات ثورة ١٩١٩، وكنت وقتذاك فى سن السابعة تقريبًا، ورأيت شبابًا يسقطون برصاص الإنجليز وهم يهتفون لزعيم الأمة: سعد زغلول، وشعرت فى حينها بتعاطف شديد مع هؤلاء الشباب وأهدافهم، وشيئا فشيئا أصبحت من أشد المؤمنين بالوفد ومبادئه وزعمائه، بل لم أكن أرى أن الحياة فى مصر تستقيم بدون الوفد، ورغم عشقى لسعد زغلول فإننى لم أره رأى العين أبدًا، وكانت الفرصة الوحيدة المواتية لرؤيته، عندما خرجت فى مظاهرة حاشدة لتأييده عندما كان ذاهبًا للقاء الملك فؤاد من أجل تقديم استقالته فى أوائل سنة ١٩٢٤، بسبب خلافه الشهير مع الملك[١]. كان سعد زغلول

(١) كان موضوع الخلاف بين الملك فؤاد وسعد زغلول هو: من يملك الحق فى اختيار أعضاء مجلس الشيوخ المعينين. وكان الملك فؤاد يرى أنه صاحب هذا الحق، أما سعد زغلول فكان يرى أن الوزارة هى صاحبة الحق الدستورى فى التعيين. وقدم سعد استقالته من رئاسة الوزارة ثم سحبها بعد أن نزل الملك فؤاد على رأيه تحت تأثير الضغط الشعبى المؤيد لسعد زغلول. «ر. ن»

آنذاك رئيسًا للوزراء ووزيرًا للداخلية، وعرفت الجماهير أنه سوف يذهب للقاء الملك فى قصر عابدين، وخرجت أنا مع الآلاف إلى ميدان عابدين، ننتظر قدوم سيارته، ونحن نهتف: «سعد أو الثورة». وبمجرد أن لمحت الجماهير سيارة سعد زغلول اندفعت إليه كالطوفان، فلم أتمكن من الاقتراب منه، كما حدث نفس الشىء عند خروجه من القصر بعد انتهاء المقابلة، وهكذا ضاعت الفرصة الوحيدة لرؤيته.

عندما تزوجت فى عام ١٩٥٤ بعد أن ظللت سنوات عازفًا عن الزواج بسبب تفرغى للأدب، توقع العديد من أصدقائى أن تتراجع جرأتى فى تناول قضايا المجتمع، وتقل شجاعتى فى نقد الأخطاء والسلبيات، خوفًا على أسرتى، كما توقعوا أن مسئولياتى العائلية الجديدة التى تحملتها لا شك ستدفعنى إلى أن أكون مسالمًا وبعيدًا عن الصدام مع السلطة، ولكن خابت توقعاتهم، حيث ازدادت كتاباتى عنفًا وجرأة، ولهذا الأمر أسبابه. يأتى على رأس هذه الأسباب أننى عندما أمسك بالقلم أنسى كل شىء: خوفى، مسئولياتى، أسرتى، وأنسى حتى نفسى. ثم إن انتقاداتى دائمًا موضوعية، ولا تحيط بى أى شبهات، كما أننى ليس لدى أى شعور بالإثم. وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ تدرك تمام الإدراك أننى لست من بين خصومها، وقد أعلنت عن تأييدى للكثير من القرارات التى ظننت وقتذاك أنها سليمة وحتمية مثل: تأميم القناة، ومجانية التعليم، والوحدة مع سوريا، والحرب فى اليمن.. فأنا ـ إذن ـ لم أكن ضد النظام، وليس هناك أحد من رموز النظام يأخذ منى موقفًا عدائيًا، بل كنت أعمل فى «نادى القصة» مع يوسف السباعى أحد رجال النظام، وأعمل مع محمد حسنين هيكل فى «الأهرام»، وكان هيكل أقرب كاتب وصحفى إلى عبدالناصر وكان المعبر عنه وعن نظامه، وفى عهد الثورة حصلت على جائزة الدولة فى الآداب عام ١٩٥٧، كما منحنى الرئيس جمال عبدالناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى الذى تسلمته منه شخصيًا.

لم تكن انتقاداتى لثورة يوليو فى أى من كتاباتى موجهة ضد النظام، بل كنت أنقد غياب الديمقراطية فى هذا النظام، ولم تكن الديمقراطية من المحرمات، بل هى المبدأ السادس من مبادئ الثورة، والتى أعلنت الثورة أنها تسعى لتحقيقه، وربما كان الكاتب الوحيد الذى كتب رواية يهاجم فيها النظام بشكل مباشر هو ثروت أباظة: ففى روايته «شىء من الخوف» أظهر بوضوح موقفه من الثورة، وأعلن بما لا يدع مجالاً للشك أن النظام القائم غير شرعى، وأن «زواجه» من مصر باطل، ليس معنى ذلك أننى كنت «نائمًا فى العسل» بعيدًا عن المخاطر والمتاعب، بل فى مرات عديدة، كنت على حافة الهاوية.

أولى هذه المرات كانت بسبب قصة قصيرة نشرتها فى «الأهرام» بعنوان «سائق القطار»، وبعد النشر سرى همس فى أوساط المثقفين، بأننى أقصد عبدالناصر، والقصة تدور حول سائق قطار يفقد صوابه، ويتسبب فى حادث تصادم مروع، وكان التفسير السائد هو أننى أشير إلى أن عبدالناصر يقود مصر إلى كارثة، ولك أن تتصور ما نتيجة هذا التفسير؟!. ومن خلال مكالمات الأصدقاء التليفونية عرفت مدى خطورة القصة، وتأثيرها على الناس، وتوقع بعضهم اعتقالى...، حتى أن صديقى محمد عفيفى اتصل بى على غير عادته بدون مناسبة وفى ساعة متأخرة من الليل لكى يطمئن ـ فقط ـ على أننى مازلت موجودًا فى منزلى ووسط أسرتى، كل هذا جعلنى أتوقع شرًا محدقًا، ولكن أنقذنى من تلك الورطة محمد فريد أبوحديد رئيس تحرير مجلة «الثقافة» فى ذلك الوقت. إذ كتب مقالاً فى افتتاحية المجلة ـ ولم يكن بيننا سابق معرفة ـ عن قصة «سائق القطار»، توصل فيه إلى أن كاتب القصة يرمز للصراع بين الشرق والغرب، وبالتحديد بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وهو الصراع الذى كان مستعرًا فى ذلك الوقت (حوالى عام ١٩٦٥)، وكيف أن هذا الصراع قد يتسبب فى تدمير الكرة الأرضية، والكرة الأرضية ترمز إليها القصة بالقطار.

حمدت الله لأن «فريد أبوحديد» توصل إلى هذا التفسير، وشعرت بالراحة، وبأن المقال أزاح عن صدرى همًا ثقيلاً، لدرجة أننى ـ وبشىء من الحماقة ـ اتصلت بـ«فريد أبو حديد» لكى أشكره، ولم ألتفت إلى أننى بهذا الاتصال التليفونى أؤكد التهمة، لكننى لا أنسى لـ«فريد أبوحديد» هذا الموقف النبيل، فهو كان على علم بحجم الورطة التى وقعت فيها بعد نشر القصة، فساعدنى على اجتياز الأزمة فى سلام.

الأزمة أو قل الورطة الثانية كانت بسبب رواية «ثرثرة فوق النيل». فبعد نشرها ثار المشير عبدالحكيم عامر، وبلغنى أنه هدد وتوعد بإنزال العقاب بى، بسبب النقد العنيف الذى ضمنته الرواية، عن سلبيات قائمة فى المجتمع، وسمعه البعض وهو يقول:«نجيب زودها قوى ويجب تأديبه ووقفه عند حده». وعندما تخرج كلمة «ويجب تأديبه» من المشير عامر، فإنها تحمل معانى لا تخفى على الذين عاشوا فى ذلك العصر، كما أن لها معانى خاصة عندى، حيث ربطت صداقة حميمة بين المشير وابن أختى «حازم النهرى»، وتزاملا فى الدراسة الابتدائية والثانوية، وكان المشير مقيمًا تقريبًا فى بيت أختى ويناديها بـ«طنط». وفى حفل زفاف ابنة أختى بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ حضر المشير واصطحب

معه أنور السادات، كان ذلك قبل نشر رواية «ثرثرة فوق النيل» بسنوات، وعلمت أن المشير ـ فى ذلك الحفل ـ سأل عنى، فأبلغوه بأننى انصرفت بعد عقد القران، مباشرة. ومن عاداتى الثابتة أننى إذا دعيت لحفل زواج واضطررت لحضوره، فإننى أنصرف بعد عقد القران فورًا، لأننى من أعداء الصخب والضجيج اللذين يعقبان عقد القران. سأل المشير يومها عنى لكى يناقشنى فى مقال كنت كتبته فى جريدة «الجمهورية» فى ذلك الوقت، فى أوائل الستينيات، وكنت أدعو فى هذا المقال إلى الخروج من حالة التأرجح بين الكتلتين الاشتراكية والرأسمالية، وما دمنا قد اخترنا الميل إلى الكتلة الاشتراكية، فلماذا لا ننضم إلى «الكوميكون»[1]، وسوف نكسب من ذلك مزايا عديدة، وذلك كان فى نظرى أفضل من أن نبقى معلقين بين الاتحاد السوفيتي ورابطة عدم الانحياز والكتلة الرأسمالية الغربية، وعلى الأقل فلن نتعرض لاعتداء عسكرى إلا فى حالة قيام حرب عالمية ثالثة. كان هذا هو رأيى فى ذلك، وكان المشير يخالفنى فى وجهة نظرى ويرى أن اتجاه مصر إلى ذلك يمثل ضررًا بالغًا عليها.

وعندما جاء ثروت عكاشة لتهنئتى بجائزة نوبل حكى لى تفاصيل ما دار فى كواليس السلطة عن أزمة رواية «ثرثرة فوق النيل». فقد كان عكاشة وقتئذ وزيرًا للثقافة، وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا، استدعاه جمال عبدالناصر، وسأله عما إذا كان قد قرأ الرواية، ولما لم يكن قد قرأها، فقد طلب منه عبدالناصر قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا، قرأ الدكتور ثروت عكاشة رواية «ثرثرة فوق النيل» فى أثناء رحلته، وفى أول لقاء له مع الرئيس عبدالناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها، وأكد للرئيس أننى أنبه إلى أخطاء موجودة وليس لدى سوء نية فى مهاجمة نظام الحكم، ثم قال له: إن من الضرورى أن يتوافر للأدب قدر من الحرية، لينقل صورة واقعية حقيقية عن المجتمع، وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات واضمحل تأثيره، واستطاع الدكتور ثروت عكاشة إقناع عبدالناصر بأن حرية الأدب هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج، وبالفعل اقتنع عبدالناصر، وقال للدكتور ثروت عكاشة: «اعتبر المسألة منتهية».

وهكذا تراجع المشير عبدالحكيم عامر عن تهديده بعقابى بعد تدخل عبدالناصر،

---

(١) «الكوميكون» هو السوق المشتركة لدول الكتلة الاشتراكية، وقد أنشئ سنة ١٩٤٩ وكان مركزه موسكو. ويطلق عليه البعض اسم «السوق المشتركة الحمراء». «ر. ن»

ولكن مصدر دهشتى من تهديد المشير هو أنه لم يراع صداقته القوية بابن أختى، وكنت أظن أن هذه الصداقة ستشفع لى ولو قليلاً، وابن أختى «حازم النهرى» كان قد تخرج من مدرسة التجارة، وعندما قامت الثورة كان مفتشًا للضرائب على الدرجة السادسة فى الكادر الوظيفى، وبسبب علاقته بالمشير تولى مناصب عليا عديدة، ثم انتقل إلى رحمة الله عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ . ولموته حكاية مؤلمة، فقد كان ابنه ضمن صفوف قواتنا المسلحة التى خاضت الحرب، واستشهد هذا الابن من بين الذين استشهدوا، وكان «حازم النهرى» مصابًا بمرض فى القلب، فلم يتحمل الصدمة، ورحل عن دنيانا فى نفس الأسبوع الذى علم خلاله بنبأ استشهاد ابنه.

أثناء نشر رواية «أولاد حارتنا» مسلسلة فى «الأهرام»، كنت فى تلك الفترة من رواد كازينو «أوبرا». وفى الندوة الأسبوعية لاحظت وجود فتاة جديدة، وعرفت أنها ابنة أخت الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبدالناصر، كانت فتاة ظريفة ولا أذكر اسمها الآن، وبعد إحدى الندوات التى حضرتها همست فى أذنى بأن سيارة محملة بمجموعة من العسكر ومعهم ضابط برتبة كبيرة ذهبت إلى بيتى لاعتقالى، وقبل أن تصل إلى منزلى جاءها الأمر بالعودة وعدم إكمال المهمة، ولم تذكر لى الفتاة أى تفاصيل أخرى. لا أعرف مدى صدق هذه الواقعة، كما لم أحاول التأكد من صحتها، ولكن أثناء نشر الرواية كانت زوجتى تشكو لى من وجود مراقبة مستمرة لها، وأن أشخاصًا لا تعرفهم يتتبعون حركتها كلما نزلت إلى الشارع، وحتى أثناء تجولها فى السوق لشراء احتياجات البيت، وربما لو كنت أنتبه أثناء سيرى فى الطريق لاكتشفت أننى مراقب، ولكن الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى وأنا أمشى كانت تشغلنى عن مثل هذه الأمور.

كل تلك المتاعب لا تذكر بجانب تلك التى حدثت بعد النكسة، ولم تكن خاصة بى وحدى، بل قاسى منها كل أدباء مصر، وكانت أغلب معاناتى مع إدارة «الأهرام». رفض الأستاذ هيكل نشر رواية «المرايا» فنشرتها أنت[1] فى مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، ورفض الأستاذ أحمد بهاءالدين عندما كان رئيسًا لتحرير «الأهرام» نشر رواية «الحب

---

(١) كنت فى ذلك الوقت رئيسًا لتحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون، وحصلت من نجيب محفوظ على الرواية واستأذنت الأستاذ محمد فائق وزير الإعلام فى نشر الرواية فأذن لى، بعد أن أخبرته باعتذار «الأهرام» عن عدم نشرها، وقد تم نشر الرواية فى مجلة الإذاعة والتليفزيون ابتداء من أول مايو سنة ١٩٧١. «ر. ن»

تحت المطر» فنشرتها أنت فى مجلة «الشباب»[1] بعد أن حذفت منها الرقابة أشياء كثيرة، أما رواية «الكرنك» فقد كانت أكثر الروايات التى عانيت فى نشرها، حيث قدمتها إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، وبعد أن قرأها ظن أنها هجوم مباشر على عهد عبدالناصر، فحمل أصول الرواية، وذهب إلى مكتب توفيق الحكيم يشكونى إليه، وقد حكى لى الحكيم استنكار هيكل لما جاء فى الرواية وقال له: «يرضيك كده... خد شوف نجيب باعت لى إيه؟!».

رواية «الكرنك» لها وضع خاص بين رواياتى، فقد كنت أجلس فى مقهى «ريش» عندما سمعت أخبار المعتقلات والقصص التى تروى عما حدث للمعتقلين السياسيين فى سجون عبدالناصر، وقد تألمت كثيرًا مما سمعت، وقلت فى نفسى إن الكتابة عن هذا الموضوع مغامرة، وأغلب الكتاب سيجدون رهبة وخوفًا من إثارته حتى لا يتعرضوا للأذى، فلماذا لا أكتب أنا عنه؟ إننى لم أعش تجربة الاعتقال ولا أعرف تفاصيلها. ولكننى اقتنعت بإمكانية سرد الأحداث على لسان «الراوى». وعندما انتهيت من كتابة «الكرنك» قدمتها إلى عبدالحميد جودة السحار لإصدارها من «مكتبة مصر». وكان الأسلوب المتبع فى ذلك الحين أن تقوم دار النشر بجمع الرواية وإرسالها إلى الرقابة، وكان الرقيب ـ آنذاك ـ هو طلعت خالد، وكان يداوم على الاتصال بى تليفونيًا بصفة شبه يومية ليطلب حذف فقرة أو تغيير جملة أو يبدى اعتراضًا على رأى معين، وهكذا إلى أن تم طبع الرواية، فاكتشفت أنه تم تشويهها، وأن الأصل مختلف تمامًا عن النسخة التى طبعت وظهرت فى المكتبات، واعترضت وطلبت من السحار وقف عملية النشر، ولكنه أقنعنى أن الوقف معناه خسارة مادية كبيرة له، ومن خلال تعاملى مع أسرة «السحار» تأكدت من أنهم تجار يتميزون بالشطارة، ويهمهم الربح وعدم الخسارة فى المقام الأول. أقنعنى «السحار» أن الرواية طبعت، وإذا أردت أن أوقف النشر، فلابد من أن أتحمل التكاليف المادية، وسلمت أمرى إلى الله ووافقت على ظهورها بهذا الشكل المشوه. وهاتان الروايتان وهما: «الكرنك» و«الحب تحت المطر»، هما العملان الروائيان الوحيدان اللذان ظهرا بهذه الصورة الناقصة، حيث يختلف الأصل إلى حد ما عن الصورة التى ظهرت للناس، وللأسف ليس عندى أصول الروايتين لأعيد نشرهما كاملتين من جديد.

---

(١) كنت مسئولاً عن تحرير مجلة «الشباب» التى كانت وزارة الشباب تصدرها عندما كان وزيرها هو الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبوالمجد، وقد استأذنته فى نشر هذه الرواية بعد رفض الأهرام فقرأ الرواية وأذن لى بنشرها، وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٧٢. «ر. ن»

كانت السلطة فى عهد عبدالناصر واثقة من حسن نواياى فى كتاباتى، ومن أننى أقصد من انتقاداتى صالح الوطن لا الإثارة أو تأليب الجماهير، وأظن أن عبدالناصر نفسه كان مدركًا لهذه الحقيقة، بدليل أنه تدخل لصالحى بعد نشر رواية «ثرثرة فوق النيل» ولم يترك الأمر لانفعال المشير.. وأذكر أن المرة الوحيدة التى قابلت فيها عبدالناصر وكلمته وجهًا لوجه كانت أثناء زيارته لمبنى «الأهرام» الجديد، فى ذلك اليوم مر عبد الناصر على حجرة يجلس فيها أدباء «الأهرام»، وكان يرافقه الأستاذ هيكل فى جولته. وأذكر ممن كانوا موجودين معنا فى الحجرة: حسين فوزى وصلاح جاهين وصلاح طاهر، وعندما جاء دورى فى مصافحة عبدالناصر قال لى وهو يبتسم: «إيه يا نجيب.. بقى لنا زمان ماقريناش لك حاجة؟!». ورد عليه هيكل: «ستنشر له الأهرام قصة غدًا». ويبدو أن زيارة عبدالناصر للأهرام كانت يوم خميس، وكنت أنشر قصصى إذا ما كتبت فى عدد الجمعة، ثم أردف هيكل قائلاً عن القصة التى ستنشر: «ولكنها من النوع الذى يودى فى داهية!». وعقب عبدالناصر على الجملة الأخيرة موجهًا حديثه إلى هيكل: «يوديك أنت!». ولذلك كان لدى شعور بالاطمئنان والثقة، وبأننى لن أتعرض لأى نوع من الغدر، وشعورى بالثقة ـ وإن كان يشوبه أحيانًا بعض الاهتزاز ـ لم يكن نابعًا من فراغ، بل كان مبنيًا على أسس وأدلة. منها أن كل الروايات أو الأعمال الأدبية التى أثارت أزمات، وعرضت على عبدالناصر لكى يفصل فيها، جاء رأيه بشأنها إيجابيًا، حيث انحاز إلى جانب حرية التعبير، جرى هذا لروايتى «ثرثرة فوق النيل» ولرواية ثروت أباظة «شىء من الخوف». وبالنسبة لـ«شىء من الخوف» فإن عبدالمنعم الصاوى الذى كان وكيلاً لوزارة الثقافة فى ذلك الوقت هو الذى لفت أنظار السلطة إليها، وأكد أن ثروت أباظة يقصد الرئيس عبدالناصر بشخصية «عتريس» فى الرواية، وأن زواجه من «فؤادة» ـ أى مصر ـ باطل. وعندما شاهد عبدالناصر الفيلم المأخوذ عن الرواية سمح بعرضه فورًا، وقال جملة مشهورة لا أنساها: «لو كنا إحنا الحرامية، وأنا عتريس، يبقى مانستاهلش نقعد فى الحكم». وكانت هذه الواقعة هى بداية تراجع سلطة عبدالمنعم الصاوى فى عهد عبدالناصر، لأنه ـ بعدها ـ بدأ نجمه فى الأفول، وإذا كان لخلاف الصاوى مع الدكتور ثروت عكاشة دور كبير فى أفول نجم الصاوى، إلا أن واقعة «شىء من الخوف» لها دور لا ينكر.

أما روايتى «ميرامار»، فقد نشرت كاملة دون حذف كلمة واحدة منها فى جريدة «الأهرام»، ثم ظهرت بعد ذلك فى فيلم سينمائى، وشاهدها عدد من أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى عرض خاص، فاعترضوا على الفيلم، وقالوا إنه يتضمن هجومًا صريحًا على النظام،

وطالبوا بمنع عرضه، وجن جنون منتج الفيلم جمال الليثى، وراح يشكو فى كل مكان، حتى وصل صوته إلى الرئيس عبدالناصر، وكلف عبدالناصر نائبه أنور السادات بمشاهدة الفيلم وكتابة تقرير عنه ليتخذ قرارًا عادلاً فى القضية، ولما سمعت أن عبدالناصر اختار السادات للفصل فى أزمة الفيلم، قلت فى نفسى:«عليه العوض.. الفيلم راح». وفى اليوم التالى للعرض الخاص الذى شاهد فيه السادات الفيلم، فوجئت بخبر منشور فى جريدة «الأهرام» أصابنى بالاستغراب والدهشة، فالسادات لم يوافق فقط على عرض الفيلم، بل إنه أدلى بتصريح يمثل دعاية صريحة له، فقد أكد السادات أن الفيلم برىء تمامًا من تهمة العداء للنظام، ودعا الجمهور إلى مشاهدة الفيلم، ضربت كفًا بكف ولم أفهم تفسيرًا لهذا الموقف إلا بعد وفاة عبدالناصر، حيث اتضح لى أن السادات لم يفعل ذلك إلا من منطلق عدائه للاتحاد الاشتراكى ونكاية فيه، وتم عرض الفيلم وحقق نجاحًا جماهيريًا كبيرًا بفضل دعاية السادات له، وحقق رقمًا قياسيًا فى أسابيع العرض وقتذاك، فقد استمر عرضه ١٩ أسبوعًا متصلة، وأذكر أن الشخصية التى أداها الفنان يوسف وهبى فى الفيلم كانت شخصية «شريرة» لا يمكن التعاطف معها، ولكن بفضل براعة يوسف وهبى الفائقة وخفة ظله، تحولت إلى شخصية محبوبة، وهكذا فعل يوسف وهبى عكس ما أردته، فقد أردت الهجوم على الرجعية، أما يوسف وهبى فقد قلب هدفى إلى دعاية للرجعية.

إن ثقتى واطمئنانى من جانب الثورة شابهما ـ كما قلت ـ بعض الاضطراب والاهتزاز، وأتذكر أن الفنان فريد شوقى عرض على الدكتور ثروت عكاشة فكرة فيلم سينمائى يدور فى إطار عمل المخابرات المصرية، وطلب تدخله لدى المخابرات لكى تساهم فى تمويل الفيلم، وافق ثروت عكاشة وأسند إلىَّ مهمة كتابة السيناريو، وعندما فرغت من كتابته، استدعانى للقائه فى مكتبه، وطلب منى الذهاب إلى مبنى المخابرات ومقابلة المسئولين هناك، واستطلاع رأيهم فى السيناريو، ومعرفة مدى رغبتهم فى تمويل الفيلم. ولم أكن أعرف مكان مبنى المخابرات، فحدده لى، وذهبت. وفى المبنى التقيت مع نائب رئيس المخابرات، طلعت خيرى، الذى كان مختصًا بمثل هذه الأمور، وقدمت له نفسى:«نجيب محفوظ مدير مؤسسة السينما». لاحظت عند دخولى مكتب نائب رئيس المخابرات وجود شخص يحدق فىَّ، ثم هم بالانصراف، فاستبقاه طلعت خيرى، طالبًا منه الانتظار، لأن الحديث سيدور عن السينما ويمكن أن يفيدنا هذا الشخص فى المناقشة. لم يعرفنى هذا الشخص بنفسه، وفتح معى مباشرة حوارًا طويلاً، وقال إنه قرأ رواية «بين القصرين» فى إجازته الصيفية، وأنها

أعجبته كثيرًا، ثم حدثنى عن رواية «أولاد حارتنا» والمشكلات التى ثارت حولها، وسألنى عما أقصده من ورائها، ومدى صحة ما يقال عن وجود تجاوزات دينية بها؟. نقل طلعت خيرى الحديث إلى موضوع الفيلم الذى جئت من أجله، وبعد مناقشة قصيرة، أخبرنى بأن المخابرات ليس لديها اعتراض على فكرة الفيلم من حيث المبدأ، أما مسألة التمويل فتحتاج إلى محادثات مطولة مع ثروت عكاشة، وانتهى اللقاء وانصرفت، وبعد هذا اللقاء بعدة شهور شاهدت صورة فى الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» للرئيس عبدالناصر فى إحدى جولاته فى إفريقيا، وتوقفت أمام صورة شخص يظهر فى الصورة خلف عبدالناصر، ودققت فى ملامحه، فاكتشفت أنه نفس الشخص الذى كان يتحدث معى فى مكتب طلعت خيرى، وكانت دهشتى شديدة عندما علمت أنه رئيس المخابرات صلاح نصر، وقفز إلى ذهنى خاطر غريب، وهو أن ذهابى إلى مبنى المخابرات سبقته ترتيبات ما، وأنهم أرادوا مناقشتى حول رواية «أولاد حارتنا» بشكل غير مباشر، وقال لى بعض الأصدقاء إن المخابرات كان لديها اعتقاد بأن الرواية موجهة ضد النظام، وأنهم اشتموا فيها رائحة مؤامرة، وذهب أصدقاء آخرون إلى أن الأزمة التى أثارها الأزهر ضد الرواية كانت بتدبير المخابرات نفسها، والتى أرادت أن تستفز مؤسسة دينية كبرى بهدف النيل منى، ولكننى استبعدت هذه التفسيرات لأسباب كثيرة، منها أن ثروت عكاشة لا يمكن أن يشارك فى تدبير خطة تقودنى إلى مبنى المخابرات ليناقشونى فى الرواية دون أن أدرى، وكذلك فإن المخابرات تستطيع تقديمى للمحاكمة إذا كان هناك ما يدل على أن الرواية موجهة ضدها أو ضد النظام الحاكم، أما الشىء المحير والذى لا أجد له تفسيرًا حتى الآن فهو: لماذا جلس صلاح نصر فى مكتب طلعت خيرى بهذه الصورة؟ ولماذا لم يقدم لى نفسه بشكل مباشر؟ ولماذا سألنى عن رواية «أولاد حارتنا» بالذات؟!

ربما كانت أصعب المتاعب التى واجهتها فى علاقتى مع السلطة هو ما حدث فى بدايات عصر السادات، وأقصد هنا تداعيات البيان الشهير الذى كتبه توفيق الحكيم ووقع عليه عدد كبير من الأدباء ـ وكنت من بينهم ـ يعترضون فيه على حالة «اللاحرب واللاسلم» التى كانت تعانى منها مصر، كان ذلك فى أوائل عام ١٩٧٣ وفى شهر فبراير من ذلك العام إن لم تخنى الذاكرة. وسرعان ما صدر قرار بعزل الموقعين على البيان ومنعهم من الكتابة، ونشرت الصحف أسماء هؤلاء الممنوعين، وتم منع الحكيم وأنا، على الرغم من عدم نشر اسمينا فى قائمة الممنوعين فى الصحف، فتوقفت «الأهرام» عن نشر أعمالى، ومنعت من

الحديث فى الإذاعة والتليفزيون كما حدث مع غيرى من الذين وقعوا على البيان. ولكن بالنسبة لى كان هناك عقاب إضافى، وهو منع عرض أفلامى فى التليفزيون، سواء كانت هذه الأفلام مأخوذة عن رواياتى، أو كانت من الأفلام التى شاركت فى كتابة السيناريو لها، أما العقاب الأشد إيلامًا فى نفسى، فهو ذلك الهجوم الجارح الذى شنه علىَّ كتاب كنت أعتبرهم من الأصدقاء وفى مقدمتهم حسن إمام عمر وصالح جودت، وألمى هنا ينبع من مصدرين: الأول ـ هو أن علاقتى بهذين الشخصين على وجه التحديد كانت حميمة أو كنت أظنها كذلك. فحسن إمام عمر تعرفت عليه عن طريق المخرج السينمائى أحمد بدرخان، وكنا نسهر فى منزله حتى الصباح، وبيننا ود ظاهر، أما صالح جودت، فتوطدت علاقتى به فى أثناء رحلتنا إلى اليمن، حيث عشنا معًا فى حجرة واحدة فى الباخرة التى أقلتنا لمدة ١٥ يومًا، أسبوعًا فى الذهاب، وآخر فى العودة، وفى فترة عزلته فى أيام عبدالناصر كان أصدقاؤه يفرون منه، ويتجنبون ذكره فى أحاديثهم الصحفية والإذاعية والتليفزيونية، ولم أكن أرى مبررًا لهذا التجاهل، وأصر من جهتى على ذكر اسمه إذا استدعى الأمر ولا أخشى فى ذلك غضب السلطة. وإذا ما حدث وذكرته فى أحاديثى العلنية إلى وسائل الإعلام، يتصل بى تليفونيًا على الفور وهو فى غاية التأثر شاكرًا لى هذا الصنيع، فما الذى يجعلهما يتناسيان الصداقة والمودة بهذه السهولة؟

المصدر الثانى للألم هو أن هذين الشخصين لم يكونا من كتاب السياسة، فأحدهما ناقد فنى وهو حسن إمام عمر، والآخر أديب وشاعر وهو صالح جودت، ومن ثم ليس هناك ما يضطرهما للكتابة فى المسائل السياسية.

الطريف أن صالح جودت قبل أن يشن علينا هجومه ببضعة أيام اتصل بتوفيق الحكيم غاضبًا، لأن الحكيم لم يطلب منه التوقيع على البيان الذى أثار هذه الأزمة، وأنه ـ على حد ما أبلغ به الحكيم ـ كان على أتم الاستعداد للتوقيع عليه، ثم انقلب علينا بعد ذلك، فسبحان مغير الأحوال.

بعد صدور البيان الشهير استدعانا الدكتور عبدالقادر حاتم إلى مكتبه، توفيق الحكيم وثروت أباظة وأنا، ودار بيننا حوار طويل. كان الدكتور حاتم عاتبًا علينا لأننا وقعنا بأسمائنا ضمن قائمة من الشيوعيين، وبعضهم ـ كما ذكر لنا ـ كانوا يتقاضون مرتبات شهرية من السفارة السوفيتية بالقاهرة، وعاتبنا أيضًا لأن الصحافة اللبنانية حصلت على نسخة من البيان واستغلته فى الهجوم على نظام السادات، وقد أكدنا للدكتور حاتم أننا لا نعلم شيئًا عما ذكره

عن هؤلاء المتصلين ـ من بين الموقعين البيان ـ بالسفارة السوفيتية، كما أننا لا ذنب لنا فى وصول البيان إلى الصحافة اللبنانية، وأننا وقعنا على البيان من منطلق حرصنا على المصلحة القومية وعلى كرامة الأمة العربية المهدرة.

واستمرت أزمة هذا البيان من ٤ فبراير إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣، ففى خطاب السادات فى ذكرى رحيل عبدالناصر أعلن العفو عن الكتاب والأدباء المعزولين، وبعد قرار العفو طلب السادات لقاء الحكيم، وقد حدثنى الحكيم عما دار فى هذا اللقاء، وأنه دافع عنى أمام السادات وأكد له أننى وقعت البيان بحسن نية، ولم أقصد الإثارة أو الإساءة، وأن السادات قد اقتنع بما قاله الحكيم، وحكى لى الحكيم أنه حاول تبرئة ثروت أباظة أمام السادات، فما إن ذكر اسمه حتى انفعل السادات وغضب، ورفض تبريرات الحكيم. والغريب فى الأمر أن ثروت أباظة بعد وقت قصير أصبح من أصدقاء السادات المقربين، واختاره السادات ضمن أعضاء مجلس الشورى، وعينه رئيسًا لتحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، وعندما كتب ثروت أباظة مقاله الشهير «فى أى شىء صدق»، والذى هاجم فيه عبدالناصر بوضوح وصراحة، اضطر السادات لتنحيته من رئاسة تحرير المجلة تجنبًا لحدوث أزمة مع الناصريين، ونقله إلى جريدة «الأهرام».

أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إننى قلت كل ما أريد قوله فى أعمالى الروائية، وعبرت عن كل آرائى خلال فترة حكم عبدالناصر، والرأى الذى لم أستطع التصريح به مجاهرة أوصلته للناس عن طريق الرمز. فمن مزايا الفن الكبرى أن الفنان يمكنه أن ينقد ويعترض ويقول كل ما يريد قوله بشكل غير مباشر، لقد كنت معترضًا على ممارسات جهاز المخابرات، والأساليب التى يتبعها، فكتبت قصة أقرب إلى الفانتازيا اسمها «روبابيكيا» أسخر فيها من تلك الممارسات، وسمحوا بنشرها.

وأزعم أن الفن ازدهر إلى حد كبير فى العهد الناصرى، وجزء كبير من هذا الازدهار يرجع إلى نظام الحكم نفسه، لأنه سمح بهامش من الحرية، وكانت وجهة نظر النظام هى أن هذا الهامش بمثابة متنفس للناس، لأن الكبت الكامل من الطبيعى أن يؤدى إلى انفجار، ثم إن حرية الفن هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج، ووسيلة فعالة لتحسين صورته أمام العالم، مما يكون له صدى طيب فى المحيط العربى على وجه الخصوص. وأذكر أن الدكتورة عائشة عبدالرحمن حكت لى ذات مرة أنها كانت فى المغرب وقت صدامى مع الأزهر بسبب رواية «أولاد حارتنا»، وانتشر خبر بين طلاب الجامعة عن اعتقالى، فأضرب الطلاب

احتجاجًا، وخرجوا فى مسيرة يطالبون فيها بالإفراج عنى! الخبر كاذب، ولم أعتقل يومًا، ولكن من المؤكد أن السلطة فى مصر أدركت أو كانت تدرك بالفعل، النتائج التى يمكن أن تترتب على قيامها بخنق الفنان وما يتبع ذلك من ترسيخ صورة سيئة لها فى العالم العربى إذا هى أقدمت على ذلك فكانت من الذكاء بحيث سمحت بهذا الهامش من الحرية، وقد امتد هذا الهامش أحيانًا حتى ظهرت أعمال فنية اتخذت موقفًا صريحًا فى معارضة بعض مواقف النظام، وقد سمحت السلطة بعرضها على الجمهور وظهورها للنور، مثل مسرحية «الفتى مهران» لعبدالرحمن الشرقاوى، وهى المسرحية التى عارضت صراحة اشتراك مصر فى حرب اليمن.

وفى مقابل هامش الحرية الذى تمتع به الفن فى العهد الناصرى، تعرض الفكر لتضييق شديد، ذلك أن الفكر لا يعرف الرمز أو الالتفاف والتحايل الموجود فى الفن، فالأعمال الفكرية صريحة ومباشرة، ومن هنا كان أى خروج من جانب المفكرين عن الخطوط الحمراء يقابل بقبضة حديدية، فلم تسمح السلطة للمفكرين بالمناقشة والمعارضة والدخول فى المناطق الحساسة، فعندما انتقد الدكتور لويس عوض فكرة «القومية العربية» فى محاضراته بكلية الآداب، خرج من كرسيه كأستاذ فى الجامعة ومستشار لوزارة الثقافة إلى سجن الواحات مباشرة. وهذا ما جرى مع كل مفكر سولت له نفسه الخروج على فكر النظام ومبادئه.

الفصل الحادى عشر

«أولاد حارتنا».. رواية وأزمة

انقطاعى عن الكتابة لمدة ٥ سنوات متصلة بعد ثورة يوليو ـ قررت احتراف كتابة السيناريو بعدما ظننت أننى انتهيت كأديب ـ «أولاد حارتنا» تعيدنى إلى الكتابة من جديد ـ على حمدى الجمال أقنعنى بنشر «أولاد حارتنا» مسلسلة فى جريدة «الأهرام» ـ خبر صغير فى جريدة «الجمهورية» يفجر الأزمة ـ أدباء يطالبون بوقف نشر الرواية وتقديمى للمحاكمة ـ هيكل يدافع عنى ويصمم على نشر الرواية كاملة ـ مناظرة لم تتم مع شيوخ الأزهر ـ انفجار الأزمة من جديد بعد حصولى على جائزة نوبل ـ أنور الجندى يهاجمنى ويتهم أعمالى بالكفر ـ فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن بإهدار دمى ـ الأمن عرض تزويدى بحراسة خاصة وأنا رفضت ـ الصديق الذى قرر قتلى بسبب رواية «السراب» ـ شتائم وألفاظ جارحة فى رسائل القراء ـ «أولاد حارتنا» تنقذ ناقدًا أمريكيًا من أزمة.

■ لم تثر رواية من الجدل والخلاف مثلما أثارته رواية «أولاد حارتنا» التى كانت أول رواية يكتبها نجيب محفوظ بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وبسببها اتهم فى دينه وعقيدته، وصدرت فتاوى متطرفة تبيح دمه. وفى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن وجهة نظره الحقيقية التى كتب على أساسها الرواية، وعن المتاعب التى تعرض لها، ويجيب صراحة عن هذا السؤال: هل حاولت الرواية الإساءة إلى شخصيات الأنبياء؟!.. ■

نجيب محفوظ: «أولاد حارتنا».. هى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وسبقتها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة، وتحديدًا بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٧، وهى من أشق الفترات التى عشتها فى حياتى وأصعبها على نفسى. والحقيقة أننى لم أعرف سببًا واضحًا لهذا الانقطاع، بعض الأصدقاء قالوا لى إنه نتيجة إجهاد حدث لى بعد كتابة «الثلاثية»، والتى استغرقت فى كتابتها ٤ سنوات متصلة ابتداء من عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٢. ولكن ربما كان السبب هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ قتل الرغبة عندى فى الكتابة، فقد كنت أعتبر الهدف الرئيسى لكتاباتى هو نقد المجتمع المصرى ودفعه للتغيير والتطور، وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلح علىّ: ما جدوى الكتابة حينئذ؟! الطريف أنه كان فى مكتبى سبعة مشروعات لروايات كنت أنوى كتابتها، منها رواية اسمها «العتبة الخضراء». وقد حكيت فكرتها لعبدالرحمن الشرقاوى فأعجبته جدًا، وقال لى يومها إنه تمنى أن يكتب فى هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية، ولما طالت فترة التوقف وأصبحت كالتائه، استقر فى وجدانى أننى انتهيت كروائى، وأنه لم يعد عندى جديد أقدمه للناس، لدرجة أننى ذهبت إلى نقابة الممثلين وقيدت اسمى ككاتب محترف «للسيناريو»، وكنت قبل ذلك أعمل كهاو فى كتابة «السيناريو» مع المخرج صلاح أبوسيف، وتصورت أن كتابة «السيناريو» سوف تكون هى عملى الوحيد الذى يمثل لى العزاء ويسد الفراغ الذى تركه الأدب فى حياتى، وكنت فى تلك الأيام مقبلاً على الزواج، وتزوجت بالفعل فى عام ١٩٥٤، وكان لابد لى من عمل أحصل منه على دخل إضافى أواجه به مسئوليات الزواج والأسرة الجديدة. وفى أيام عملى كسيناريست محترف زاد دخلى بشكل

ملحوظ مقارنة بأيام عملى كروائى، والحقيقة أن فترة عملى فى كتابة «السيناريو» كانت من أحسن فترات حياتى من الناحية المادية.

فى عام ١٩٥٧ شعرت بدبيب غريب يسرى فى أوصالى، ووجدت نفسى منجذبًا مرة أخرى نحو الأدب. وكانت فرحتى غامرة عندما أمسكت بالقلم مرة أخرى، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة. وكانت كل الأفكار المسيطرة علىّ فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة. فجاءت فكرة رواية «أولاد حارتنا» لتحيى فى داخلى الأديب الذى كنت ظننته قد مات. ولذلك لاحظ النقاد تغييرًا فى أسلوبى واتجاهاتى الأدبية وهم يقارنون رواية«أولاد حارتنا» بما سبقها من أعمال. فهى لم تناقش مشكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت فى أعمالى قبلها، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنسانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنا» لا تخلو من خلفية اجتماعية واضحة. ولكن المشكلات التى صاحبتها والتفسيرات التى أعطيت لها، جعلت كثيرين لا يلتفتون إلى هذه الخلفيات.

نشرت رواية «أولاد حارتنا» فى جريدة «الأهرام» كحلقات مسلسلة، ولهذا النشر قصة أخرى، لأننى كنت أرفض من قبل أسلوب النشر المسلسل هذا. ففى سنة ١٩٥٧ حصلت على «جائزة الدولة»، وهى جائزة قديمة أخرى غير جائزة الدولة الحالية والتى تأسست اعتبارًا من العام ١٩٥٨ وكانت قيمتها المالية ألفى جنيه مصرى، وحصل عليها فى نفس العام الدكتور محمد كامل حسين عن روايته «قرية ظالمة». وقد ضاع مبلغ الألفى جنيه بعد ذلك فى عملية نصب تعرضت لها، حيث دفعتهما لشراء فيلا وهمية على النيل، ولمناسبة حصولى على جائزة وتكريمًا لى أقام إحسان عبدالقدوس حفلاً فى منزله القديم الكائن بشارع قصر العينى، ودعا إليه عددًا كبيرًا من الأدباء والصحفيين على رأسهم كامل الشناوى، وتربطنى بإحسان عبدالقدوس علاقة شبه عائلية، منذ أن كان جارًا لنا فى شارع «رضوان» بالعباسية، وقد ولد إحسان فى هذا الشارع، ونشأت بيننا علاقة حميمة بعد أن انتقلنا من الجمالية لنسكن نفس الشارع، وقبل أن أتعرف عليه ربطت الصداقة بينى وبين ابن عمة له.

فى حفل التكريم الذى أقامه لى إحسان عبدالقدوس اقترب منى على حمدى الجمال مدير تحرير «الأهرام» فى ذلك الوقت، وقال لى: إنه يكلمنى باسم الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس التحرير، وأنه يريد منى رواية لتنشر فى الجريدة على حلقات مسلسلة، لم أكن

بدأت فى كتابة رواية «أولاد حارتنا»، وبالتالى اعتذرت بأنه ليس لدى الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت «الجمال» بأن أول رواية أكتبها سأرسل بها إلى «الأهرام». وانتهيت من كتابة رواية «أولاد حارتنا» فى شهر أبريل سنة ١٩٥٨، حيث استغرقت كتابتها سنة «نجيبية»، حيث تبدأ سنة الكتابة عندى فى شهر أكتوبر وتنتهى فى شهر أبريل، وتذكرت بعد أن انتهيت من الرواية الوعد الذى قطعته على نفسى، فاتصلت بالأستاذ على حمدى الجمال، واتفقنا على موعد ، وذهبت إليه بأوراق الرواية التى قرأها وأعجب بها وصرح بنشرها دون أى ملاحظات. ويبدو أن الأستاذ الجمال قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية يقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات.

وبدأت جريدة «الأهرام» فى نشر الرواية، ومرت حلقاتها الأولى دون أن تظهر أى ملاحظات عليها، فالجزء الأول من الرواية لا يسبب أية مشاكل. ولكن الأزمة بدأت بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» خبرًا يلفت فيه كاتبه النظر إلى أن الرواية المسلسلة التى تنشرها جريدة «الأهرام» فيها تعريض بالأنبياء. بعد هذا الخبر المثير، بدأ البعض، ومن بينهم أدباء للأسف، فى إرسال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة ومشيخة الأزهر، بل وإلى رئاسة الجمهورية، يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمى إلى المحاكمة. وبدأ هؤلاء يحرضون الأزهر ضدى على أساس أن الرواية تتضمن كفرًا صريحًا، وأن الشخصيات الموجودة فى الرواية ترمز إلى الأنبياء، وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لى هو الأستاذ مصطفى حبيب الذى كان يعمل سكرتيرًا لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيل نيابة، وهو الذى أخبرنى أن أغلب العرائض التى وصلت إلى النيابة العامة أرسلها أدباء.

وخدع رجال الأزهر فى هذه الأزمة، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية وفهمها، بل إن بعضهم لم يقرأ رواية أدبية من قبل، ومن هنا فسروا رواية «أولاد حارتنا» تفسيرًا دينيًا، ورأوا أن شخصية أدهم فى الرواية ترمز إلى آدم، وشخصية جبل هى موسى، وشخصية رفاعة هى شخصية المسيح، أما شخصية قاسم فهى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام... وهكذا. دافع عن الرواية الأستاذ محمد حسنين هيكل، ولولاه لكان توقف نشرها فى «الأهرام» فورًا.

وبعد انتهاء نشر رواية «أولاد حارتنا» فى «الأهرام» قابلنى الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبدالناصر، وكان رجلاً فى غاية اللطف، وقد سبق لنا العمل معًا

فى الرقابة، هو فى رقابة النشر، وأنا فى الرقابة على المصنفات الفنية. قال لى «الخولى» إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر ـ ككتاب ـ لأنه فى حال صدوره ستحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن أن تنشر الرواية خارج مصر. واقترح على «الخولى» ترتيب لقاء مع عدد من شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية، ورحبت بالاقتراح، فاتفق معى على أن أحضر إلى مكتبه فى يوم محدد، وسوف يدعو هو بعض شيوخ الأزهر لإجراء المناقشة معى. وفى الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب «الخولى»، فلم أجد أحدًا. وقال لى «الخولى» إنه سوف يتصل بى لإتمام اللقاء المقترح عندما يتجمعون، ومازلت فى انتظار المقابلة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، ولم تتم. وأذكر أنه فى أحد اجتماعات المجلس الأعلى للثقافة جلس إلى جانبى شيخ الأزهر، ودار بيننا حديث ودى للغاية، لكنه كان متحفظًا على قضية رواية «أولاد حارتنا».

نامت الأزمة فترة طويلة حتى انفجرت فى اليوم التالى لحصولى على جائزة نوبل، خاصة بعد ما تردد أننى حصلت عليها بسبب هذه الرواية، على الرغم من أن آخر ما جاء ذكره فى تقرير الجائزة هو هذه الرواية. وفى اعتقادى أن سبب الأزمة هو التركيز على التفسير الدينى للرواية، مع أن هناك تفسيرات أخرى، فالرواية الواحدة يمكن تفسيرها بأكثر من تفسير. رواية «ثرثرة فوق النيل» مثلاً كتبتها كتعبير عن عزلة المثقفين وعلاقتهم المضطربة بالسلطة، ولكن قد يفسرها البعض على أنها رواية فلسفية تعبر عن عزلة الإنسان فى الكون. ورغم أن رواية «ثرثرة فوق النيل» تعبر عن مشكلة محلية إلا أن البعد الإنسانى فيها جعلها تحظى بشعبية كبيرة فى الخارج عند ترجمتها إلى عدة لغات منها الفرنسية والألمانية. وبهذه المناسبة أذكر أنه بعد حصولى على جائزة نوبل تولت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تنظيم عملية ترجمة رواياتى للغات الأجنبية بالاتفاق مع دور النشر العالمية، كلما ترجمت رواية إلى أى لغة، فإن الجامعة ترسل لى نسخة منها.

وكدليل على صحة وجهة نظرى الخاصة بتعدد التفسيرات بالنسبة للرواية الواحدة، أن ناقدًا وأديبًا شابًا يعمل فى مجلة عالمية أظنها «النيوزويك» بعث لى برسالة طويلة يشرح لى فيها أنه كان يمر بأزمة إبداع لازمته فترة من الوقت، وأثناء هذه الأزمة قرأ بالمصادفة رواية «أولاد حارتنا» ـ مترجمة إلى الإنجليزية ـ فوجد فيها معانى إنسانية جميلة حركت بداخله المياه الراكدة، كتب نقدًا جميلاً للرواية، أرفقه برسالته، هذا الحماس الذى بعثته الرواية فى داخله دفعه لكتابة عملين قال لى إنهما قيد الطبع، وأنه سيبعث بنسخ منهما لى بمجرد خروجهما من المطبعة.

بعد حصولى على جائزة نوبل بفترة كتب الأستاذ أنور الجندى مقالاً فى مجلة ـ أظنها «الاعتصام» ـ يهاجمنى فيه بعنف ويقول إن أدبى كله فسق وكفر. والجندى هو نفسه الذى كفر طه حسين من قبل، وكتب أن فن القصة فن استعمارى مخالف للإسلام. مع العلم أن القرآن يحتوى على قصص من أجمل ما يمكن، والنقلات فى القصص القرآنى من أعذب وأحدث ما يمكن، وفى طريقة القصص القرآنى ملامح الأساليب الحديثة فى فن القصة من ناحية الصور والأساليب واللغة.

بعد أنور الجندى جاءت فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن الذى قال فى حديث صحفى نشرته له جريدة «الأنباء» الكويتية: «إننا لو كنا قتلنا نجيب محفوظ عندما نشر رواية (أولاد حارتنا) ما ظهر إلى الوجود سلمان رشدى». وأحضر لى الصحفى الأستاذ سليمان الحكيم نسخة من جريدة «الأنباء» الكويتية التى تحتوى على الحديث وأطلعنى عليها. وبعد هذه الفتوى اتصل بى ضابط شرطة من مباحث أمن الدولة واستأذن فى زيارتى بالمنزل. وفهمت وقتئذ سبب الزيارة بطبيعة الحال. جاء الضابط وتحدث معى، وعرض تزويدى بحراسة خاصة، خشية تعرضى للاغتيال، وأوضح لى أن فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن والتى جاءت عرضًا فى حديث صحفى، لا تعد تهديدًا صريحًا بالقتل، ولكن قد يقرأ الحديث أحد أتباعه، ويعتبرها فتوى ملزمة، ويقوم باغتيالى. اعتذرت عن قبول الحراسة الخاصة، وكانت أسبابى فى ذلك كثيرة، وأهمها أن تلك الحراسة ستكون مقيدة لحريتى فى الحركة والتنقل، وسوف تحول حياتى إلى عذاب لا يطاق. فإذا ذهبت إلى سهرة «الحرافيش» فلابد أن يكون الحارس بجوارى، وكذلك إذا فكرت فى الذهاب إلى أى مكان لابد أن يتبعنى الحارس كظلى. وكانت تجربة ثروت أباظة مع الحراسة الخاصة لا تزال ماثلة فى ذهنى. فعندما كان يأتى ليسهر معنا فى الإسكندرية وحارسه معه، كان الحارس يجلس معنا، فيلتزم الجميع الصمت، ولذا امتنع ثروت أباظة عن الحضور بعد أن شعر بالإحراج. وقلت لضابط الشرطة معتذرًا: «لو مشى ورائى حارس فإنه هو الذى سيقتلنى، لأننى سوف أعذبه بسبب حبى للمشى، وسوف يضطر للمشى معى يوميًا. وبعد فترة سوف يضيق بى ويقتلنى!!»، فضحك الضابط وتقبل اعتذارى.

ويستقر فى وجدانى أن الحراسة لن تمنع وقوع الضرر، فالنقراشى باشا قتل فى مبنى وزارة الداخلية بين صفين من الجنود، وأنور السادات قتل وسط الجيش فى احتفال عسكرى مهيب. ومن هنا كان رفضى للحراسة، لأنها لن تمنع قدرًا، وستعكر حياتى فى أيامى الأخيرة فى هذه الدنيا.

وبعد اعتذارى للضابط عن قبول الحراسة الخاصة بعدة أيام، فوجئت أثناء عودتى للبيت بوجود عسكرى شرطة فى مدخل العمارة. فسألت زوجتى فقالت لى إن هذا العسكرى جاء اليوم وطرق باب الشقة وتأكد من أننى أسكن فيها، ثم خرج ليقف أمام مدخل العمارة. اتصلت فورًا بضابط الشرطة الذى سبق أن زارنى عارضًا أمر الحراسة الخاصة، وكان قد ترك لى رقم تليفونه، فأخبرنى أنها مجرد إجراءات لتأمين وضمان سلامتى من بعيد، ومن غير إزعاج لى، وأنه لم يخبرنى بذلك قبل تنفيذه، لأنه ليس من حقى أن أرفض.

إلى جانب تلك المتاعب التى سببتها لى رواية «أولاد حارتنا»، من صدام مع الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية وفتاوى التكفير، كنت أتلقى أحيانًا رسائل مليئة بالشتائم وبأقذع الألفاظ، ولكنها لم تصل إلى حد التهديد بالقتل.

وهناك متاعب سببها لى أشخاص عاديون، فعندما كتبت رواية «السراب» ظن أحد أفراد شلة المقهى أننى أقصده بشخصية بطل الرواية الذى يعانى من ضعف جنسى. ورغم أن هذا الشخص لم يقرأ الرواية، فقد صدق الشائعة التى روجها صديق آخر من الشلة كنوع من المزاح. ولكنه غضب وقرر قتلى، ولما وجدت أن المسألة ستخرج عن نطاق المزاح، وبطريقة لم تخطر على بالى قط، اتصلت به، وحاولت إقناعه بأننى لم أقصده إطلاقًا، وشرحت له الاختلافات الشاسعة بينه وبين الشخصية الموجودة فى الرواية، ورجوته أن يقرأ الرواية حتى يتأكد بنفسه.

الطريف أن هناك شخصية حقيقية نقلتها باسمها وملامحها فى رواية «خان الخليلى»، وهى شخصية أحمد عاكف وكان موظفًا معنا فى إدارة جامعة القاهرة، وقرأ الرواية وعرف أنه هو المقصود بالشخصية، وزارنى وهنأنى وشكرنى على الرواية، واعتبر ذكرى لاسمه وشخصيته فى الرواية نوعًا من التكريم له أستحق أنا عليه الشكر والتهنئة.

باستثناء هذه الحوادث، لم يحدث أى صدام بينى وبين الرأى العام، ولم أتلق فى يوم من الأيام خطابًا أو مكالمة تليفونية من أى شخص يهددنى فيها بالقتل[1].

---

(١) كان هذا الوضع قائمًا حتى ١٩٩٤ بالنسبة لنجيب محفوظ، ولكن هذه الصورة كلها تغيرت بعد محاولة اغتياله فى ذلك العام، فقد تبين أن ما قاله البعض عن رواية «أولاد حارتنا» من أنها تصور الأنبياء وتسخر من الدين قد وجد صداه عند بعض المتطرفين فقرروا قتله، وقد نجا من هذه المحاولة التى كادت تنجح، بعد علاج استمر عدة شهور، ومازال يعانى من آثار هذه المحاولة حتى الآن. ومن يومها وهو لا يتحرك إلا ومعه حراسة كافية. والحقيقة أن الفكرة الأساسية فى «أولاد حارتنا» هى تصوير الكفاح الإنسانى فى البحث عن العدالة والمعرفة. وهذا هو هدف الرواية الأساسى، ولم يكن فيها قصد للإساءة إلى الأنبياء عليهم السلام ولا التعريض بالدين. «ر. ن»

الفصل الثانى عشر

من جائزة «قوت القلوب» إلى جائزة «نوبل»

قوت القلوب الدمرداشية تمنحنى أول جائزة فى حياتى ـ جائزة المجمع اللغوى حسنت أحوالى المادية أكثر من جائزة نوبل ـ منصور باشا فهمى يتهمنى بالجنوح الجنسى فى رواية «السراب» ـ العقاد يمنحنى جائزة وزارة المعارف ولجنة التحكيم تعترض ـ مدير إدارة البعثات بالجامعة يشتمنى: «يلعن أبو تأليف أمك»! ـ نوبل.. لم أتوقع الحصول عليها ولم أسع إليها ـ غضبت من زوجتى لأنها أيقظتنى من نومى لكى تخبرنى بفوزى بجائزة نوبل ـ سفير السويد فى بيتى وشقتنا تحولت إلى سوق ـ هربت إلى الحرافيش وظللت ساهرًا حتى الصباح ـ القرار الذى أصدره إبراهيم نافع وأنقذنى من الفضيحة ـ الرئيس مبارك حدثنى تليفونيًا ورئيس الوزراء زارنى فى البيت ـ سوء الفهم الذى وقع فيه يوسف إدريس، وإثارته عاصفة ضدى يؤكد فيها أن الصهيونية العالمية وراء فوزى بالجائزة ـ التيار الإسلامى يثير عاصفة أخرى ـ توفيق الحكيم يستحق الجائزة أكثر من طه حسين ـ الاتهامات الموجهة لجائزة نوبل وردى عليها ـ سائقو التاكسى يتسابقون على توصيلى بدون أجر ـ زوجتى هى صاحبة الاقتراح بسفر بناتى إلى السويد لتسلم الجائزة ـ المتاعب التى سببتها لى جائزة نوبل وتأثيراتها الإيجابية.

■ كان حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٨٨ حدثًا مدويًا لا فى تاريخه الخاص فحسب، بل فى تاريخ الأدب العربى الحديث. ورغم مرور عشر سنوات على هذا الحدث، فمازال هناك الكثير من أسراره التى لم تكشف بعد. وفى هذا الفصل يكشف لنا نجيب محفوظ كل التفاصيل والأسرار، ويحكى لنا عن اللحظات الحرجة يوم إعلان الجائزة، ومكالمة الرئيس مبارك الهاتفية له، ولماذا هرب من بيته بعد إعلان الخبر؟.. وغيرها من حكايات مثيرة. ثم يتوقف ليرد على الاتهامات الشهيرة التى رددها الكاتب الراحل يوسف إدريس من أن الصهيونية العالمية هى التى سعت لحصول نجيب محفوظ على الجائزة، فماذا كان رد نجيب محفوظ؟. هذا ما سوف نعرفه فى هذا الفصل.. ■

نجيب محفوظ: أول جائزة أدبية حصلت عليها فى حياتى هى جائزة «قوت القلوب الدمرداشية»[1] للرواية، فهذه السيدة كانت محبة للأدب، ونظمت مسابقة فى فن

---

(١) «قوت القلوب الدمرداشية» (١٨٩٢ - ١٩٦٨) هى سيدة مصرية غنية كان لها مكانة كبيرة فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢. وقد ورثت عن والدها الشيخ «محمد الدمرداش» شيخ الطريقة الصوفية «الدمرداشية» ثروة طائلة كان من بينها خمسة آلاف فدان، و«مستشفى الدمرداش» الشهير الآن، وكان والدها قد أقام هذا المستشفى كمؤسسة صحية خيرية خاصة. وكانت «قوت القلوب» تكتب بالفرنسية ولها مؤلفات بها تتناول فيها جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية فى مصر. وكانت تملك قصرًا فى الزمالك، اشترته منها العراق سنة ١٩٣٩، وقد أصبح مقرًا للسفارة العراقية حتى اليوم. وأقامت بعد ذلك فى قصر جميل يطل على النيل إلى جانب المبنى القديم لوزارة الخارجية المصرية اشترته من المليونير اليهودى المصرى «يوسف أصلان قطاوى باشا»، وقد تمت إزالة هذا القصر لإقامة نفق كوبرى قصر النيل. وكانت «قوت القلوب الدمرداشية» مهتمة بتشجيع الأدب والأدباء، وأنشأت لذلك جائزتها الأدبية السنوية، وهى أول جائزة يفوز بها نجيب محفوظ. وقد هاجرت «قوت القلوب» إلى أوروبا بعد ثورة ١٩٥٢، وعاشت بين باريس وروما، وانتهت حياتها نهاية مأساوية حيث تقول جريدة «الأخبار» فى عددها الصادر فى ٦ ديسمبر ١٩٦٨: «ماتت المليونيرة «قوت القلوب الدمرداشية» فى روما على إثر مشادة بينها وبين ابنها «مصطفى الدمرداش» بعد أن رفضت منحه مبلغًا من المال فقذفها بكرسى، وتم نقلها إلى المستشفى حيث توفيت. وقبض البوليس على الابن، حيث تبين أنه مصاب بالجنون. وقد ماتت «قوت القلوب» فى السادسة والسبعين. وقد كان «لقوت القلوب» ابنة هى «زينب»، وكانت متزوجة من الصحفى الكبير «على أمين». وحياة «قوت القلوب» تصلح مادة لرواية مهمة. «ر. ن»

الرواية عام ١٩٤٠، كانت جائزتها أربعين جنيهًا مصريًا، وتشكلت لجنة تحكيم المسابقة من بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وأذكر منهم: طه حسين وأحمد أمين وفريد أبوحديد. تقدم للمسابقة عدد كبير من الأدباء الشبان، وفزت أنا بالجائزة الأولى مناصفة مع على أحمد باكثير عن روايته «سلامة» بينما فزت عن روايتى «رادوبيس»، وحصلت على نصف الجائزة الأولى وهو مبلغ عشرين جنيهًا مصريًا، وقد كان هذا المبلغ فى ذلك الوقت ـ لو تعلمون ـ عظيمًا، يقارب «أعراض الثراء» الآن، وقد يكون سكان العباسية كلهم علموا بالأمر.

لم يكن مبلغ الجنيهات العشرين هو المهم، بل كان الأهم منه أن الجائزة ساهمت فى رفع روحى المعنوية إلى حد كبير. ففى تلك الفترة تعرضت للفشل وأنا أحاول نشر رواياتى فى الصحف، بما فيها الصحف غير المعروفة. فكنت أكتب وأضع ما أكتبه فى الدرج انتظارًا للفرج. وبعد جائزة «قوت القلوب» تشجعت وتقدمت لمسابقة مجمع اللغة العربية بروايتى «كفاح طيبة». وحققت نجاحًا هنا ـ أيضًا ـ وكنت من بين الخمسة الفائزين بجوائز، وهم : عادل كامل، على أحمد باكثير، يوسف جوهر، وأنا، وخامس لا أذكره، وكانت هذه الجائزة سببًا فى لقائى وتعارفى على هذه المجموعة من الأصدقاء. كانت تلك الجوائز فاتحة خير، لأنه بناء عليها قرر عبدالحميد جودة السحار إنشاء «لجنة النشر للجامعيين»، حيث وجد أمامه مجموعة من الأدباء الشبان الموهوبين بشهادة أساتذة كبار هم أعضاء لجنة التحكيم، وأنه يمكنه أن ينشر أعمالهم الفائزة ويضمن توزيعها، خاصة أن الجوائز الأدبية فى ذلك الوقت كانت تتمتع بالاحترام والثقة فى جديتها، وكلفنى السحار بالاتصال بالفائزين والتفاوض معهم لنشر أعمالهم من خلال «لجنة النشر للجامعيين» ووافقوا، وكان ذلك عام ١٩٤٣.

حصلت على جائزة مجمع اللغة العربية ومقدارها مائة جنيه مصرى، وقد نتج عن حصولى على هذا المبلغ تحسين فى أحوالى المادية إلى حد كبير، وربما كان فى وقته أكثر فائدة من «فلوس» جائزة نوبل الآن!. وهذا ما جعلنى أتقدم إلى نفس المسابقة فى العام التالى برواية أخرى هى «السراب»، ولكننى فوجئت بمنصور باشا فهمى يصدر قرارًا بحجب الجائزة. وكانت وجهة نظره هى أن الروايات المقدمة فيها شطط، وقال عن روايتى «السراب» إن بها جنوحًا جنسيًا، وعن رواية عادل كامل «مليم الأكبر» قال إن بها جنوحًا أيديولوجيا سياسيًا نحو اليسار. فلما اعترضنا، جلس معنا وحاول تهدئتنا، وقال لى إن الجنس فى الرواية يمكن معالجته ولكن بأسلوب أخف يتناسب مع المجتمع المصرى،

وأن التطرف فى مسألة الجنس له أضرار بالغة، وقد تكون معالجتى كما جاءت فى الرواية مقبولة فى المجتمع الأوروبى، ولكنها لا تصلح فى مجتمعنا الشرقى، وتحدث بكلام قريب من ذلك عن الأفكار التى جاءت فى «مليم الأكبر» لعادل كامل، وحجبت الجائزة فى ذلك العام ولم يفز بها أحد.

وفى نفس الفترة نظمت وزارة المعارف مسابقة أدبية، فتقدمت إليها برواية «زقاق المدق» فقوبلت بالرفض، وكان نظام المسابقة يسمح للوزارة برفض العمل المقدم مبدئيًا، ويسمح للمشارك فى المسابقة بتقديم عمل آخر. فتقدمت برواية «القاهرة الجديدة» فلم يقبلوها أيضًا، وأخيرًا وافقوا على اشتراكى برواية «خان الخليلى». وكان أقوى المنافسين لى فى هذه المسابقة هو سعيد العريان لأن كل أعضاء لجنة التحكيم كانوا منحازين له، باستثناء إبراهيم عبدالقادر المازنى، فقد كان الوحيد الذى يقف فى صفى. وأثناء مداولات اللجنة اقترح المازنى تقسيم الجائزة مناصفة بينى وبين العريان، إلا أن العريان رفض الاقتراح، وارتفعت حدة المناقشات، وتصادف دخول عباس محمود العقاد، فتساءل عن سبب هذه الضجة، فأخبروه.. وما كان من العقاد إلا أن طلب «خان الخليلى» ليقرأها حتى يفصل فى هذه الأزمة، وبالفعل قرأها وأعجب بها، وطلب من اللجنة منحها الجائزة الأولى. ولكن أعضاء اللجنة رفضوا رأى العقاد، وانتهت الأزمة بتقسيم الجائزة بينى وبين العريان.

لم يكن من بين أحلامى الحصول على جائزة نوبل فى الأدب، ولم أتطلع إليها فى يوم من الأيام، وكنت أعجب من الكتاب العرب المهتمين بها. ربما يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، منها: أننا جيل نشأ على «عقدة الخواجة»، وهى العقدة التى أحدثت فى نفوسنا نوعًا من عدم الثقة بإمكانياتنا، خاصة أن ذلك العصر كان مليئًا بالعمالقة من الكتاب العالميين، الذين كانوا يمثلون بالنسبة لى رموزًا وأساتذة، مثل: برنارد شو وتوماس مان وأناتول فرانس، وجان بول سارتر، وألبير كامى. كما كان لدينا كتاب عمالقة من أمثال عباس محمود العقاد الذى كنت أرى أنه يستحق الجائزة عن جدارة، وربما فاق فى موهبته عددًا من الأدباء الذين حصلوا عليها. لم أضع جائزة نوبل فى ذهنى أبدًا، وأحمد الله على ذلك، فلو كنت أعطيتها اهتمامًا مبالغًا فيه، لكان حدث لى «حرق دم» من متابعتها سنويًا، أو من انتظار وصولها إلىّ. وحتى يوم إعلان الجائزة، الخميس ١٣ أكتوبر ١٩٨٨، لم يكن عندى أى توقع للفوز بها. ذهبت إلى جريدة «الأهرام» كعادتى، وجلست مع الأصدقاء والزملاء، وتحدثنا فى موضوعات شتى، كان من بينها «جائزة نوبل» المنتظر إعلانها فى ذلك اليوم، وقلت لهم إننا

سوف نقرأ فى الصفحة الأولى من «الأهرام» يوم غد الجمعة خبرًا صغيرًا عنها كالمعتاد، ونعرف من فاز بها!. وعدت إلى البيت، وكانت زوجتى بمفردها ترتدى زى المطبخ وتكاد تنتهى من إعداد الغداء، أما ابنتاى فهما فى عملهما. تناولت الغداء ودخلت غرفة النوم لأستريح، ولم تمض دقائق معدودة إلا ووجدت زوجتى توقظنى من النوم فى لهفة: «قوم.. قوم..«الأهرام» اتصلوا بك وبيقولوا إنك أخذت جائزة نوبل»!.

فاستيقظت وأنا فى غاية الغضب، معتبرًا كلام زوجتى مجرد هلوسة خاصة بها، لأنها منذ عدة سنوات سابقة، وهى دائمة الحديث عن جائزة نوبل وأحقيتى فى الفوز بها. وكنت أقول لها إننى أرجوها أن «تعقل» وتفهم أن جائزة نوبل ليست سهلة المنال، كما أننى لا أفكر فيها، وأرجوها ألا تأتى بسيرتها أمامى، أو تفكر هى فيها. كنت أقول لها إن حياتنا ممتازة ومستورة، ولا أريدك أن تتصورى أنه سيحدث لنا مثلما يحدث فى كتاب «ألف ليلة وليلة» من مفاجآت خيالية. وفيما أتكلم مع زوجتى دق جرس التليفون، وكان المتحدث الأستاذ محمد باشا الصحفى بالأهرام، وبادرنى بالتهنئة: «مبروك يا أستاذ»!. فرددت عليه:«خير إن شاء الله». قال لى إننى فزت بجائزة نوبل، فلم أصدقه، فأعطى سماعة التليفون إلى الأستاذ سلامة أحمد سلامة مدير تحرير الأهرام الذى حدثنى بصوت تملؤه الفرحة:«مبروك يا أستاذ.. شرفتنا»!. و «جاءتنا نتائج جائزة نوبل وأنت فزت بجائزة الأدب»...

حتى تلك اللحظة كنت أظن أنها مجرد دعابة من الأستاذ محمد باشا، وأنه ربما أراد أن يدبر لى مزاحًا باردًا، واستعان بأى شخص بجانبه يمكنه تقليد صوت الأستاذ سلامة أحمد سلامة. ولكن لم تمض سوى دقائق معدودة، كنت أجلس خلالها فى فراشى محتارًا وغير مصدق، حتى دق جرس باب الشقة. وفتحت زوجتى الباب وهى بعد بملابس المطبخ، ودخل رجل طويل ومعه مجموعة من المرافقين، فنهضت من فراشى، إلى الصالة مرتديًا ملابس النوم «البيجامة»، ونظرت إلى الرجل الذى حسبته فى البداية صحفيًا، وفوجئت بأحد مرافقيه يقدمه لى:«سعادة سفير السويد وحرمه».

هنأنى السفير بالجائزة وقدم لى هدية رمزية عبارة عن قدح من البنور أشبه بصناعات خان الخليلى، واستأذنت منه ودخلت غرفتى وارتديت بدلة، لأننى تأكدت أن المسألة جد. وبمجرد انصراف سفير السويد بالقاهرة تحولت شقتى الصغيرة إلى شىء أشبه بالسوق. صحفيون ومصورون ومهنئون وفرحة غامرة فى المكان، وأحاديث صحفية سريعة، والتليفون لا يتوقف عن الرنين، وأحيانًا أرد بنفسى، وأحيانًا يتولى صديق أو أحد الصحفيين الموجودين معى فى البيت الرد، وابل من الأسئلة، وكنت أجيب بما أستطيع الإجابة به فى

مثل هذا الحدث الطارئ الذى لم أحسب له حسابًا من قبل. وكانت زوجتى فى غاية الحيرة وهى وحدها فى المنزل، تحاول القيام بواجب الضيافة قدر استطاعتها.

رجعت مرة أخرى إلى مكتبى فى «الأهرام» حيث التقطت لى مئات الصور الفوتوغرافية مع الزملاء والمهنئين. ووسط كل هذه الضوضاء تذكرت سهرة الحرافيش، فموعدها اليوم الخميس كالمعتاد. فقررت العودة إلى منزلى، حيث نسيت علبة سجائرى، فأحصل عليها وأنطلق بعدها إلى «الحرافيش». ففوجئت بمظاهرة أمام البيت، عدد كبير من الصحفيين ورجال الإعلام وكاميرات التليفزيون، فخشيت إن دخلت ألا أتمكن من الخروج مرة أخرى. وقلت للسائق: خذنى إلى كازينو قصر النيل، وهو على بعد ثلاثة كيلو مترات من المنزل. وهناك وجدت مظاهرة أخرى لم أنج منها إلا بعد عناء حقيقى، وذهبت إلى بيت توفيق صالح حيث جلسة الحرافيش وأمضينا الليل عنده، ثم نزلت مع الصديق عادل كامل وركبت سيارته، وأخذنا جولة فى شوارع القاهرة، حتى أوصلنى إلى بيتى فى حدود الواحدة والنصف صباحًا. اقتربت من باب الشقة ولاحظت أن كل أنوارها مضاءة، فدخلت لأجد زوجتى وابنتى فى وسط الصالة، ومعهن حوالى ستة من الأجانب. أخبرتنى زوجتى أنهم صحفيون أجانب ومرتبطون بالسفر فى الصباح، ولابد أن يجروا معى أحاديث صحفية، وسلمت أمرى لله. غسلت وجهى من عناء يوم طويل وجلست معهم وأجبت عن كل الأسئلة التى طرحوها. لم تعرف جفونى النوم فى تلك الليلة، وظللت مستيقظًا حتى مطلع النهار.

عرفت إحدى ابنتى خبر فوزى بجائزة نوبل من زملائها فى العمل، ولذلك لم تفاجأ بالمظاهرة التى وجدتها فى البيت لدى عودتها. أما ابنتى الأخرى فقد عادت من عملها وهى لا تعلم بالأمر، فلما دخلت الشقة، ووجدت بابها مفتوحًا على مصراعيه، وفى الداخل عشرات الناس، أصيبت بالفزع الشديد، وظنت فى البداية أن أنبوبة البوتاجاز انفجرت، أو أن كارثة وقعت، فكاد يغمى عليها، لولا أن تدارك المجتمعون فى بيتى الموقف، وأخبروها بالنبأ.

وفى الأيام التالية بعد إعلان الجائزة كانت أعصابى فى أسوأ حالاتها، بسبب شدة الزحام وضيق البيت وعدم قدرته على استيعاب الزائرين الكثيرين. وما إن علم إبراهيم نافع، رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير «الأهرام»، بالأمر من الصحفى فتحى العشرى، حتى أصدر قراره بفتح مكتب توفيق الحكيم وتخصيصه لى كى أستقبل فيه الزوار والضيوف بدلاً من بيتى الذى عجز عن استيعاب الطوفان، كما قرر ـ جزاه الله كل خير ـ تكليف فتحى العشرى

والسيدة كوثر البطراوى بمعاونتى فى هذه المهمة الصعبة. ولولا قرار إبراهيم نافع لأصبح الأمر فضيحة أمام العالم، لأننى كنت سأعجز عن استقبال الوفود الأجنبية من صحفيين ومراسلين ومصورين وأدباء، خاصة أن مكتبى ـ فى البيت ـ تحول إلى شىء آخر، ولا يصلح للجلوس فيه بسبب ما حدث يوم الجائزة. كما كنت سأعجز عن الرد على آلاف الرسائل التى وصلتنى من كل أنحاء العالم من دون مساعدة.



الرئيس حسنى مبارك يقلد نجيب محفوظ قلادة النيل وذلك بمناسبة حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨.

وأصبحت لقاءاتى بعد ذلك فى جريدة «الأهرام»، باستثناء لقاءات بسيطة كان أصحابها يصرون على زيارتى فى منزلى، ومنهم رئيس الوزراء فى ذلك الحين الدكتور عاطف صدقى وبعض الوزراء. وأذكر أن الرئيس حسنى مبارك اتصل بى فى منزلى عقب إعلان خبر فوزى بجائزة نوبل بساعات، وتحديدًا قبل نزولى إلى سهرة الحرافيش، وهنأنى بالجائزة، وكان حوارى مع الرئيس مبارك من طرف واحد، طرفه هو، لأننى لم أكن أسمعه جيدًا، لضعف فى أذنى اليسرى. تمامًا مثلما لم أسمع ممثل لجنة نوبل، الذى اتصل بى، ولم أعرف ما الذى

قاله بالضبط، ولم أتمكن بالتالى من الرد عليه، ولم أقل له إننى لا أسمعه، لأن الموقف كان محرجًا للغاية. وقد تفضل الرئيس مبارك بإهدائى قلادة النيل بمناسبة هذا الفوز.

أستطيع القول إن أحدًا من أبناء جيلى من الأدباء لم يسع إلى جائزة نوبل، ولم أسمع أحدهم فى يوم من الأيام يتحدث عن احتمالات فوزه بالجائزة. ويعود هذا إلى أسباب عديدة ـ تحدثت عن بعضها من قبل ـ منها أننا كنا نؤسس أشكالاً أدبية جديدة على الأدب العربى، بعض منا فى الرواية، والبعض الآخر فى القصة، وثالث فى المسرح، وآخرون فى الشعر.. وهكذا. والذى يقوم بتأسيس لون أدبى جديد لا يتطلع إلى جائزة، بل يكون كل همه هو وضع البذرة، حتى ولو كانت أجيال تالية هى التى ستجنى الثمار. وكانت «عقدة الخواجة» بالفعل مسيطرة علينا ـ كما أشرت من قبل ـ لدرجة أن بعض أدباء جيلنا كان يكتب القصة القصيرة ويضع عليها أى اسم أجنبى حتى تنشر. أنا لم أقدم على مثل هذا التصرف، وكل أعمالى وضعت اسمى عليها، ولكن البعض فعل ذلك.

هذه العقدة بدأت فى التلاشى مع عهد عبدالناصر، لأن الروح الجديدة التى شعرنا بها أعطتنا ثقة بأنفسنا لم تكن موجودة من قبل. فحدث نوع من التطلع نحو العالمية، وبدأ بعض الأدباء فى السعى نحو الجائزة، وسافروا إلى الخارج للتعريف بأنفسهم وإنتاجهم، وطلبوا من بعض الجهات ترشيحهم لدى هيئة جائزة نوبل. ومن هنا بدأت صورة الأدب العربى تلفت الأنظار فى الخارج. والسبب الأهم ـ فى رأيى ـ يتعلق بالدراسات الأكاديمية والترجمات المحدودة للأدب العربى، التى قامت بها بعض المؤسسات مثل «سندباد» فى فرنسا، ودار «ثرى كونتننت» المعروفة. ورغم أن ترجمات دور النشر هذه من الأدب العربى كانت موجهة لدارسى اللغات الشرقية فى الجامعات والمراكز العلمية، وليس للسوق الأدبية أو القارئ العادى، إلا أن تأثيرها كان ملموسًا للغاية فى لفت انتباه لجنة نوبل للأدب العربى. لأن اللجنة لا تشترط أن يكون الناشر مرموقًا، بل إن شرطها الأساسى هو أن تكون الأعمال الأدبية مترجمة إلى اللغات الأوروبية. وبذلك يمكن أن تحصل على التزكية من الجامعات والمراكز العلمية المعتمدة لدى اللجنة.

هناك ملاحظة يجب الالتفات إليها، وهى أن بعض الناس يقعون فى سوء فهم نتيجة لعدم معرفتهم بالفرق بين التزكية والترشيح لجائزة نوبل، فالتزكية تأتى بناء على توصية من الجامعات. فجامعة الإسكندرية مثلاً زكت الدكتور طه حسين، واللجنة السياسية العليا زكت توفيق الحكيم. وهذه التزكية ليست سرًا، وهى أمر معلن ومعروف للجميع. وبناء

على هذه التزكية فإن لجنة نوبل تقوم بترشيح عدد من الأسماء بعد أن تسأل مجموعة من المتخصصين، وتطلب من كل واحد منهم كتابة تقرير علمى عن أديب معين. وهؤلاء المتخصصون أقسموا على عدم إفشاء أسرار الترشيح حفاظًا على كرامة الأدباء.

وهذا هو الخلط الذى وقع فيه يوسف إدريس، فيبدو أنه علم أن جهة معينة زكته لنيل جائزة نوبل، فظن أنه مرشح للجائزة. التزكية ـ كما قلت ـ ليست سرًا، حتى أن هناك معيدًا يدرس الأدب العربى فى جامعة أمريكية أو كندية ـ لا أذكر بالتحديد ـ زكانى لنيل الجائزة فى السبعينيات، وأرسل لى خطابًا بهذا المعنى. ورددت على خطابه وشكرته، ولم أهتم بمتابعة الأمر، لأن التزكية مجرد لفت نظر، حتى تقوم لجان المتابعة بقراءة الأعمال المترجمة للأديب، أما أن يتم الترشيح أو لا يتم فتلك مسألة أخرى.

فى الاحتفال الذى أقامه الرئيس مبارك لتكريمى ـ فى شهر نوفمبر ١٩٨٨ ـ بعد حصولى على الجائزة، عرفت من سكرتير لجنة جائزة نوبل أن المعلومات والتفاصيل الدقيقة عن ترشيح أى أديب فاز بالجائزة لا تعلن إلا بعد مرور خمسين عامًا من تاريخ فوزه، عندها يكشفون عن أسرار الترشيح وأقوى المنافسين للفائز، وعدد الأصوات التى حصل عليها، ووجهات نظر المعترضين على ترشيحه.. وهكذا. أما قبل مرور هذه المدة فتظل الأسرار مطوية خشية أن تكون الشخصيات التى شاركت فى المداولات، وكذلك الأدباء الذين لم يحالفهم الحظ، مازالوا على قيد الحياة، فيكون فى الإعلان عنها حرج لهم.

وكما عرفت فإننى كنت مرشحًا للجائزة منذ سنوات قبل نيلها، وكنت أسمع من يقول لى إن اسمى جاء فى التصفيات من بين ثلاثين مرشحًا، أو من يقول لى إن اسمى كان فى قائمة ضمت عشرة مرشحين.. وهكذا. لم أكن أعطى بالاً لهذه الأقاويل، وأتعجب: من أين يأتون بهذه المعلومات التى لا يعرفها إلا أعضاء لجنة جائزة نوبل؟ وأحيانًا كانت تنشر أخبار بهذا المعنى فى مجلات وصحف لها وزنها وثقلها واحترامها مثل مجلة «تايم». وكان البعض يصدقون «التايم» وكأنها منزلة من السماء، فى حين أنها مجرد اجتهادات للقسم الأدبى فى المجلة. حيث يجتمع النقاد بالمجلة على أسماء معينة يرون أن الترشيحات لا يمكن أن تخطئهم. ولا أعرف ما إذا كان للأقسام الأدبية فى المجلات العالمية حق التزكية لجائزة نوبل أم لا؟. والمؤكد عندى أن النقاد الكبار والجامعات الكبرى فى العالم لهما هذا الحق. بدليل أن جامعة الإسكندرية زكت الدكتور طه حسين، كما زكاه صديقه الأديب الفرنسى المشهور «أندريه جيد» صاحب رواية «المزيفون»، ورواية «الباب الضيق» وغيرهما، كما أن

لجنة السياسات العليا برئاسة الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء الأسبق زكت توفيق الحكيم، ولا أعرف ما إذا كانت هذه اللجنة مازالت موجودة أم اختفت.

فى اعتقادى أن توفيق الحكيم كان أحق من الدكتور طه حسين بجائزة نوبل، لأسباب موضوعية. أهمها أن إنتاج الدكتور طه حسين الفنى محدود، فى حين أن إنتاج توفيق الحكيم الفنى غزير، ويميل إلى الناحية الإنسانية العالمية خاصة فى مجال المسرح. ومن سوء حظ الحكيم وطه حسين معًا أنهما وجدا فى عصر ملىء بالعمالقة فى الأدب الأوروبى، مما قلل من فرصة حصولهما على الجائزة، وإن كان الحكيم سعى كثيرًا للحصول عليها خاصة فى سنواته الأخيرة، وكان لديه أمل كبير، بل أتصور أن رحلته الأخيرة إلى باريس والتى كتب خلالها مسرحيته «السلطان الحائر» كانت من أجل جائزة نوبل، ومع ذلك لم يتحقق حلمه.

أى لجنة أدبية فى العادة يكون لها إيجابياتها وسلبياتها، وفى تصورى أن اللجنة الأدبية ما هى إلا ظاهرة حضارية، بمعنى أنها تستمد وزنها وقيمتها من المستوى الحضارى العام للبلد الذى توجد فيه. ففى بلد متخلف لا تتوقع أن تكون اللجان الأدبية فيه عادلة ومحايدة، ولذلك أقول إنه لا توجد الآن لجنة أدبية تجمع بين العلم والخبرة والأخلاق أفضل من تلك الموجودة فى أمم الشمال الأوروبية. لأن هذه الدول مرت بظروف مختلفة عنا، فلم تتعرض للاستعمار والحروب المريرة والمآسى التى شهدتها كثير من دول العالم خاصة فى الجنوب، حيث توجد دول العالم الثالث الآن، ومن هنا تأتى الثقة فى جائزة نوبل.

أحيانًا يفاجأ الناس بأن لجنة نوبل لم تعط الجائزة لأديب مشهور ومعروف فى كل أنحاء العالم. فى حين تمنحها لآخر أقل منه شهرة. وهذا فى رأيى يرجع إلى أن اللجنة تنظر فى الأساس إلى الناحية الإنسانية والفنية فى مضمون العمل الأدبى المقدم لها، لذلك من الممكن أن يفوز أديب تصل موهبته إلى ستة من عشرة، بينما يتم استبعاد آخر تكون موهبته تسعة من عشرة مثلاً، وذلك لأن الأول صاحب أدب إنسانى متميز.. ولهذا السبب لم يحصل أدباء كبار على الجائزة مثل جراهام جرين لأنه كاثوليكى متعصب، واللجنة ضد التعصب الدينى، ولم ينلها الإيطالى ألبرتو مورافيا لتركيزه الشديد على الجنس.

ومن الاتهامات التى توجه لجائزة نوبل أنها أهملت أدباء العالم الثالث لسنوات طويلة، خاصة فى العالم العربى. ليست نوبل وحدها هى التى أهملت أدبنا المعاصر، بل المستشرقون

أيضًا. فرغم وجود حركة الاستشراق منذ القرون الوسطى فإنها اهتمت بالأدب العربى القديم، ولم تعط نفس الاهتمام للأدب العربى المعاصر، وفى السويد نفسها كانوا يستعينون بدارسى الأدب العربى فى الجامعات هناك ليتعرفوا منهم على حركتنا الأدبية المعاصرة. وحتى سنوات ليست بالبعيدة لم يحصل على جائزة نوبل من الشرق كله إلا شاعر الهند الكبير طاغور، ولم يكن السبب موهبته فقط، بل كان السبب الأهم هو أنه وجد جسرًا يوصله إلى العالم الغربى، حيث كان يكتب باللغة الإنجليزية، وحتى أعماله المكتوبة بلغة محلية كانت تترجم إلى اللغات الأوروبية. واستطاع طاغور بموهبته اختراق أوروبا وتكوين شعبية ضخمة جعلت الكاتب الفرنسى «أندريه جيد» يفتتن به ويترجم أعماله إلى اللغة الفرنسية، فحصل على جائزة نوبل بسهولة.

وعلى ذلك فتهمة التحيز التى توجه لجائزة نوبل غير صحيحة. خاصة أنها وجدت فى عصر ملىء بالعمالقة فى أوروبا. فلم يكن فى مقدورها أن تؤجل منحهم الجائزة حتى تتم ترجمة الآداب الأخرى من لغاتها المحلية إلى اللغات الأوروبية. فلا نلوم لجنة نوبل إذن، بل نلوم أنفسنا لأننا تأخرنا فى الاهتمام بترجمة الأدب العربى المعاصر وتقديمه لهم ليتعرفوا على فنوننا وأدبائنا.

والتحيز ليس الاتهام الوحيد، فالاتهامات الموجهة لنوبل عديدة. بل إن «إرفنج والاس» الكاتب الأمريكى عندما قابل مؤسس الجائزة «ألفريد نوبل» خرج من المقابلة يتهمه بالغباء. وهذا حكم شخصى لصاحبه الحق فى أن يقوله، ولكن هذا لا يعنى أنه صحيح، ولا يعنى أنه ينطبق على لجنة نوبل أيضًا. وقد يكون هناك شخص فيه مسحة من الغباء، وتظهر مواهبه عندما يخلو إلى نفسه ويفكر بمفرده، وقد كتب «والاس» رواية ضخمة عن جائزة نوبل أسماها باسم «الجائزة»، شن فيها حملة كبيرة على جائزة نوبل[1].

أما برنارد شو فقد وصف جائزة نوبل وصفًا ساخرًا، وقال إنها كطوق النجاة الذى يتم تقديمه للغريق بعد أن ينجو من الغرق. وهو هنا يشير بسخريته المعتادة إلى أن الجائزة تمنح للأديب فى سنى حياته الأخيرة، وبعد أن يكون قد وصل إلى تحقيق أغلب طموحاته

---

(١) رواية «الجائزة» «لإرفنج والاس» مترجمة إلى اللغة العربية، وقد نشرتها «الدار القومية للطباعة والنشر» فى الستينيات، وصدرت فى ٨٤٢ صفحة، وكتب مقدمة لها الأستاذ أنيس منصور، وقامت بترجمتها لجنة كتب جوائز عالمية، وهى رواية مهمة وممتعة. «ر. ن»

وأهدافه. وأنا هنا أختلف مع برنارد شو، لأن الأديب لا يكتمل نضجه وعبقريته إلا بعد سنوات طويلة من الكتابة، قبل ذلك تصبح الجائزة تشجيعية أو أشبه بجوائز الأدباء الشبان أو النياشين والأوسمة التى يمكن أن تحصل عليها عندما تزور دولة ما.

أما «نوبل» فجائزة ضخمة، ولها لجنة محترمة، وشروط محددة، وإجراءات صعبة، ولا يحصل عليها إلا من يستحق. وربما كان الأديب الذى أحترمه، ولا أعرف سببًا مقنعًا لعدم حصوله على جائزة نوبل هو «كازانتزاكس» اليونانى صاحب «زوربا» و «المسيح يصلب من جديد». أعتبر «كازانتزاكس» أكثر موهبة من «جراهام جرين» و «ألبرتو مورافيا»، وأعظم من أن تتجاهله لجنة نوبل، ولابد أن يكون هناك سر خطير منع حصوله على الجائزة خاصة أنه كان دائم السخرية منها ومن صاحبها، وكان يقول: كيف لرجل اخترع الديناميت وتاجر فيه أن ينشىء جائزة للسلام!. ولعل سبب حرمانه من الجائزة هو اتجاهاته اليسارية والثورية العنيفة.

مهما قيل من نقد فى جائزة نوبل، فلا تزال ألمع جائزة فى تاريخ الأدب العالمى، وتحظى ببريق هائل، حتى الذين يهاجمونها هم أنفسهم يتكالبون عليها، ويودون لو فازوا بها. وأهمية جائزة نوبل لا تتوقف فقط عند المثقفين والمهتمين بالأدب، بل تتجاوزهم إلى رجل الشارع. فلم أكن أتصور كل هذه الفرحة فى عيون البسطاء عندما تم الإعلان عن خبر فوزى بالجائزة، وأستطيع أن أسمى ما جرى وأنا أتذكره الآن بأنه «فرحة قومية».. بعض البسطاء اعتبرها نصرًا على الأجانب الذين استعمرونا وتحكموا فى مقدراتنا قرونًا طويلة. كما أن فوزى بنوبل جاء فى لحظة إحباط عامة كانت تمر بها مصر فى ظل العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكانت أجواء المقاطعة العربية لمصر مازالت قائمة، فقد عادت العلاقات مع عدد من الدول العربية بفضل حكمة الرئيس مبارك فى إدارة الأزمات، ولكن أجواء المقاطعة لمصر بقيت كما هى، خاصة أن الجامعة العربية ومنظماتها كانت لا تزال خارج مصر نتيجة قرارات المقاطعة العربية. حتى فى مجال الألعاب الرياضية كنا نمر بانتكاسة بعد دورة سول الأوليمبية وخروج فرقنا الرياضية خالية الوفاض، وفى الأدب انتشرت بعض الأصوات التى تشكك فى ريادة مصر، وتبشر بانتقال مركز الثقل الثقافى من القاهرة إلى غيرها من العواصم العربية التى ستقوم بالدور نفسه، وكانت هذه الأقاويل تؤذينى عندما أسمعها، لذلك جاءت جائزة نوبل لتعيد الثقة فى ريادة مصر ودورها الثقافى فى العالم العربى. ولا تتصور فرحتى وأنا أتلقى التهانى من كل الدول

العربية والمنظمات الثقافية، حتى من بعض العواصم العربية التى لم تكن علاقات مصر بها آنذاك على ما يرام مثل سوريا. فقد بعثت محطات الإذاعة والتليفزيون السورية بمندوبيها لإجراء حوارات معى. وأخبرنى الصديق يوسف القعيد أن الرئيس السورى حافظ الأسد شاهد حوار التليفزيون السورى معى قبل بثه، وأمر بعرض المقابلة فورًا. كما جاءنى وفد من منظمة التحرير الفلسطينية وزارنى فى بيتى وأبلغنى بتهنئة قيادات المنظمة وسعادتهم وفرحهم، ووصلتنى رسائل وخطابات تهنئة من كل الأقطار العربية بما فيها الضفة الغربية وعرب إسرائيل. وكان بعض الأدباء الفلسطينيين الشبان من عرب إسرائيل يداومون على الجلوس معى فى مقهى شهرزاد ويدخلون معى فى حوارات متشعبة[١].

لا أستطيع وصف المدى الذى وصلت إليه فرحة الجماهير العربية البسيطة فى مصر بالجائزة. كنت عندما أسير فى الطريق يستوقفوننى ويأخذوننى بالأحضان، وأسمع منهم كلمات تلقائية بسيطة مليئة بالحب والتقدير، ومن أغرب ما صادفت المعاملة التى لقيتها من سائقى التاكسى، لقد كانوا يتسابقون على توصيلى ويرفضون تقاضى أى أجر، وإذا ما وجدنى أحدهم مصرًا على الدفع يقسم بطلاق زوجته ألا يتقاضى منى شيئًا!. فأسكت وأنزل من التاكسى وأنا أشعر بحرج شديد.

فوزى بجائزة نوبل للأدب كان له صدى طيب عند المثقفين المصريين على الإجمال. وأنا هنا أعنى اللفظ الشامل للمثقف ولا أقصره على الأدباء والمفكرين، وهو بذلك يشمل الأطباء والمهندسين والزراعيين وأساتذة الجامعات. لا توجد هيئة فى مصر لم تحتفل بهذا الفوز وتسعى لتكريمى، بما فى ذلك نادى القضاة الذى منحنى عضويته الشرفية. من هنا لم أتأثر كثيرًا بالأصوات التى بدأت تهاجمنى وتهاجم الجائزة وتحاول التقليل من قيمة هذا الانتصار الأدبى والقومى، وكانوا كمن يحاول تكسير المصابيح لإسكات مظاهر الفرح.

من خلال متابعتى لتاريخ جائزة نوبل للأدب لاحظت أن هذه الأصوات المعارضة موجودة فى كل مكان وزمان. ولم يحصل أديب ـ مهما علا قدره ـ على هذه الجائزة

---

(١) أخبرنى نجيب محفوظ هنا أن البعض حاول إقناعه برفض الجائزة والاعتذار عن قبولها، وعرضوا أن يعوضوه بقيمتها أو أكثر، ولكنه رفض ذلك. وقد طلب منى نجيب محفوظ عدم ذكر أى تفاصيل عن هذه القصة أو ذكر أى اسم من أسماء هذا العرض. واحترامًا لرغبته فأنا ألتزم بما طلبه منى. «ر. ن»

إلا وتعرض لهذا الهجوم. فعندما فاز «جولدنج» الإنجليزى بالجائزة هاجمته الصحف الإنجليزية، وقالت إن «جراهام جرين» أولى منه بالجائزة. وفى ألمانيا قالوا إن «جنتر جراس» أحق من الجميع. وعندما فاز بها «كلود سيمون» اعترض بعض النقاد الفرنسيين، وقالوا إن «آلان روب جرييه» هو الذى يستحقها. ومن ثم لم يصبنى الحزن والإحباط بسبب الهجوم الذى تعرضت له من بعض أدبائنا، وعلى رأسهم الدكتور يوسف إدريس، الذى ادعى فى أكثر من مقابلة صحفية معه أن الصهيونية العالمية هى التى سعت لمنحى الجائزة، مكافأة لى على موقفى المؤيد لاتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية، وهذا الادعاء، كما هو واضح، غير منطقى بالمرة وعندى الأسباب. فالصهيونية العالمية التى تحدث عنها إدريس وغيره، أعطيناها ـ كمثقفين عرب ـ أكبر من حجمها، وجعلنا منها إلهًا قادرًا على كل شىء، وذهبنا إلى أنها هى التى تصنع التاريخ والحاضر والمستقبل، وتدير عجلة الكون. فى حين أنها عبارة عن جماعة من اليهود لديهم الثروة والذكاء والقدرة على الدعاية، وكان كل همهم إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ركزوا على الدول ذات النفوذ فى العالم لتساعدهم فى تحقيق هدفهم. فى البداية ذهبوا للخليفة العثمانى المسلم باعتباره صاحب الشأن فى أمور فلسطين، فاعترض ولم يوافقهم، فانتقلوا إلى انجلترا وقدموا لسياستها وسياسييها خدمات كبيرة حتى حصلوا على «وعد بلفور»، وحصلوا من الإنجليز على المساندة والمساهمة فى إنشاء دولتهم، وخاصة فى المراحل الأولى.ولما أفل نجم الإمبراطورية البريطانية وأصبحت أمريكا سيدة العالم الجديد انتقلوا إليها وعرضوا خدماتهم عليها وارتبطوا بها فى علاقات متشابكة داخل نسيج السياسة الأمريكية ومراكز اتخاذ القرار، وأصبحوا أكبر المستفيدين من الولايات المتحدة الأمريكية. ويخطئ من يتصور أن الصهيونية العالمية هى التى تحرك أمريكا وتدير سياستها، لأن المواقف الأمريكية نابعة أصلاً من تحقيق المصالح الأمريكية، وهى مصالح تتفق حاليًا مع مصالح إسرائيل. وعندما تتغير تلك السياسة سوف تصبح إسرائيل مثل «مدغشقر»، بلا قوة أو نفوذ. والدليل على صحة وجهة نظرى ما فعلته الإدارة الأمريكية فى حرب الخليج الثانية، ووقوفها إلى جانب الكويت والمملكة العربية السعودية بشكل واضح وصريح لم يحدث أن وقفته مع إسرائيل فى حروبها مع العرب، بمثل تلك الصراحة وذلك الوضوح. أرسلت أمريكا جيوشها وجندت معظم القوى العسكرية العالمية الفاعلة لتحمى السعودية والكويت، رغم أن مصالح السعودية والكويت تتناقض مع مصالح إسرائيل. وهذا يوضح أن أمريكا تضع مصالحها العليا فوق كل اعتبار، ثم إذا نحن سلمنا بأن للصهيونية العالمية

نفوذًا قويًا فى أمريكا ومصالح مشتركة، فلا يمكن أن يكون لها نفس النفوذ أو جزء منه فى دولة مثل السويد، ليس لها أطماع عالمية، وليس لها مصالح مع الصهيونية العالمية، تعمل لها حسابًا، فتمنح أديبًا مصريًا جائزة نوبل بالضغط. وهل بلغت السذاجة بالصهيونية العالمية لأن تسعى من أجل منح أديب عربى جائزة كبرى بهذا الحجم والوزن لترفع من شأن العرب وتلفت أنظار العالم إليهم وإلى أدبهم، فى حين أن العرب هم العدو الأول لإسرائيل؟!. المنطق يقول إن الأولى هو ترشيح أديب إسرائيلى أو يهودى. ثم ما معنى أن الصهيونية أرادت أن تكافئنى على موقفى المؤيد لاتفاق السلام مع إسرائيل؟. إن الصهيونية لو أرادت أن تكافئ كاتبًا على موقف تشجعه هى، فقد تضع فى يده أو فى حسابه بالبنك مبلغًا من المال على سبيل الرشوة، لا أن تسعى إلى حصوله على جائزة أدبية هى الأولى فى مجالها فى العالم. ولو كانت جائزة نوبل جاءتنى لموقفى من معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فإن بالجائزة نوعًا آخر يناسب هذا الموقف، وهو جائزة نوبل للسلام وليس الأدب، بل إن أدونيس أو توفيق الحكيم يستحقانها، فهما مؤيدان للسلام مع إسرائيل أكثر من تأييدى أنا له عشرات المرات.

الواضح أن يوسف إدريس لم يكن يبغى من اتهاماته سوى التشهير والتجريح، خاصة أنه يعرف أن هناك آذانًا تسمع أو تحب أن تسمع مثل هذا الكلام. وأتصور أن الصهيونية العالمية التى تحدث عنها إدريس ضحكت فى سرها على كلامه، كما ضحكت لجنة نوبل، ولحسن الحظ أن السويد دولة ديمقراطية لا تتأثر اللجان فيها بمثل هذه الأمور.

من بين التفسيرات التى روج لها المعترضون على منحى الجائزة أن الغرب أعطانى «نوبل» لأن رواياتى تتضمن نقدًا عنيفًا للمجتمع المصرى والعربى بالتالى، ومن ثم تكون الجائزة منحت إلى وثيقة إدانة ضد مجتمعنا ممثلة فى مجموعة الروايات التى كتبتها وأثبت فيها مدى سقوط وتردى واضطراب هذا المجتمع. وردى أنه ليس هناك «أدب» فى العالم إلا ومبعثه الغضب والنقد، والأدب الحقيقى ما هو إلا نقد دائم للحياة والمجتمع.. روايات تشارلز ديكنز تحتوى على انتقادات حادة، بل وتصل إلى درجة الإدانة للمجتمع الإنجليزى فى القرن الماضى. وعندما قرأت أعمال ديستوفسكى طالعت صورة قاتمة للمجتمع الروسى، أما الأدب الأمريكى فهو فى معظمه نقد صريح وحاد للمجتمع الأمريكى. منذ أيام قدماء المصريين وحتى الآن والدور الأساسى للأدب هو أن يكون عينا ناقدة للمجتمع، وتعبيرًا غاضبًا على الأوضاع السلبية، ونظرة متطلعة لمستقبل أفضل. والأديب الحقيقى فى

العادة لديه مدينة فاضلة فى مخيلته، يتصورها، ويعيشها ويحاول الوصول إليها فى أدبه من خلال نقد المجتمع الذى يعيش فيه. وعلى ذلك فهذا الاتهام مبنى على خطأ من الأساس، لأنه لم يستوعب الدور الحقيقى للأدب.

نأتى بعد ذلك إلى اتهامات التيار الدينى والهجمة الشرسة التى قام بها، وهل هناك شىء تركوه دون أن يهاجموه؟!... كل اتهامات هذا التيار تركزت فى رواية «أولاد حارتنا»، وفى تصورهم أنها رواية تهاجم الإسلام بشكل خاص والأديان السماوية بشكل عام، وأن الغرب الذى يرحب بهذا الهجوم من منطلق نزعته المادية والمعادية للأديان سهل لى الحصول على جائزة نوبل!!.. وهذا اتهام آخر غير موضوعى لأسباب عديدة:

أولاً: النقد الموضوعى لرواية «أولاد حارتنا» ينفى عنها الهجوم على الإسلام والديانات السماوية.

ثانيًا: فى الغرب متدينون أيضًا مازالوا متمسكين بتعاليم الدين.

ثالثًا: يرتبط الغرب بمصالح سياسية مع الدول العربية والإسلامية وليس فى صالحه الإساءة إلى الإسلام بصورة فجة.

رابعًا: وهو الأهم، أننى لم أحصل على جائزة نوبل بسبب رواية «أولاد حارتنا»، فهى واحدة ضمن قائمة طويلة من روايات ذكرتها لجنة نوبل وعلى رأسها «الثلاثية» التى لم أتعرض فيها لموضوع الدين.

لم تقتصر الاتهامات الموجهة لى وللجائزة على الأدباء المصريين فقط، بل هناك من الأدباء العرب من شارك فيها، وادعى بعضهم أنه أحق بالجائزة منى، وأنه تم منحى إياها كنوع من المجاملة لمصر..!!.. وأومن تمامًا بأن أى جائزة للعرب فى مجال الأدب الروائى يجب أن تكون لمصر، وهذه ليست نظرة متعصبة، ولكنها نظرة تقوم على الحقيقة التى تؤكد أن الأدباء المصريين هم الذين وضعوا أسس الرواية العربية الحديثة.

أما الاعتراض الوحيد على الجائزة، الذى وجدت فيه قدرًا من الموضوعية ويستحق الوقوف عنده، فهو أنه كان من الأولى أن يحصل على جائزة نوبل شاعر عربى، على أساس أن الشعر هو ديوان العرب وأكثر أصالة من الفنون الأدبية الأخرى بما فيها الرواية. ولكن عيون الشعر العربى لم تترجم إلى اللغات الأجنبية، كما أن هذا الزمن ليس زمن الشعر،

والظروف ليست فى صالحه، وعلى امتداد تاريخ الأدب العربى نلحظ أنه فى مقابل الشعراء توجد قمم أدبية كتبوا النثر، ولا يقل تأثيرهم وموهبتهم عن الشعراء مثل الجاحظ وأبو حيان التوحيدى.

كثيرون سوف يصابون بالدهشة عندما يعرفون أننى كنت من عشاق السفر، وكانت أمنية حياتى وأنا طالب فى الجامعة أن أستكمل تعليمى فى أوروبا، وفى فرنسا على وجه التحديد. وبسبب ولعى بالسفر وأنا طالب، قرأت عن منحة لدراسة الرسم فى إيطاليا، فتقدمت إليها، وأنا لا أجيد الرسم. أما أقرب فرصة واتتنى للسفر فكانت بعد تخرجى فى كلية الآداب والتحاقى بوظيفة فى إدارة جامعة القاهرة، فقد أعلنت الجامعة عن حاجتها لمجموعة من خريجى قسم الفلسفة للسفر إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية بمدرسة «الترومال» (وهى أشبه بدار العلوم بمصر) وذلك لأن الأساتذة الفرنسيين العاملين فى مصر بدأوا فى مغادرتها بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، ولابد من إيجاد البديل. كان ترتيبى هو الرابع على كلية الآداب، وتصادف أن الأربعة الأوائل فى الكلية خرجوا من قسم الفلسفة، فاختارت الكلية الثلاثة الأوائل وهم: محمد عبدالهادى أبوريده وعلى أحمد عيسى وتوفيق الطويل، وأرسلتهم فى بعثة دراسية إلى فرنسا. وبذلك أكون أول المرشحين للسفر إلى «الترومال» بعد سفر هؤلاء، ومن فرط ثقتى فى الحصول على هذه البعثة جهزت ملابسى وذهبت إلى أستاذ فى كلية الآداب حصل على الدكتوراه من فرنسا لأسأله عن أنسب الأماكن للإقامة فى باريس، وعن كيفية التعامل مع الفرنسيين. لذلك كانت المفاجأة قاسية عندما لم أجد اسمى بين العشرة المختارين للسفر، وكدت أجن. اكتشفت أن إدارة البعثات اشتبهت فى اسمى، وظنت أننى قبطى، وبما أن هناك اثنين من الأقباط فى قائمة المختارين للسفر، فقد رفعوا اسمى منها اكتفاء بهما!!. كان لى زميل فى الكلية اسمه «عبدالرحمن أبوالعز»، وهو ابن أخت الكاتب المسرحى «إبراهيم رمزى» مدير إدارة البعثات، متأثرًا بما جرى لى، فاصطحبنى إلى منزل خاله إبراهيم رمزى لنوضح له سوء الفهم الذى حدث. سأل عبدالرحمن خاله لماذا تم رفع اسمى من قائمة المسافرين مع أن ترتيبى هو الأول؟. فرد إبراهيم رمزى بأن هناك اثنين من الأقباط فى القائمة وموصى عليهما من شخصيات مهمة، وبالتالى لا يمكن أن نضع فى القائمة ثلاثة من الأقباط. وعندما أكد عبدالرحمن لخاله أننى مسلم، علت الدهشة وجه إبراهيم رمزى، وكان رجلاً خفيف الظل وابن بلد، فنظر إلى وقال لى بالحرف الواحد: «يلعن أبو تأليف أمك.. فيه واحدة مسلمة تسمى ابنها نجيب محفوظ». سألته إن كان هناك أمل فى

تصحيح الخطأ فأجاب بالنفى، وأبدى أسفه لأن الوقت كان قد فات، ووعدنى بالسفر فى أقرب بعثة.

ضاعت فرصة السفر إلى فرنسا بسبب خطأ من موظف فى قسم السجلات بالجامعة، لأنهم لو كتبوا اسمى كاملاً وهو: نجيب محفوظ عبدالعزيز، ما حدث هذا اللبس ولتغير مسار حياتى. كنت هيأت نفسى تمامًا للسفر وللإقامة فى باريس لمدة ثلاث سنوات على الأقل هى مدة البعثة. وكنت فى ذلك الوقت قرأت «زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، وأعجبتنى حياة الصعلكة الثقافية التى عاشها الحكيم فى باريس، وأقنعت نفسى بأن مثل هذه الصعلكة هى أحسن طريقة لتعلم اللغة الفرنسية وللتكوين الثقافى أيضًا، ولإطلاق هذا الاسم المركب «نجيب محفوظ» علىّ قصة. فقد عجزت «الداية»، وهى المرأة التى كانت تقوم بتوليد معظم النساء فى مصر، عن إخراجى للحياة، وعانت أمى من صعوبات شديدة أثناء الوضع، حتى اضطروا للاستعانة بطبيب، وهو أمر لم يكن محببًا فى تلك الأثناء خاصة فى البيئات الشعبية. فجاء الدكتور نجيب محفوظ طبيب النساء والولادة الشهير، وأنقذ أمى وأخرجنى إلى الحياة، فأطلقوا اسمه على المولود الجديد، وأصبح مثل اسم الطبيب «نجيب محفوظ»، وهو اسم مركب، ولم تكن أمى تعرف أنها عندما اختارت لى هذا الاسم سوف يكون ذلك سببًا فى حرمانى من السفر إلى فرنسا.

بعد ضياع هذه الفرصة وضعت برنامجًا منظمًا لحياتى، خاصة بعد ما احترفت الأدب. ومنذ ذلك الوقت اعتبرت أى شىء ـ حتى السفر الذى أحبه ـ يخرجنى من النظام الصارم الذى حددته لنفسى، بمثابة تضييع للوقت وإرباك لحياتى، وينبغى رفضه ومحاصرته. وفى المرات القليلة التى سافرت فيها خارج مصر كنت أشعر باضطراب نفسى وبالضيق الشديد. يضاف إلى ذلك الخوف من السفر بعد ما أصبت بمرض السكر سنة ١٩٦٠، وأصبح لى طقوس خاصة فى الأكل والشرب، يؤدى أى خروج عليها إلى مضاعفات غير مأمونة، وعندما سافرت إلى اليمن اختل نظامى الصارم فى القراءة والكتابة والنوم والطعام، مما أصابنى بالتعب والاعتلال الصحى، ونقص وزنى ١٤ كيلو جراما خلال هذه الرحلة اليمنية، المرة الوحيدة التى استمتعت فيها بالسفر كانت فى رحلتى إلى يوغوسلافيا فى الخمسينيات، وكان ذلك قبل إصابتى بمرض السكر. ولولا أن الرحلتين (اليمن ـ يوغوسلافيا) كنت مضطرًا فيهما للسفر لما سافرت أبدًا.

بعد إعلان فوزى بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨، تحدثوا إلىّ فى مسألة السفر

لتسلم الجائزة. وزارنى السفير المصرى لدى السويد، وبصحبته كل من سكرتير لجنة نوبل والكاتب الصحفى محمد سلماوى، وهو شقيق زوجة السفير المصرى، كنت أرى سلماوى لأول مرة، وإن كنت سمعت عن مسرحية معروفة له آنذاك أشاد بها النقاد وهى «سالومى»، كما كنت أعرف أنه وكيل أول وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية فى ذلك الوقت، وجرى نقاش بينى وبين سكرتير لجنة نوبل، حيث اعتذرت عن السفر وطلبت أن يتسلم السفير المصرى لدى السويد الجائزة ويلقى كلمتى نيابة عنى. وعرفت من السكرتير أن «نوبل» باعتبارها لجنة أهلية وليست رسمية، فإنه لا يمكن أن أنيب السفير وهو فى منصب رسمى فى هذه المهمة. فاقترحت أن يلقى الأستاذ محمد سلماوى الكلمة نيابة عنى.

وبعد انصراف الزائرين تحدثت مع زوجتى فى موضوع السفر، ووجدت أنها ترفض سفرى إلى السويد رفضًا باتًا، واقترحت أن تسافر البنتان «فاطمة» و«أم كلثوم» لتسلم الجائزة. وأشفقت على ابنتىّ من مشقة السفر وحرج الموقف، ومن الضغط عليهما كى تسافرا دون رغبة منهما. ولكن زوجتى أبلغتنى أنها تستطيع إقناعهما، وقد كان، وذهبت زوجتى إلى مبنى السفارة السويدية فى القاهرة وقابلت السفير الذى تعرفت عليه أول مرة عندما زارنا فى المنزل، كما أنها أقامت علاقة مع زوجته، وأخبرت السفير بأن ابنتى ستسافران لتسلم الجائزة بدلاً منى.

زارنا السفير السويدى بالقاهرة وزوجته بغرض الاتفاق على تفاصيل سفر البنتين. وأدركت مدى حرص هؤلاء الناس على أن يتسلم الفائز جائزته بنفسه شخصيًا أو أحد من المقربين منه على الأقل. وأرشدنا السفير والسيدة حرمه إلى محل أزياء لنشترى منه الملابس التى يمكن أن ترتديها البنتان فى حفل تسليم الجوائز، وذهبت زوجتى معهما وتم اختيار الملابس التى ظهرتا بها فى الحفل، وأصر السفير وحرمه على اصطحاب البنتين معهما أثناء السفر.

كان منظر البنتين فى غاية الجمال عندما صعدتا لتسلم الجائزة من ملك السويد الذى داعبهما بظرف وسألهما: من منكما التى ستتسلم الجائزة؟! وأعطى الجائزة لواحدة والنيشان للأخرى. وعندما رجعتا إلى مصر قصتا علىّ ما لقيتاه من معاملة حسنة فى السويد، وعن جولتهما فى الحديقة الملكية وأنه لفت نظرهما أنها بلا أسوار، وعن العشاء الفاخر الذى أقيم لهما وحضرته شقيقة أو عمة الملك، لا أذكر، ثم إنهما قابلتا نفس السيدة مصادفة فى اليوم التالى فى الأوتوبيس، وتجاذبتا معها الحوار بكل بساطة. وحكتا لى عن أنهم فى

السويد احترموا رغبتهما فى عدم الإدلاء بأحاديث تليفزيونية أو صحفية، وقبل عودتهما إلى القاهرة أصر الناشر الذى أصدر ترجمة «زقاق المدق» على إقامة حفل كبير لهما. كانت سعادتى لا توصف وهما يقصان علىّ هذه الحكايات عن المعاملة الكريمة التى قوبلتا بها طوال إقامتهما فى السويد.

أما عن تأثير جائزة نوبل، سواء كان التأثير الخاص الشخصى أو العام على مستوى الأدب العربى. فلا شك أن الجائزة كانت مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لى، وساهمت فى تحسين أحوالى المادية، واتساع حركة الترجمة الخاصة برواياتى، بل وبالأدب العربى كله. فهناك عدد كبير من الأدباء العرب استفاد بحركة الرواج التى سببتها الجائزة للأدب العربى، وتمت ترجمة أعمال لهم إلى لغات أوروبية، وساهمت «نوبل» كذلك فى زيادة توزيع رواياتى فى الداخل والخارج بشكل ملحوظ.

وفى مقابل هذه المميزات كانت للجائزة مضارها ومتاعبها، وأظن أنها متاعب خاصة بنا نحن وليس بكل الأدباء الذين حصلوا عليها. فمنذ إعلان فوزى بالجائزة لم يمر يوم إلا وهناك طلب لإجراء حوار صحفى أو إذاعى أو تليفزيونى من مصر أو من دول العالم. هذا الأمر مرهق لى لسببين، الأول: أنه يتعارض مع مزاجى الانطوائى الذى لا يميل إلى الظهور والأضواء، مما جعل ثروت أباظة يردد المثل الشعبى «يدى الحلق للى بلا ودان». والسبب الثانى: أن صحتى لم تعد تتحمل مثل هذا الإرهاق البدنى خاصة مع تقدم العمر. وأذكر أنه فى الأسبوع التالى لحصولى على الجائزة صادفنى برنامج حافل باللقاءات والتسجيلات، فاضطررت فى أحد أيام ذلك الأسبوع ـ من الإرهاق الشديد ـ أن أنام على مقعد فى صالة الشقة، وأجلت المقابلات لليوم التالى حتى أسترد أنفاسى المقطوعة. ولما زادت الأمور على الحد اقترح فتحى العشرى حلاً نقلل به من هجوم المحطات التليفزيونية، خاصة العالمية التى كانت تأتى فرق العمل بها إلى مصر لأى غرض، قد لا يكون بالضرورة له علاقة بالأدب، ثم يطلبون موعدًا للتسجيل معى قبل مغادرتهم، ومن غير اتفاق حتى مع محطاتهم. اقترح العشرى أن يطلب مقابلاً ماديًا قبل التسجيل، كأمر معروف ومعترف به فى دول العالم المتقدمة. وجاء الاقتراح بنتائج إيجابية، وبدأت موجات الهجوم التليفزيونى تتراجع وتخف إلى حد معقول.

ومن المتاعب التى سببتها لى جائزة نوبل، تلك المشاعر العدائية التى ظهرت عند بعض الأدباء، واستطعت أن أعالجها وأمتصها بشكل عقلانى. وساعدنى فى التغلب على

هذه المشاعر العدائية فرحة البسطاء التى كنت أصادفها فى كل مكان أذهب إليه، أو من خلال رسائل البريد. ففى خلال الشهور الأولى لحصولى على الجائزة تلقيت كما هائلاً من الرسائل من كل الدول العربية ومن الدول الأوروبية أيضًا، خاصة انجلترا وفرنسا وألمانيا وفنلندا والسويد، بعضها كان مجرد تحية وإعجاب، والبعض الآخر تضمن آراء وتعليقات كنت أضطر للرد على أصحابها. وبشكل عام فإن الأثر الإيجابى للجائزة كان أكبر بكثير من متاعبها، ويكفى أنها ساهمت فى تغيير نظرة الشعوب الغربية إلينا نحن العرب. تلك النظرة التى كانت سائدة فى أفلامهم السينمائية وبعض صحفهم غير المحايدة، والتى تصور العرب على أنهم شعوب بدوية، مازالوا يعيشون فى الخيام ويعشقون النساء ويركبون الجمال ويحاربون بالسيوف والخناجر. ومن خلال الأعمال الأدبية العربية التى تمت ترجمتها تغيرت هذه الصورة وأدرك الإنسان الأوروبى أننا مجتمعات لها جذورها الحضارية، ولها مشاكلها وهمومها المعاصرة التى تتشابه مع مشاكله وهمومه إلى حد كبير.

الفصل الثالث عشر

ثـــورة ١٩١٩

أنا من براعم ثورة ١٩١٩ ومن عشاق سعد زغلول ـ الفرجة على المظاهرات من شيش الشباك ـ أمي وضعت بصمتها على عريضة الثورة ـ عندما شاركت فى المظاهرات ضد صدقى باشا عام ١٩٣٠ ـ الملك فاروق دق المسمار الأخير فى نعش الملكية ـ الإنجليز شاركوا الإخوان والماركسيين ومصر الفتاة فى حرق القاهرة ـ خدعنى أحمد ماهر فتركت الوفد وانضممت للحزب السعدى ـ كل من خرج عن الوفد كان مصيره سيئا ـ أعترف بأننى كرهت النظام الملكى ولم أكن أطيقه ـ لو سنحت الفرصة لسعد باشا لأعلن قيام الجمهورية ـ محمد فريد رشح سعد زغلول لرئاسة الحزب الوطنى ـ النحاس باشا برىء من قضيتى استغلال النفوذ وحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ حكاية الحرب بين سعد زغلول واليساريين ـ مشروعى الذى لم يتم لكتابة تاريخ مصر ـ ثورة ١٩ هى العصر الذهبى للأقباط ـ سعد زغلول زعيم خطير والنحاس شيخ طريقة ـ الوفد انتهى عام ١٩٣٦ ـ حريق القاهرة بدأ من «كازينو بديعة» ـ الذين جنوا ثمار ثورة ١٩١٩ هم أعداؤها ـ مفاجأة فى جنازة النحاس ـ الأحزاب السياسية الحالية فشلت فى تكوين قاعدة شعبية والمتطرفون نجحوا ـ لويس عوض ظلمنى فى «أوراق العمر» ولن أسامحه.

■ **فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن ذكرياته وآرائه فى ثورة ١٩١٩ وزعمائها خاصة سعد زغلول ومصطفى النحاس. حيث نتعرف على رؤيته الخاصة لمبادئ الوفد ودوره الوطنى، وأسرار الانشقاقات التى حدثت فيه. ويشرح نجيب محفوظ كيف ترك حزب الوفد وانتمى إلى الحزب السعدى لفترة قصيرة، كما يعلق على بعض الأحداث والقضايا التاريخية الهامة مثل أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ودور الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والشيوعيين فى تلك الفترة، وفى النهاية يرد على الدكتور لويس عوض والاتهامات التى وجهها إلى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة: «بين القصرين» و «السكرية» و «قصر الشوق».. ■**

نجيب محفوظ: أعتبر نفسى من براعم ثورة سنة ١٩١٩. فإذا كان للثورة رجالها الذين قادوها، وشبابها الذين اشتركوا فيها، فأنا من البراعم التى تفتحت وسط لهيب الثورة وفى سنوات اشتعالها، ولم يكن عمرى حين قامت ثورة ١٩ يزيد على سبع سنوات. وسن السابعة فى ذلك الوقت أصغر من مثيلتها الآن، حيث كان المجتمع مغلقًا ومحرومًا من وسائل الاتصال الحديثة مثل الإذاعة والتليفزيون، وكان جهاز الإعلام الحقيقى ينحصر فى الأسرة والجيران، وكنت أسمع عن أحداث الثورة وكأنها فيلم سينمائى.

كان حى الجمالية الذى نعيش فيه مركزًا للثورة والمظاهرات، وعندما رأيت المظاهرات لأول مرة فى ميدان «بيت القاضى» حسبتها «زفة فتوات». ومن خلال أحاديث والدى ووالدتى عرفت أن هناك صدامًا بين المصريين والإنجليز. حتى ذلك الوقت لم أكن رأيت الإنجليز رأى العين، بل لم أكن أعرف أن مصر محتلة. وبعد اندلاع المظاهرات رأيت عساكر الإنجليز لأول مرة فى ميدان «بيت القاضى» وهم يطلقون الرصاص على المتظاهرين، ورأيت الجثث على أرض الميدان، وكنت أشاهد هذه المعارك مع والدتى من خلال «شيش» الشباك. ومنذ ذلك الوقت اندمجت عاطفيًا مع الثورة والثوار، ساعد على ذلك الأجواء السائدة فى بيتنا. فقد كان الجميع متحمسين للثورة إلى الدرجة التى جعلت والدى يحضر للمنزل ذات يوم وفى يده عريضة الثورة، وهى عريضة التوكيل الشعبى لسعد زغلول حتى يكون نائبًا للأمة فى طلب الاستقلال، وقد وقع والدى على العريضة وطلب

من أمى أن تضع بصمتها عليها فلم تكن تعرف الكتابة، ونص هذه العريضة استعنت به فى رواية «بين القصرين» بعد ذلك.

منذ اندلاع شرارة الثورة ظللت أتابع أخبارها وتفاصيلها، خاصة أخبار قائدها سعد باشا زغلول، الذى عشقته. وعندما وصلت فى التعليم إلى الصف الأول الثانوى بدأت أشترى الصحف لأعرف أخبار سعد، وأقرأ تصريحاته وخطبه، وكنت أقرؤها بشغف وكأننى أقرأ عملاً فنيًا. وعندما مات سعد باشا زغلول يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ كان ذلك أسوأ يوم فى حياتى، فقد كان وجدانى مشتعلاً إلى آخره بحب هذا الزعيم.

تشبعت بأفكار سعد زغلول التى أوضحت أن الثورة قامت من أجل استقلال مصر، وأن «الوفد» قام من أجل تحقيق هذا الهدف، وأنه لن يهدأ لنا بال حتى يخرج الإنجليز من مصر، وأن «الوفد» هو أمل مصر لتحقيق هذا الهدف. وأصبحت هذه الأفكار فى وجدانى وكأنها تعاليم دينية، ولم أعد أتصور ـ وقتذاك ـ الدنيا من غير «الوفد»، واستمر ولائى للوفد حتى بعد رحيل سعد زغلول وتولى مصطفى النحاس لزعامة الوفد.

ورغم أننى لم أنضم إلى لجنة الطلبة أو أى من لجان الوفد إلا أننى اشتركت فى المظاهرات، وكنت كلما شاهدت مظاهرة أنضم إليها، وإذا ما انفضت المظاهرة أعود إلى حياتى الطبيعية. وقد اشتركت بعد ذلك فى المظاهرات ضد حكومة إسماعيل صدقى باشا عام ١٩٣٠ رغم أن الرصاص كان يحصد المتظاهرين من كل صوب. وقد كان هذه المرة رصاص قوات الأمن المصرية.

فرحت عندما أعلن الإنجليز إلغاء الحماية واعترفوا بمصر ملكية وراثية دستورية فى ١٥ مارس ١٩٢٢، واعتبرت أن الحكم الدستورى أصبح لا ينفصل عن قضية الاستقلال. فالدستور سيدفع حكومة الوفد إلى السلطة، وحكومة الوفد هى الأمل فى حصولنا على الاستقلال، وقلت إنها خطوة للأمام. وعندما وقع النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ قلت إننا نتقدم، وكنت جالسًا فى مقهى «الفيشاوى» عندما اعترف ملك إنجلترا ـ بعد معاهدة ١٩٣٦ ـ بمصر دولة مستقلة، ولا تتخيل مدى سعادتنا فى ذلك اليوم، رغم وجود تحفظات تعطى لانجلترا الحق فى بقاء قواتها فى منطقة القناة، وتلزم مصر بإقامة طرق وثكنات، حتى ينتقل الإنجليز من قصر النيل والعباسية إلى الاسماعيلية والسويس. كان الرأى العام الشعبى مؤيدًا للمعاهدة باستثناء حزب مصر الفتاة، والحزب الوطنى، والكاتب الكبير عباس محمود

العقاد. واكتشفت للأسف فى النهاية أن المستفيد الأول من معاهدة ١٩٣٦ هو الملك، لأن سلطاته زادت، كما أنه تمكن من إبعاد حزب الوفد ـ صاحب الأغلبية الشعبية ـ عن السلطة، وجاء بأحزاب الأقلية، ومع ذلك كان تدخل الملك فى الحكم سببًا قويًا فى نهاية الملكية وزوالها بعد ذلك، وبالتحديد بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

عندما تم وضع دستور ١٩٢٣ أيام الملك فؤاد كان سعد زغلول فى المنفى، ووضعته أحزاب الأقلية وليس جمعية وطنية، فاستطاع الملك أن يدس بنودًا فى الدستور تمكنه من توسيع سلطاته. ولما جاء الملك فاروق استغل تلك البنود فى إجهاض التجربة الديمقراطية وتزييف الحياة البرلمانية والحريات السياسية. ولو اقتنع الملك فؤاد بالنظام الموجود فى انجلترا الذى يجعل الملك يملك ولا يحكم، لكانت الملكية موجودة فى مصر حتى اليوم.

والحقيقة أن «الوفد» كان سببًا فى زوال الملكية من مصر بطريق غير مباشر، فقد كان من بين بنود معاهدة ١٩٣٦ التى وقعتها حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا، زيادة حجم الجيش، فدخل الكلية الحربية عناصر جديدة من أبناء الطبقة المتوسطة، وكان ضمن أول دفعة التحقت بالكلية بعد المعاهدة عدد كبير من الضباط الأحرار الذين خططوا للثورة ونفذوها[١]. أى أن حزب الوفد جاء بمن أنهى عهد الملكية وقضى على الحياة الحزبية التى كان «الوفد» فارسها الأول.

* * *

وعندما أسترجع تاريخ حزب الوفد القديم تستوقفنى نقطة هامة، وهى الانقسامات أو الانشقاقات التى حدثت فيه وأسبابها. فالوفد تشكل من الطبقة المصرية المستنيرة التى كان أساسها حزب الأمة، حزب الباشوات والأعيان. ولذلك كان أعضاء الوفد فى بداية تكوينه من غير الثوريين، باستثناء سعد باشا زغلول. كان الأعضاء من الحكماء والمثقفين الذين يمثلون عقل مصر، ولذلك كانت الثورة فى رأى بعضهم[٢] بمثابة فوضى، ولابد أن تخمد

---

(١) من هؤلاء الضباط جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين والسادات وغيرهم. وكان عبدالناصر قد التحق بكلية الحقوق، وبعد معاهدة ١٩٣٦، وزيادة حجم الجيش، ترك «الحقوق» والتحق بالكلية الحربية. «ر. ن»

(٢) منهم عدلى يكن باشا، ولطفى السيد باشا، وعبدالخالق ثروت باشا، وغيرهم من «باشوات» ذلك العصر. «ر. ن»

هذه الفوضى حتى يمكن التفاهم مع الإنجليز. ومن هنا ظهر أول انشقاق فى الوفد بين فريق سعد زغلول وفريق عدلى يكن. الأول يرى أن الطريق الوحيد للخلاص هو الثورة، والثانى يرى أن الثورة والمظاهرات كلام فارغ، ومن الممكن أن نأخذ حقوقنا من خلال المفاوضات مع الإنجليز وليس هناك طريق آخر، وخرج هؤلاء عن الوفد وكونوا حزب الأحرار الدستوريين. وأذكر عندما كنت أعمل فى وزارة الأوقاف أن حضر ضيف مهم لمقابلة وزير الأوقاف. ولما عرف الضيف اسمى اعتقد أننى من عائلة محفوظ المعروفة فى صعيد مصر بولائها لحزب الأحرار الدستوريين، وكان الضيف المهم من مؤيدى الحزب. وقد تركته على «عماه» لأننى لم أكن أحب أن أناقش السياسة فى الوظيفة. كانت حركة ١٩٤٦ على أشدها فى ذلك الوقت، فقال وكأنه يعلن أمامى عن ولائه لأفكار الدستوريين مجاملة لى: إنهم يريدون إخراج الإنجليز من مصر، فإذا تم ذلك فسنخرج من الوزارة بعدهم فى اليوم التالى مباشرة! والمنصف لا يستطيع أن ينفى عن «الأحرار الدستوريين» صفة الوطنية، فقد كانوا يريدون مصلحة مصر ولا شك، ولكن من وجهة نظرهم القائمة على أساس أن العنف لا يفيد، بدليل ثورة أحمد عرابى، وهى وجهة نظر فيها شىء من الصواب.

أما الانشقاق الثانى الذى حدث للوفد سنة ١٩٣٢ وأطلقوا عليه حركة «السبعة ونص»[1]، فقد قاده سلامة ميخائيل ونجيب الغرابلى، وأظن أن أسبابه مماثلة لانفصال عدلى يكن، لأن عقلية هؤلاء كانت أقرب للأحرار الدستوريين وأفكارهم، لأنهم رفضوا خط التهييج والاندفاع والخطب الحماسية والتطرف الذى قاده النحاس، خاصة أن النحاس جاء لزعامة الوفد بتأييد ثلاثة متطرفين معروفين هم: مكرم عبيد والنقراشى وأحمد ماهر.

ولكن الانشقاق الوحيد المؤسف فى تاريخ الوفد هو خروج أحمد ماهر والنقراشى

---

(١) كان السبعة الذين خرجوا من الوفد سنة ١٩٣٢ هم: حمد الباسل ومراد الشريعى وعلوى الجزار وفخرى عبدالنور وعطا عفيفى وراغب اسكندر وسلامة ميخائيل. يضاف إلى هؤلاء السبعة نجيب الغرابلى، وكان قصيرًا، فاعتبره الوفديون من باب السخرية مجرد «نص»، واشتهرت هذه المجموعة لذلك باسم حزب «السبعة ونص»، أما أسباب الخلاف فيمكن التعرف عليها بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب الرافعى «فى أعقاب الثورة المصرية»، الطبعة الثالثة صفحة ١٨٥ وما بعدها. وخلاصة هذا الخلاف أن النحاس كان يرفض اشتراك الوفد فى وزارة ائتلافية يشترك فيها مع غيره من الأحزاب، لأنه جرب الائتلاف قبل ذلك سنة ١٩٢٨ ولم ينجح، أما المنشقون على الوفد فكانوا يطالبون بالائتلاف ويؤيدونه. «ر. ن»

وتكوين حزب السعديين. وذلك لأن الاثنين، بالإضافة إلى إبراهيم عبدالهادى الذى كان زعيمًا للطلبة فى ثورة ١٩١٩، كانوا رموزًا للنقاء السياسى. ومن فرط حبى لماهر والنقراشى انضممت للسعديين وتركت الوفد، واعتبرت أن الحزب الجديد هو الممثل الحقيقى للوفد وأنه يسير على مبادئ سعد زغلول.

تعددت التفسيرات والاجتهادات فى أسباب هذا الانقسام، فقيل إنه بسبب المنافسة بين ماهر والنقراشى من جانب وبين مكرم عبيد من جانب آخر، وقيل إنه بسبب «عدم نزاهة الحكم» و «الفساد» اللذين طرآ على الوفد، فقد صمت النحاس باشا عما فعله بعض أعضاء الوفد البارزين مثل عثمان محرم وغيره من الذين قبلوا هدايا ورشاوى، كما قيل إن هذا الانشقاق كان تعبيرًا عن صراع اجتماعى بين طبقات ومصالح مختلفة داخل الوفد، وحتى الآن لم أستوعب الأسباب الحقيقية لهذا الانقسام الخطير فى صفوف الوفد.

* * *

تحمست فى البداية للسعديين، ولكن الحماس بدأ يضعف ويفتر عندما اكتشفت خضوعهم التام للملك، وأنهم لم يحافظوا على مبادئ الوفد القديمة. وعندما أعود الآن لهذه الأحداث أرى أن ماهر والنقراشى قد أخطآ، وكان من الواجب أن يبقى خلافهما مع النحاس محصورًا داخل الحزب، وكان ينبغى لهما أن يدركا ببعد بصيرتهما أن المستفيد الأول من انشقاق الوفد هو الملك والإنجليز، وكان يجب ألا تأخذهما العزة بالإثم ويشقا صفوف الحزب فى تلك الظروف. ومن عجائب التاريخ أن أحمد ماهر مات قتيلا وكذلك النقراشى[1]، ثم حكم بالإعدام سنة ١٩٥٣ على إبراهيم عبدالهادى بعد قيام الثورة، وتم تخفيف الحكم إلى المؤبد، ثم أفرج عنه صحيًا بعد سنة. وهكذا كان مصير كل من خرج على الوفد سيئا.

والأمر الذى لا شك فيه أن الملك ورجاله تدخلوا فى الخلافات التى حدثت داخل حزب الوفد وعمقوها، وظهر ذلك بشكل واضح فى خروج مكرم عبيد سنة ١٩٤٢ وتكوين حزب «الكتلة الوفدية» بزعامته. وربما كان من أسباب انفصال ماهر والنقراشى أن رجال

---

(١) كان مقتل أحمد ماهر فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وكان رئيسًا للوزراء، أما القاتل فهو محام شاب اسمه محمود العيسوى. وكان مقتل النقراشى فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وكان النقراشى رئيسًا للوزراء أيضًا، أما القاتل فهو طالب بكلية الطب البيطرى اسمه عبدالمجيد أحمد حسن. «ر. ن»

الملك وعدوهما برئاسة الحكومة، وهو ما حدث بالفعل، ولم يكن ذلك حبًا من الملك فيهما، بقدر ما هو كراهية فى النحاس. فكما هو ثابت كان النحاس يتمتع بجرأة وشجاعة، كان الملك يعتبرها «قلة أدب». ولذلك كان يكره النحاس الذى كان يضايقه إذا حدث خلاف بينهما فيقول للملك:«أنت زى ابنى»!.. أى أنك مازلت صغيرًا ولا تعرف شيئًا، وبحاجة لمن هو فى عمر والدك لكى يشرح لك الأمور. كان النحاس يهدد الملك ويحذره من أى خرق للدستور، ويؤكد له دائمًا أن بقاء عرشه مرتبط بالحفاظ على الدستور. لكل ذلك كان الملك يكره النحاس ولا يطيقه، ولكنه اضطر للتعامل معه عندما ظهرت القوى الجديدة مثل الماركسيين ومصر الفتاة والإخوان المسلمين، الذين هددوا نظام الحكم القائم. وكان الحل الوحيد أمام الملك هو اللجوء للوفد صاحب الشعبية الكبيرة ليسيطر على الأمور ويخلصه من تهديد هذه القوى الجديدة. وهذا هو السبب الحقيقى لعودة الوفد إلى الحكم للمرة الأخيرة فى سنة ١٩٥٠.

ولو استمرت حكومة الوفد فى السلطة خمس سنوات ـ كما كان مقررًا ـ لتغير تاريخ مصر، لأن القضية الوطنية كانت على وشك الانتهاء بالحصول على الاستقلال، وبدأت حركة الإصلاح الاجتماعى تؤتى ثمارها، وبدأ الناس فى التجاوب معها، وكانت التجربة الديمقراطية تسير فى طريقها، وكان من المحتمل ـ فى الانتخابات التالية ـ أن تدخل قوى جديدة إلى الساحة، وتسحب الأغلبية من الوفد، ولكن تدخل الملك وتزييف الحياة الديمقراطية عجل بنهاية الملكية.

* * *

لابد أن أعترف أننى لم أكن مخلصًا للنظام الملكى ولم أكن أطيقه، حتى أننى عندما كتبت رواياتى الأولى، خاصة «عبث الأقدار» و «رادوبيس»، تطورت الأحداث فى الروايتين للتعبير عن هذا الرأى وتأكيده. كان ضمن أحداث الروايتين ملكان يخونان شعبيهما، فيكون مصيرهما العزل، ونحن كأبناء لثورة ١٩١٩ وحزب الوفد، تربينا على كراهية النظام الملكى. ورغم أن الوفد لم يناد بالنظام الجمهورى، لأن الظروف لم تكن تسمح بذلك، فإنه لو كانت الظروف مواتية وأتيحت الفرصة لسعد زغلول، لأعلن إلغاء النظام الملكى. وأظن أن النحاس تكلم مع اللورد كيلرن بصراحة عام ١٩٤٢ فى خلع الملك، وقد كان الإنجليز أنفسهم لديهم نوايا لعزله.

هناك عدة نقاط أحب أن أقف عندها فى تلك الأحداث:

الأولى تتعلق بما ردده البعض عن مهادنة النحاس للملك عام ١٩٥٠ التى بلغت حد الإذلال بتقبيل النحاس يد الملك. والحقيقة أن النحاس عندما تولى رئاسة الحكومة فى ذلك العام بعد ست سنوات طويلة بعيدًا عن الحكم، نصحه بعض أصدقائه بأن يفرق بين التفريط فى حقوق الشعب، وإعطاء الملك حقه من الاحترام. وأشار عليه هؤلاء أن يقيم علاقة طيبة مع الملك لأن ذلك فى مصلحة الشعب، واعتبر البعض تلك العلاقة الطيبة مهادنة ومذلة. وأظن أن الذى روج لهذا الرأى هو حسين سرى، وذلك بهدف التشهير بالنحاس. والدليل على أن النحاس لم يهادن الملك لدرجة الإذلال لنفسه ـ كما قالوا ـ أنه اصطدم بالملك عندما اعترض على تعيين الدكتور طه حسين وزيرًا للمعارف، وتمسك النحاس بطه حسين وهدد بعدم تشكيل الحكومة إذا استمر الملك فى رفضه، وبالفعل نزل الملك على رغبة النحاس ورضخ لتصميمه وتولى الدكتور طه حسين وزارة المعارف.

النقطة الثانية هى أن أفكار مصطفى كامل ومحمد فريد التى قام على أساسها الحزب الوطنى القديم، هى التى مهدت لثورة ١٩١٩، فخُطب مصطفى كامل ومسرحياته وشعاراته مثل «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» ومبادئه التى سار عليها محمد فريد كانت هى وقود الثورة. استطاع مصطفى كامل تربية جيل من الشباب، هذه التربية استفاد منها حزب الوفد واستثمرها فى الوقت المناسب، وذلك رغم العداء الذى كان قائمًا بين مصطفى كامل ومحمد فريد من ناحية، وسعد زغلول من ناحية أخرى، ولكن المصلحة الوطنية كانت ترتفع بهم فوق هذه النزاعات الشخصية، وهكذا تكون أخلاق الزعماء. فعندما ذهب مصطفى كامل إلى إنجلترا سألهم: لماذا تتعاملون مع الأتراك بشأن المسألة المصرية؟ أليست مصر دولة؟. فكان ردهم أن مصر ليس فيها من هو أهل للحكم!. فرد مصطفى كامل وذكر لهم اثنين من الزعماء الوطنيين هما محمد فريد وسعد زغلول، وذلك رغم الخلاف الشديد الذى كان قائمًا بين مصطفى كامل وسعد زغلول فى ذلك الوقت. كما أن محمد فريد رشح سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب الوطنى قبل الثورة، فعندما هرب محمد فريد إلى أوروبا أرسل له أنصاره يشكون من تفتت الحزب وتراجعه ومطاردات البوليس لأعضائه. فكان من بين اقتراحاته لحل مشاكل الحزب ـ التى بعث بها إلى أنصاره فى مصر ـ أن يفاوضوا سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب، علمًا بأن محمد فريد فى قرارة نفسه كان يكره سعد زغلول، ويعارض الكثير من أفكاره وآرائه، وقد أشار فريد إلى ذلك صراحة فى مذكراته. وربما لو أن محمد فريد كان موجودًا فى مصر لا فى المنفى وقت اندلاع ثورة ١٩١٩، لكان هناك احتمال كبير أن يكون من قادتها أو أن يكون هو الزعيم الذى يذهب نيابة عن الشعب إلى دار المندوب السامى البريطانى، حيث كان مؤهلاً لذلك ولا تنقصه الوطنية أو الشجاعة.

والنقطة الثالثة تتعلق بما قيل عن موقف سعد زغلول من اليساريين وعدائه للنقابات العمالية، ومحاربته للحزب الاشتراكى الذى أسسه سلامة موسى ومحمد عبدالله عنان. والذى أعرفه أن سعد زغلول لم يحارب نقابات العمال، ولا يمكن أن يقوم بحلها لأنه اعتمد عليها فى تدعيم موقفه. ولكن الثابت هو محاربته لليساريين خوفًا من استغلال أى تأييد منه لهم فى تشويه الثورة، لأن الشيوعية فى تلك الأيام كانت سيئة السمعة حتى فى انجلترا نفسها، وكان أنصار الاشتراكية الفابية الإنجليز يعانون من الاضطهاد. لقد كان سعد زغلول محقًا فى موقفه من اليساريين لأنه خشى أن توصم الثورة بالشيوعية، خاصة بعد نجاح الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧، فيجد عقبات كثيرة أمامه يمكن أن تعوق الهدف الأسمى الذى يسعى إليه وهو الاستقلال.

كما أن عدم وقوف سعد زغلول ضد الشيوعية كان يمكن أن يتسبب فى انهيار الوفد، لأن الوفد قائم على التجمع الوطنى، وعدد كبير من قياداته كانوا من الإقطاعيين الذين تعتبرهم الشيوعية عدوها الأول. فإذا شعر هؤلاء بأن سعد زغلول يميل إلى الشيوعية التى تقوم على مبادئ المصادرة والتأميم، كان لابد أن تختلف مواقفهم من الوفد، بل إنهم ما كانوا ليتورعوا عن الاتصال بالإنجليز ليطلبوا منهم الحماية. ومن الأسباب الأخرى لوقوف سعد زغلول ضد اليساريين والشيوعيين أن مؤسسى الحزب الشيوعى كان معظمهم من اليهود من أمثال «هنرى كورييل» الذى اتضح فيما بعد أنه كان جاسوسًا للإنجليز، وليس من المستبعد أن يكون تأسيسه للحزب قد تم بالاتفاق مع الإنجليز. كانت مبادئ هذا الحزب تتعارض مع أفكار ومبادئ الشعب المصرى فى ذلك الوقت، وكانت دعوتهم للأممية مثلاً ولإلغاء الملكية الفردية، غريبة على فكر المجتمع المصرى ومن الصعب أن يقبلها.

نقطة رابعة أحب أن أقف عندها، وهى الرد على الانتقادات التى وجهها لى النقاد اليساريون حول «الثلاثية»، فقد ذهبوا إلى أننى أبرزت دور الموظفين والطلبة والتجار وأهل المدن فى أحداث ثورة ١٩١٩، فى حين أغفلت دور العمال والفلاحين. هؤلاء النقاد نسوا شيئًا مهمًا وهو أننى لست مؤرخًا، و«الثلاثية» ليست كتاب تاريخ عن أحداث ثورة ١٩١٩. وكان من واجبهم أن ينظروا إليها على أنها عمل فنى روائى، بطلها تاجر صغير وأحداثها تدور فى المدينة، ولو أننى نقلت الأحداث إلى الريف كى أبرز دور الفلاحين، لكان قد حدث خطأ فنى فى تسلسل الأحداث، ولخرجت الرواية عن الهدف الذى قصدته من كتابتها. لقد فكرت فى بداية حياتى أن أكتب تاريخ مصر، ووضعت فكرة مشروع يتكون من ثلاثين إلى أربعين عملاً تتناول كل فترات التاريخ المصرى، ولكننى انصرفت عن هذا المشروع بعد أن

كتبت رواية «كفاح طيبة». ومن أسباب انصرافى عنه عدم معرفتى بحياة الريف والعمال، فقد وجدت أن الموضوع يحتاج إلى بحث طويل ودراسة متعمقة لبيئات لم أختلط بها، فانصرفت عنه. وكان من ضمن أجزاء المشروع جزء عن ثورة ١٩١٩ باعتبارها الثورة الشعبية الثانية فى تاريخ مصر بعد ثورة «أبنوم» زمن الحكم الفرعونى. صحيح أنه حدثت انتفاضات وثورات أيام حكم الرومان والعرب، ولكنها كانت مجرد مظاهرات تقوم وتخمد، أشبه بما جرى عامى ١٩٣٥ و ١٩٤٦، حتى الثورة العرابية لم تكن شعبية فى أساسها لأن الجيش هو الذى قام بها، لقد أيدها الشعب ووقف بجانبها لأنها عبرت عن أمانيه، ولكنها فى النهاية ثورة عسكرية. أما ثورة ١٩١٩ فكانت ثورة شعبية امتدت للريف والأقاليم. وكانت هذه الثورة مفاجئة حتى لسعد زغلول نفسه، لأنه عندما نفى من مصر كان يظن أن مصيره سيكون مثل مصير محمد فريد، وأنه لن يرى مصر مرة أخرى. لقد اندهش محمد فريد نفسه عندما علم بخبر ثورة الشعب، كما لم يتوقع الإنجليز ثورة شعبية بهذه الحدة، وظن المندوب السامى البريطانى أنها مجرد حالة من الغضب المؤقت يستطيع «إذا ما بصق عليها إخمادها فورًا» ـ على حد تعبيره ـ ولكنه ذهل من اشتعال الثورة فى كل مكان على أرض مصر.

النقطة الخامسة تتصل بشخصية سعد زغلول والاتهامات التى وجهت إليه، ومنها اتهامه بالاستبداد كزعيم، وأنه لا يطيق النقد أو المعارضة ممن هم حوله. هذه الانتقادات روج لها الكثيرون ومنهم المؤرخ عبدالرحمن الرافعى، أحد أقطاب الحزب الوطنى المعروف بعدائه للوفد، ومنهم أيضًا الدكتور محمد حسين هيكل آخر رئيس لحزب الأحرار الدستوريين، وذلك فى كتابه «مذكرات فى السياسة المصرية».

وفى رأيى أن استبداد سعد زغلول كان مبررًا فى الفترة الأولى من الثورة، لأن الظروف كانت تحتمه. ففى ظل ثورة شعبية جارفة حمل فيها كل مصرى روحه على كفه، لم يكن هناك مجال لكثرة الجدل والاختلاف فى الرأى، ولكن هذا لا يمنع أنه فى فترة لاحقة كان سعد زغلول أكثر ديمقراطية وقبولاً للحوار والرأى الآخر، وخاصة عندما أصبح رئيسًا لمجلس النواب، فذات مرة عارضه أحمد ماهر عضو المجلس، وماهر من تلاميذ سعد وما إن انتهت الجلسة حتى ذهب سعد إلى مكتبه واستدعى أحمد ماهر الذى دخل المكتب وهو يرتجف، ولكنه فوجئ بأن سعد ينهض ويحتضنه ويقول له:«هكذا تكون المعارضة»!.

فى تلك المرحلة من حياته أصبح سعد زغلول واسع الصدر، حتى أن البعض اقترح فصل عباس محمود العقاد من حزب الوفد بسبب نقده لبعض مواقف سعد زغلول، فقال لهم

سعد بالحرف الواحد: «سيبوه يقول اللى هو عايزه»، وكان يسميه «الكاتب الجبار». ومن دلائل ديمقراطية سعد أنه أغلق مسألة التعصب الدينى بين المسلمين والأقباط، لدرجة أن الناخبين قد يصوتون لصالح مرشح قبطى فى دائرة كلها من المسلمين، كما كانت اللجنة العليا للوفد تضم عددًا كبيرًا من الأقباط بعد خروج عدلى وصدقى ومحمد محمود، وأظن أن اللجنة أصبحت تضم ثلاثة أقباط من مجموع خمسة هم كل أعضائها. وبذلك استطاع سعد زغلول أن يقضى على مسألة التعصب الدينى من جذورها، وسار النحاس على هذا المبدأ، حيث كانت الكفاءة والوطنية هما الفيصل عنده فى الحكم على الناس وليس الدين. لذلك يشعر الأقباط المصريون بالحنين إلى هذا العصر، إذ يعتبرونه العصر الذهبى لهم.

* * *

بعد أن هدأت الثورة واستقرت الأمور أكاد أقول إن ديمقراطية سعد زغلول وصلت إلى درجة الليونة. لأنه أراد أن يجمع الناس حوله ويشكل نوعًا من الائتلاف الوطنى، حتى إن أم المصريين السيدة صفية زغلول تركت بيت الأمة وذهبت للإقامة فى بيت حمد الباسل كنوع من الاحتجاج على سعد زغلول عندما وجدته يجتمع مع المنشقين عليه مثل عدلى وثروت فى بيتها. وكان سعد زغلول يرى أن ثروت أكثر قدرة على التفاهم مع الإنجليز، ولو عاش سعد شهورًا أخرى فأعتقد أنه كان سيترك موضوع المفاوضات لثروت الذى كان يتمتع بالذكاء. فعندما يتفاوض مع الإنجليز يلعب معهم لعبة صغيرة، فيخبرهم باستعداده لقبول شيء ولكن سعد زغلول ـ كما يقول لهم ـ لن يقبل، فيحصل منهم على مكاسب تفاوضية، إذ يخففون من شروطهم وطلباتهم.

الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن سعد زغلول كان زعيمًا بمعنى الكلمة، وكان يمتلك شخصية متعددة الجوانب. فهو مثقف وأديب ومحام كبير وقانونى وسياسى وخبير وصاحب عقلية جبارة. وإذا قارناه بالنحاس، نجد أن النحاس كان أقل فى مجموع مواهبه من سعد زغلول، ولكنه كان فى غاية النقاء والصفاء والوطنية والطيبة ونظافة اليد، وهو شديد الإخلاص لسعد زغلول، وهو مؤمن بمبادئه مثل إيمان السالكين فى الطرق الصوفية بشيوخهم. ورغم ولاء النحاس الشديد لسعد زغلول، فإنه كان أصلب منه وأشجع وأكثر جرأة عندما يتعلق الأمر بالوطنية.

الكلام عن نظافة يد النحاس ووطنيته يجرنا للحديث عن موضوع هام أثير فى عهده،

وهو نزاهة الحكم، وقضية «الكتاب الأسود» التى أثارها مكرم عبيد فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان. كان النحاس فى تلك الظروف أشبه بزهرة فى مستنقع، حيث دخل الوفد أناس انتفعوا به واستغلوا طيبة النحاس، فاستغل أعداء الوفد من جانبهم أخبار الفساد أو ما اعتبروه فسادًا. وإذا ما قرأت الآن عن «هذا الفساد» فإنك سوف تضحك. فمن بين صور الفساد التى أخذوها على النحاس والوفد أن موظفًا تم نقله من محافظة قنا فى غير الوقت المحدد لنقله، وأن موظفًا آخر زاد راتبه بمقدار جنيهين ونصف الجنيه بدون وجه حق. كانت دوافع هذه المعركة حزبية أكثر منها شخصية، وتم فيها التحامل على النحاس. كان النحاس فى غاية الطيبة ولا يجيد التصرف فى المسائل المالية، بدليل أن عائلة النحاس نفسها كانت تلجأ إلى مكرم عبيد لقضاء مصالحها، لأنهم كانوا يعرفون مدى رفض النحاس لهذه الأشياء. وكما ظلموا النحاس فى قضية نزاهة الحكم، فإنهم عادوا وظلموه فى قضية حادث ٤ فبراير ١٩٤٢. كنت عضوًا فى الحزب السعدى فى تلك الفترة، كما كنت قد اكتشفت الخدعة التى وقعت فيها، وأصبح عندى استعداد للعودة مرة أخرى إلى حزب الوفد. عندما نتتبع القضية الآن من خلال مذكرات اللورد كيلرن فى الوثائق البريطانية التى أفرج عنها بعد ثلاثين سنة، يتضح أن النحاس برىء تمامًا، وأنه لم يأت إلى الحكم على أسنة الرماح كما اتهمه أيامها أحمد ماهر وأنصاره.

الذى حدث بالضبط أنه وسط معارك الحرب العالمية الثانية ذهب اللورد كيلرن لمقابلة الملك فاروق وأخبره بأن مصر ستكون ميدانًا للحرب، وأن الإيطاليين بعد أن انضموا إلى هتلر سوف يزحفون على مصر، وطلب كيلرن من الملك ضرورة أن يكون هناك استقرار سياسى فى مصر، وأن تتولى أمور البلاد حكومة وطنية يؤيدها الشعب. وكان رد الملك فاروق هو أننا «بيننا وبينكم معاهدة، ونحن مخلصون لها إخلاص النحاس والوفد، وليس عندكم ما تشكون منه». كرر الإنجليز طلبهم، وزاد قلقهم رغم تولى حسن صبرى باشا[1]، أحد أصدقائهم المعروفين فى مصر، رئاسة الوزارة. وعندما حققت جيوش المحور

---

(١) تولى حسن صبرى باشا رئاسة الوزارة فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ وتوفى بعد أربعة شهور ونصف الشهر، وكان ذلك فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠، فقد فاجأته أزمة قلبية وهو يلقى خطاب العرش فى ذلك اليوم، فمات أثناء إلقاء الخطاب فى البرلمان المصرى. وكان حسن صبرى أحد ثلاثة سياسيين معروفين بصداقتهم القوية مع الإنجليز فى ذلك الوقت، وهم بالإضافة إليه: حسين سرى وحافظ عفيفى.

«ر. ن»

انتصاراتها الكبيرة فى شمال إفريقيا، واقتربت من مصر، أصيب الإنجليز بحالة هيستيرية. وجاء الأمر من لندن إلى «اللورد كيلرن» بأن له مطلق التصرف فى مصر لحماية ظهر الجيوش البريطانية، ولو اقتضى الأمر خلع الملك وتغيير النظام وتعيين حاكم إنجليزى إذا لم يجد من يتعاون معه من الزعماء المصريين. ووجه «اللورد كيلرن» إنذار ٤ فبراير ١٩٤٢ إلى الملك بضرورة تولى النحاس رئاسة الحكومة، ولم يكن النحاس على علم بهذه الترتيبات. والذى حدث أن أمين عثمان أقنع «اللورد كيلرن» بأن النحاس لا يمكن أن يتولى الوزارة بأوامر من الإنجليز، ولابد من وضعه أمام الأمر الواقع. ويبدو أن «اللورد كيلرن» تلقى هذه النصيحة عندما طلب من أمين عثمان جس نبض النحاس، فنبهه أمين عثمان إلى أنه إذا شم النحاس رائحة مؤامرة فإن المسألة كلها ستتعرض للفشل، وأن من الأفضل أن يشعر النحاس بأنه ينقذ مصر بقبوله تولى الوزارة. ولما وجه الإنجليز إنذارهم، جمع الملك النحاس وصدقى وزيور وعددًا آخر من كبار السياسيين، منهم على ماهر ومحمد حسين هيكل وحسين سرى وغيرهم، وأكد الجميع أن الإنذار جدى، وليس اختبارًا للنوايا أو القوى، أما النحاس فقد سأل الملك: هل أنت مستعد لرفض هذا الإنذار؟ فأجاب الملك بأنه مستعد ولو كلفه الأمر العرش. وأجمع الزعماء على رأى واحد هو رفض الإنذار البريطانى، ووقعوا على ذلك واعتبروه موقفًا وطنيًا عظيمًا من الملك فاروق.

بعد أن انصرف النحاس من الاجتماع وهو مستعد لأى مصير حتى لو كان النفى أو الإعدام، فوجئ بالملك فاروق يستدعيه ويتراجع عن موقفه ويكلفه بتشكيل الوزارة، إذ بعد انتهاء الاجتماع نصحه رئيس الديوان أحمد حسنين بقبول الإنذار. كان أحمد حسنين يعرف أن الإنجليز جادون فى تهديدهم، ودليل ذلك أنهم حاصروا القصر الملكى، واعتدوا على الياور الخاص للملك ـ وكان رجلاً سودانيًا ـ عندما حاول منعهم من دخول القصر، أصيب الياور برصاصة فى يده. ولما شاهد الملك فاروق الدبابات الإنجليزية تقف فى الخارج، وقائد الجيش البريطانى يقف أمامه فى داخل القصر قبل الأمر الواقع، وكلف النحاس بتشكيل الوزارة.

فى البداية رفض النحاس الأمر وطالب بإجراء انتخابات، ولكن بعض المقربين منه نصحوه بأن يصدر بيانًا إلى الأمة يعلن فيه أنه قبل الوزارة إنقاذًا للوطن، ذلك أن البيان سيبرئ ساحته، ولكن النحاس رفض إصدار البيان، وقبل تشكيل الوزارة، فما كان إلا أن اتهمه معارضوه بالخيانة، وبأنه جاء إلى الحكم على حراب الإنجليز. والمسألة ليست

كذلك، لأن النحاس ضحى بنفسه وكاد يتعرض للاغتيال بسبب موقفه، إذ جرت محاولة لاغتياله من تدبير الملك وعن طريق الحرس الحديدى الخاضع له. لقد قرأت مقالاً بعد ذلك بسنوات طويلة لأحمد حمروش يتضمن اعترافًا من ضابط زميل له بأنه فكر فى اغتيال النحاس بعد ٤ فبراير ١٩٤٢.

* * *

فى اعتقادى أن حزب الوفد انتهى عام ١٩٣٦. لماذا؟! لأن الوفد قام من أجل تحقيق هدف واحد هو الاستقلال، فأصبح مثل المحامى تنتهى مهمته بانتهاء القضية الموكلة إليه، سواء كسبها أو خسرها أو توصل فيها إلى حل وسط بين الخصوم، والوفد انتهت مهمته عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة. وقبل هذا التاريخ كان اسم الوفد مقدسًا، وفى اجتماعات الأحزاب المعارضة كان يمنع الهتاف ضد الوفد والنحاس، وكانت الجماهير مع الوفد باليد واللسان والقلب. أما بعد المعاهدة فقد اختلف الأمر وتغير الوضع وأصبحت الجماهير مع الوفد بالقلب فقط. صحيح أن المهمة الرئيسية للوفد انتهت، ولكن بسبب تدخل الملك فى الحياة السياسية وتزويره للديمقراطية، ظهرت له مهمة أخرى، وهى الدفاع عن الدستور. وعندما وصل الوفد إلى عام ١٩٥٢ أصبح شبيها بسيدنا سليمان الذى مات وهو متكئ على عصاه، والشياطين من حوله يحسبون أنه فى حالة نوم، فظلت الشياطين مستمرة فى عملها لأنها تخشى سليمان وتخاف سطوته وبأسه ـ حتى فى أثناء نومه ـ فجاءت «حشرة» وأكلت عصاه فسقط على الأرض، عندها اتضح لها أنه مات منذ زمن.

رغم ارتفاع شعبية الوفد سنة ١٩٥١ بعدما ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦، فإن الحزب نفسه كان قد وصل إلى مرحلة الشيخوخة. وكان السبب الرئيسى ـ فى رأيى ـ الذى جعل النحاس يلغى المعاهدة هو أنه أراد أن يختتم حياته السياسية بعمل وطنى كبير، خاصة أن الشعب كله كان قد ضاق بالاحتلال، وخرجت مظاهرات حاشدة فى القاهرة والإسكندرية تطالب بالجلاء التام نظير الخدمات الكبيرة التى قدمتها مصر إلى انجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد كان من الواجب بعد هذه الخدمات أن تكون مكافأة مصر الاستقلال الفورى.

جرت مفاوضات كثيرة بين الطرفين، ولكنها انتهت جميعًا بالفشل، حتى أعلن النحاس إلغاء المعاهدة من طرف واحد. وأصبح الوضع حرجًا للغاية، خاصة بعد خروج المظاهرات

المؤيدة لإلغاء المعاهدة، وكان النحاس على رأس هذه المظاهرات. وكنت من بين الذين شاهدوا المظاهرات وساروا فيها، وانتهز الشعب الفرصة وبدأ يهاجم القوات الإنجليزية فى القنال، فتحول الأمر إلى حرب رسمية بين دولة قوية وأخرى ضعيفة. وأنا أسميها حربًا لأن المقاومة الشعبية التى نشطت بقوة، كانت تجد التأييد والدعم من الحكومة. وقيل أيامها كلام لا أعرف مدى صحته، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية نصحت تشرشل بالانسحاب من مصر.

إن موقف النحاس من إلغاء المعاهدة ثم تشجيعه للفدائيين يعتبر جهادًا وطنيًا بلا شك، وفى محكمة الثورة التى أنشئت فى سبتمبر ١٩٥٣، والتى كان يرأسها عبداللطيف البغدادى، أدين النحاس لأنه «قاوم الإنجليز وشجع على حرب القنال دون استعداد كاف». ما هذا الاستعداد الذى كان يريده البغدادى أمام ٩٠ ألف جندى إنجليزى بدباباتهم وقت أن كانت انجلترا هى أكبر وأقوى دولة فى العالم؟!.

* * *

كان النحاس فى جانب الصواب عندما طالب الإنجليز بالجلاء عن مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لأنه قدم خدمات جليلة لهم، والتزم بنصوص المعاهدة طوال سنوات الحرب، وكان صادقًا فى تأييده للحلفاء، لأنه يعرف أن انتصار دول المحور يعنى نهاية حزب الوفد والحكم الدستورى والنظام الديمقراطى فى مصر. فالحاكم الجديد ـ لو قدر لألمانيا وإيطاليا احتلال مصر ـ كان سيتعاون مع الملك فى إقامة نظام فاشستى. وهذا يثبت أصالة الفكرة الدستورية والإيمان بالديمقراطية عند الوفديين، ولكن الإنجليز لم يقدروا للنحاس فضله عليهم وأداروا له ظهرهم عندما شعروا أن الحرب على وشك الانتهاء لصالحهم. لقد أدلى النحاس بحديث لمجلة «المصور» عام ١٩٤٤ قال فيه: «جاء الوقت لمحاسبة الأصدقاء»، وكان يقصد أن ترد انجلترا الجميل وتعطى مصر حريتها. والحقيقة أن الروح الانتهازية التى قامت عليها السياسة الإنجليزية الاستعمارية أضرت بريطانيا، وكانت سببا فى خروجها من المنطقة وفقدانها لمستعمراتها الشاسعة. وأعتقد أن الإنجليز شاركوا فى تدبير حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ للتخلص من النحاس. فى ذلك الوقت كنت موظفًا فى وزارة الأوقاف وأسكن فى العباسية، ولم أكن قد تزوجت بعد، وعندما ذهبت فى صباح ذلك اليوم إلى مقر عملى شاهدت المظاهرات، وعند خروجى من العمل فى طريقى للمنزل رأيت الحرائق تعم القاهرة. اندلعت الحرائق بشكل بدائى، أما

أول حريق فقد وقع فى كازينو بديعة. حيث كان أحد الضباط يجلس مع راقصة، يتناولان الشراب، وجرت مشاجرة انتهت بحرق الكازينو. واستغل الإنجليز حالة الفوضى وساعدوا جمعية «إخوان الحرية»[1] على نشر المزيد من الفوضى والحرائق، وأمدوهم بمواد أحرقوا بها محلات شيكوريل. واشترك فى الحرائق أعداء الوفد خاصة الإخوان والماركسيين وحزب مصر الفتاة. فأثر الإخوان المسلمين ظاهر فى حرائق ملاهى شارع الهرم، وأثر مصر الفتاة ظاهر فى حرائق المحلات الأجنبية، لأن أحمد حسين كان ينادى بمقاطعتها. وأستبعد أن يكون للملك فاروق يد فى حريق القاهرة لأنه هو نفسه كان معرضًا للحرق، وأظنه هرب فى ذلك النهار الملتهب.

لا شك أن ثورة ١٩١٩ كان لها تأثير هائل فى تاريخ مصر المعاصر، ولها إنجازات ونتائج ضخمة على كل المستويات: ألغت الامتيازات الأجنبية، أقامت حكمًا ديمقراطيًا ودافعت عنه بقدر ما تستطيع، أوجدت رأسمالية وطنية، وموسيقى مصرية، وفنًا مصريًا، ونهضة نسائية، ووحدة وطنية، وحرية لم نر مثلها. قبل ثورة ١٩١٩ كان الإنجليز هم كل شىء وأهم شىء فى مصر، وبعدها أصبح للشعب دور مهم. أما آخر خدماتها فهى أنها بذرت بذور ثورة يوليو ١٩٥٢، وساهمت فى قيامها بشكل غير مباشر.

* * *

رغم إيمانى الشديد بثورة ١٩١٩ وإنجازاتها، فإن رواياتى ابتداء من «القاهرة الجديدة» كانت تحتوى على انتقادات حادة للمجتمع المصرى فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢. ففى «القاهرة الجديدة» انتقدت فساد الطبقة السياسية الحاكمة، وأنا لم أكن أنقد ثورة ١٩١٩، بل أنقد أوضاعًا فاسدة، مثل إهمال الجانب الاجتماعى والتركيز على القضية الوطنية فقط، ونقدت الثورة المضادة التى أرادت أن توجه ثورة ١٩١٩ لتحقيق مصالحها وأغراضها الخاصة. وللأسف فإن الذين استفادوا من ثورة ١٩١٩ هم أعداؤها، وعندما تحسب المدة التى أمضاها الوفد فى الحكم تجدها قليلة جدًا، فى حين أن القوى الأخرى هى التى

---

(١) جماعة «إخوان الحرية» هى جماعة أنشئت فى مصر فى الأربعينيات من بعض المثقفين المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وكان هدف هذه الجماعة هو محاربة الشيوعية ونشر الدعاية للإنجليز فى صفوف الرأى العام. وتستحق هذه الجماعة دراسة علمية دقيقة تقوم على الوثائق الثابتة وتكشف عن أسماء المشتركين فيها وبعضهم من الأسماء المعروفة فى الساحة الثقافية فى ذلك الوقت. «ر. ن»

تمكنت طوال الوقت من البقاء فى الحكم لفترات طويلة. وفى ذروة الصراع نسوا الجانب الاجتماعى، وكان شغلهم الأول هو الاستقلال والدستور والديمقراطية. كانت الأوضاع الاجتماعية سيئة، والبعض يموت من الجوع، فأردت أن ألفت الانتباه إلى هذا الجانب خاصة أننى كنت أتبنى أفكار الجناح اليسارى فى الوفد.

إن تأثير ثورة ١٩١٩ لم يقتصر على مصر فقط بل تجاوزها وانتشرت عدواها فى الإمبراطورية البريطانية. خاصة أنها كانت ثورة شعبية وطنية، قامت بدوافع الأفكار والمبادئ التى أرساها جيل الاستنارة من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده. وتأثير ثورة ١٩١٩ فى تاريخ الشعب المصرى أضخم منه فى تاريخ مصر نفسها، لأن شعب مصر لم يثبت ذاته بالكامل مثلما أثبتها فى ثورة ١٩١٩. فالحركات الثورية فى تاريخنا دائمًا ما يقوم بها الصفوة، ولكن هنا ـ فى ثورة ١٩١٩ ـ تحمل الشعب كل شىء وارتفع فوق الخلافات القبلية والدينية والحزبية. وهذا هو الفرق الذى لابد أن ننتبه إليه. أكاد أقول إنها كانت ثورة حرية شاملة سياسية واجتماعية وإنسانية. ولذلك عندما تقرأ رواية «الثلاثية» تجد مفهوم التحرر الشامل بعد الثورة، والكل يحاول أن يتحرر حتى من مفهوم الجنس، وهذه النظرة ـ فى الرواية ـ لم تكن مفتعلة، بل جاءت بدون تخطيط، لأنها كانت نابعة من إحساسى الطبيعى فى ذلك الوقت بمفهوم الحرية الشاملة، وهو المفهوم الذى خلقته الثورة فى نفوس الجيل الذى شارك فيها والجيل الذى يليه.

قلت إن حزب الوفد انتهى دوره الرسمى ورسالته الأولى عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة، ومن غباء الملك أنه أوجد للوفد وظيفة جديدة ورسالة إضافية، هى حماية الديمقراطية، فتحول الوفد إلى حامى حمى الديمقراطية. بعض الوفديين المتعصبين قالوا «إن الشعب مات بموت الوفد»، وقد عبرت عن هذا الرأى على لسان «رأفت أمين» أحد شخصيات رواية «ميرامار». ولو سألتنى عن رأيى الشخصى كوفدى فى هذه العبارة أقول إنها ليست صحيحة تمامًا، لأن هناك فئات من الشعب نمت وازدهرت لأول مرة بعد موت الوفد، مثل العمال والفلاحين. والشعب الذى يقصده«رأفت أمين» هو القوى التى كانت تدافع عن الديمقراطية والحرية، وترفع شعار سعد زغلول الذى يقول: «الأمة فوق الحكومة». وهى بالنسبة له كل الشعب، وهذا غير صحيح. لقد استمر حب الوفد، كحزب وطنى قديم، حيا فى قلوب الكثيرين بعد ثورة يوليو ١٩٥٢. وتجلى ذلك فى جنازة مصطفى النحاس عام ١٩٦٥، وكانت تلك الجنازة مفاجأة للجميع. لقد ظننت أن جنازة النحاس سوف تقتصر على الأصدقاء القدامى، ثم هالنى ما رأيت، لقد انضم إلى الجنازة آلاف الناس، منهم من

كان فى قلبه الحب والتعاطف القديم مع الوفد، ومنهم من أضير فى العهد الناصرى فشارك فى الجنازة كنوع من الاحتجاج على الثورة.

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ انقسم الوفديون، قسم عاش يتغنى بالحلم القديم مثل كل العجائز الذين يعيشون على الذكريات، وقسم أكثر واقعية استطاع أن يفهم الموقف السياسى الجديد واستوعبه ورأى أن الديمقراطية التى ينادى بها الوفد لا تتعارض مع مبادئ ثورة يوليو، وأعتقد أن القسم الثانى محق فى رأيه. فمن الممكن أن يستمر القطاع العام فى ظل الاقتصاد الحر على أن يكون هذا القطاع مختصًا بالصناعات الاستراتيجية. أى أنه من الممكن إحياء مبادئ الوفد الديمقراطية من جديد فى ظل الثورة، بل إن التحول العالمى الجديد وانتشار المبادئ الديمقراطية فى العالم يمثل قوة دفع للوفد الجديد، وفى إمكانه أن يصبح حزب المستقبل بعد أن كان مجرد ذكريات من الماضى. ورغم ميلاد حزب الوفد الجديد. وهو أقرب لليمين بعكس «الوفد القديم» الذى كان منقسمًا إلى يمين ويسار، فإنه لم يستطع حتى الآن تكوين قاعدة شعبية عريضة، لتأثر الناس بالنظام الشمولى وسلوكياته. وللأسف الشديد ليس هناك اتجاه سياسى استطاع أن يكون قاعدة شعبية سوى المتطرفين الدينيين. هؤلاء فقط هم الذين استطاعوا إنشاء قاعدة شعبية تنطبق عليها تعريفات القاعدة الشعبية المتحمسة الفدائية، أما بالنسبة للقوى الأخرى فإننا نجد أن كل اتجاه أو حزب منغلق على ذاته وغارق فى مشاكله الخاصة.

* * *

إن التطورات التى حدثت فى العالم مؤخرًا ألغت الفروق الواضحة بين الشرق والغرب، واليمين واليسار، وجرى تداخل على نطاق واسع بين المبادئ، لدرجة أصبحت معها الفروق الفاصلة شكلية. فمن الممكن أن تتجمع أحزاب مثل التجمع، والوطنى، والوفد، والعمل (بدون الإخوان المسلمين المتحالفين معه) والناصرى، فى حزب واحد، لأن تصورهم جميعا للحكومة أو نظام الحكم واحد وهو الحكم المدنى. أما حكاية القطاعين العام والخاص فقد أصبحت شكلية بدورها، والصراع الأساسى اليوم على كرسى الحكم نفسه. وأرى ضرورة أن تسمح الحكومة بقيام حزب دينى يكون مقابلاً للحزب المدنى، لأن الحكومة إذا لم تعطهم هذا الحق، فسيحاولون هم استخلاصه بالقوة، وسيزيد ذلك من قوة التطرف، خاصة أن الجماعات الدينية لديها أساليب لاختراق المؤسسات العامة،ومن الممكن أن يخترقوا الشرطة والجيش مثلما اخترقوا الجامعة، بل أعتقد أنهم وصلوا إلى الشرطة والجيش، بدليل أن قتلة السادات كانوا ضباطا فى الجيش منتمين لجماعة «الجهاد»

والجماعة الإسلامية. والأحزاب التى لها صلة بالدين ليست جديدة على العالم، ففى الدول الأوروبية أحزاب تحرص على الوصف الدينى حتى فى اسمها، مثل الحزب الديمقراطى المسيحى فى ألمانيا، وأرى أنه لو سمح بقيام حزب على أساس دينى فى مصر فإن ذلك سيحد من تطرف الجماعات الإسلامية. وألاحظ أن هذه الجماعات عندما وصلت إلى السلطة فى إيران شكلوا برلمانًا، وبدأت تظهر لديهم عناصر ديمقراطية تؤمن بالحوار، وأصبح الوضع اليوم مختلفًا عما كان عليه حين وصل الخومينى إلى السلطة وأطاح بالشاه.

* * *

لقد تعرض الدكتور لويس عوض فى كتابه «أوراق العمر» لروايتى «الثلاثية»، وانتقدنى بشدة لأننى ـ حسب زعمه ـ أسقطت كثيرًا من أحداث ثورة ١٩١٩ ولم أعطها حقها. وأنا مندهش أن يخرج هذا الرأى من ناقد كبير مثل الدكتور لويس عوض لسبب بسيط، وهو أن «الثلاثية» ليست رواية تاريخية عن ثورة ١٩١٩، وإنما هى مجرد عمل فنى روائى تدور أحداثه فى تلك الفترة التى جرت فيها وقائع الثورة. ولذلك لم أتناول أحداثها بالتفصيل، لأن هذه مهمة المؤرخ وليس الروائى. لقد أسقطت أجزاء هامة من أحداث الثورة وتخطيتها، لأن اهتمامى الأول كان بالخيط الروائى وليس التاريخى. ولكن هذا لا يمنع أن الثورة كانت من العوامل الرئيسية المؤثرة فى الأحداث، ولا يمنع كذلك من أننى تعرضت لها من وجهة نظر شخصيات الرواية. وبغض النظر عن انتمائى لثورة ١٩١٩ وإيمانى بها، فإننى كنت أضع نصب عينى طوال الوقت أننى أديب وروائى أكتب فنًا لا تاريخًا.

* * *

فى فترة من الفترات خطرت لى فكرة أن أكتب رواية عن ثورة ١٩١٩ تكون الثورة هى البطل فيها. بل خطر لى ـ كما قلت لك ـ أن أكتب تاريخ مصر كله من خلال سلسلة أعمال روائية تاريخية أشبه بما فعله جورجى زيدان. وبدأت هذه السلسلة برواية «كفاح طيبة» لكننى توقفت بعدها، لأننى وجدت أنها ستعطلنى عن عملى الأصلى، وهو الرواية الفنية، ذلك أن الرواية التاريخية تحتاج إلى جهد كبير من البحث والدراسة وتجميع المعلومات. وربما عاودنى الحنين إلى الرواية التاريخية ـ بعد الأعمال الفرعونية الثلاثة الأولى ـ لمرة واحدة فى رواية «العائش فى الحقيقة» التى تناولت فيها شخصية أخناتون.

* * *

ويبدو أن الدكتور لويس عوض افترض فى «الثلاثية» أنها رواية عن ثورة ١٩١٩، وهو افتراض لا أسامحه عليه، لأنه ناقد كبير، والمفترض أن يفهم مغزى الرواية ودوافعها ولا يهاجمها على أساس افتراض ـ من عنده ـ ليس له أساس من الصحة، ومحاسبتى تاريخيًا على رواية غير تاريخية فيه جور وظلم، لأنه هنا لم يفرق بين المؤرخ والفنان. فالمؤرخ عندما يتناول حدثًا تاريخيًا مثل ثورة ١٩١٩، فإنه مطالب بأن يهتم بكل أحداثها ويظهر كل تفاصيلها وجوانبها وذلك من خلال الوثائق والكتب والدوريات والأحاديث والشهادات. وبعد جمع المعلومات يبدأ فى تحليلها وتفسيرها بشكل موضوعى، هذا هو عمل المؤرخ. أما الفنان أو الروائى فمهمته تختلف عندما يتناول حدثًا تاريخيًا، وهناك عدة أنواع من الرواية التاريخية. نوع يغوص فى أعماق التاريخ، وهو أقرب ما يكون إلى الوقائع ولا يأخذ من الأدب إلا أسلوب العرض، ويمثل التاريخ فيه نسبة ٨٠٪، وأقرب الأمثلة إلى هذا النوع روايات جورجى زيدان. ونوع آخر يجعل من التاريخ مجرد إطار وينشئ أحداثًا وعلاقات وشخصيات، ليس لها علاقة بالتاريخ، هذا ما فعلته فى «الثلاثية». حيث كانت ثورة ١٩١٩، وظروف المجتمع المصرى وقتذاك، مجرد إطار وخلفية للأحداث المتصلة بأسرة السيد أحمد عبدالجواد. حتى الروايات التاريخية الفرعونية التى كتبتها، كان عندى فيها مساحة من الخيال، وامتلكت حريتى فى المساحة الغامضة من الأحداث، التى ليس لها أصل ثابت فى التاريخ، وحاولت استكمالها بخيالى. الرواية الوحيدة التى التزمت فيها بالأحداث التاريخية التزامًا أمينًا هى «كفاح طيبة». نوع ثالث من الرواية التاريخية لا يأخذ من التاريخ سوى اسمه، وتأخذ هذه الرواية قالب القصة أو المسرحية الفلسفية، وأقرب مثل إليها مسرحية «كاليجولا» لألبير كامى.

الدكتور لويس عوض هو الناقد الوحيد الذى أثار هذا الموضوع عن التفاصيل التاريخية لثورة ١٩١٩ فى «الثلاثية»، بينما كان ما قصدته من كتابتها قد وصل إلى عقول الناس وقلوبهم بشكل واضح وجميل، وهذا هو الأهم والأبقى عندى.

الفصل الرابع عشر

ثورة يوليو ١٩٥٢

اجتماعات الضباط الأحرار فى قهوة عرابى ـ ثورة يوليو لم تخطر على ذهنى ولم أتوقع قيامها ـ صباح يوم الثورة تعطلت خطوط الترام فظننت أن أنصار اللواء محمد نجيب مضربون احتجاجًا على انتخابات نادى الضباط ـ توقعت تدخل الإنجليز لقمع الثورة كما فعلوا مع أحمد عرابى ـ انتقدت الثورة لأنها تنكرت للديمقراطية وحزب الوفد ـ لو انضم عبد الناصر للوفد لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل ـ فى أزمة مارس كنت متعاطفا مع محمد نجيب ـ إعدام العاملين خميس والبقرى لم يكن قرارا عادلا ـ فى عام ١٩٥٦ اكتشفت أننا تعرضنا لهزيمة عسكرية وأن أوهام النصر صنعها الإعلام وحده ـ خسائر مصر بسبب تأميم القناة كانت فادحة ـ عبد الناصر أخطأ عندما اتجه للكتلة الشرقية واصطدم بالولايات المتحدة، من أكبر أخطاء الثورة اعتمادها على الأسلوب الحماسى وابتعادها عن التخطيط العلمى، أيدت الوحدة مع سوريا وسمعت خبر الانفصال فى صالون حلاقة، فرحتى بثورة اليمن ورحلتى إلى صنعاء، فى اجتماع مع بعض قيادات المخابرات قلت لهم: لابد أن ننسحب من اليمن فورا.

■ **فى هذا الفصل يتحدث الكاتب الكبير نجيب محفوظ عن ثورة ١٩٥٢ التى لم يكن يتوقع قيامها، ويقول رأيه بصراحة فى عبد الناصر وأسباب اختلافه معه فى أزمة مارس، وفى معارضته لبعض أساليب العنف التى استخدمتها الثورة، وفى إعدام العاملين: خميس والبقرى، وفى حرب ١٩٥٦، وفى تأميم القناة، وفى اتجاه عبد الناصر للكتلة الشرقية، وفى الوحدة مع سوريا ثم الانفصال عنها، وفى ثورة اليمن. كما يتحدث نجيب محفوظ عن بعض أخطاء ثورة يوليو، ويتوقف أمام ذكريات خاصة جدا مع الثورة..** ■

نجيب محفوظ: لم يخطر على ذهنى مطلقا أن يقوم الجيش المصرى بانقلاب عسكرى يطيح فيه بالحكم الملكى عام ١٩٥٢، وذلك على الرغم من أن سهرات مقهى «عرابى» بالعباسية قبيل الثورة كانت تضم عددًا من الضباط الأحرار، منهم عبد اللطيف البغدادى وجمال سالم. وهذان الضابطان لم ألتق بهما لأنهما كانا يفضلان الذهاب إلى المقهى طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم الخميس موعد سهرتنا الأسبوعية، حيث الازدحام والصخب، حتى أننا كنا نسميه «يوم الزيطة». كان البغدادى وجمال سالم يجلسان طويلاً مع شلتنا، ومع ذلك لم يشعر أحد بالتحركات التى تتم داخل الجيش، أو بأن هناك تخطيطًا للثورة، وكان عبد الحكيم عامر يرتاد المقهى أحيانًا.. وأذكر شخصية من شخصيات «شلتنا»، هى شخصية كنا نسميها باسم المعلم «كرشو»، وهو أحد أصدقاء شلة العباسية، ومن رواد سهرة «عرابى» وقد تخرج فى مدرسة الزراعة العليا، وكان من بين الذين أعطتهم الحكومة عشرين فدانا لزراعتها فى الثلاثينيات، وكان يتمتع بالثراء خاصة أنه ورث عن والده عمارتين، وقد أخبرنى «المعلم كرشو» ذات يوم أنه دخل المقهى فوجد «عبد الحكيم عامر» يجلس بها. وكانت تربطهما ـ عامر وكرشو ـ صداقة قوية، وكان «عامر» يومئذ يجلس فى المقهى فى انتظار صديقه الضابط جمال عبد الناصر، وعن طريق «عامر» تعرف المعلم «كرشو» على عبد الناصر وجلس معه عدة مرات، وكان من بين الضباط الأحرار أيضًا «سعد حمزة» الذى اعتاد ـ بخلاف البغدادى وسالم ـ على حضور سهرة الخميس، وظل فى صفوف الجيش حتى بلوغه سن التقاعد، فعينوه رئيسًا لإحدى المدن، وكانت والدته وفدية

متطرفة، وشغلت منصب وكيلة هيئة السيدات الوفديات وأسمت ابنها «سعدًا» على اسم سعد زغلول، أما والده فكان من رجال الداخلية الكبار، وكان يضطر أحيانًا للقبض على زوجته عندما تخرج فى المظاهرات المؤيدة للوفد. وورث «سعد حمزة» عن والدته حب الوفد، ويوم محاولة اغتيال مصطفى النحاس وجدته فى قمة الحزن والألم، كان هؤلاء الضباط يتحدثون معنا فى كل شئون الحياة، ونعرف أسرار حياتهم الشخصية، ولكننا لم نعرف أبدًا السر الخطير الذى يدبرونه فى الخفاء.

بعد حريق القاهرة والفوضى الشاملة التى سيطرت على البلد، توقعت حدوث حركة اغتيالات واسعة لكبار السياسيين، أو أن تقوم ـ على أكثر تقدير ـ ثورة يشترك فيها أحمد حسين والشيوعيون والجناح اليسارى للوفد، ذلك أن الحالة التى وصلت إليها مصر فى تلك الفترة كانت تنذر بعواقب وخيمة، وكل الدلائل كانت تؤكد أننا مقبلون على تغيير كبير، ولم أتوقع أبدًا أن يأتى هذا التغيير من جانب الجيش.

وصباح يوم الثورة خرجت من بيتى متوجهًا إلى عملى فى وزارة الأوقاف، ولفت نظرى أن خطوط الترام متوقفة عن العمل على غير العادة، فسألت بائع الصحف عن ذلك، فأخبرنى بأن الجيش قام بعمل «إضراب» فى العباسية، وتوقعت وجود حركة «تمرد» فى صفوف الجيش احتجاجًا على تدخل الملك فاروق فى انتخابات نادى الضباط، وأن أنصار اللواء محمد نجيب الذى نجح فى الانتخابات ضد مرشح الملك، اللواء حسين سرى عامر، قاموا بهذا الإضراب للتعبير عن احتجاجهم لا أكثر. وأثناء مرورى فى شارع الشريفين ـ حيث مبنى الإذاعة القديم ـ لفت نظرى كذلك وجود دبابة تقف فى مواجهته، ولما وصلت إلى مبنى وزارة الأوقاف، توجهت إلى مكتب سكرتارية الوزير، وفور دخولى بادرنى عبد السلام فهمى بسؤالى عما إذا كنت سمعت الإذاعة اليوم. ولما أجبت بالنفى، أخبرنى بأن الجيش قام بعمل انقلاب، وأنه أذاع بيانًا، وحكى لى عن التفاصيل، فلم أزد على أن قلت له «يا خبر أسود»!!. فقد تداعى إلى ذهنى فى تلك اللحظة أحداث الثورة العرابية، وكان لدىّ ظن أكيد بأننى فى أثناء عودتى إلى البيت بعد انتهاء موعد العمل، سأجد الجيش البريطانى فى شوارع القاهرة، بعد أن يكون قد قضى على الانقلاب العسكرى وقادته، وانتابتنى حالة من القلق الشديد على مصير البلد.

وعدت إلى البيت، ولم يحدث شىء مما توقعته، ومرت عدة أيام، ولم يتدخل الإنجليز، وكانت كل الدلائل تشير إلى نجاح حركة الجيش، خاصة بعد ما تأكد لنا أن الولايات المتحدة

الأمريكية لا تعارضها، ففى تلك الأثناء انتشرت شائعات بين الناس تقول إن الأمريكان يقفون وراء الثورة، وذهب البعض إلى القول إن حركة الجيش ما هى إلا مؤامرة من تدبير المخابرات الأمريكية، وأن قادتها ما هم إلا عملاء لها. لم أصدق هذه الشائعات، وإن كنت أميل إلى وجود تنسيق ما بين حركة الجيش والأمريكان، ذلك أن مصالحهما اتفقت فى تلك الظروف التاريخية على التخلص من الاستعمار الإنجليزى وإحداث تغيير فى المنطقة.. وكان هذا التنسيق من أسباب نجاح الثورة، وكان هو نفسه السبب الرئيسى فى إخفاق ثورة عرابى، ذلك أن أحمد عرابى اعتمد على تأييد الشعب، واصطدم بالقوى الاستعمارية دون أن يكون له سند قوى يحمى ظهره حتى لو كان تركيا المريضة.

كانت هناك أسباب عديدة جعلتنى أستبعد قيام الجيش بتلك الحركة التى قام بها، أهمها أن الجيش المصرى كان على ولاء كامل للملك فاروق، أو هكذا كنت أظن، وأنه بعيد عن السياسة، ولم يحاول التدخل فيها منذ فشل ثورة «عرابى». ثم إن ثورة «عرابى» نفسها كانت ماثلة فى الأذهان أمام الجيش وأمامنا كشعب، وأى تفكير فى حركة مماثلة يمكن مواجهتها بنفس القوة الغاشمة، ومن الممكن أن يكون مصير قادتها هو نفس مصير عرابى وزملائه، خاصة مع وجود حوالى ٩٠ ألف جندى بريطانى مزودين بأحدث الأسلحة فى منطقة القنال، وكنت على يقين فى الوقت نفسه من وجود عناصر وطنية فى صفوف الجيش، ومنها من تعرض للأذى بسبب تأييده لحزب الوفد، ولكنى لم أتوقع أن تقوم تلك العناصر بثورة.

فى الفترة الأولى من عمر الثورة كانت مشاعرى تنقسم بين الخوف على استقلال مصر، وبين الارتياب فى الذين قاموا بها. ومع مرور الأيام بدأت مشاعرى تتغير بعد ما وجدت أنها تسعى لتحقيق عديد من الآمال التى طالما حلمنا بها وتمنينا تحقيقها، مثل الإصلاح الزراعى، والاستقلال التام، وإلغاء الألقاب. وكان كل قرار من قرارات الثورة الإصلاحية يقربنى لها ويملؤنى حبًا فيها يومًا بعد يوم، وقد لعب محمد نجيب دورًا كبيرًا فى تقريب الناس من الثورة والتفافهم حولها، بما كان يملكه من شخصية بسيطة ساحرة، تحمل فى طياتها نفس الطابع الشعبى الذى ميز شخصية مصطفى النحاس، فمن اللحظة الأولى التى تراه فيها تشعر فيه بالزعامة، وذلك عكس جمال عبد الناصر الذى كان وجهه المتجهم لا يوحى لك بزعامته. ولكنك لابد أن تتغاضى عن هذا التجهم عندما ترى أعماله وقراراته وتصرفاته العظيمة.

كان المأخذ الأول لى على الثورة هو تنكرها للديمقراطية ولحزب الوفد الذى ظل يجاهد فى سبيل مصر واستقلالها من عام ١٩١٩ حتى ١٩٥٢، وكنت أتعجب من استعانة رجال الثورة بأعداء الوفد والحاقدين عليه من أمثال على ماهر ورجال الحزب الوطنى. هؤلاء الذين جعلهم الوفد من الناحية الشعبية بلا قيمة أو وزن، وما كان فى استطاعتهم أن يصلوا إلى السلطة إلا بالانقلاب. كانت الثورة تحتاج فى بدايتها إلى أساس شعبى، وكان الأساس الشعبى الوحيد هو الوفد. وقد يقال إن الوفد فى ذلك الوقت ضم بين جنباته كثيرًا من الفاسدين والإقطاعيين والمنتفعين، ولكنه فى الوقت نفسه كان يضم شبابًا وطنيًا متحمسًا، ينادى بالاشتراكية والعدالة، وهى نفس المبادئ التى جاءت الثورة لتحقيقها. كان هؤلاء يصرخون بأعلى صوتهم من خلال جريدة «صوت الأمة» الوفدية، والتى كان الدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمى من أبرز محرريها، فكيف تستبعد الثورة حزب الوفد بكل تاريخه ورموزه وشبابه الوطنى، وتلقى بهذا الحزب الوطنى بعيدًا كأنه شىء نكرة أو زائد على الحاجة؟!. لقد آلمتنى كثيرًا المعاملة التى لقيها الوفد وزعيمه مصطفى النحاس على يد قادة الثورة، ولم أجد لها ما يبررها غير الصراع على السلطة، هذا الصراع الذى ظهر بعد ذلك جليا فى أحداث مارس ١٩٥٤، وفى الصدام مع الإخوان المسلمين.

كنت أتصور أن تستفيد الثورة من القاعدة الشعبية العريضة للوفد من خلال الهيئات التى كونتها مثل هيئة التحرير والاتحاد القومى، وتستفيد كذلك ممن يقع عليهم الاختيار من الوطنيين المستقلين، فأى حزب كان سينضم له محمد نجيب أو جمال عبد الناصر لا شك أنه كان سيحقق له الأغلبية الساحقة، فما بالك لو كان هذا الحزب هو الوفد؟!.

وفى تقديرى لو أن الثورة اتجهت إلى هذا المنحى لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل. ذلك أن الثورة ما كان يمكن فى وجود هؤلاء ـ من زعماء الوفد والمستقلين الوطنيين ـ أن تتجه إلى الأسلوب الفردى العنيف الذى مالت إليه، وتتجاهل الديمقراطية، وأغلب أخطاء الثورة كان سببها غياب الديمقراطية والمشورة، وأحيانًا كانت الثورة تلقى بالوطنيين المخلصين فى المعتقلات لمجرد إبدائهم رأيًا أو نصيحة، مثلما حدث للدمرداش أحمد، وكان وكيلاً لوزارة الصحة وعضوًا بالاتحاد الاشتراكى، وكل ما فعله أنه نبه إلى خطر بحيرة السد، وكيف أنها من الممكن أن تتسبب فى انتشار البلهارسيا فى صعيد مصر، ومن ثم يكون واجبنا أن نلتفت إلى هذا الخطر، ونعمل على مقاومته، والوقاية منه قبل ظهوره واستفحال أمره. وكان مصير الرجل أن أُلقى فى غياهب المعتقل لمدة عامين، تعرض

خلالهما للذل والهوان، وخرج بعدهما كارهًا للدنيا، وقد عرفته بعد خروجه من السجن، عندما أصبح من رواد جلسة توفيق الحكيم فى مقهى بترو، وتألـمت كثـيرًا لما جرى له.

كانت علاقتى الوجدانية بالثورة تنقسم ما بين التأييد والحب من جهة، والنقد الشديد بسبب تجاهلها للديمقراطية وللوفد،وميلها إلى الفردية والصراع على السلطة من جهة أخرى، ولم أتغاض عن هذه الانتقادات من جانبى للثورة، إلا فى فترة محددة، وهى فترة العدوان الثلاثى على مصر. فقد أيدت الثورة تأييدًا مطلقًا، ونسيت وفديتى، وتجاهلت نقدى لأساليبها الفردية، وأغمضت عينى عن صراعات الحكم.. نسيت كل شىء وذهبت إلى أحد المعسكرات الشعبية التى أقامتها الثورة فى مناطق القاهرة لتدريب المتطوعين على حمل السلاح لمقاومة العدوان، تدربت بجدية حتى أتقنت استعمال البندقية «البلجيكى» وإلقاء القنابل اليدوية.

وكانت أول مشكلة حقيقية تواجه الثورة هى ما سمى «بأزمة مارس عام ١٩٥٤»، عندما حدث صراع على السلطة بين فريق عبد الناصر وأنصار محمد نجيب، ولقد انحزت إلى جانب محمد نجيب لسبب أساسى، وهو أنه كان مع حزب الوفد والديمقراطية، وبسببهما فقد السلطة، وفقدت أنا الأمل الذى راودنى بأن الثورة سوف تتجه نحو الديمقراطية والاستعانة بالوفد، وحزنت لنجاح فريق عبد الناصر فى الإطاحة بمحمد نجيب، ولذلك اتسمت مشاعرى فى ذلك الوقت بنوع من السلبية تجاه عبد الناصر بعد هذا الحادث، ولم أتعاطف كثيرًا مع عبد الناصر عندما جرت محاولة اغتياله فى ميدان المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤، ولكننى فى الوقت نفسه لم أتعاطف مع الإخوان المسلمين، إننى أعترض عليهم ولا أستبعد أبدًا أن يكونوا هم بالفعل وراء محاولة اغتيال عبد الناصر، فتاريخهم فى العنف راسخ ومعروف، كذلك لم أكن مرتاحًا للإجراء الذى اتخذه عبد الناصر بتصفية كل الأحزاب السياسية بعد نجاح الثورة واستثنائه للإخوان المسلمين من هذه التصفية، ولكنه عندما قام بتصفيتهم عقب حادث المنشية شعرت بالارتياح.

وكان من إجراءات الثورة التى لم أشعر نحوها بالارتياح، بل تألمت لوقوعها، حادثة إعدام العاملين خميس والبقرى، فلم يتم إعدامهما بسبب ذنب اقترفاه ويستحقان عليه الإعدام، بل كان إعدامهما لمجرد تخويف الآخرين، وإرهاب كل من تسول له نفسه أن يقوم بمظاهرات احتجاج من أى نوع، فكانا هما كبش الفداء، وأرى أن إعدام خميس والبقرى جريمة قتل ارتكبتها الثورة فى حق اثنين من الأبرياء.

ومع ذلك عندما نقارن هذه الإجراءات والحوادث بما وقع من عنف وصدامات دموية فى الثورات الكبرى مثل الثورتين الفرنسية والروسية، نكاد نسلم بأن ثورة يوليو كانت أقل الثورات عنفًا ودموية ، وهذه الروح السلمية للثورة عمومًا تتفق مع طبيعة المصريين أنفسهم.

لا يوجد أحد من جيلى إلا وشعر بصدمة شديدة بسبب انفصال السودان، ذلك أننا عشنا ـ كما عاشت أجيال سبقتنا ـ ولدينا إيمان راسخ بأن السودان جزء من مصر، وأنهما لا يتجزآن، وطالما هتفنا لوحدة «وادى النيل». وضاعف من الصدمة معرفتنا برغبة الشعب السودانى فى الوحدة إذا استمر محمد نجيب فى الحكم، ولكن عندما تمت إزاحة نجيب طلبوا الحصول على الاستقلال عن مصر. ولو كان السودان مصرًا على الاستقلال من البداية، لخفف ذلك عنا وقع الصدمة، فنحن لا يمكننا حرمان شعب من هدف طالما سعينا إليه ـ كمصريين ـ وقدمنا فى سبيله الكثير من التضحيات، وهو الاستقلال.

كان تأميم قناة السويس من الأحداث التى هزت وجدانى وانفعلت بها انفعالاً شديدًا. لقد أشعل التأميم فى نفسى مشاعر وطنية متدفقة، خاصة بعدما أعقبه من عدوان ثلاثى على مصر، مما جعلنا ـ كشعب مع الثورة ـ كلا لا يتجزأ، وهو الأمر الذى جعل عبد الناصر يتحول فى نظرنا ـ نحن المصريين ـ إلى زعيم، أما مشاعرى تجاهه فقد تحولت إلى الإيجابية والحماس وزاد تقديرى وحبى له إلى أقصى درجة. ولما هدأت الضجة وسكنت أعدت التفكير فيما حدث، وكان ذلك بعد عدة سنوات من العدوان. واكتشفت أننا أعطينا الموضوع أكثر مما يستحق، وأن ما قيل عن الانتصار العظيم للثورة، ما هو إلا انتصار ناقص صنعه الإعلام ووسائل الدعاية الجبارة، فمن الناحية العسكرية تعرضنا لهزيمة فعلية، وبعد نزول القوات المعتدية للأراضى المصرية فكر البعض من قادة الثورة فى اللجوء إلى السفارات الأجنبية بالقاهرة، وهناك من فكر فى الانتحار، ولولا تدخل الولايات المتحدة الأمريكية لتعرضت الثورة للتصفية. كانت أمريكا وقتذاك تسعى للسيطرة على المنطقة، واعتبرت تدخل إنجلترا وفرنسا بمثابة صدام مباشر مع مصالحها، فجاء تدخلها لصالح مصر، ولم يكن ذلك وقوفًا إلى جانب الحق، بقدر ما هو تأديب للإنجليز والفرنسيين أصحاب الإمبراطوريتين العظيمتين (سابقًا)، اللتين أصبحتا تعتمدان على أمريكا اقتصاديًا، بعد أن انتهى عصرهما عقب الحرب العالمية الثانية. وعندما اصطدمت المصالح الأمريكية بعد ذلك بنفوذ عبد الناصر عملت على محاربته بعنف وكانت نكسة ١٩٦٧ .

عاشت الثورة فى أوهام الانتصار الناقص بعد العدوان الثلاثى، ولم يدرك قادتها خطورة الموقف العسكرى، وأهمية تقوية الجيش المصرى حتى يصل إلى مستوى مطمئن من القوة والعتاد، ثم استيقظوا على الحقيقة المرة فى عام ١٩٦٧.

* **على المستوى السياسى** كان تأميم القناة خسارة فادحة لمصر، لأنه أدخلها فى صدام مباشر مع القوى الكبرى. وكان الأفضل ألا نحاول استفزازها خاصة أن عظام الثورة كانت لا تزال لينة ولا تتحمل مثل هذا النوع من الصدام العنيف.

* **وعلى المستوى الاقتصادى** خسرت مصر، ذلك أن موعد عودة القناة لمصر كان يحل فى عام ١٩٦٨. ولو انتظرنا إلى هذا التاريخ ما اضطررنا إلى دفع تعويضات مالية، ولحصلنا على حقوقنا بدون الدخول فى صدام عنيف مع الدول الاستعمارية، خسرنا من ورائه الكثير.

ومن الأحداث الكبرى التى وقعت فى المرحلة الأولى من عمر الثورة (١٩٥٢ـ١٩٥٦) صفقة الأسلحة التشيكية التى جعلت مصر تحول اتجاهاتها إلى الكتلة الشرقية. وفى اعتقادى أن هذه الخطوة ـ رغم أننا أيدناها عن جهل ـ أضرت بمصر، ذلك أن عبد الناصر كان يسير قبل هذه الصفقة فى اتجاه نوع من التفاهم حول القضية الفلسطينية وإسرائيل، وحدث سوء تفاهم بينه وبين السفير الأمريكى بالقاهرة اعتبره عبد الناصر تجريحًا له، فعدل عن اتجاهه واصطدم بالولايات المتحدة، فضنوا عليه بالمساعدات، ورفضوا تزويده بالسلاح، مما جعله يتجه إلى الكتلة الشرقية نكاية فيهم، وهو الموقف الذى زاد من تعقيد القضية العربية الإسرائيلية، خاصة أن عبد الناصر اتجه إلى القوة الأضعف. ولو كان عبد الناصر استمر فى اتجاه التفاهم والمصالحة لوفر مليارات الدولارات التى ضاعت هباء، وآلاف الأرواح من خيرة شبابنا التى أزهقت على مدى ثلاثين عامًا، ولحصل العرب على حقوق ومكاسب لا يستطيعون الحصول عليها الآن، خاصة أن الإسرائيليين وقتذاك كانوا على أتم الاستعداد للتنازل عنها عن طيب خاطر.

من بين أخطاء الثورة أنها كثيرًا ما أهملت جانب التخطيط العلمى والدراسة، واعتمدت فقط على الأسلوب الحماسى فى تنفيذ قراراتها، ولذلك فإن الثورة لم يكن لها ـ كما هو شائع ـ إيجابيات وسلبيات، بل الصواب ـ من وجهة نظرى ـ أن لثورة يوليو سلبيات وإيجابيات سلبية، ذلك أنها حتى فى أهدافها الوطنية النبيلة لتنمية مصر، انقلبت هذه

الأهداف إلى سلبيات، نتيجة سوء التنفيذ. فعلى سبيل المثال هناك القرار الخاص بمجانية التعليم، والذى كان الهدف الأساسى من ورائه هو القضاء على الأمية والجهل، وهو هدف وطنى طالما حلمنا بتحقيقه. ولكن الأسلوب الذى تم به تنفيذ هذا القرار لم يكن دقيقًا، حيث فُتحت أبواب المدارس على مصراعيها بلا ضابط ولا رابط أو تخطيط محسوب لمستقبل التعليم فى مصر، من خلال خطة خمسية مدروسة، وكل ذلك أدى إلى زيادة نسبة الأمية. بل وتحول التعليم الآن إلى «تجهيل» بمصروفات باهظة، حتى أن الطالب ينفق حاليًا عدة آلاف من الجنيهات سنويًا، وفى النهاية يتخرج بدرجة «جاهل»!. لقد كان من الواجب على حكومة الثورة أن تضع خطة خمسية أولية تحدد فيها أعداد المدارس المطلوب إنشاؤها، وأعداد الطلاب المطلوب تعليمهم، وكذلك نوعية التخصصات المطلوبة.. حتى يدخل الطالب المدرسة، ولديه ضمان بأن يجد مقعدًا مريحًا، وأساتذة على درجة عالية من الكفاءة، ثم وظيفة مناسبة عندما يتخرج. أما حالة الفوضى والتكدس الشديد التى نعانى منها حتى اليوم فى مدارسنا فلا شك أنها نتيجة للأسلوب الخاطئ الذى اتبعته الثورة منذ البداية فى إدارة العملية التعليمية.

مثال آخر، مشروع السد العالى، وهو من أعظم المشروعات الهندسية فى العالم، فإننا لم ننفذ منه سوى مرحلة واحدة. وكان من المفترض أن تتبعها مراحل أخرى لنقل الطمى، وإنشاء «أهوسة» لمنع النحر وحفظ الشواطئ. وصحيح أن المشروع قدم نفعًا عظيمًا للبلاد، ونالنا منه أكبر فائدة، ولكن كان من الممكن أن يتضاعف النفع وتكبر الفائدة، لو نفذنا المشروع طبقًا للدراسات العلمية الموضوعة، بدلاً من الاعتماد على الأغانى الوطنية والشعارات الحماسية. وللأسف امتد هذا الأسلوب الحماسى غير العلمى إلى الجيش. فلم تستفد الثورة من درس العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ . لأن من يقرأ شهادات كبار الضباط بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ لابد أن يصاب بحالة من الدهشة أمام الفوضى التى لم يسبق لها مثيل فى صفوف الجيش. عندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ أطلق قادتها تصريحات عن الجندى المصرى المهان ـ بمن فيهم الضباط ـ إبان العهد الملكى، وأن الثورة قامت لتنصف هذا الجندى وترفع من شأنه حتى يكون بحق درعًا للوطن. ولكنهم بدلاً من أن يرفعوا من شأنه عن طريق التدريب وتوفير الرعاية والأسلحة المتقدمة، زادوا من المرتبات والحوافز والمعاشات، ولم يكن فى هذا إعلاء لقدر الجندى، ولم تكن هذه هى الطريقة السليمة للنهوض بالعسكرية المصرية.

وكان الأسلوب الحماسى أيضًا هو أساس سياسة عبد الناصر الخارجية. فقد تحول إلى محرر عالمى وفارس مغوار يقف إلى جوار الدول التى تجاهد فى سبيل الحرية والاستقلال. وقد اكتسب عبد الناصر شعبية هائلة فى دول العالم الثالث، ومازالوا حتى اليوم يتذكرونه ويتغنون باسمه، وحقق مجدًا شخصيًا لم يسبقه إليه زعيم آخر، ولكن مصر خسرت الكثير من جراء هذه السياسة. وأنا لست ضد مساعدة الدول الصغيرة فى سبيل الحرية والاستقلال، ولكننى ضد أن نتحدى الدول الكبرى ونستفزها ونرسل شحنات أسلحة لمن سوف يستخدمها فى مقاومة قوات هذه الدول الكبرى. أنا مع مساعدة دولة مثل تنزانيا، ولكن فى حدود إمكانياتى وبما لا يتعارض مع مصالحى الحيوية. وتوجد طرق عديدة للمساعدة، منها الوقوف مع هذه الدولة أو تلك عند عرض قضيتها فى هيئة الأمم، ومنها إجراء مساع مع الدول الكبرى من خلال علاقاتى الطيبة معها فى سبيل إقناعها بحق تنزانيا فى الاستقلال.

لم أكن لألوم عبد الناصر على سياسته لو كانت لديه القوة العسكرية والاقتصادية التى تمكنه من مجابهة القوى الاستعمارية الكبرى وتحديها، أما وأنه لا يملك هذه القوة، فكان ينبغى له السير على المثل الشعبى المصرى «على قد لحافك مد رجليك»! وأحب أن أسجل أننى لا ألوم عبد الناصر فى وقوفه بجوار الدول العربية، خاصة موقفه المساند للشعب الجزائرى الذى كان يسعى لنيل الاستقلال، لأنه لا ينبغى بأى حال لوم زعيم عربى فى مساعدته لأشقائه، حتى فرنسا، وهى فى قمة حنقها على عبد الناصر وغيظها منه، كانت تجد له عذرًا فى إمداد ثوار الجزائر بالعتاد والسلاح. ولكن أن يتبنى عبد الناصر كل مشاكل العالم الثالث ويحرص على مساعدة أى دولة من دوله، فهذا ما لم يكن فى استطاعته، وما لم يكن ينبغى أن يفعله، وكانت نتيجة هذه التصرفات عقابًا قاسيًا نلناه هو ما جرى لنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وقد كان ما وقع لنا فى ١٩٦٧ سببًا فى هدم ما بناه عبد الناصر فى سنوات طويلة، وما زالت مصر تعانى من آثاره حتى اليوم.

كان السبب الرئيسى الذى جاء بعبد الناصر إلى السلطة، هو سوء أوضاع الشعب المصرى قبل ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكانت مهمته الأساسية أن يحسن من حال هذا الشعب الجائع الحافى الممزق، وأن يدخل به إلى طور الحضارة والتقدم من جديد. ولتحقيق هذه المهمة كان عليه أن يصلح علاقاته بالعالم الخارجى، حتى يتركوه ليعمل فى هدوء بدون إزعاج أو مشاكسة، حتى وإن اقتضى الأمر التفاهم مع إسرائيل،

والارتباط بعلاقات حسنة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه العلاقات لم تكن تمنعه أبدًا من مساعدة الدول التى كانت بحاجة إلى مساعدته والوقوف بجوارها، ولكن فى نطاق هيئة الأمم وبأساليب دبلوماسية. أما سياسة المغامرة والاستفزاز فكانت نهايتها ما نعرفه جميعًا الآن. ومن يقرأ تاريخ مصر المعاصر يجد تشابهًا غريبًا بين تجربة عبد الناصر وتجربة محمد على. فكلاهما كان لديه فرصة نادرة للنهوض بمصر إلى مستوى حضارى هائل، وكلاهما حقق لمصر إنجازات عظيمة، وكلاهما لم يكتف بحدود مصر، بل امتدت أنظاره إلى المنطقة المجاورة، وكانت النتيجة اصطدامهما بالقوى الاستعمارية، ونهاية الحلم الكبير. كان محمد على لديه فرصة لأن يجعل من مصر «يابان عصرها»، ولكن سياسته الخارجية كانت السبب فى ضياع تلك الفرصة، وكذلك ـ فيما أتصور ـ كان عبد الناصر.

ويمكننا أن نستخلص نتيجة هامة من خلال هذه المقارنة، وهى أن الوطنية وحدها لا تكفى، ولابد أن يصاحبها نوع من الخبرة فى إدارة الأمور واتخاذ القرارات. ولذلك كان لينين على حق عندما قال كلمته المشهورة بعد نجاح الثورة البلشفية: «الآن مهندس واحد خير من عشرين شيوعيًا»!. والمعنى أن الثورة بعد نجاحها لم تعد فى حاجة إلى ثوار ومقاتلين، فقد انتهى دورهم وانتهت مرحلتهم، بل تحتاج إلى مهندسين وفنيين وعمال، لأنهم أقدر على إفادة الثورة فى مرحلة البناء..

وكان ستالين أذكى من عبد الناصر فى إدارة الثورة الشيوعية، حينما رفض تصدير الثورة للخارج كما طلب تروتسكى، لأن الغرب لو شعر بخطورتها كان سيقف فى طريق انطلاقها. وبفضل فكرة الستار الحديدى نجح ستالين فى تكوين دولة عظمى، وتحويل روسيا من بلد فقير ضمن دول العالم الثالث الضعيف، إلى أحد القطبين الكبيرين اللذين سادا العالم سنوات طويلة. وليت عبد الناصر استفاد من تلك التجربة، وأقصد بها تجربة الستار الحديدى والتزام نوع من العزلة المقبولة لبناء الوطن من الداخل، وعدم التفكير فى تصدير الثورة إلى كل بلاد العالم الثالث.

ولا أبالغ عندما أقول إن مصر لا تحتاج الآن إلى زعيم من أمثال عبد الناصر أو سعد زغلول، لأن وجود مثل هذا الزعيم فى الظروف الراهنة يربك الأمور ويعطل الديمقراطية. ذلك أن حب الناس له سوف يجعلهم يتغاضون عن أخطائه حتى ولو كان من هذه الأخطاء فرض أسلوب الرأى الواحد، ووضع المعارضين فى السجون. إن مصر بحاجة الآن إلى

حاكم وطنى مستنير لديه إجابة علمية واضحة عن هذا السؤال: ما هو دور مصر فى هذا النظام العالمى الجديد؟!

كانت فرحتى لا توصف عندما عرفت بنبأ قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨. لقد تحمست لهذه الوحدة واستبشرت بها واعتبرتها الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق الوحدة العربية الكبرى، خاصة أننى فى تلك الفترة كنت من أشد المؤمنين بفكرة القومية العربية، وضرورة الوحدة الاقتصادية والسياسية الشاملة بين البلاد العربية، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للوقوف فى وجه إسرائيل، والتصدى للهيمنة الغربية. وازددت استبشارًا وحماسًا عندما قامت ثورة فى العراق فى نفس العام (١٩٥٨)، ولم يخامرنى شك فى أن الوحدة المصرية السورية إنما هى مجرد النواة الأولى لوحدة عربية شاملة.

وأذكر أننى غضبت مرارًا من صديقى المرحوم عبد الحميد جودة السحار عندما كان يشكك فى مصير الوحدة المصرية السورية، ويتحدانا بقوله: إنها لن تفلح، وأن نهايتها قريبة. وكانت وجهة نظر السحار أن القوانين الاشتراكية التى أصدرها عبد الناصر وطبقها مباشرة على السوريين سوف تكون السبب الرئيسى لفشل الوحدة. ذلك أن السوريين وأهل الشام بصفة عامة يعيشون بشكل أساسى على التجارة، والقوانين الاشتراكية ستؤدى إلى كساد تجارتهم ووقف حالهم، وكان يؤكد لى أنه لمس ذلك بنفسه فى زياراته لسوريا، حيث شعر بحالة واضحة من التذمر بين عدد كبير من السوريين. لم أصدق السحار ولم أقتنع بوجهة نظره، واستقر لدىّ يقين بنجاح الوحدة، ومصدر يقينى هو أن السوريين هم الذين عرضوا فكرة الوحدة وتحمسوا لها، ثم إن الفكرة نفسها ضاربة بجذورها فى الفكر السورى وليست وليدة اللحظة، كما أن الظروف المحيطة بسوريا آنذاك كانت تدفعها إلى الوحدة وإلى التمسك بها. وبقدر ما كانت فرحتى بالوحدة شديدة، كان ألمى وحزنى أشد عندما وقع الانفصال.

قيل فى أسباب الانفصال ما قيل، ولكن الحقيقة المؤكدة أن المسئولية الكبرى فى فشل الوحدة تقع على عاتقنا، ذلك أننا صدَّرنا إلى سوريا أخطاءنا فى تلك التجربة، ودخلنا فيها بدون تخطيط أو إعداد. وقد قال لى بعض الأدباء الذين كانوا موجودين فى سوريا وقت الانفصال بمناسبة حضورهم لمهرجان أدبى، إن السوريين كانوا حانقين علينا بسبب تطبيق القرارات الاشتراكية عليهم، وكان لديهم شعور واضح بأن المصريين يعاملونهم كأنهم دولة خاضعة للاستعمار، وهو ما آلمهم وأصابهم بالإحباط. وانهارت الوحدة، وانهار

الحلم الكبير الذى عشت فيه وظننت فى لحظة ما أنه قابل لأن يصبح حقيقة واقعة ملموسة. ولحظة إعلان نبأ الانفصال كنت موجودًا فى صالون حلاقة بالإسكندرية، وسمعته من الراديو، فشعرت بهزة فى أعماقى وتشاؤم عارم، وكأن صعيد مصر هو الذى انفصل عنا وليست سوريا.

وإذا كانت القرارات الاشتراكية هى أحد أسباب الانفصال، فإن الأسلوب الخاطئ الذى طبقت به فى مصر كان أحد أسباب الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها مصر الآن. والحق أنه عندما صدرت تلك القرارات كنت من أشد المتحمسين لها، ولقد اعتقدت أنها نقطة الانطلاق نحو تحقيق الاشتراكية. وبما أننى من أنصار هذا المبدأ أعلنت تأييدى وموافقتى على تلك القرارات، وفهمت من خلال البيانات والتصريحات المصاحبة لها، أنها قائمة على أساس تجميع كل قوى الإنتاج فى يد الدولة. وأن الهدف من ذلك هو زيادة الإنتاج والعدالة فى التوزيع، فملأتنى تلك القرارات حماسًا وتفاؤلاً بالمستقبل، وكانت من الأحداث الكبرى فى حياتى. ولفت نظرى فى تلك الفترة أن الشيوعيين موجودون فى السجون، وتوقعت أن تقوم السلطة بالإفراج عنهم وتضعهم على رأس المؤسسات الاقتصادية فى الدولة لتنفيذ تلك القرارات، خاصة أنهم من أنصارها وأقدر الناس على المحافظة عليها. وهذا ما حدث بالفعل وأفرجت السلطة عن الشيوعيين، ولم تمر سوى فترة وجيزة حتى تولى بعضهم عددًا من المناصب القيادية فى المؤسسات الكبرى. ولكن بدأ اليأس يتسرب إلى نفسى بعد ما اكتشفت أن الموجودين فى المناصب القيادية والموكل إليهم إدارة القطاع العام يديرونه بعقلية الموظفين، وما أدراك ما عقلية الموظفين؟!. لقد عملت فترة طويلة من حياتى كموظف فى مؤسسات حكومية وأعرف أسلوب الموظفين فى العمل، وكيف يكون الروتين والوساطة وشعار «يا بخت من نفع واستنفع» هى المبادئ الأساسية فى العمل الوظيفى فى الحكومة. لذلك لم أدهش للحال الذى وصل إليه القطاع العام فى مصر، والغريب أن عددًا لا يستهان به من الأشخاص الذين وضعتهم السلطة لإدارة القطاع العام وتطبيق الاشتراكية كانوا أبعد الناس عن الإيمان بها، ومنهم أصدقاء لى كانوا يجلسون معنا على المقهى، ويلعنون اليوم الذى دخلت فيه الاشتراكية إلى مصر.

وإذا كنت تحمست للتأميم وللقرارات الاشتراكية وللقطاع العام، فإننى فى الوقت نفسه استأت من مدى التأميم للصحافة وقطاع الثقافة بوجه عام، وكرهت سيطرة الدولة على المؤسسات الصحفية لما فيها من تقييد للحرية وقتل للديمقراطية. وأكاد أقول إن

نقطة الخلاف المزمنة بينى وبين ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هى ما يتعلق بموضوع الديمقراطية والحريات، فكل الموضوعات بخلاف ذلك قابلة للنقاش.

لقد خرجت من تجربة فشل الوحدة مع سوريا وأنا أحمل فى نفسى قدرًا كبيرًا من الإحباط والتشاؤم، وبعد عام من الانفصال عاد إلىّ الأمل نفسه من جديد عندما قامت ثورة اليمن وقدمت مصر لها المساندة السياسية والعسكرية. تحمست لثورة اليمن كما تحمست للقرارات الاشتراكية فى بدايتها، وأيدتها كما أيدت عبد الناصر أمام العدوان الثلاثى على مصر. كان لحماسى لثورة اليمن أسباب:

أولها: أننى اعتبرت ثورة اليمن تعويضًا عما خسرناه فى سوريا بسبب الانفصال.

وثانيها: أن ثورة اليمن كانت بمثابة التأييد للثورة المصرية.

وثالثها: أننا نساعد فى إنشاء دولة عربية قوية وإخراجها من حالة التخلف والجهل التى عاشت فيها سنوات طويلة.

وفى أحد أيام عام ١٩٦٣ أبلغنى يوسف السباعى أن اسمى ضمن الوفد المصرى الذى سيسافر إلى اليمن، وكانت الحرب هناك وقتذاك قائمة. ولما حاولت الاعتذار لظروف صحية، حيث كان مرض السكر قد داهمنى عام ١٩٦٠، رفض السباعى قبول عذرى، وألمح فى حديثه معى، إلى أن اشتراكى فى هذه الرحلة قد تقرر برغبة من المشير عبد الحكيم عامر، فاستسلمت، وتحملت عذابًا لا يطاق طوال الرحلة.

وقد شعر السباعى بإحراج شديد لأنه ضغط علىّ لكى أسافر، وقال لبعض مرافقيه إنه فى شدة الخجل «فماذا سيقولون عنى؟ هل جئت به لأقتله؟!».

استغرقت رحلة اليمن سبعة عشر يومًا، وبدأت من ميناء الأدبية على ساحل البحر الأحمر، حيث حملتنا سفينة إلى ميناء الحديدة باليمن، وأمضينا فى رحلة الذهاب هذه أسبوعًا كاملاً، ومثله فى رحلة العودة، بالإضافة إلى ثلاثة أيام أمضيناها فى اليمن، والرحلة فى مجملها كانت مرهقة لى ولا تطاق. وفى رحلة الذهاب كان ظنى أن حرب اليمن انتهت والأمن هناك مستقر، وإلا فكيف يجرؤون على إرسال وفد مدنى إلى جبهة قتال؟. وفى صنعاء ذهبت لزيارة بعثة الموظفين المصريين التى أرسلتها مصر لتساهم فى إنشاء إدارة حكومية منظمة فى بلد لم يكن يعرف نظام الإدارة حتى ذلك الوقت. وسهرت فى ليلة قمرية

مع أفراد البعثة، ودار بينى وبين المشرف على البعثة «على الجمال» حوار طويل بدأته أنا بإبداء ملاحظاتى على استتباب الأمن فى العاصمة اليمنية، مما يدل على انتهاء المعارك العسكرية. ففوجئت بـ «على الجمال» يحكى لى عن الرعب الذى يعيشون فيه، وكيف أن سكان الجبال هجموا على مقر البعثة منذ يومين وكادوا يقتلونهم جميعًا، لولا تدخل القوات المصرية التى استخدمت أحدث أنواع المدافع فى رد الهجوم. عرفت الحقيقة المرة، وهى أن الحرب الدائرة قد تطول لسنوات، لأن القوات المصرية هناك لا تحارب جيشًا نظاميًا، بل قبائل متناثرة فى الجبال تعتمد على أسلوب حرب العصابات، من كر وفر، وكمائن متحركة، وغير ذلك.

لقد سقط كثيرون من جنودنا فى كمائن غادرة نتيجة عدم درايتهم بطبيعة اليمن الجبلية وطرقها الوعرة، وأحيانًا كانوا يضطرون لاتخاذ قرار بإبادة قرى بأكملها، بسبب اشتراك رجال من هذه القرى فى نصب هذه الكمائن. فكان الجنود يشعرون بصراخ ضمائرهم عندما يدخلون تلك القرى ويجدونها مشابهة تمامًا لقراهم فى مصر، من نساء عجائز وأطفال أبرياء ومساجد وحيوانات، فكانوا يجمعون أهل القرية بثرواتهم الصغيرة ويخرجونهم منها، ثم ينسفونها بالديناميت. أغلب جنودنا الذين حاربوا فى اليمن شعروا بوخز الضمير، وظلوا على هذه الحالة إلى أن دخلوا فى حرب ١٩٦٧ بعد عودتهم من اليمن. لم تكن ضمائرهم وحدها هى التى أصابها الشرخ، بل زاد الأمر على ذلك، فقد تحول البعض إلى ممارسة التجارة، فمن كان منهم يحصل على إجازة، يقوم فورًا بشراء بضائع من أسواق اليمن، وبيعها فى مصر.

وأثناء زيارتنا لمدينة «تعز» أخبرنى أنيس منصور ـ وكان من بين أعضاء الوفد ـ بأن مجموعة من ضباط المخابرات تريد أن ترتب معنا لقاء لاستشارتنا فى بعض القضايا. وتم اللقاء الذى بدأ بحديث طويل أدلى به ضابط كبير عن الحرب في اليمن، وتضمن حديثه حقيقة مريرة وهى أن هذه الحرب لن تنتهى، لأن مجموعة القبائل المعادية لنا تجد تمويلاً خارجيًا قويًا بالمال والسلاح، وأن هذه القبائل تحتمى بالجبال والأماكن الوعرة، ومن الصعوبة بمكان القضاء عليها وكسر شوكتها، فما العمل؟!.. طرح الضابط سؤاله علينا طالبًا إبداء الرأى والمشورة بصفتنا من كبار الكتاب والمفكرين فى مصر.

وتحدث يومئذ عدد كبير من المشاركين فى هذا اللقاء، أذكر منهم صالح جودت والدكتور مهدى علام، وغلب التحفظ على آراء من تحدثوا، فطلبت الكلمة لأقول رأيى،

وقلت بصراحة إن الحل الوحيد هو أن نفكر فى طريقة مشرفة للانسحاب من هذه الحرب، بعد أن نوفق بين القبائل المتناحرة ونخلق سلطة شرعية يمنية تحكم اليمنيين باختيارهم الحر. فطلب منى الضابط أن أكتب هذا الرأى بخط يدى، حتى يضمه إلى التقرير الذى سيرفعه يوسف السباعى إلى القيادة العليا فى مصر. ولمحت إشفاقًا فى عيون بعض المشاركين فى اللقاء، خوفًا علىّ من هذا الرأى الصريح الذى قد يسبب لى متاعب كبيرة فى مصر. وأشهد أنه لم يحدث لى شىء مما توقعوه، وكانت معاملة المخابرات لى عند عودتى إلى مصر فى غاية الذوق والاحترام. ورغم الحقائق المريرة التى عرفتها خلال تلك الرحلة إلى اليمن لم يخامرنى الشك فى قوة الجيش المصرى، وكنت أحيانًا أسمع بعض الهمس عن كيف يرسل عبد الناصر بالجيش إلى اليمن ويترك عدونا الرئيسى وهو إسرائيل؟. وكنت أرد على هؤلاء المتهامسين فى حدة، وأوضح لهم أن خوفهم ليس له ما يبرره، وأن لدينا جيشًا قويًا قادرًا على سحق إسرائيل، فالذى يرسل كل هذه القوات إلى اليمن، فى حين أن عدوه الرئيسى على الحدود، ويعرف أن الحرب بينهما يمكن أن تشتعل بين عشية وضحاها، لابد أن يكون لديه من القوة والعتاد عشرة أمثال ما أرسله إلى اليمن.

كان عندى ثقة غريبة فى قواتنا وإمكانياتنا العسكرية، وأذكر أنه فى ليلة الخامس من يونيو ١٩٦٧ كنت أجلس فى نادى القصة مع عدد من الأدباء والأصدقاء، ودار حديث طويل حول الحرب وتوقعاتهم لها.. قلت إنه إذا اشتعلت الحرب فإن قواتنا قادرة على الوصول إلى تل أبيب، وأن ما يشغلنى فى هذه الحرب ليس إسرائيل، وإنما موقف الأسطول السادس الأمريكى الموجود فى البحر المتوسط، وقلت إن قلقى كله مركز فى احتمال تدخله فى الحرب لإنقاذ إسرائيل.

كنت أعرف أن هناك فسادًا فى بعض مؤسسات الدولة، وأعرف شيئًا عن الممارسات الخاطئة لجهاز المخابرات، وأعرف أيضًا أن هناك بعض من يسرقون أموال الشعب، ولكن المؤسسة الوحيدة التى كان لدىّ اعتقاد أكيد بأن الفساد لا يمكن أن يصل إليها هى الجيش. وعلى قدر هذه الثقة، وعلى حجم هذا اليقين، كان ألم الصدمة، صدمة الهزيمة سنة ١٩٦٧.

* * *

الفصل الخامس عشر

زعماء مصر

سعد زغلول ـ جمال عبد الناصر ـ أنور السادات ـ حسنى مبارك

وجدانى كله مع الوفد وزعيمه سعد زغلول ـ فى صباى لم أكن أتخيل الحياة فى مصر بدون الوفد ـ لم أر سعد زغلول بعينى ولكننى مشيت فى جنازته ـ الفرق بين جنازة سعد زغلول وجنازة عبد الناصر ـ أطل السادات على شاشة التليفزيون فقلت لزوجتى: جمال عبد الناصر مات ـ لم أتصور أن يأتى يوم يموت فيه عبد الناصر كما يموت البشر ـ فى رثائى لعبد الناصر انتقدت عصره ـ أنا من أوائل المتبرعين فى مشروع توفيق الحكيم لإقامة تمثال عبد الناصر ـ قلت لزوجتى فى أول عهد السادات: هل يتولى هذا «الأضحوكة» رئاسة مصر؟! ثم اكتشفت مدى دهاء السادات وقدرته فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ ـ نقطة ضعف عبد الناصر هى عدم إيمانه بالديمقراطية والحوار ـ ثوار يوليو ليسوا على مستوى الثورة ومبادئها ـ أصبحت مصر فى عهد مبارك تحظى باحترام واسع فى المجتمع الدولى ـ مبارك نجح فى ما لم ينجح فيه الزعماء الأفذاذ الذين سبقوه ـ لماذا أخفى عبد الناصر حقيقة مرضه عن الشعب وعرفها الروس والأمريكان؟ ـ تولى عبد الحكيم عامر لمسئولية الجيش مهزلة بكل المقاييس ـ حضرت الاجتماع الأول للتنظيم الطليعى ـ قلت للقذافى: بما أننا لا نستطيع الحرب فلابد أن نسلك طريق التفاوض مع إسرائيل ـ أنا لم أؤيد السادات فى «كامب ديفيد».. هو الذى أيدنى!! ـ حرب الاستنزاف كلام فارغ ـ السادات شخصية غريبة الأطوار تدعو للحيرة والاستغراب ـ السادات يغضب من بيان الكتاب ويصفنى فى أحد الاجتماعات بـ «الحشاش» !! ـ السادات أيد أسلوب الاغتيالات فى النشاط السياسى قبل الثورة وكانت نهايته الدرامية بنفس الأسلوب ـ معركة أكتوبر هى الحرب التى أنقذت الروح العربية من الهزيمة ـ سياسة الانفتاح فى عهد السادات كان لها آثار

سلبية خطيرة على الثقافة والفن ـ ما فعله السادات فى أواخر حكمه لا يمكن تبريره لأنه اعتقل مصر كلها !! ـ مميزات شخصية حسنى مبارك واتفاقى معه فى سياسته الخارجية وموقفه المشرف من حرب الخليج ـ لا مانع من انتخاب مبارك مدى الحياة ما دام الشعب فى حاجة إليه.

■ فى هذا الفصل يتحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن انتماءاته السياسية بشكل واضح وصريح ومثير، ويربط ما بين هذه الانتماءات، والعهود والزعامات التى مرت بمصر، ويعتمد محفوظ فى تقييمه الصارم لزعماء مصر الذين عاش فى عهودهم المختلفة على مدى ما حقق هؤلاء الزعماء لمصر وللمصريين، ولعل هذا الفصل من فصول الكتاب سوف يكون أكثر فصوله إثارة للجدل والاتفاق والاختلاف مع نجيب محفوظ، ذلك لأنه لم يتردد فى التعبير عن آرائه بشجاعة ووضوح وشفافية ولم يتراجع عن النقد عندما كان يرى ذلك ضروريًا. ويتحدث نجيب محفوظ فى هذا الفصل بطريقة «التداعى الحر» أو الذكريات التى تجر بعضها بعضًا وتميل أحيانًا إلى الاستطراد، وهو الأمر الذى رأيت أن أتركه لما له من متعة ووضوح وفائدة.. ■

سعد زغلول

نجيب محفوظ: على الرغم من أننى لم ألتق بسعد زغلول، ولم أره رأى العين، فإنه أكثر زعماء مصر المعاصرين قربًا من نفسى. عندما اندلعت أحداث ثورة ١٩١٩، كان عمرى لا يتجاوز سبع سنوات، ومع ذلك كان وجدانى كله مع الوفد وزعيمه. وحكيت فى فصل سابق عن المرة الوحيدة التى كنت على وشك أن أرى فيها سعد زغلول فى ميدان عابدين، وكانت كل الظروف مهيأة لذلك، ولكننى رجعت يومها بخفى حنين. وفى اعتقادى أن الشعبية الكبيرة، والحب الجارف الذى ناله سعد زغلول يرجع إلى إحساس الناس آنذاك بأن هذا الشيخ العجوز ضحى بنفسه من أجلهم، ومن أجل حقوقهم ومصالحهم. فعندما نفاه الإنجليز فى المرة الأولى لم يكن أحد فى مصر يتوقع عودته مرة أخرى، وسعد نفسه توقع أن يلقى نفس مصير أحمد عرابى ومحمد فريد، كان المنفى وقتذاك يعنى الذهاب بلا عودة، وإذا حدثت العودة ـ مثلما الحال مع عرابى ـ يعود كسيرًا ذليلاً لا حول له ولا قوة بعد سنوات طويلة من النفى والانكسار والغربة. هذا التعاطف الشديد مع سعد زغلول خلق فى نفوس الناس حبًا جارفًا له امتد بالتبعية إلى حزب الوفد.

عندما خرج سعد زغلول من مصر لم يخطر بباله أن الشعب سوف يثور تلك الثورة الشاملة، كما أن الإنجليز أنفسهم لم يتوقعوا سوى حركة احتجاج محدودة،

سرعان ما تنتهى خلال أيام معدودة. ولكن ما حدث أذهل الجميع، حتى أن محمد فريد عندما بلغته أنباء الثورة وهو فى المنفى أبدى دهشة شديدة وقال: « أخيرًا ثاروا»!!. لقد كان لدى محمد فريد اقتناع بأن الشعب المصرى عبارة عن «قربة» مقطوعة، لا أمل فى رتقها فى تلك الظروف على الأقل. وجاء سعد زغلول ليصلح «القربة المقطوعة» ويحولها إلى أضخم ثورة شعبية فى تاريخنا الحديث.



سعد زغلول (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) رآه الطالب نجيب محفوظ (١٣ سنة) وذلك عام ١٩٢٤ فى ميدان عابدين
وهو ذاهب للقاء الملك فؤاد، وكان نجيب محفوظ يهتف مع الجماهير: «سعد أو الثورة»

بدأت الثورة بمظاهرات واحتجاجات فى صفوف الطلبة ما لبثت أن امتدت إلى كل فئات الشعب المصرى، وتحولت إلى مواجهات دموية مع قوات الاحتلال الإنجليزى، ثم تدخلت قيادة الوفد لتضفى شيئًا من التنظيم لتوجيه الناس وتحريكهم بشكل فعال. ومن بين عناصر التنظيم خرجت فكرة «التوكيل الشعبى»(١) التى لا نظير لها فى التاريخ، فقد حصل

---

(١) كان نص التوكيل الشعبى هو:

«نحن، الموقعين على هذا، قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا د. ولهم أن يضموا إليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تامًا» ـ وقد قام بالتوقيع على هذا التوكيل ملايين المصريين ـ رجالا ونساء ـ ومن لم يكن منهم يعرف القراءة والكتابة وضع بصمته على هذا التوقيع. إن إعلان هذا التوكيل وجمع التوقيعات عليه يتمان ابتداء من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨.

الوفد على توقيع أو «بصمة» ملايين المصريين بأنهم وكّلوا الوفد عنهم فى المطالبة بحق مصر فى الاستقلال. وعندما عاد سعد زغلول من منفاه استقبلته الجماهير استقبالاً أسطوريًا لم يتكرر مع زعيم آخر، وتحول سعد زغلول إلى بطل قومى وأب روحى للمصريين.

أما يوم جنازة سعد زغلول فهو من الأيام التى لا أنساها أبدًا. خرجت مع شلة العباسية وانتظرنا موكب الجنازة فى ميدان الأوبرا. كان المنظر مهيبًا، وسرنا على الأقدام مع الجماهير الحاشدة التى رفعت نعش الزعيم على أكتافها حتى مدافن الإمام.

أنا أختلف مع القائلين بأن جنازة عبد الناصر أضخم جنازة فى تاريخ مصر كله. ففى رأيى أن جنازة سعد زغلول لا تقل عنها، بل ربما تزيد إذا وضعنا الملاحظات التالية فى الاعتبار:

أولاً: سكان القاهرة عند وفاة عبد الناصر كانوا يزيدون عدة أضعاف عنهم يوم وفاة سعد زغلول.

ثانيًا: سعد زغلول مات حوالى العاشرة مساء وخرجت جنازته فى اليوم التالى مباشرة. أما عبد الناصر فظل عدة أيام بدون دفن حتى يحضر سكان الأقاليم إلى القاهرة، وكذلك زعماء العالم للمشاركة فى الجنازة.

ثالثًا: وسائل الإعلام الحديثة لعبت دورًا كبيرًا فى حشد الجماهير لجنازة عبد الناصر، فى حين لم تكن تلك الوسائل متوافرة يوم جنازة سعد زغلول.

أضف إلى ذلك أن الحزن كان شاملاً فى جنازة سعد زغلول من كل الفئات والطبقات والأحزاب، وكان الحزن صادقًا وعميقا، فقد مات سعد وهو زعيم الأمة كلها والأب الروحى لها. لا أبالغ إذا قلت إنه لا يوجد زعيم فى تاريخ مصر أحبه الناس حبًا صادقًا خالصًا مثل سعد زغلول. لقد كان الناس يحبونه إلى درجة العبادة، وينزلونه منزلة التقديس والإجلال. ولا أنسى أبدًا منظر الناس فى جنازته وهى تبكى بطريقة هيستيرية غريبة، ولا منظر السيدات وهن يصرخن بأصوات مرتفعة من شرفات المنازل. وفى جنازة عبد الناصر لا أنكر مدى حزن فئات عريضة من الشعب عليه حزنًا لا يقل عن حزن الناس على سعد زغلول. ولكن فى المقابل كانت هناك فئات أخرى ترقص قلوبها فرحًا لموت عبد الناصر، خاصة هؤلاء الذين صادر أموالهم ووضعهم تحت الحراسة، وأذكر أنه بعد انتهاء مراسم تشييع جنازة عبد الناصر ذهبت إلى مقهى «ريش» مع مجموعة من الأصدقاء، وفى مقعد

قريب منا سمعت أحد الجالسين يلقى نكتة جديدة عن الجنازة، مما يعطى فكرة على أن هناك فئات من المصريين فرحت فى موت عبد الناصر !

جمال عبد الناصر

مازالت وقائع يوم وفاة عبد الناصر ماثلة فى ذهنى وكأنها جرت بالأمس القريب. فى ذلك اليوم كنت عائدًا من مدينة الإسكندرية مع أسرتى، وفور انتهائنا من تناول طعام العشاء جلست لمشاهدة التليفزيون، وقبل أن أدخل الفراش لاحظت أن القناة الأولى فى التليفزيون تبث تلاوة قرآنية فى غير موعدها، فأدرت المؤشر إلى القناة الثانية، فوجدت أيضًا تلاوة قرآنية، وبدأ الشك يتسلل إلى نفسى، ووردت إلى ذهنى خواطر كثيرة. قلت لزوجتى إننى أشعر بأن تلاوة القرآن المتكررة فى التليفزيون وفى هذا الوقت من اليوم وراءها شىء ما. ولما استوضحتنى زوجتى، قلت لها إننى أظن أن الفلسطينيين قتلوا الملك حسين. كان ظنى مبنيًا على أساس الموقف المتفجر بين الملك حسين والفلسطينيين بعد مذابح سبتمبر أو ما سمى «أيلول الأسود». ولما طالت التلاوة القرآنية اتصلت هاتفيًا بجريدة « الأهرام» عسى أن أجد من يزودنى بمعلومات عما يجرى، ولكن باءت محاولتى بالفشل، ويبدو أن من سألتهم تهربوا منى، فلم أجد بدًا من الجلوس من جديد أمام شاشة التليفزيون، لعلهم يفسرون للناس سبب انقطاع البرامج وبث القرآن فقط.

فى تلك الأيام كان يعمل لدينا خادم فى البيت كنا أرسلناه فى شراء بعض الحاجيات، فما إن عاد حتى قال لى «إن الريس مات»، وأنه سمعهم فى الخارج يقولون ذلك. أصابنى الذهول والاستنكار وأسكت الخادم وطلبت منه عدم تكرار مثل هذا الكلام أمام أى شخص.

وفى الحقيقة لقد هزتنى كلمة الخادم، وشعرت بالخوف من أن يكون صادقًا فيما قاله، كما شعرت بالخوف على أسرتى خشية من أن يكون كاذبًا فيسبب لنا متاعب نحن فى غنى عنها. وظللت على هذه الحال من الحيرة والقلق أمام جهاز التليفزيون حتى انتهت تلاوة القرآن، وتم الإعلان عن أن نائب الرئيس أنور السادات سوف يلقى بيانًا إلى الأمة. ولما أطل السادات بوجهه على شاشة التليفزيون قلت لزوجتى: جمال عبد الناصر مات!

كان وجه السادات عندما ألقى البيان مرهقًا ومكتئبًا، وكانت عيناه شاردتين. وفى تلك

اللحظة بالذات خطر لى شعور غريب جدًا ليس له علاقة بما نحن فيه. فقد أفقت على حقيقة ربما غابت عن ذهنى، وهى أن الناس جميعًا ستموت. كان عبد الناصر يعطينى شعورًا خرافيًا بالخلود، فلم أتصور أن يأتى يوم يموت فيه كما يموت البشر.

أما وقد رحل وفارق الدنيا فمن المؤكد أننا جميعًا راحلون. وأفقت على صوت زوجتى وهى تقول: يللا خلينا نتنفس!!. وأحزننى قولها ـ مع خلوه من الشماتة ـ فرغم أخطاء عبد الناصر الكبيرة، ورغم أن هناك قدرًا من السخط الذى كان يعتمل داخلنا ضده، إلا أن رحيله كان مؤثرًا للغاية، لأن الرجل أعطانا من الآمال والأحلام ما لم نشعر به من قبل، وسيطر على تفكيرى نفس السؤال الذى راودنى يوم تنحى عبد الناصر، وهو: من فى مصر يمكن أن يخلف عبد الناصر؟!

وفى صباح اليوم التالى اتصل بى الأستاذ محمد حسنين هيكل بنفسه وطلب منى أن أكتب كلمة رثاء فى عبد الناصر. وفى تلك الفترة كانت كتاباتى فى جريدة «الأهرام» لا تزيد على كتاباتى الأدبية. ولكننى كتبت ما طلبه هيكل، وذهبت إلى «الأهرام» وسلمت الكلمة التى لم تكن رثاء خالصًا[١]، بقدر ما كانت تتضمن بعض تلميحات فى نقد عبد

---

(١) نشر الأهرام كلمة نجيب محفوظ فى رثاء عبد الناصر يوم ٢ أكتوبر ١٩٧٠ أى بعد وفاة عبد الناصر بأربعة أيام، وكان عنوان هذا الرثاء «كلمات من السماء»، وجاءت كلمة نجيب محفوظ على شكل حوار بين الكاتب وبين جمال عبد الناصر، وهذا هو نص الكلمة:

* حياك الله يا أكرم زاهد.
* حياكم الله وهداكم.
* إنى أحنى رأسى حبا وإجلالا.
* تحية متقبلة ولكن لا تنس ما سبق من قولى «ارفع رأسك يا أخى».
* نحن من الحزن فى ذهول شامل.
* لا يحق الذهول لمن تحدق به الأخطار وتنتظره عظام الأمور.
* يعزينا بعض الشىء أنك إلى جنة الخلد تمضى.
* وسيسعدنى أكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة.
* إن عشرات التماثيل لن تجعلك فى خلود الذكرى، «وهذه العبارة معناها أن عشرات التماثيل لن تفى بحقك فى خلود ذكراك».
* لا تنسوا تمثالين أقمتهما بيدى وهما «الميثاق» و«بيان ٣٠ مارس».
* ووراءك فراغ لن يملأه فرد.
* ولكن يملؤه الشعب الذى حررته.
* سيبقى ذووك فى صميم الأفئدة. =

الناصر. كانت حالة التأثر عامة، وكان الحزن عظيمًا على الرجل بدليل الإقبال الكبير على التبرع للمشروع الذى اقترحه توفيق الحكيم بإقامة تمثال لعبد الناصر، وكنت أنا من أوائل المتبرعين.

* * *

لقد كنت فى بيتى عندما أعلن عن تولى أنور السادات مسئولية الحكم بعد عبد الناصر، وضربت كفًا بكف وأنا غير مصدق، وقلت لزوجتى: هذا «الأضحوكة» هل سيصبح رئيسًا لمصر؟!

ورغم أن السادات كان هو الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كنا نعرفه نتيجة اشتراكه فى النشاط السياسى قبل الثورة، ولدوره فى قضية مقتل أمين عثمان[1]، إلا أن منزلته فى نفوسنا متدهورة. وكنا نعتبر السادات فى آخر صف من قيادات ثورة يوليو، خاصة أن دوره ظل لسنوات طويلة شرفيًا، مقارنة بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين والبغدادى وكمال الدين حسين، وبمعنى أوضح كان السادات العضو «المركون» أو «الاحتياطى»، كما لم يتول منصبًا مؤثرًا طيلة عصر عبد الناصر. ولذلك لم أتصور أبدًا أن

= * أبنائى هم الفلاحون والعمال والفقراء.
* وجدت قرة عينى فى توديع الكرة الأرضية لك.
* أما قرة عينى ففى استقلال الوطن العربى والحل العادل لأرضه الشهيدة.
* سيكون أحب الطرق إلى نفسى الطريق إلى مسجدك.
* طريقى الحق، هو الطريق إلى العلم والاشتراكية.
* نستودعك الله يا أكرم من ذهب.
* كلنا ماضون ومصر هى الباقية.

(١) تم اغتيال أمين عثمان باشا فى ٥ يناير ١٩٤٦، بعد أن أطلق عليه حسين توفيق ثلاث رصاصات، وقد قبض على حسين توفيق الذى اعترف بأن أنور السادات كان من شركائه فى ارتكاب الجريمة، وقبض على السادات، وحوكم فيما سمى باسم قضية «الاغتيالات السياسية»، ولكن المحكمة برأت السادات لعدم العثور على دليل ضده. رغم أنه من الثابت تاريخيا أن السادات كان مشاركا فى عملية الاغتيال. وكان أمين عثمان متهما بأنه صديق للإنجليز، وأنه كان من الذين اشتركوا فى تدبير حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى دخلت فيه دبابات الإنجليز قصر عابدين وهددت بعزل الملك فاروق إذا لم يكلف النحاس باشا بتأليف الوزارة. ولذلك تردد كثيرا أن الملك فاروق هو الذى دبر اغتيال أمين عثمان عقابا له وانتقاما منه.

يكون هو خليفة عبد الناصر، ولما حدث ذلك بالفعل اعتبرت المسألة غاية فى السخرية والسخف.

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين عبد الناصر والسادات، لأن الفروق هائلة، وذلك على عكس الوضع بالنسبة لسعد زغلول وخليفته مصطفى النحاس. فعندما تولى النحاس رئاسة الوفد بعد سعد زغلول، كان الناس يعرفون قدر النحاس ودوره البارز فى تاريخ حزب الوفد. صحيح أنهم يعشقون سعد زغلول ويرفعونه فوق الجميع، إلا أنهم فى الوقت نفسه يدركون أن النحاس هو الرجل الثانى المؤهل للقيادة. ولذلك فمنذ اليوم الأول لخلافة النحاس قوبل الرجل باحترام شديد، ورفعته الجماهير على الأعناق. أما بالنسبة للسادات فقد اختلف الوضع، فقد كان هناك طابور طويل يسبق السادات فى الأحقية والجدارة بخلافة عبد الناصر. ومن حسن حظ السادات أن أفراد هذا الطابور يشعرون فى أنفسهم بقوة الزعامة، فكان فى ذهن البغدادى أو كمال الدين حسين أو زكريا محيى الدين أو جمال سالم، أنهم لا يقلون عن عبد الناصر فى شىء، وأنه لا يتميز عنهم بشىء، أما السادات فقد كان من قوة الدهاء بما جعله ينطوى تحت جناح عبد الناصر، ولذلك كان عبد الناصر يشعر بالارتياح تجاه السادات، وكثيرًا ما كان يذهب لزيارته فى منزله. وعندما حل العام ١٩٧٠ كان عبد الناصر تخلص نهائيًا من غالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة الأقوياء، وكان آخرهم زكريا محيى الدين، فأصبح الطريق مفتوحًا أمام السادات للقفز على السلطة.



مصطفى النحاس (١٨٧٦ - ١٩٦٥)
خليفة سعد زغلول والذى تمسك بكل المبادئ الرئيسية التى نادى بها سعد. ومن غرائب المصادفات أن النحاس توفى يوم ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ وهو نفس اليوم الذى توفى فيه سعد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧.

ظلت فكرتى عن السادات سيئة، واقتناعى بأنه غير كفء لتولى المسئولية بعد عبد الناصر ثابتا، حتى اكتشفت مدى دهائه وحنكته فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١. حيث استطاع أن يتخلص من «عمالقـة» أشداء كان يراهم حجر عثرة فى طريقه، ولأول مرة أشعر فى حديثه وبيانه ـ الذى ألقاه آنذاك ـ بأنه أثّر فى نفسى، بعد ما كان يثير فينا من قبل السخرية والاستهانة به.

لقد كانت أخطاء عبدالناصر كثيرة، ولكن خطأه الأكبر الذى أثار غضبى عليه هو أنه أضاع فرصة تاريخية نادرة لينقل مصر نقلة حضارية هائلة، أشبه بما حدث فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كانت كل الظروف مهيأة له، وكنا نأمل منه الكثير الذى نتمنى تحقيقه على يديه، ولكنه أضاع الفرصة، بمعاركه الكثيرة التى خاضها. وفى التاريخ الإنسانى تجد أن لكل بطل تراجيدى «مأساوى» نقطة ضعف تكون سببًا فى القضاء عليه، وكانت نقطة ضعف عبد الناصر هى فى عدم إيمانه بالديمقراطية والحوار واستئثاره بالسلطة وضيق صدره بالرأى الآخر. ولو أقام عبد الناصر أى نظام ديمقراطى، حتى ولو كان مجلس شورى مقننا، بمعنى أن يؤخذ فيه برأى أغلبية الأعضاء، ولا يكون مجرد مجلس استشارى يستطيع حله عندما يريد. لو أقام عبد الناصر هذا النظام «شبه الديمقراطى» لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل. ولتجنبنا الدخول فى ذلك الصدام مع قوى الاستعمار، ولصفينا ما بيننا وبين إسرائيل، ولما دخلنا حربى ١٩٥٦و ١٩٦٧، ولا كانت هناك حاجة لحرب أكتوبر ٧٣، وكنا سرنا فى مشروع «القومية العربية» بخطوات عاقلة وحكيمة، كان من المؤكد أنها ستأتى بنتائج أفضل.

كانت مصر فى تلك الأيام التى سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢ أشبه بالسفينة التى تحيط بها العواصف من كل جانب، وتحتاج إلى ربان حكيم ماهر يستطيع أن يتفادى تلك العواصف، ويصل بها إلى الشاطئ. وللأسف لم تتوافر فى الربان الحكمة التى تساعده على مواجهة العواصف، أضف إلى ذلك حالة السلبية التى كان عليها الشعب المصرى فى تلك الفترة، خاصة أنه كان خارجًا من تجربة ديمقراطية غير مكتملة انتهت بالتمزق والمشاحنات والفوضى بين الأحزاب، وهى ديمقراطية وقف ضدها الإنجليز والملك، وبمرور الزمن أصبح حزب الوفد أضعف من أن يفرض رأيه فى مواجهة الاثنين: الإنجليز والملك معًا، وتكونت بمساعدة الملك والإنجليز أحزاب انضمت إلى أعداء الشعب، وكان الملك والإنجليز وأحزاب الأقلية جميعًا يعتقدون أن الشعب المصرى لا يصلح معه الأسلوب

الديمقراطى، ونتيجة لهذا الانقسام دخلت الأحزاب والقوى السياسية فى صراعات عنيفة أدت إلى قيام الثورة.

والحقيقة أن مبادئ ثورة يوليو وأهدافها إنسانية وعظيمة، وطالما حلم بها وتمناها كل المصريين، ولكن ما حدث هو أن الثوار لم يكونوا على مستوى الثورة ومبادئها. وكانت المسألة أشبه بطبيب امتياز (حديث التخرج) أسندت إليه عملية جراحية خطيرة لمريض أشرف على الموت، فكان من الطبيعى أن يؤدى جهل الطبيب إلى وفاة المريض. وقد يقال إن موقع مصر الجغرافى يجعلها مطمعًا للقوى العالمية، ولكن هذه ليست مشكلة عسيرة تستعصى على الحل، لأن انتهاج سياسة متوازنة، سيحقق مصالحنا ويقيم نوعًا من التوازن بين هذه المصالح ومصالح الآخرين، وهى السياسة التى اتبعها الرئيس حسنى مبارك. فمن الواضح للجميع أن الرئيس مبارك أعاد علاقات مصر بالعرب، وأقام علاقات متوازنة مع الدول الكبرى، فأصبحت مصر تحظى باحترام واسع فى المجتمع الدولى، وأصبحت صديقة للعالم كله، ولم يعد لها خصومات معقدة أو مشاكل مع تلك الدول التى طالما اصطدمنا بها وعاديناها.

* * *

كنا فى جلساتنا بكازينو قصر النيل ندير حوارات طويلة حول مسألة علاقات مصر بالعالم من حولها، وأذكر تشبيهًا قلته فى هذه الجلسات، وهو أن علاقتنا بالعالم الخارجى أشبه بعلاقة أحد الكواكب بالمجموعة الشمسية، فعلى الكوكب أن يسير فى فلك خاص به، دون أن يصطدم بالكواكب الأخرى التي تدور من حوله. كما أن على هذا الكوكب أن يدور حول الشمس بحساب، فلا يقترب أكثر من اللازم حتى لا يحترق، أو يبتعد فيموت سكانه من البرد. أعود فأقول إن الرئيس حسنى مبارك نجح فيما لم ينجح فيه الزعماء الأفذاذ الذين سبقوه، حيث سار بالكوكب فى الفلك المناسب، وحافظ على المسافة بينه وبين الشمس، وربما يكون ذلك راجعًا إلى بساطته وقربه من المواطن المصرى، وإحساسه بمشاكله ومطالبه، كما أن الرئيس مبارك قد نجا تمامًا من مرض جنون العظمة.

* * *

من أخطاء عبد الناصر ـ التى لا تغتفر ـ إخفاؤه المعلومات عن الشعب، لدرجة أننا لم نعرف شيئًا عن مرضه إلا بعد وفاته، وفوجئنا بأنه كان مصابًا بمرض خطير فى قلبه،

وأنه كان ممنوعًا من العمل لفترة غير قصيرة، ومصر تحكمها «لجنة»، وأن الروس يعلمون بحقيقة مرضه حيث كانوا يعالجونه، أما الشعب المصرى فلا يعرف شيئًا عن ذلك. وأعتقد أن الأمريكان كانوا يعرفون بمرض عبد الناصر، ويعدون العدة لخلافته، مثلما كان الإنجليز لديهم تقرير شامل عن مرض سعد زغلول، واستعدوا لما بعد وفاته. وقيل إن الغرب كان يعد «السادات» منذ أوائل الستينيات ليحكم مصر، وقيل إنه كان يتقاضى أموالا من الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق رجل المخابرات كمال أدهم، كما قيل إن تقارير السادات المبالغ فيها هى التى جعلت عبد الناصر يندفع إلى حرب اليمن، وذكر محمد حسنين هيكل هذا الأمر فى أحد كتبه، وعنوانه فيما أذكر «لمصر لا لعبد الناصر». والحقيقة أن هذا الكلام لم تثبت صحته، ولا يمكن أخذه على عواهنه، خاصة أن هيكل كان بينه وبين السادات ما صنع الحداد.

* * *

لم أقبل من عبد الناصر أيضا إسناد مهمة قيادة الجيش إلى عبد الحكيم عامر. وانطباعاتى عن عامر على المستوى الشخصى تختلف عن انطباعاتى عنه كشخصية عامة. فهو فى الحالة الأولى إنسان يتمتع بالطيبة والبساطة والقيم الصعيدية النبيلة، أما كشخصية عامة فكنت أستضعفه، وأرى أن توليه مسئولية الجيش بمثابة مهزلة. كنت أفهم أن يسند إليه عبد الناصر وظيفة إشرافية، ويعطى مهمة قيادة الجيش الفعلية لرجل يتمتع بالكفاءة العسكرية. أما أن يعطيها لعامر دون أن تكون لديه الإمكانيات التى تؤهله لها، فهو أمر لم أستسغه أو أقبله، بل إننى أعتبره السبب الرئيسى فيما حدث للجيش المصرى فى الخامس من يونيو ١٩٦٧، ومن الملاحظات التى لفتت نظرى أن عامر هو الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى ظل إلى جوار عبد الناصر فى مسئولية الحكم الفعلية، بخلاف الأعضاء الآخرين الذين أقصاهم عبد الناصر من مسرح الأحداث، حتى أصبحنا نتذكرهم كأشباح. وكنا نعتقد لفترة طويلة أن عامر ظل طوال هذه الفترة منطويا تحت جناح عبد الناصر، حتى تكشفت مفاجآت ما بعد النكسة، فعرفنا أن المشير عبد الحكيم عامر هو الذى كان يتحكم فى الرئيس جمال عبد الناصر. ولذلك أستبعد ما قيل عن انتحار المشير، وأظن أنهم تخلصوا منه، وظنى هذا تؤيده عدة دلائل:

أولها: ما ذكر لى حسن حسين، وهو صديق تعرفت عليه عندما كنت أسكن فى العباسية وكان يقيم بجوارنا. والأهم من ذلك أن حسن حسين هو زوج شقيقة عبد الحكيم عامر،

وهو فى الوقت نفسه ابن خالة تحية هانم زوجة عبد الناصر، أى أنه حاز المجد من أطرافه! قابلت حسن حسين فى الإسكندرية بعد الإعلان عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر وكانت معه السيدة حرمه شقيقة المشير، ورأيت حسن حسين فى حالة حزن شديدة، ووجدت لديه اعتقادا راسخا بأن المشير لم ينتحر، بل مات مقتولا.

ثانيا: أن الفريق محمد فوزى، الذى تولى الجيش وقام بتنفيذ أوامر عبد الناصر، لم يكن على علاقة طيبة بالمشير عامر، بل كانت بينهما كراهية متبادلة، وهذه الملابسات كلها ترجح أنهم تخلصوا من عامر بقتله.

* * *

من خلال قراءاتى فى التاريخ، خاصة تاريخ الثورات الكبرى، وجدت أن هناك قاعدة مشتركة تنطبق عليها جميعا، وقد أشرت إلى ذلك فى رواية «ثرثرة فوق النيل». وهى أن الثورة يدبرها الدهاة وينفذها الشجعان ويفوز بها الجبناء. فقد وجدت أن الثورة يقوم بها مجموعة من الأفراد، وعندما يصلون إلى الحكم يبدأ الصراع فيما بينهم، وينتهى بانفراد أحدهم بالسلطة بعد أن يصفى الآخرين. حدث ذلك فى الثورة الفرنسية بين مارا ودانتون وروبسبير، وفى الثورة الروسية بين ستالين وتروتسكى وزينوفيف، وفى الثورة المصرية بين أعضاء مجلس قيادتها. والغريب أن ذلك الذى يتمكن من الانفراد بالسلطة غالبا ما ينتهى مصيره بكارثة. فروبسبير مات ذبيحا، وستالين ذبحوه بعد وفاته، وما حدث لعبد الناصر بعد وفاته لم يكن بأقل بشاعة.

* * *

تمر الثورات بمراحل، مرحلة ما قبل الشرعية، حيث يكون الهدف الرئيسى لمدبريها هو الوصول إلى السلطة، ثم مرحلة الديكتاتورية وانفراد الزعيم بالحكم، وقد تمر سنوات طويلة حتى تستقر الأمور وتصل إلى مرحلة الشرعية والديمقراطية. وفى تلك السنوات التى قد تطول حتى الوصول إلى الشرعية يستفيد من الثورة الانتهازيون أو الأذكياء الجبناء الذين لم يكن لهم دور فعال فى مراحلها الأولى من أمثال «فوشيه» و «تاليران» فى الثورة الفرنسية.

ومن ملاحظاتى الأخرى على الثورات أن الأوضاع فى المجتمع القديم تساعد على نجاحها، وتصرفات الحكم السابق على الثورة تعجل بنهايته. فقبل الثورة الفرنسية حاول

وزير المالية «نيكر» أن يملأ خزانة الدولة الخاوية بفرض ضرائب على النبلاء ورجال الدين فى محاولة لإنقاذ الأوضاع المتردية وتوفير رغيف الخبز للجياع، فوقف النبلاء ورجال الدين فى طريق محاولاته الإصلاحية، وحرضوا الملك عليه حتى عزله، وكانت النتيجة استمرار الأوضاع السيئة التى ساهمت فى قيام الثورة وإزالة المجتمع القديم. وفى روسيا بعد الحرب العظمى جاءت حكومة إصلاحية برئاسة «كرنيسكى»، حاولت أن تعالج الأخطاء الموجودة فى عهد القيصر الروسى الأخير «نيقولا الثانى»، وخاف الشيوعيون من نجاح الحكومة فعجلوا بالثورة. وفى مصر كانت أخطاء الملك فاروق ومحاولاته المستمرة لتزوير الانتخابات وإبعاد الوفد عن الحكم عاملاً رئيسيًا فى قيام الثورة، ولو تدارك الملك هذه الأخطاء لكانت الملكية مستمرة حتى يومنا هذا فى مصر.

* * *

وفى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكنوع من التفكير العملى فى مستقبل مصر بعد النكسة تكون التنظيم الطليعى، ودعيت لحضور الاجتماع الأول الذى رأسه يوسف السباعى. فى الحقيقة شعرت فى البداية بالخوف والتوجس من ذلك التنظيم، وخيل إلىّ أنه تنظيم سرى يعمل ضد الحكومة، وقلت لنفسى إنه ربما يكون «تنظيم ضباط أحرار جديدا» برئاسة السباعى، ويهدف إلى قلب نظام الحكم، وسيقودنا ـ نحن أعضاءه ـ للهلاك. فترددت فى الانضمام إليه، إلى أن اتصل بى السباعى ليدعونى لحضور الاجتماع الأول للتنظيم، فطلبت منه أن يوضح لى حقيقة هذا التنظيم وأهدافه، وحمدت الله أن التنظيم اجتمع مرة واحدة ولم يكررها. بعدها دعانا الدكتور ثروت عكاشة لحضور مؤتمر عام يضم قيادات وزارة الثقافة، وحضرته بصفتى مديرًا لمؤسسة السينما. وفى ذلك المؤتمر دار حوار مفتوح حول النكسة، وما ينبغى عمله لنخرج منها، والحلول المقترحة لذلك. أذكر أننى قلت فى المؤتمر إن الطريق الوحيد للخروج من هذه الأزمة هو العودة للديمقراطية والحوار وإطلاق حرية تعدد الأحزاب والآراء، وأن نرضى بالحزب الذى يصل إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة نزيهة حتى ولو تفاوض مع إسرائيل. وقلت إن ما حدث فى ٥ يونيو لم يكن حربًا بين مصر وإسرائيل، بل كان مسرحية دولية كبرى لا قبل لنا بها، وإذا لم ننتبه لها فسوف تستنزف أموالنا وطاقتنا، ونتيجتها الوحيدة هى تخلفنا عن ركب الحضارة والتقدم.

قلت هذا الرأى فى عهد عبد الناصر حوالى نهاية سنة ١٩٦٧ أو أوائل سنة ١٩٦٨، وكررته فى عهد السادات أمام العقيد القذافى عندما حضر إلى مبنى «الأهرام» والتقى

بالأدباء والمفكرين والكتّاب. فقد زارنا القذافى فى «الأهرام» وصافحنا وتناول طعام الغداء معنا، ثم عقد معنا حوارًا مفتوحًا، طرح علينا فيه هذا السؤال: ما رأيكم فى الموقف الذى تعيشه الآن الأمة العربية بعد أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس والجولان وسيناء؟ وما هو تصوركم لحل هذه الأزمة؟ فرفعت يدى وطلبت الكلام من الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى كان يدير الحوار، وعندما تكلمت طرحت على الحاضرين ـ بدورى ـ سؤالاً: هل فى إمكاننا الآن أن نحارب إسرائيل؟. وأجاب أحد الحاضرين ـ وأظن أنه الأستاذ أحمد عباس صالح الذى أكد أنه ليس بوسعنا الحرب فى تلك الظروف، وأن أى حركة سنقوم بها يمكن أن تستغلها إسرائيل فى ضرب منشآتنا الحيوية. وعقبت على إجابته بالقول:

ـ بما أننا لا نستطيع الحرب فلابد أن نسلك الطريق الآخر، طريق التفاوض، أما الحالة التى نعيشها والمعروفة باللاسلم واللاحرب فإن التاريخ لم يعرف مثلها من قبل، كما أن نتائجها ضارة جدا لنا.

علق العقيد القذافى على رأيى قائلا:

ـ أنت معذور فى أن تقول مثل هذا الكلام لأن تكاسل الرؤساء العرب يدعو إلى خلق هذه الأفكار الانهزامية.

وتدخل الأستاذ هيكل فى الحديث محاولا تغيير مجراه، لأنه لاحظ أن الدكتور حسين فوزى الذى تحدث قبلى يؤيد التفاوض، كما كان توفيق الحكيم يتوثب لإعلان رأيه هو الآخر، فأعطى هيكل الكلمة لأشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر. وأكد مروان أن الحرب مستمرة. وأعلن رفضه للرأى القائل بوجوب التفاوض، وذكر لنا أن مصر فى طريقها للحصول على صفقات أسلحة ستمكنها من دخول المعركة.

لم تنشر الصحف في اليوم التالى ما دار فى ذلك الحوار. ولكنى ظللت أردد رأيى فى جلساتنا بمقهى «ريش»، ولكن هذا الرأى لم يعرفه الناس على نطاق جماهيرى إلا من خلال الحوار الذى أجراه معى الأستاذ سيد الشوربجى ونشره فى جريدة «القبس» الكويتية بالقاهرة. تم الحوار على مقهى «ريش» ودار حول الأدب وقضاياه، وعندما وصلنا إلى القضايا السياسية قال لى إن لى الحق فى أن أمتنع عن الإجابة عن الأسئلة المحرجة، لأن أى رأى مخالف يمكن أن يثير ضدى عاصفة. فقلت له إننى سأقول رأيى بصراحة، وهو ما كان.

ظهر الحديث كاملا فى «القبس» متضمنا رأيى لأول مرة منشورا على الناس فى مسألة التفاوض مع إسرائيل، وأثار الحديث ردود فعل هائلة. وفتحت «القبس» صفحاتها لمن يريد الرد، وعلى مدى ستة شهور كاملة تعرضت لسيل من الشتائم كان بعضها يحتوى على ألفاظ جارحة واتهامات حادة، حتى أن بعضهم قال عنى بالحرف الواحد: «أحسن لك تروح تبيع ترمس!». لم يقتصر الأمر على ما ينشر فى «القبس»، بل كتب كثيرون فى صحف مصرية يسفهون آرائى وينتقدوننى بقسوة، ومع ذلك ظللت متمسكا برأيى لم أحد عنه. لقد دخلت فى مناقشات لا حصر لها، منها مناقشة طويلة دارت بينى وبين فتحى عرفات ـ شقيق ياسر عرفات ـ فى بيت الصديق بهجت عثمان. وقال لى: إن الفلسطينيين غاضبون منى، وإن بعض المتطرفين منهم هددوا بقتلى. ولكننى فوجئت بقوله إنه ـ بينى وبينك ـ مقتنع بكلامى، ويعرف أن رأيى عقلانى وصحيح، ولكن المشكلة كما لمسها هى: أن اليهود بعد ٥ يونيو رحبوا بالحوار وأبدوا استعدادا لتقديم تنازلات إذا اعترفنا بإسرائيل، ولكنهم مع مضى الوقت واستيطانهم فى الأراضى التى احتلوها واستقرارهم بها، بدأوا يتغيرون ويرفضون التفاوض على أساس تقديم تنازلات.

فيما بعد تفهم كثير من الفلسطينيين وجهة نظرى، وكانت أكثر الوفود العربية التى زارتنى بعد حصولى على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ من الفلسطينيين، وأذكر أننى جلست مع رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية فاروق قدومى، ودار بيننا حوار طويل، ووجدته متفهما للآراء التى قلتها بشأن المفاوضات مع إسرائيل، وكان ذلك قبل الإعلان عن مفاوضات أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين بسنوات.

وكان أكثر ما يضايقنى ويثير أعصابى عندما نشر حديثى فى «القبس» هو اعتقاد بعض الناس بأننى أطالب بالسلام من أجل إسرائيل، ولو كان لدى هؤلاء ذرة من التفكير المنطقى الموضوعى لفهموا أننى أنشد السلام من أجل هؤلاء البسطاء الذين طحنتهم الحروب. لو كنا أنفقنا نصف الأموال التى اشترينا بها السلاح على التنمية لكانت تكفى، إن لم يكن لإزالة إسرائيل، فعلى الأقل لتحجيمها. فليس شرطا أن تستعيد حقوقك بالحرب، فقد يكون من الأفضل والأجدى أحيانا استعادتها بالتنمية كما فعلت ألمانيا واليابان. الدولتان هزمتا هزيمة منكرة فى الحرب العالمية الثانية واستطاعتا أن تردا على الهزيمة بغير سلاح وبغير دمار، وحصلتا على حقوق ما كانتا لتحصلا عليها بالحرب.

* * *

هذه دروس يجب أن نستوعبها، نحن الآن فى عصر أساسه الحضارة، وإذا لم نكن على مستوى الحضارة الحديثة، فسوف نصبح مجرد ذكرى مثل الديناصورات. وعندما كنت أنادى بالتفاوض مع إسرائيل، كان ماثلا أمام عينى الفرق الهائل فى المستوى الحضارى والتقدم التكنولوجى بيننا وبينهم، والصراع لا تحسمه فقط القوة العسكرية والحشود الضخمة، بدليل أن صدام حسين كان لديه مليون جندى وأسلحة مرعبة تكفى لتدمير عدة دول لا دولة واحدة، ومع ذلك كان مصيره كما نعرف. وبعد النكسة كان من المفروض أن ننتبه إلى هذه النقطة: أن ضعف التنمية يؤثر على الجانب العسكرى والحضارى. ولذلك لم أندهش عندما عرفت أن عبد الناصر نفسه كان لديه الاستعداد للتفاوض مع إسرائيل. وجاء وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى المنطقة حاملاً فى حقيبته مشروعًا للتفاوض رفضته إسرائيل فاستقال احتجاجًا. وعندما وقع السادات اتفاقية كامب ديفيد كتب بعضهم يقول إننى سرت فى ركاب السادات، وأيدت المعاهدة من منطلق عادتى فى نفاق الحكم. مع أن الرأى المنصف يقول إن السادات هو الذى أيدنى، لأن موقفى من التفاوض معلن قبل أن يتولى السادات حكم مصر، وقبل أن يفكر فى قبول مبدأ التفاوض. بل من المعروف أن السادات هاجم توفيق الحكيم بشدة فى اجتماع عام بسبب بيانه الشهير الذى وقع عليه مع مجموعة من المثقفين وكنت من بينهم وأرسله إليه، ويرفض فيه حالة اللاسلم واللاحرب قبل معركة أكتوبر ١٩٧٣، وأبدى السادات فى هذا الاجتماع دهشته لأن يدعوه الحكيم للصلح مع اليهود وقبول التفاوض والحل السلمى. وكانت جولدا مائير تعتبر السادات أعدى أعداء إسرائيل، وقالت ذات مرة «إنه أكبر ممثل شاهدته فى حياتى ويستحق جائزة الأوسكار». عندما أعلنت رأيى الداعى إلى التفاوض كنت أعرف أننى سأتعرض إلى هجوم حاد، ومع ذلك تحملت، لأننى كنت أضع نصب عينى مصلحة مصر والعرب فى الأساس، وأعرف أن مصلحتنا تقتضى السلام، وأدرك أن حرب الاستنزاف مهما بذلنا فيها من جهد وتضحيات لا يمكنها أن تنتهى إلى نتائج إيجابية مؤثرة، لأن المواجهة العسكرية الطويلة لن تجدى، ويمكن أن تستمر لأجيال عديدة.

أنور السادات

كانت انطباعاتى عن السادات سيئة منذ توليه السلطة بعد عبد الناصر، وظلت تلك الانطباعات كما هى لم تتغير حتى كانت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، حيث اكتشفت خلالها أن هذا الرجل داهية، وليس سطحيًا كما تصورت، وأنه أشبه بالشخص المستضعف فى أفلامنا السينمائية القديمة، والذى يفاجئ الناس بأفعال لم يتوقعوها منه. والحقيقة

أننى أيدت السادات فيما أقدم عليه من أفعال وقتذاك، مثل: هدم السجن الحربى وحرق الملفات الأمنية وتصفية مراكز القوى التى كنت أرتبط مع بعض أفرادها بصداقة.

واقتنعت بكل ما قاله السادات عنهم من أنهم السبب المباشر فى الأزمة التى مرت بها مصر، وأنهم أساس الخوف والرعب الذى عاش فيه الناس لسنوات طويلة. ورغم أننى لم أتعرض لأذى من مراكز القوى هذه بصورة مباشرة، إلا أننى كنت مع أى خطوة فى سبيل الحرية والديمقراطية. لقد اعترضت على ما قيل من أن «١٥ مايو» هى ثورة مضادة للناصرية، وأنها ردة على مبادئ ثورة يوليو، بل اعتبرتها تصحيحًا لسلبيات ثورة يوليو، خاصة أن السادات لم يحاول المساس بالإنجازات التى قامت بها. فلم يلغ مجانية التعليم أو القطاع العام أو الإصلاح الزراعى، بل كان انقلابه منصبًا على الأسلوب الديكتاتورى فى الحكم. ولذلك غفرت له الطريقة التآمرية التى أدار بها الأحداث، لأن الطرفين كانا فى حالة تربص، ونجح السادات فى أن «يتغدى» بخصومه قبل أن «يتعشوا» هم به. وقدمهم لمحاكمة صورية أشبه بتلك التى أقامتها الثورة للسياسيين السابقين فى عهد الملكية، أو بتلك التى زجت بفؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج بتهمة التآمر مع الإنجليز، ثم أفرجت عنهما بعد ثلاث سنوات. والدليل على أن محكمة السادات كانت صورية ولمجرد التخلص من خصومه أنه أفرج عن كثير من المتهمين بعد فترات بسيطة.

ومن تحليلى لسلوكيات وأفعال السادات، توصلت إلى أنه شخصية غريبة الأطوار تدعو إلى الحيرة والدهشة. فأحيانًا يغضب من تصرف أو رأى ويعاقب صاحبه، ثم لا يلبث أن يقوم هو بنفس التصرف، وحدث ذلك فى أكثر من موقف. فعندما تولى الحكم حاول تطوير الاتحاد الاشتراكى وإعادة الروح والفعالية إليه. ودعيت أنا وثروت أباظة إلى مؤتمر يناقش هذا التطوير المزمع إجراؤه برئاسة المهندس سيد مرعى.

وطرحت القضية للنقاش وطلب منى الحديث والإدلاء بوجهة نظرى، فقلت إن الحل الوحيد هو أن تسمح الدولة لكل مجموعة متوافقة فى الفكر والرأى بأن يكون لها منبر مستقل داخل الاتحاد الاشتراكى. وفى الجلسة التالية للمؤتمر حضر الرئيس السادات ليشارك ويستمع إلى المناقشات، ولكننى فوجئت به يقول علنًا إن البعض ألمح فى الجلسة السابقة إلى ضرورة إنشاء أحزاب وتجمعات سياسية، صحيح أنا أحب الحرية وتعدد الآراء، لكن هذا لا يمنع من أنه بإمكانى أن «أفرم»!!.

انزعجت من حديث السادات، وقلت لنفسى: لماذا أعطونا حرية إبداء الرأى ووجهات النظر والرئيس يهدد «بفرم» المعارضين، فقررت ألا أحضر أى جلسة بعد ذلك.. أما السادات الذى رفض علانية فكرة المنابر والتجمعات والأحزاب السياسية، فإنه عاد وطبقها وأصبح من المتحمسين لها. والموقف الثانى الذى يدل على غرابة أطوار السادات يتمثل فى ثورته العارمة على توفيق الحكيم وعلى الذين وقعوا على البيان الشهير الخاص برفض حالة اللاسلم واللاحرب. أما قصة هذا البيان فقد كانت كالتالى: ذات يوم ذهبت إلى جريدة الأهرام، ودخلت إلى مكتب توفيق الحكيم لأصافحه كعادتى وأجلس معه بعض الوقت، إلا أنه بمجرد أن جلست قدم لى بيانًا لكى أقرأه، وكان البيان مكتوبًا بخط الحكيم. وعندما انتهيت من قراءته سألنى: هل توافق على توقيعه؟.

رددت على الفور: نعم.. أوافق..

ثم دخل علينا ثروت أباظة ووقع أيضًا على البيان، وتوالت التوقيعات، حتى أن البعض وقع بمجرد أن رأى أسماء توفيق الحكيم وثروت أباظة وأنا. لقد شعروا بالاطمئنان لوجود هذه الأسماء، حتى أن بعضهم مثل الدكتور على الراعى وقع بالتليفون. فقد اتصل به الحكيم وأبلغه بالأمر، فطلب الراعى إضافة اسمه، وهناك بعض المفكرين ممن أصابهم شيء من التردد والقلق مثل الدكتور لويس عوض، وهناك من تورط، والبعض تهرب خشية الأذى. عندما كتب الحكيم البيان وجمع توقيعات الكتاب عليه، لم يكن ينوى نشره على الملأ، وكان يرغب بالاكتفاء بإرساله إلى السادات لتسجيل موقف. وحدث أن قامت مجلة لبنانية بنشر البيان، فهاج السادات بشكل لم نتصوره واتهمنا بالشيوعية، واستدعانا الدكتور محمد عبد القادر حاتم ـ الحكيم وأباظة وأنا ـ ووجه لنا لومًا عنيفًا لأننا وقعنا على البيان. ومما قاله حاتم إننا وقعنا على البيان مع عملاء يتقاضون رواتب من السفارات الأجنبية بمصر، وكشوف المرتبات بحوزة الدولة، وأنهم معروفون لدى الأجهزة، ولم يكن ـ حاتم ـ يحب أن توضع أسماؤنا نحن الثلاثة فى بيان واحد مع هؤلاء. حاولنا أن نوضح له وجهة نظرنا، وكيف أننا لم نكن ننوى نشر البيان وإحراج السلطة، وأن النشر تم مصادفة ولا ذنب لنا فيه. وحاول حاتم أن يؤكد لنا أن الاستعداد للمعركة قائم، وأن حالة اللاسلم واللاحرب التى نعترض عليها لن تطول. وشعرت فى نهاية اللقاء أن الأزمة على وشك الانتهاء، وأن سحابة الصيف فى طريقها للزوال. ولكننى فوجئت بالعقوبات الفورية التى فرضها السادات ضدنا، وقراره بحرماننا من الكتابة، ورغم سريان القرار كنت أذهب كعادتى إلى جريدة الأهرام، وكذلك الحكيم الذى كان حريصًا على الذهاب هو الآخر إلى مكتبه بالأهرام.

أصبح بيان الكتاب الشهير وأصحابه فقرة دائمة فى خطابات السادات وفى اجتماعاته، بحيث لا يمر خطاب دون أن يهاجم الموقعين على البيان ويخص بالذكر توفيق الحكيم. وفى هذه الاجتماعات ذكر السادات اسمى وقال لهم: «حتى الحشّاش اللى اسمه نجيب محفوظ وقع معاهم»!!. ولما علمت بذلك قلت فى نفسى: فليتكلم أى أحد آخر غير الرئيس السادات عن مسألة الحشيش هذه!

عندما وقعنا على البيان كنا على يقين أن السادات لن يقدم على خوض الحرب، وأن المشكلة ستظل قائمة بدون حل لسنوات طويلة. وأذكر أن توفيق الحكيم قدم لى ذات مرة نسخة من مجلة أجنبية، وفتح المجلة على إحدى صفحاتها، وأطلعنى على صورة للسادات فى حديقة بيته وأمامه تورتة ضخمة، وبجواره السيدة جيهان السادات تعد له الشاى. وأثناء تدقيقى فى الصورة علّق الحكيم: هل هذا المنظر لقائد سوف يحارب؟ إلى متى يظل أولادنا فى الصحراء، لا هم يحاربون، ولا هم عادوا إلى عائلاتهم؟.. وقال الحكيم إن هناك شبابًا فى الجيش منذ سبع سنوات ولم يتم تسريحهم وهم من غير القوات العاملة، أى أنهم فى فترة تجنيد!

كان الحكيم فى ذلك الوقت يفتح مكتبه لطلبة الجامعات الرافضين لحالة اللا سلم واللا حرب ومن هؤلاء زعماء الناصريين الآن، وكان يجلس معهم بالساعات. وقام الطلبة بمظاهرات عنيفة أعتقد أننى كتبت عنها فى رواية «الباقى من الزمن ساعة»، والتى تحولت إلى مسلسل تليفزيونى حذفوا منه ٧٠ مشهدًا قبل أن يعرضوه. لم يكن أحد يدرى أن السادات الذى ثار على بيان يطالبه بالحرب أو التفاوض، والذى حرمنا من الكتابة فى «الأهرام» عقابًا على توقيعنا عليه، هو نفسه يخطط للمعركة ويفاجئنا بها، وهذا ما جعلنى أقول إن السادات شخصية محيرة وعجيبة. ومما لفت نظرى أن السادات كان من مؤيدى أسلوب الاغتيالات فى نشاطه السياسى قبل الثورة، وكل من سار على هذا الأسلوب كان مصيره الاغتيال. حدث هذا مع أحمد ماهر والنقراشى، حيث كانا من الأعضاء البارزين فى جمعية «اليد السوداء» خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها، وكانت نهايتهما الموت بطلقات الرصاص، وهى نفس النهاية الدرامية التى انتهت بها حياة السادات.

فى ظهيرة يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ كنت أجلس فى بيتى أقرأ الصفحات الأولى من أحد الكتب، ورن التليفون، وكان المتحدث هو ثروت أباظة، وبدون سلامات أو مقدمات صرخ فىّ قائلاً: «عبرنا»، ولما استوضحته، قال لى: إن الجيش المصرى عبر

القنال. قابلت كلامه بسخرية، ولكنه أقسم أن الحرب قامت وأن الجيش المصرى هو الذى هاجم وعبر القنال، و «إذا لم تصدقنى افتح الراديو على أى إذاعة أجنبية لتتأكد بنفسك»..
ولأول مرة فى حياتى أسمع الأخبار من المحطات الأجنبية وكانت كلها تؤكد ما ذكره ثروت أباظة، ووجدت نفسى فى حالة ذهول غريبة. لم تكن تهمنى نتيجة الحرب العسكرية بقدر ما تهمنى نتائجها النفسية، وكيف أنها يمكن أن تنقلنا من حالة كنا نشعر فيها بمنتهى اليأس والانكسار، إلى حالة مضادة نشعر فيها بالثقة والعزة والكرامة. ولذلك فإننى أعتبر معركة أكتوبر هى الحرب التى أنقذت الروح العربية من الهزيمة. وطوال أيام المعركة كان لدىَّ إحساس غريب بأن أى تلاحم بين الجيشين المصرى والإسرائيلى سنكون فيه المنتصرين والمكتسحين. انقلب الحال من النقيض إلى النقيض، لقد كنا فى الحروب السابقة وفى جولات الصراع مع إسرائيل أشبه بملاكم ضعيف دخل مباراة مع «محمد على كلاى»، وفى كل جولة كان «كلاى» يضربه ضربة فيسقط على الأرض، والجمهور حول الحلبة لا يتوقع أى مقاومة من الملاكم المنافس، وفجأة يتحول الملاكم الضعيف إلى بطل عنيف يضرب «كلاى» ويسقطه على الأرض وسط ذهول الجماهير.

* * *

لقد تعجبت كثيرًا من أصحاب الفكر التآمرى الذين أشاعوا أن حرب ١٩٧٣ كانت مجرد تمثيلية متفق على أحداثها من قبل. الذى أعرفه أن الحرب هى الحرب، ولا يمكن أن يقول قائد لجيشه إننا سنمثل الحرب ويقول لجنوده: قوموا بتمثيل الموت..!. عندما دخل السادات المعركة كان يعرف إمكانياته بالتحديد، ويعرف أنه لو تجاوز خطًا معينًا، فستضربه الولايات المتحدة الأمريكية، وستضطر إسرائيل لاستخدام الرءوس النووية. ومن ثم دخل المعركة وفى ذهنه المفاوضات، وكان يريد أن يجلس على طاولة التفاوض ويطالب بحقوق العرب من منطلق قوة. ولهذا السبب حدث الخلاف بينه وبين الفريق الشاذلى رئيس الأركان، فالأخير ينظر للأمور نظرة عسكرية مجردة، وهى نظرة ترى أنه مادام الطريق مفتوحًا أمامنا إلى حدود إسرائيل ولا شىء يعترض تقدم قواتنا فلماذا نتوقف؟. ولكن السادات كان ينظر للأمور نظرة سياسية مستقبلية، واستطاع بالفعل أن يحرر الأرض بمفهومه هو للأمور. وما قيل عن اتفاق «مسبق» بين السادات والولايات المتحدة الأمريكية لا أعتقد فى صحته، وأصحاب هذا الرأى يعتمدون على تصريح لوزير الخارجية الأمريكى آنذاك هنرى كيسنجر كان يرد من خلاله على سؤال تم توجيهه إليه قبل حرب ١٩٧٣ وهو: هل

ستترك واشنطن الأوضاع متردية فى الشرق الأوسط وتترك أراضى العرب المحتلة فى أيدى إسرائيل؟ وأجاب كيسنجر: إن الأمور تحتاج إلى زلزال لتحريكها، أما نحن فلا نستطيع أن نفعل شيئًا!.

وتصريح كيسنجر لا يدل على معنى محدد، ويمكن تأويله تأويلات مختلفة، وهو يذكرنى بما قيل من أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أوعزت إلى صدام حسين وأعطته الضوء الأخضر لغزو الكويت. إن كل ما قالته السفيرة الأمريكية فى بغداد للرئيس العراقى صدام حسين هو أن حكومتها لا تهمها مسألة الحدود بين العراق والكويت، فهى شأن خاص بينكما، ولكن يبدو أن صدام حسين فهم الكلام على أنه تصريح له بضم الكويت، وهو فهم سقيم وخاطئ، والمسئول عنه هو صاحبه وليس أمريكا.

* * *

يحسب للسادات أنه لم ينس القضية الفلسطينية فى ذروة انشغاله بإعادة الحقوق المصرية، ومنذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن لم تر القضية الفلسطينية من الدول العربية غير كلام ومزايدات وهزائم، أما مصر فلم تتخل عن دورها تجاه الفلسطينيين. وقبل حرب الخليج بذل الرئيس مبارك جهودًا ضخمة حتى أقنع أمريكا وإسرائيل بالجلوس مع قادة منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد أن تم الاتفاق فوجئنا بعملية انتحارية نفذتها إحدى الفصائل الفلسطينية ضد أهداف مدنية فى إسرائيل.. فرفضت أمريكا ـ بناء عليها ـ أن تتعامل مع المنظمة. الفلسطينيون أنفسهم مختلفون ولا يستطيعون الاتفاق على رأى، وقد قلنا لهم أيام السادات تعالوا نضع علمكم إلى جانب علمنا وعلم إسرائيل ونتفاوض على إعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فرفضوا. وقلنا للسوريين نفس الكلام ولم نسمع منهم غير الرفض، ثم بعد ذلك بسنوات بدأوا يسيرون فى نفس الطريق الذى سار فيه السادات من قبل، بعد أن أدركوا أنه الطريق الوحيد الذى سيوصلهم إلى حقوقهم.

* * *

يعود للسادات الفضل فى الاتجاه نحو الديمقراطية وطمأنة الناس وتأمينهم من الخوف، ويعود إليه تحقيق النصر التاريخى المذهل على إسرائيل، ثم السلام الذى حقق لمصر استقلالها كاملا لأول مرة منذ أيام قمبيز. ولكن ما حدث منه بعد ذلك أضاع كل هذه الإنجازات العظيمة، فسياسة الانفتاح التى اتبعها كانت لها آثار سلبية خطيرة انعكست

على الثقافة بشكل قاس جدًا. وأقصد بالثقافة هنا الثقافة الحرة التى يطلبها الإنسان للاستنارة وإمتاع النفس، سواء كانت بالقراءة أو السماع أو المشاهدة. وهذا النوع من الثقافة بدأ تدهوره فى العهد الناصرى بسبب التوجه الاشتراكى الشمولى وفرض سياسة الرأى الواحد، وهو نفس ما حدث فى كل النظم الشمولية ذات العقائد «الأيديولوجيات» الجامدة المحددة.

ولأن الفن ليس رأيًا صريحًا مكشوفًا مثل الأعمال الفكرية، فقد استطاع أن ينجو بمسايرته للأمور، فأصبحت الحياة الثقافية تحلق بجناح واحد. أما الفكر فلم يكن أمامه إلا أن يسير فى الاتجاه الذى تحدده السلطة، وأى انحراف عنه كان جزاؤه المعتقل، مثلما حدث مع الدكتور لويس عوض. واشتدت الأزمة بعد الانفتاح، وكان من الممكن أن يساهم الانفتاح فى تجديد وسائل الإنتاج والثقافة، ولكن ما حدث كان شيئًا آخر.

تحول الانفتاح فى مصر إلى أسلوب خاطئ للحياة، وأصبح شاغل الناس هو جمع المال بأى طريقة وفى أسرع وقت ودون النظر إلى أى قيمة أو مبدأ أخلاقى. فظهرت طبقة جديدة من أصحاب الملايين تنظر للثقافة الحرة نظرة عدائية، لدرجة أن أكبر مكتبتين فى مصر تحولتا إلى محلين لبيع الأحذية. وساهم فى تدهور الثقافة الحرة أيضًا الإحباط الذى تولد فى نفوس الشباب، والأزمة الاقتصادية، والبطالة، والهجرة إلى الخارج، ثم ظهور التليفزيون الذى سحب جزءًا غير قليل من جمهور الثقافة الحرة. ورغم الحرية التى تمتعنا بها منذ عهد الرئيس مبارك إلا أن أزمة الثقافة الحرة لا تزال موجودة، والسبب هو تناقص أعداد المستهلكين لها. ولدينا ٢٥ مليون نسمة فى استطاعتهم القراءة من سكان مصر الذين يزيدون الآن على ستين مليونًا، ولو اعتبرنا أن خمسة ملايين فقط لديهم الاستعداد للثقافة الحرة، لكان كل مفكر أو أديب لديه فرصة تحقيق أرباح طائلة من بيع إنتاجه. ولكن نتيجة للعوامل التى ذكرتها، انفض الناس عن تلك الثقافة، ووصلنا إلى حالة يمكن أن أسميها «موت الثقافة الرفيعة».

وفى عصر الانفتاح امتد التردى أيضًا إلى الفن، لأن المستهلك الجديد للفن وهو من الطبقة الجديدة المتضخمة ماليًا والفارغة ثقافيًا، تحول الفن عنده إلى ما يناسب مزاجه الخاص، وهو مزاج ليس له صبر على الفن الجاد المحترم فى الأدب والمسرح أو السينما أو الغناء.

ففى المسرح، وجدنا أغلب الأعمال قريبة الشبه بما تقدمه الكباريهات والنوادى الليلية، وهى الأعمال التى أطلقوا عليها اسم «المسرح التجارى»، وفى السينما ظهرت أفلام تافهة لمجرد التسلية، وفى الغناء انتشرت موجة الأغانى الخفيفة الراقصة التى تناسب الأعصاب المرهقة، وهى أغان ليس لها مضمون، ولا تستطيع أن تميز فيها بين أصوات المطربين، وكلها أغان قصيرة، سريعة الإيقاع، وكأنها سندوتشات «تيك آواى».

أنا لا أعتبر أغانى أحمد عدوية التى شاعت فى تلك الفترة تندرج تحت هذا النوع من الغناء، فعدوية فى رأيى يملك صوتًا جميلاً وقويًا، وصحيح أن أغنياته لا تحتوى على معنى جاد، ولكنها تتناسب مع المناخ العام. عندما سمعت عدوية لأول مرة أعجبنى صوته وطريقته، ولم أعتبره من رواد الموجة الهابطة أبدًا. والحقيقة أن الأغانى الخفيفة لم تظهر بعد الانفتاح، فقد كانت موجودة في مصر منذ زمن طويل، حتى فى ذروة سطوة الأغانى الكلاسيكية. ففى الوقت الذى كانت فيه قائمة نجوم الطرب تضم أسماء من نوعية عبده الحامولى وصالح عبد الحى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم، كان يوجد إلى جانب هؤلاء نجوم للغناء الخفيف والمونولوجات الفكاهية. وأذكر فى طفولتى أن هذين اللونين من الغناء كانا موجودين فى بيتنا، فقد كان والدى ـ رحمه الله ـ من هواة أغانى المنيلاوى، وكان يستضيفه أحيانًا فى سهرات يقيمها فى منزلنا، وفى نفس الليلة كان جناح الحريم يستمع إلى أغانى العوالم من نوعية أغنية «الطرح يا بنات»، وغيرها من الأغانى الخفيفة.

فى عصر الانفتاح اختلف الحال وأصبحت الأغانى الكلاسيكية مجرد ذكريات، وأصبح الغناء الخفيف هو الأساس. هذا أشبه بشخص كان يأكل طعامًا معينًا ويحب أن يقدم له بجانبه بعض «اللب»، وفى فترة لاحقة أصبحت «قزقزة اللب» هى الغذاء الرئيس له. هذا الاختلال مرجعه الأساس تآكل الطبقة الوسطى، وهى الطبقة التى كانت معدة للتذوق ولمساندة الفن والفكر. وفى عصر الانفتاح أضيرت هذه الطبقة وأصيبت بضربة قاضية، وأخذت فى التلاشى والذوبان، وحلت محلها طبقة جديدة. فالموظف القديم الذى كان يعود إلى بيته بعد انتهاء عمله ليقرأ كتابًا أو يسمع أغنية أو يذهب لمشاهدة فيلم فى دور السينما، أصبح الآن لا يجد قوت يومه، مما اضطره للبحث عن عمل إضافى آخر بعد الظهر، ليستطيع الإنفاق على أسرته. ومن ثم لم يعد لديه الوقت ليسمع أو يقرأ أو يشاهد.

وفى اعتقادى أن المشروعات التى تقوم بها وزارة الثقافة لإصلاح أحوال الفن والثقافة لن تجدى، لأن الأسباب أعمق بكثير، ولا تستطيع تلك المشروعات مهما أنفقوا عليها أن تؤثر

تأثيرًا جديًا. إن إصلاح أحوال الفن والثقافة يحتاج إلى تحسين الحالة الاقتصادية، ويحتاج إلى إصلاح التعليم، ويحتاج إلى إعادة التوازن إلى دخول الأفراد، ويحتاج إلى انحسار التيار الدينى المتطرف، ويحتاج إلى الإصلاح الاجتماعى. فأزمة الفن والثقافة ليست فى الإنتاج، وإنما فى الاستهلاك، بدليل أن هناك أدباء شبانًا مازالوا يكتبون ويؤلفون رغم كل الظروف، وهؤلاء أعتبرهم «رهبانًا» لأنهم يبدعون فى ظل هذه الظروف العسيرة. أعرف شعراء على مستوى جيد كانوا يجلسون معنا فى كازينو «قصر النيل»، يؤلف الواحد منهم ديوانًا ويطبعه على نفقته الخاصة ويوزعه بنفسه على أصدقائه فقط. فالأزمة إذن أعمق بكثير مما تتصور وزارة الثقافة، وأسبابها متشعبة ومتشابكة، وهى تحتاج إلى حلول جذرية.

* * *

من مآخذى على حكم السادات الأسلوب الذى اتبعه فى مواجهة التيارات الدينية، وكذلك النظام الديكتاتورى الذى فرضه فى مصر خاصة فى سنوات حكمه الأخيرة، والقرارات الغريبة التى كان يتخذها، وكنت أسمع عن السادات أشياء أحسبها دعابة أو نكتة ثم يتضح أنها حقيقة. أخبرنى بعض أصدقائى ذات مرة أن صحفيًا أمريكيًا سأله فى مؤتمر صحفى بعد موجة الاعتقالات التى أمر بها، عما إذا كان استأذن الولايات المتحدة قبل إقدامه على هذه الاعتقالات؟، فغضب السادات ورد بانفعال: «لو كان فى جيبى مسدس كنت ضربتك بالرصاص حالاً!!».. أو شيئًا من هذا القبيل.

ما فعله أنور السادات فى أواخر حكمه لا يمكن تبريره، فالرجل اعتقل مصر كلها، مسلمين ومسيحيين، رجالاً ونساءً، شبابًا وشيوخًا، عناصر ورموزًا من كل الأحزاب والتجمعات السياسية. كانت الأيام الأخيرة من حكم السادات أشبه بالأيام التى سبقت قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، عندما كانت الحياة السياسية مضطربة. والحكومات تتشكل ثم تقال بعد أيام معدودة. ولكن رغم كل ما حدث فى أيام السادات الأخيرة لم أتوقع له هذه النهاية الدرامية المأساوية، خاصة أنها تزامنت مع ذكرى يوم انتصاره التاريخى على إسرائيل.

* * *

فى تصورى أن الحالة التى وصل إليها أنور السادات تعود إلى شعوره المتزايد بالعظمة بعد الإنجازات الكبيرة التى حققها، وهذا الشعور يسبب لصاحبه «روشة» فى المخ، وقليل جدًا من الزعماء وأصحاب الإنجازات الكبرى هم الذين نجحوا فى الإفلات

من هذا الشعور القاتل. أما موقفى من معاهدة كامب ديفيد التى وقعها السادات فكان واضحًا وصريحًا لا لبس فيه. فمن خلال هذه المعاهدة استطاع السادات أن يحقق لمصر الاستقلال الكامل لأول مرة منذ أيام قمبيز كما سبق أن قلت. أما ما قيل من اعتراضات على المعاهدة وبنودها السرية ومحاذيرها التى تحد من سيطرة مصر على سيناء، فأرى أنها لا تقلل أبدًا من هذا الإنجاز. فبعد الهزيمة المباغتة التى لحقت بإسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣، كان لابد أن يشعر الإسرائيليون بالخوف والرعب والتوجس من مصر، فيصروا على تأمين حدودهم بأى شكل. ثم إنه ليس من مصلحة مصر أن يكون لها جيش وأسلحة ثقيلة فى أرض مكشوفة مثل سيناء، فلماذا نلقى بأبنائنا فى تلك البقعة الخطيرة عسكريًا؟ ولكن هل إذا ذهبنا الآن لزراعة سيناء ستمنعنا إسرائيل؟.. إطلاقًا، فالتحفظات فى الاتفاقية لا تمس استقلال سيناء. وإسرائيل احترمت الاتفاق بيننا، ومنذ أن وقعت عليه لم تحاول خرقه، ولم تحدث أى تجاوزات من جانبها، بل سلمت إلينا «طابا» نزولاً على قرار التحكيم الدولى. والخلاف القائم الآن بيننا وبين إسرائيل ليس بسبب كامب ديفيد، وإنما يعود إلى مماطلتها فى إعادة الحقوق العربية الأخرى، وممارستها سياسات لا تتفق مع أجواء السلام، مثل الاعتداءات المتكررة على لبنان، ومن قبل تدميرها للمفاعل النووى العراقى، ثم عدم التزامها بتنفيذ الاتفاقيات الموقعة مع الفلسطينيين، واستمرارها فى سياستها الاستيطانية فى الأراضى العربية المحتلة، وتدفق المهاجرين اليهود إلى الأراضى العربية. وأعتقد أنه من خلال الضغوط العربية والدولية على إسرائيل يمكن أن تحل الأزمة ويحل السلام فى المنطقة بأسرها.

* * *

فى عصر الانفتاح ثار جدل طويل حول إنجازات العهد الناصرى، مثل مجانية التعليم والقطاع العام، وأكثر ما أزعجنى فى هذا الجدل ما قرأته من هجوم على مشروع السد العالى. وعندما قرأت هذه المقالات كتبت مقالاً لأرد فيه على هذا الهجوم، وفى أثره اتصل بى الدكتور محمد عبد القادر حاتم، وأبلغنى أنه سيرسل لى ملفًا خاصًا عن السد العالى. وعندما قرأت الملف تبين لى أن السد العالى مشروع كبير متعدد المراحل لم ننفذ منه سوى المرحلة الأولى، وهو كما تصوره الخبراء تتبقى له مراحل متعلقة بتحويل مجرى النهر، وتشييد أهوسة وراء الخزانات، وقنوات لامتصاص الفيضانات الشديدة. وقامت مصر بتنفيذ المرحلة الأولى فقط، ثم جاءت حرب اليمن والظروف الصعبة التى مرت بمصر،

فتوقف المشروع، ومن ثم بدأت تظهر سلبياته. وهى ليست سلبيات خاصة بالسد العالى، بقدر ما هى ناجمة عن عدم استكماله. المسئولية هنا لا تقع على عبد الناصر لأنه مات دون أن يتمه، وإنما تقع على الذين جاءوا من بعده، ويعلمون جيدًا ضرورة استكمال بقية مراحل المشروع وبسرعة، خاصة أنه كلما تقدم الزمن زادت التكاليف. وأيًا كانت سلبيات السد العالى التى أفاض البعض فى شرحها مثل تناقص خصوبة التربة وتآكل الشواطئ، فإن فوائده أكثر بكثير من أضراره، ويكفى أنه حمى مصر من الجفاف وأنقذها من الفيضان.

* * *

وبالنسبة لمسألة مجانية التعليم ومطالبة البعض بإلغائها، فأنا أقول بصراحة إننى ضد إلغاء مجانية التعليم وأؤيد الإبقاء عليها، وهذا التأييد ليس وليد اللحظة الراهنة، بل يرجع إلى ما قبل ثورة يوليو. فقد اعتبرت أن أعظم إنجاز للوزارة الوفدية التى تولت الحكم عام ١٩٥٠ هو تطبيقها لمبدأ مجانية التعليم فى المدارس الثانوية، وبعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ طبقت المجانية بصورة أشمل. فكان الطالب الفقير الذى يحصل على ٦٠٪ من مجموع الدرجات يتعلم مجانًا على نفقة الدولة. وفى فترة لاحقة ونتيجة لسوء حالة التعليم، حمل أعداء مجانية التعليم عليها حملة عنيفة وطالبوا بإلغائها. وظهرت أصوات تقول إن التعليم له مطالب والحكومة لا تستطيع الوفاء بها لكل الناس وجميع الفئات، وطالبوا بأن يكون التعليم العالى على الأقل مقصورًا على من يستطيع أن يتحمل تكاليفه ونفقاته. هذا فى رأيى لا معنى له سوى أن يعود الفقراء إلى الطين، وبالفعل أصبحت المجانية فى ظل الانفتاح مجرد شعارات زائفة. فالتعليم حاليًا بمصروفات باهظة، ولذلك فإن أغلب الطلبة من أبناء الطبقات الفقيرة لا يستكملون تعليمهم ويتوقفون عند المرحلة الابتدائية أو الإعدادية، ثم يرتدون إلى الأمية بعد سنوات من تركهم للدراسة. والحل فى رأيى ليس فى إلغاء مجانية التعليم وإنما فى إصلاح أحوال التعليم، والقيام بثورة تعليمية لا تقتصر على المناهج فقط، وإنما تمتد إلى إعداد المعلمين، وإعداد الخريجين، فلا يصعد إلى المرحلة الإعدادية إلا الطلبة الذين لديهم الاستعداد العلمى لاستكمال الدراسة، وتم توجيه الآخرين إلى تعلم الحرف البسيطة، ولا يصعد إلى المرحلة الثانوية إلا الأعداد المطلوبة فى التخصصات الجامعية المختلفة، وهى الأعداد التى يمكن أن نجد لها مكانًا فى سوق العمل بعد ذلك. أما أن تخضع الحكومة لضغوط الأهالى وتسمح بإدخال أولادهم جميعًا إلى الجامعة فهو أمر لا مبرر له ولابد من إلغائه إذا أردنا إصلاح أحوال التعليم.

وبالنسبة للقطاع العام فأنا لا أرفض وجوده من ناحية المبدأ؛ لأن مصر لم تخل أبدًا من مؤسسات القطاع العام، حتى فى أيام الاحتلال الإنجليزى، كانت هناك مؤسسات تابعة للدولة مثل السكك الحديدية والبريد والتلغراف، وكان العمل بها يسير فى دقة بالغة نفتقدها هذه الأيام. وفى روسيا عندما أنشأ الشيوعيون القطاع العام حقق نجاحًا مذهلاً، حيث أداره ثوار مثاليون مؤمنون بمبادئ الشيوعية. أما فى مصر فقد أعطت الثورة مؤسسات القطاع العام لموظفين سرقوها من اليوم الأول، فأصبح اقتصادنا كله فى أيدٍ مخربة. وأنا لست منحازًا للقطاع العام أو الخاص، وإنما أنحاز للأسلوب الناجح الذى يحقق مصلحة البلد، وإن كنت أظن أن هناك قطاعات استراتيجية لا يمكن تركها فى يد القطاع الخاص. كما أن هناك قطاعات يفر منها القطاع الخاص لأسباب عديدة، مثل ضخامة التكاليف وعدم تحقيق ربح سريع، ولذلك لا مفر من أن تدخل الدولة فيها. إذا أردنا الإبقاء على القطاع العام لابد من إصلاح أحواله وعلاج الفساد الذى استشرى فيه.

حسنى مبارك

شهادة لله والتاريخ أن حسنى مبارك شخصية ممتازة جدًا، ورجل نظيف، ومخلص، ومهتم بمشاكل البلد، إلى جانب أنه مستوعب تمامًا للتجربتين اللتين سبقتا حكمه. ومن هنا ركز الرئيس مبارك جهوده على الإنتاج والتطوير فى الداخل، وعلى السلام والعلاقات الحسنة مع الجميع فى الخارج. وهى السياسة التى كنا نأمل فى تحقيقها منذ اليوم الأول لثورة يوليو عام ١٩٥٢، ولكن من سوء حظ حسنى مبارك أنه بدأ حكمه فوق بركة من الفساد والديون. فالظروف السيئة التى تولى فيها الحكم كانت أصعب من أى ظروف واجهها حاكم مصرى قبله. ورغم الإنجازات الضخمة التى حققها فإن نتائجها لم تظهر حتى الآن بشكل واضح، لأن مصر كانت أشبه بغريق سقط تحت الماء لمسافة ٥٠ مترًا على الأقل، وجاء مبارك لإنقاذه، وفى كل عام يصعد به فى اتجاه السطح مترين أو ثلاثة أمتار. ولن يشعر الناس بالنتيجة إلا عندما يخرج الغريق إلى السطح ويبدأ فى التنفس من جديد.

من أبرز ما يميز حسنى مبارك أنه رجل عاقل لا يحاول إثارة المشاكل وافتعال الأزمات، خاصة فى سياسته الخارجية. فهو يحكم العقل قبل العاطفة، ويدرك أن سياسة رد الفعل والعصبية لها تأثير سيئ دفعنا ثمنًا غاليًا بسببها من قبل. ويميز مبارك أيضًا أنه يعمل فى

حدود إمكانياته المتاحة، ويعرف أنه لا يملك عصا سحرية، يضرب بها الأرض فتتحول إلى حدائق أو آبار بترول. وهذا لا يعنى أن حكم مبارك خال تمامًا من الأخطاء، ففى مقابل الصورة الطيبة التى رسمتها، هناك سلبيات ورثها أساسًا من عهود سابقة مثل الفساد والإهمال والتسيب.

قد يرى البعض أن الرئيس مبارك متمهل أكثر من اللازم، وأنا أثق فى أنه رجل ديمقراطى وحريص على تطبيق الديمقراطية، وهو يعرف أن كثيرًا من مواد الدستور بحاجة إلى إعادة نظر وإلى تعديلات جذرية. ولمعرفتنا بمعدن الرئيس مبارك نثق أنه سيلغى جميع القوانين الاستثنائية التى تقيد الحريات، وليس فقط قانون الطوارئ، فهناك ما هو أسوأ منه، مثل قانون الصحافة ككل، والقانون الذى يمنع حرية تكوين الأحزاب، وهناك مادة يتضمنها الدستور تحتم أن يكون نصف أعضاء مجلس الشعب على الأقل من العمال والفلاحين. وهذه المادة الأخيرة من الدستور ليس لها مبرر على الإطلاق، بل إنها تضر بالديمقراطية، فلماذا نخدع أنفسنا ونساعد فى إيصال عدد من الجهلة إلى البرلمان؟.. والدليل على خطأ هذه المادة وضررها البالغ أن نوابًا من العمال والفلاحين داخل مجلس الشعب أيدوا قوانين فى غير مصلحة العمال والفلاحين لمجرد إرضاء الحكومة!.. لابد أن يكون نائب البرلمان أهلاً لهذه المسئولية، وليس مفروضًا بالقانون، فتشكيلة مجلس الشعب بالوضع الحالى لا تجعل لمصر برلمانًا حقيقيًا، أما حقوق العمال والفلاحين فيمكن ضمانها من خلال البرلمان نفسه والنقابات المهنية القوية، وهذه النقابات فى ظل إطلاق الحريات يمكن أن يكون لها دور مؤثر لا يقل عن مجلس الشعب.

والمطلوب تعديل نظام الانتخابات بحيث نشهد وجود أكثر من مرشح فى انتخابات الرئاسة، مع ثقتنا بأن الشعب سيختار مبارك أيضًا، والمطلوب إدخال تعديلات يصبح من خلالها لمجلس الشعب الحق فعليًا لا صوريا فى مراجعة ميزانية الدولة وتعديلها، وحجب الثقة أو منحها للحكومة. والمطلوب كذلك دعم نصوص صريحة قاطعة تضمن نزاهة الانتخابات البرلمانية. فهناك ملايين تمتنع عن الإدلاء بأصواتها وتفضل البقاء فى منازلها، لأنهم يعلمون أن أصواتهم لن تذهب حيث يشاءون، بل إلى ما تشاء الحكومة. والمطلوب أن تصبح وسائل الإعلام القومية مفتوحة للجميع، وأن تنطبق عليها صفة «القومية» بمعنى الكلمة، فيكون لزعماء المعارضة الحق فى الظهور على شاشة التليفزيون لعرض أفكارهم وآرائهم. فزعماء المعارضة عندنا للأسف لا يدرى أحد بهم، فى حين تجد أن أية مذيعة تليفزيونية معروفة أكثر من خالد محيى الدين.

فلماذا لا يظهر إبراهيم شكرى رئيس حزب العمل فى التليفزيون؟. لقد عرف الناس عادل إمام عن طريق التليفزيون. بسبب التعتيم لا يوجد فى مصر رجال سياسة، فى حين أن مجتمعنا فى فترة من الفترات كان زاخرًا برجال السياسة. لابد من منح رجال المعارضة والمفكرين السياسيين فرصة للظهور، واتركوا للناس حرية الاختيار وحق المشاركة، وفكوا قيودهم، ولا تعاملوهم مثل الشباب القاصر. كيف تشكون من سلبية الناس ومن حالة اللا مبالاة التى يعيشونها وأنتم تفرضون عليهم ما تريدون؟!

ولإيمانى بأن مبارك رئيس كل المصريين بكل اتجاهاتهم وأحزابهم، أدعوه للتخلى عن رئاسة الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، لأنى أثق أنه الحكم العادل بين كل أبناء وأحزاب الوطن. وأنا أعتقد أن الحزب الوطنى لا يستمد قوته من ذاته أو قواعده الشعبية، وإنما من الرئيس مبارك، حتى أن كثيرًا من الناخبين يعطون أصواتهم للحزب الوطنى من أجل الرئيس مبارك.

وبالنسبة لسياسة مبارك العربية والدولية فأنا أؤيده فيها، وكان موقفه فى حرب الخليج مشرفًا، لأنه كان منسجمًا تمامًا مع قرارات مجلس الأمن والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى والشرعية الدولية، وهو موقف فى صالح مصر. ومع ذلك أحزننى جدًا أن يقف جندى عربى لقتال جندى عربى آخر، وهو شىء مؤسف وثقيل على النفس، ولكن موقف القيادة العراقية هو الذى اضطرنا لذلك.

وفيما يتعلق بظاهرة التطرف والإرهاب، أرى أن الحل الوحيد للقضاء على هذه الظاهرة هو الديمقراطية الحقيقية التى تقتضى مزيدًا من الجرأة فى تغيير الدستور والقضاء على القوانين المعطلة للحريات.

* * *

الفصل السادس عشر

ذكريات مع المظاهرات

قصة صديقى حسن عاكف الطيار الخاص للملك الذى اعتقله الضباط الأحرار ـ هربت من مطاردة البوليس ودخلت بيت الأمة بفردة حذاء واحدة ـ صفية زغلول تقوم بتهريبنا من عساكر الإنجليز ـ السيدة المصرية التى أنقذتنى من الموت ـ دخلت الخمارة فنجوت من الاعتقال ـ فى أول مظاهرة أشارك فيها لم أكن أعرف ما هو الدستور ـ فى ميدان عابدين هجمت على سيارة سعد زغلول لأرى وجهه ولكنى فشلت.

■ **فى هذا الفصل يروى نجيب محفوظ ذكرياته مع المظاهرات التى شارك فيها، وكلها فى فترة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. وهى ذكريات تجمع بين الإثارة والطرافة والمرارة فى آن واحد معًا.. وهو هنا يتوقف عند صديق له شاركه فى أكثر هذه المظاهرات إثارة.. إنه حسن عاكف، الطيار الخاص للملك فاروق، وكيف تسبب فى أن يدخل الكاتب الكبير بيت الأمة بفردة حذاء واحدة، ويعود إلى بيته وهو يرتدى الجورب فقط..** ■

نجيب محفوظ: مع المظاهرات لى ذكريات تجمع بين الإثارة والمرارة والطرافة:

● أولى هذه الذكريات حدثت فى أواخر عهد وزارة محمد محمود سنة ١٩٢٩. كان الرجل يدرك أن أيامه فى الحكم معدودة، ولذلك سمح بالاستقبال الشعبى لمكرم عبيد عند عودته من لندن على الرغم من أن مكرم عبيد كان فى العاصمة البريطانية يحمل على النظام وعلى الإنجليز الذين يؤيدونه، وفى هذا اليوم خرجت مع صديقى حسن عاكف للاشتراك فى المظاهرات المؤيدة لمكرم عبيد، وأتوقف هنا للحديث عن بطل هذه الحادثة، حسن عاكف.

تعرفت بحسن عاكف عقب انتقالنا إلى العباسية، إذ سرعان ما أصبح من أقرب أصدقائى. كان والده موظفًا وله شقيقان: ولد وبنت، أما الولد فهو الدكتور أحمد زكى[1] العالم المشهور الذى تولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة «العربى» الكويتية، وأما البنت فكانت متفوقة علميًا، وحصلت على بعثة لنيل درجة الدكتوراه من إنجلترا، وماتت وهى عائدة من البعثة على ظهر السفينة التى كانت تقلها. أما «حسن» فكان على عكس شقيقيه دائم الخلاف مع والده بسبب زهده فى التعليم، وبعد حصوله على التوجيهية قرر الالتحاق

---

(١) كان الدكتور أحمد زكى من كبار الأدباء والعلماء فى جيله، وقد تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» الثقافية فى الأربعينيات، وأصبح وزيرا للشئون الاجتماعية فى وزارة حسين سرى التى استمرت عشرين يوما قبل الثورة، من ٢ إلى ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢، ثم أصبح بعد الثورة مديرا لجامعة القاهرة.

بالكلية الحربية. ورفض والده التحاقه بها، حيث كان يعتبر ذلك هو الفشل بعينه، إلى هذا الحد كانت الناس تنظر إلى الكلية الحربية هذه النظرة السلبية فى ذلك الوقت. وقد تصاعد الخلاف بين «حسن عاكف» ووالده لدرجة أن حسن حاول الانتحار وتم إنقاذه فى اللحظات الأخيرة، ونقل إلى مستشفى قصر العينى لإسعافه، وذهبت لزيارته، كما زاره جميع أفراد أسرته، باستثناء والده، وكان له ما أراد والتحق بالكلية الحربية. وفى تلك الأثناء تم إنشاء الكلية الجوية، فتقدم حسن للاختبارات ونجح فى الالتحاق بها، وقام بنقل أوراقه إليها، ونجح فى سنوات الدراسة حتى تخرج فيها. ذاعت شهرة حسن عاكف بعد أن تمكن من قيادة الطائرة من أوروبا إلى مصر بدون توقف، وكان ذلك حدثًا فريدًا، كما كان حديث المجتمع والصحافة فى مصر لأسابيع طويلة، ونظرًا لبراعته فى قيادة الطائرات اختاره الملك فاروق ليقود طائرته الخاصة، وأصبح حسن عاكف هو الطيار الخاص للملك، ومن الشخصيات المهمة فى مصر التى يعمل لها الكل ألف حساب. ومع ذلك لم يتخل حسن عن شعبيته وروحه المرحة، فكان يستغل أى وقت فراغ ويتسلل إلى العباسية ويسهر معنا على قهوة «عرابى». ولأننا ندرك خطورة موقعه وموقفه، كنا نجلس داخل المقهى عندما يكون معنا، وليس خارجه كما اعتدنا.

عندما قامت الثورة حاول حسن عاكف أن يقوم بتهريب الملك للخارج، وتم إلقاء القبض عليه قبل أن ينفذ محاولته، وتم تقديمه للمحاكمة التى دافع فيها عن موقفه برجولة. قال حسن فى المحكمة إنه يعتبر الملك فاروق مولاه، وإنه لا يعرف شيئًا عن أهداف ونوايا القائمين بالثورة، ورأى أن من واجبه أن يحافظ على الرجل الذى عينه لخدمته ويعتبره حاكمًا لمصر. وكان حسن عاكف من رجال الملك القلائل الذين أفرج عنهم بعد أن اعتقلتهم الثورة.ومات حسن عاكف فى أواخر الثمانينيات، ولتأثرى البالغ بشخصيته قدمته فى رواية «صباح الورد».

نعود إلى المظاهرة، فقد كانت كل الأمور فى ذلك اليوم تسير على ما يرام، فلا عنف أو تدخل من البوليس، ومر موكب مكرم عبيد فى سلام. وأخذنا ـ أنا وحسن عاكف ـ نجرى وراء الموكب حتى نلحق به فى بيت الأمة «بيت سعد زغلول»، لنستمع إلى خطبتى النحاس ومكرم. وفجأة توقف حسن عاكف عن الجرى، واتجه ناحية ضابط بوليس برتبة كبيرة من الذين يراقبون سير المظاهرة، وبدون تردد ضربه حسن عاكف بقبضة يده فى بطنه بكل ما أوتى من قوة، فسقط الرجل مغشيًا عليه. ولمحه عسكرى من عساكر الخيالة، فجرى وراءنا بحصانه، ونحن نركض أمامه كالريح حتى وصلنا إلى السور الخلفى لبيت الأمة.. فقفز

حسن عاكف برشاقة إلى الجانب الآخر، وطلب منى أن أعطيه ذراعى ليساعدنى على القفز. وفى تلك اللحظة وصل عسكرى الخيالة وأمسك بساقى قبل أن أقفز السور، وجذبنى حسن عاكف بقوة فوجدت نفسى فى الداخل، ولكن بدون فردة الحذاء، ودخلت بيت الأمة بقدم فيها جورب وقدم فيها فردة حذاء. كان الموجودون قد بدأوا فى الانصراف، ولم يبق إلا عدد قليل من الناس، واستقبلتنا السيدة صفية زغلول، وشرحنا لها الموقف كله، وأعربنا لها عن مخاوفنا من انتظار العساكر لنا فى خارج البيت للقبض علينا. طمأنتنا السيدة صفية وكنا نسميها « أم المصريين»، وقدمت لنا عصير الليمون، وبعثت الخادم ليستطلع لنا الشوارع المحيطة ببيت الأمة. عاد الخادم بعد قليل وأخبرنا أن الشوارع خالية من أى أثر لعساكر البوليس، فانصرفنا، وسرت فى الشارع بفردة حذاء واحدة وجورب حتى وصلت إلى البيت، وأنا لا أكاد أصدق أننى نجوت من هذا المأزق.

• الحادثة الثانية وقعت فى عهد وزارة صدقى باشا الأولى سنة ١٩٣٠، حيث خرجت مع صديقى المعلم «كرشو» لنشارك فى المظاهرات ضد حكومة صدقى باشا بسبب إلغائه لدستور ١٩٢٣. وقبل سرد ما حدث أتوقف ـ أيضًا ـ عند رفيقى فى هذه الذكرى «المعلم كرشو». فاسمه الحقيقى هو «سامى صادق»، وتعرفت عليه فى العباسية، وأصبح من رواد شلتنا. وكان قد حصل على أرض من الحكومة واستصلحها وزرعها وأنشأ فيها منحلا للعسل، وكنا نناديه «بالمعلم كرشو» على سبيل الدعابة حتى أصبح اللقب علما عليه.

فى ذلك اليوم كانت المظاهرات عبارة عن كر وفر بين المتظاهرين والبوليس، وبعد أن أوشك اليوم على الانتهاء، قررنا العودة إلى البيت قبل حلول الظلام. فدخلنا فى شارع حسن الأكبر لنصل منه إلى ميدان الأوبرا، ومن هناك نستقل الترام إلى العباسية، وفى شارع حسن الأكبر حدثت الواقعة. كان «كونستابل إنجليزى» يمر بموتوسيكل من نفس الشارع، وعندما اقترب منا، شق حجر ضخم الهواء وأصاب رأس الكونستابل الإنجليزى الذى سقط مضرجًا فى دمائه وفوقه الموتوسيكل. والذى ألقى بهذا الحجر، وهو من أبناء البلد، اختفى، وقريبًا من المكان توجد فرقة من الجيش المصرى شاهد أحد أفرادها الحادث، فاتجهت الفرقة إلى المكان. وبدون تفكير انطلقنا أنا و «المعلم كرشو» نعدو بأقصى سرعة، وخلفنا العساكر وكان منهم بعض عساكر الخيالة، يحاولون اللحاق بنا. دخلنا فى عطفة ضيقة حتى نتمكن من الاختفاء عن أنظارهم، فما كان إلا أن فوجئنا بأن العطفة ما هى إلا

حارة سد، فأدركت فى تلك اللحظة أننا هالكان لا محالة. وانفتح باب الأمل أمامنا عندما سمعنا صوت سيدة مصرية تنادى علينا وتدعونا إلى أن ندخل من باب بيتها، وبسرعة البرق دخلنا، وأغلقت السيدة الباب فورًا. أخبرتنا السيدة أن سطح البيت ملاصق لسطح عمارة تؤدى إلى شارع إبراهيم باشا، فانتقلنا إلى السطح مباشرة إلى طريق النجاة. ولم ننس لهذه السيدة صنيعها، وعدنا إليها بعد بضعة أيام لنقدم لها الشكر وعلبة من الشيكولاتة، لأنها كانت السبب فى نجاتنا.

• أما الحادثة الثالثة فقد وقعت كذلك فى عهد حكومة صدقى باشا وكان رفيقى فيها فى تلك المرة «فؤاد نويرة»، وهو من أصدقاء شلة العباسية. فقد وقفنا مع الجماهير المصطفة لاستقبال النحاس باشا القادم من الإسكندرية، وحدثت مشاغبات بين الجماهير والبوليس، فركضت مع نويرة، ودخلنا فى عطفة «الكونتيننتال»، وفوجئنا بمجموعة من العساكر يجرون فى أثرنا للقبض علينا. وجدنا أمامنا سلمًا، وبدون تفكير صعدنا فوقه ودخلنا إلى باب فى نهاية السلم، واكتشفنا أننا داخل خمارة للإنجليز، لا يوجد فيها مصرى واحد. نظر لنا رواد الخمارة الإنجليز شزرًا، ولكننا لم نهتم وقصدنا منضدة فى ركن بعيد، جلسنا عليها، وعيوننا باتجاه الباب. اقترب منا الجرسون اليونانى، ويبدو أنه فهم سبب حضورنا إلى الخمارة، فقال مباشرة: إن ثمن كأس الكونياك أربعة صاغ، فهل معكما ثمن كأسين؟!. أجبنا فى نفس واحد: «هات لنا اثنين»!. شربنا الكونياك بأيد مرتجفة، ولم تمض سوى دقائق حتى جاءنا الجرسون وهو يقول بلهجة لا تخلو من الخبث والدهاء: «خلاص الدنيا انفضت بره»، وكان معنى كلامه مفهومًا لنا، وهو أن نترك المكان ونمضى لحال سبيلنا، وهو ما فعلناه.

وكانت أول مظاهرة أشارك فيها فى حياتى أثناء احتدام الخلاف بين سعد زغلول والملك فؤاد سنة ١٩٢٤. كنا وقتذاك مجرد تلامذة لا نفهم شيئًا من أمور السياسة، وكل ما نعرفه هو أن سعد زغلول دخل فى صدام مع الملك، وبما أننا مؤيدون لسعد زغلول فلابد أن نخرج فى المظاهرات، ونهتف ضد الملك. أشار علينا رئيس الطلبة بالمدرسة زميلنا عبد المنعم ـ لا أتذكر اسمه كاملاً الآن ـ بأن نخرج مع المتظاهرين إلى ميدان عابدين لنشارك فى المظاهرات، ونؤيد سعد زغلول فى خلافه الدستورى مع الملك. فخرجنا ونحن لا نفهم معنى الخلاف الدستورى، أو ما هو الدستور أصلاً. وكل ما فعلناه فى ذلك اليوم أننا كنا نردد هتاف «سعد أو الثورة»، واشتعلت الهتافات بمجرد أن حضر سعد زغلول

بسيارته إلى ميدان عابدين ودخل القصر. وظللنا فى انتظاره حتى اجتمع بالملك وخرج دون أن تهدأ الهتافات. كانت أمنيتى فى ذلك اليوم أن أرى سعد زغلول رأى العين، وتحفزت لأن أهجم على سيارته بمجرد خروجه ليكون لى شرف رؤيته. ولكن هيهات، فقد سدت الجموع البشرية الطريق أمامى، ورجعت إلى البيت خائبًا، لأننى لم أحقق هذه الأمنية التى لم تتحقق بعد ذلك أبدًا، وهى رؤية سعد زغلول رأى العين.

* * *

الفصل السابع عشر
روايات أثارت أزمات

أزمة «أولاد حارتنا» سببها حسن النية - كنت أحلم بالعدالة فاتهمونى بالسخرية من الأنبياء والأديان - قصة «الخوف» التى انتقدت فيها عبد الناصر - فكرة «الكرنك» جاءتنى بعد لقاء مع حمزة البسيونى - صلاح نصر يرفع قضية ضد «الكرنك» - هيكل يغضب منى ويشكونى إلى توفيق الحكيم - اليسار ينقلب ضدى ويتهمنى بالهجوم على عبد الناصر - «الكرنك» هى الرواية الوحيدة التى خرجت فيها عن منهجى فى الكتابة - «عودة الوعى» والعادة الغريبة التى اكتشفتها فى توفيق الحكيم - الكارثة القومية التى نبهت إليها فى «ثرثرة فوق النيل» - «ميرامار» تنتقد الديكتاتورية والاتحاد الاشتراكى - ردى على الذين اتهمونى بنفاق الحكام.

■ يعترف نجيب محفوظ بأنه تعمد أن تكون شخصيات روايته «أولاد حارتنا» موازية لشخصيات الأنبياء دون أن يقصد الأنبياء أنفسهم، ويعترف كذلك بأنه كتبها بحسن نية شديد، ولم يتوقع كل هذه الضجة التى أثارتها.

وفى هذا الفصل يتناول أشهر رواياته التى أثارت أزمات، فإلى جانب «أولاد حارتنا» يذكر «الكرنك» ويعترف بأنه كتبها بوحى من شخصية «حمزة البسيونى» مدير السجن الحربى فى عهد عبد الناصر، وقصة «الخوف»، ورواية «ثرثرة فوق النيل»، وغيرها من الأعمال التى انتقد فيها نظام الحكم. وهو هنا يرد على الذين اتهموه فى فترة من الفترات بنفاق السلطة..■

نجيب محفوظ: ربما تكون «أولاد حارتنا» أكثر رواياتى إثارة للأزمات والجدل، وهذا الأمر لا يتفق مع حسن النية الذى كان وراء كتابتى لهذه الرواية. وأعترف بداية أننى اخترت أسماء الشخصيات موازية لأسماء الأنبياء، وجعلت من المجتمع انعكاسًا للكون، وكنت أريد بذلك أن تكون القصة الكونية غطاء للمحلية. وبلغ من حسن نيتى أننى فكرت فى كتابة مقدمة للرواية أشرح فيها وجهة نظرى، لأننى كنت أحسب أن من يقرأها سوف يقرأها قراءة صحيحة. ولم أقدر أن حسن النية عندى سوف ينتهى بوجود مفاتيح سهلة فى أيدى الجماعات المتطرفة للطعن فى الرواية وصاحبها. كنت أظن أن الناس ستقرأ الرواية من منطلق هذه الرؤية الشاملة، وهل هذه الشخصيات التى تقدمها الرواية هى شخصيات خيرة أم شريرة؟ وهل تقوم بأدوار البطولة أم بأدوار ثانوية؟. فإذا كانت تلك الشخصيات خيرة، وتقوم بأدوار البطولة، فإن التفسير الموضوعى يؤكد أن مؤلفها ليس ضد الأنبياء، وليس لديه النية للإساءة إليهم. وللأسف فوجئت بتفسيرات غريبة للرواية، فقد طابقوا بين الأنبياء وأبطال الرواية، لدرجة أن أحدهم قال لى إننى جعلت أحد الأنبياء «بيحشش وماشى حافى»!، ودخلنا فى جدل عقيم وصل إلى حد الإسفاف، ولم أحسب مطلقا أننى سوف أتعرض لشىء من ذلك عندما كتبت الرواية.

المغزى الأساسى لرواية «أولاد حارتنا» هو أنها حلم كبير بالعدالة وبحث دائم عنها،

ومحاولة للإجابة عن سؤال جوهرى: هل القوة هى السلاح لتحقيق العدالة أم الحب أم العلم؟ والـذى دفعنى لكتابة هذه الرواية، وهى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو، هو تلك الأخبار المتناثرة والتى ظهرت فى تلك الفترة ـ حوالى العام ١٩٥٨ ـ عن الطبقة الجديدة التى حصلت على امتيازات كبيرة بعد الثورة، وتضخمت قوتها.. حتى بدأ المجتمع الإقطاعى الذى كان سائدا فى فترة الملكية يعود مرة أخرى، مما ولّد فى نفسى خيبة أمل قوية، وجعل فكرة العدالة تلح على ذهنى بشكل مكثف، وكانت هذه هى «الخميرة» الأولى للرواية.

بعد «أولاد حارتنا» وجدت نفسى مدفوعا إلى كتابة القصة القصيرة. وفى هذه المرة لأسباب مختلفة عن تلك التى واجهتنى فى مقتبل حياتى ودفعتنى لكتابة القصة القصيرة. ففى المرة الأولى كتبت القصة القصيرة بسبب يأسى من نشر رواياتى. ووجدت أن أسهل طريقة للنشر هى كتابة القصة القصيرة وإرسالها إلى الصحف والمجلات المهتمة بنشرها، ولم تكن كتابتها عندى نتيجة ميل أصلى إليها. أما فى هذه المرة فقد شعرت بدافع فنى وفكرى وروحى نحو القصة القصيرة. ولو سألتنى عن أسباب هذا الدافع لقلت إنها أسباب غير محددة بالضبط، وهى فى العموم نفس الدوافع عند أى أديب لكتابة القصة القصيرة.

ومن القصص التى كتبتها فى تلك الفترة، قصة بعنوان «الخوف» وتدور أحداثها حول مجتمع يحكمه الفتوات، فيصل إليهم «ضابط» يهزمهم ويتغلب عليهم، ويغير ملابسه الرسمية بأخرى مدنية، ويجلس مع الفتوات على المقهى، ويعيش معهم نفس حياتهم، ويخطف منهم فى النهاية الفتاة التى يتنازعون عليها. لم يجد القراء صعوبة حينما قرأوا القصة فى فهم ما كانت تهدف إليه من اعتراض واضح على أساليب الثورة الديكتاتورية، وأن الفتوات هم رمز للقوى السياسية والأحزاب التى كانت تتصارع على السلطة قبل الثورة، وأن هذا الضابط الذى جاء وهزمهم وخطف الفتاة منهم هو جمال عبد الناصر[١] نفسه. وكانت القصة فى مجملها نقدا صريحا للأسلوب غير الديمقراطى الذى اتبعه فى الحكم. ومن خلال الهمس الذى سمعته بعد نشر القصة على صفحات «الأهرام» شعرت أنها سببت

---

(١) مما ساعد على تصور جمهور القراء على أن بطل القصة يرمز إلى الرئيس عبد الناصر أن بطل القصة اسمه «عثمان جلالى»، ففى هذا الاسم الحرفان الأول والثانى من اسم جمال عبد الناصر، وهما «ج، ع».

رعبا للمسئولين فى الصحيفة، وسببت لى أنا الآخر رعبا على المستوى الشخصى. فعندما كنت أسير فى الشارع كان يعترض طريقى بعض الضباط ويسألوننى عن مغزى القصة، ومن هى الشخصية الحقيقية التى أرمز إليها بشخصية الضابط؟!.. استطعت الهروب من هذا المأزق بحيلة طريفة، ففى تلك الفترة كانت قصة الضابط أبو زيد أشهر من نار على علم، حيث استعانت به الدولة ـ قبل الثورة ـ لتأديب المجرمين فى الصعيد وأثبت كفاءة عظيمة، وعندما وقعت خناقة الفتوات فى الحسينية ودخول الفتوة «كامل عرابى» السجن بعد الثورة تم نقل «أبو زيد» إلى «الحسينية» لتأديب الفتوات، وأصبح أشهر ضابط بوليس فى منطقة «الحسينية». لقد شاهدت «أبو زيد» مرة واحدة وهو يجلس على قهوة «عرابى»، وكان الرجل ضخم الجثة، وأصبح شكله العام مثل الفتوات تماما.

وعندما كان يعترض طريقى أحد الضباط ليناقشنى فى قصة «الخوف» ويسألنى عن الشخصية الحقيقية وعما إذا كنت أقصد بها جمال عبد الناصر، كنت أبادره بالسؤال: هل أنت من الحسينية؟.. وأشرح له أنه إذا كان ممن يعيشون فى الحسينية أو قريبا منها، فإنه حتما سوف يعرف الشخص الذى أقصده، وهو الضابط «أبو زيد» الذى كان مشهورا هناك. وفى كل مرة أتعرض فيها لهذا الموقف كان يدور نفس هذا الحوار، وفى كل المرات كان صاحب السؤال يقتنع بوجهة نظرى وتفسيرى للقصة، أو يتظاهر بالاقتناع.

أما فكرة رواية «الكرنك» فقد وردت إلى ذهنى وأنا أستمع إلى أصدقاء مقهى «ريش» وهم يقصون علىّ ما لاقوه من صنوف التعذيب أثناء فترة اعتقالهم. قلت لنفسى: لماذا لا أسجل هذه الأحداث فى عمل روائى لألفت الأنظار لهذه القضية؟ واختمرت فكرة الرواية فى رأسى بعد أن قابلت اللواء حمزة البسيونى الذى كان مديرا للسجن الحربى. فذات يوم ذهبت إلى مقهى عرابى بصحبة جمال الغيطانى، وأثناء دخولنا صافح الغيطانى بحرارة شخصا كان يلعب الطاولة مع صديق له على منضدة مجاورة لنا. وأخبرنى الغيطانى أن هذا الرجل هو حمزة البسيونى الذى كان مديرا للسجن الحربى. جلست أتأمل فى ملامحه التى لا تظهر عليها علامات الخشونة والجفاء بما يتفق مع ما كان مشهورا عنه من غلظة فى التعامل.. كان وقتذاك قد خرج من الخدمة ويحاول الرجوع إليها مرة أخرى.

رأيت حمزة البسيونى مرة ثانية فى مقهى عرابى، حيث كنت جالسا، وإذا به يدخل المقهى ويقترب منى ويقول فى لهجة محايدة «سعيدة يا أستاذ»، ثم جلس على منضدة مجاورة. وبعد أيام لقى مصرعه فى حادث تصادم مروع وهو فى طريقه إلى الإسكندرية.

من خلال ما سمعته عن حمزة البسيونى وأفعاله مع المعتقلين فى السجن الحربى، وما حكاه لى أصدقاء مقهى «ريش»، بدأت فى التخطيط للرواية. وعندما انتهيت من كتابتها ذهبت إلى الأستاذ هيكل وسلمت له أصول الرواية لينشرها مسلسلة فى «الأهرام». كان ذلك على ما أذكر سنة ١٩٧٢ وقبل خروج هيكل من «الأهرام». قرأ هيكل الرواية فثار واعترض عليها ورفض نشرها واستدعى توفيق الحكيم ليشكونى إليه، وقال له: «شوف نجيب جايب لى إيه؟!».

تعرضت الرواية لحذف كثير من أجزائها، وشطب مقص الرقيب كثيرا من أجزائها قبل أن تخرج للنور، ومع ذلك كانت الرواية سببا مباشرا لانقلاب كل اليساريين ضدى لأنهم اعتبروها هجوما على عبد الناصر. خاصة أنهم فى تلك الفترة كانوا مشتبكين فى معركة حامية مع أنور السادات وأنصاره، واعتبروا الرواية مؤيدة للصف المقابل، صف السادات وأعداء عبد الناصر، رغم أننى لم أقصد الهجوم على عبد الناصر فى «الكرنك» ولم أتعرض له فى الرواية، وكان هدفى الوحيد منها إثارة قضية التعذيب فى المعتقلات.

وأغرب أزمة أثارتها الرواية ولم أكن أحسب حسابها، هى غضب صلاح نصر منها على أساس أننى أقصده بشخصية الضابط الكبير الذى أشرف على تعذيب أبطال الرواية. وعندما تحولت «الكرنك» إلى فيلم سينمائى كتب له السيناريو ممدوح الليثى، ولعب دور الضابط فيه الفنان كمال الشناوى، فوجئت بصلاح نصر يرفع دعوى قضائية ضدنا بتهمة التشهير به، وأذكر أننى ذهبت مع ممدوح الليثى إلى المحكمة لحضور إحدى جلسات هذه القضية التى لا أذكر تفاصيلها الآن.

لم أتوقع أن يثير صلاح نصر هذه الأزمة لأنه لم يخطر ببالى وأنا أكتب الرواية، ولم أقصده بتلك الشخصية، خاصة أننى لم ألتق به إلا مرة واحدة وعلى سبيل المصادفة عندما ذهبت إلى مبنى المخابرات للاتفاق على تفاصيل فيلم خاص بالفنان فريد شوقى يدور حول عمل المخابرات. ويومها جرى بيننا حوار حول رواية «أولاد حارتنا». حاول بعض الأصدقاء أثناء نظر قضية التشهير عقد لقاء بينى وبين صلاح نصر لتصفية الخلاف والتنازل عن القضية، ولكن لأسباب لا أتذكرها لم يتم اللقاء، ولو حدث لقلت له صراحة إننى لم أقصدك بل كنت أقصد حمزة البسيونى.

وحاولت المخابرات بعد «الكرنك» أن تمحو الصورة السيئة التى انطبعت فى أذهان

المثقفين عن حقيقة نشاطها، تلك الصورة التى كانت تقربها من صورة «المافيا». ودعت المفكرين والمثقفين وعددا كبيرا من الكتاب لزيارة مبنى المخابرات ليتأكدوا بأنفسهم أنه ليس جهازا للتعذيب، وساعدت فى إنتاج عدد من الأفلام السينمائية التى تتناول بطولات قامت بها لخدمة الوطن مثل «الصعود إلى الهاوية».

فى تلك الفترة كان هناك مخطط للهجوم على عبد الناصر، وبعد خروج «الكرنك» للنور، توالى ظهور الأعمال والكتب التى تهاجم عبد الناصر وعهده. ولذلك ظن كثيرون أن «الكرنك» كانت بداية لحملة، فى حين أن ظهورها جاء مصادفة ولا دخل لها إطلاقا بتلك الحملة، وإلا ما كانت تعرضت لمقص الرقيب الذى حذف الكثير منها، ثم إن «الكرنك» لا تقارن بتلك الأعمال التى ظهرت فى إطار تلك الحملة مثل كتابات توفيق الحكيم وفتحى عبد الفتاح والمستشار على أبو جريشة.

وقد قرأت أغلب هذه الأعمال وانتابنى شعور بالضيق ولم أستطع تكملتها، كذلك انتابنى شعور آخر بأننى تسرعت فى إصدار «الكرنك»، وأحسست أنه لم يكن هناك داع لكتابتها أصلا. خاصة أنها لم تكن فى خطتى الأدبية، والذى دفعنى لكتابتها هم هؤلاء الشبان الذى قصوا علىّ ما تعرضوا له من تعذيب أثناء اعتقالهم، فكتبتها لمجرد التعاطف معهم، ولتسجيل موقف ضد مبدأ التعذيب داخل المعتقلات. وأعتبر «الكرنك» هى الرواية الوحيدة التى خرجت فيها عن منهجى فى الكتابة، ذلك المنهج الذى يعتمد على دراسة كل الحقائق المرتبطة بموضوع الرواية. فالكتابة عن الحارة المصرية مثلا تقتضى معرفة كل دقائقها وخباياها، حتى لا يقع الكاتب فى أخطاء. أما فى «الكرنك» فكانت الرواية معتمدة على مجرد السمع وليس المعايشة، ولذلك عندما تقرأ ما كتبه د. فتحى عبد الفتاح فى كتابه «شيوعيون وناصريون»، تجد أنه أكثر واقعية وتعبيرا عن قضية التعذيب لأنه عاش التجربة بنفسه. وعندما ظهر فيلم «الكرنك» لاحظت أن السيناريو قد بالغ إلى حد كبير فى مسألة التعذيب، وشعرت وكأنه مستمد من رواية أخرى، وأنه يتقرب إلى السلطة التى شجعت فى ذلك الوقت كل ما هو هجوم على الناصرية. عدد كبير من النقاد الذين شاهدوا الفيلم قالوا إنه يراد به أن يكون «الدكتور زيفاجو» ضد عبد الناصر، مثلما كان هذا الفيلم ضد النظام اليسارى، بدليل أن الحكومة سمحت بعرض الفيلم فى السينما، ثم عرضته على شاشات التليفزيون المملوك لها.

ونتيجة للهجوم الذى شنته علىّ فصائل اليسار والناصريين، والاتهامات التى حاولوا

إلصاقها بى، وأنا منها برىء، أصبت بمتاعب صحية فى القلب، وآلام فظيعة صاحبتنى فترة طويلة.

أما الكتاب الذى يعد نقدا عنيفا ومباشرا لعصر عبد الناصر فهو كتاب «عودة الوعى» لتوفيق الحكيم. وهو أول كتاب حمل نقدا جارحا لعبد الناصر وعهده فى الأدب المصرى المعاصر، خاصة أنه صدر بعد وفاة عبد الناصر مباشرة. وأذكر أن توفيق الحكيم قرأ لنا هذا الكتاب، أنا وإبراهيم باشا فرج، قبل نشره، قلت فى نفسى إن هذا الكتاب لا يمكن أن يخرج إلى النور، ولابد أن الحكيم سيحتفظ به لُينشر بعد وفاته. والحكيم نفسه أكد لى هذا المعنى عندما قال لنا إن هذا الكتاب سرى وأنه يعرضه علينا بشكل خاص.

واكتشفت بعد ذلك أن من عادة توفيق الحكيم فى كل أعماله بداية من «أهل الكهف» أن يوحى لمن يعرضها عليهم قبل النشر بمدى خطورتها وسريتها، حتى يلفت إليها الانتباه، لأنه بعد أن قرأ لنا «عودة الروح» بأيام قليلة فوجئت بالكتاب منشورا فى لبنان، وعرفت بعد ذلك أنه أحضر ناشرا لبنانيا وقدم له الكتاب ليقرأه موحيا له بمدى خطورته وسريته كما هى عادته، وهو مدرك أن الناشر اللبنانى سيصدر الكتاب، ربما قبل أن يتم قراءته.

وأحدث كتاب «عودة الوعى» صدمة شديدة فى صفوف المثقفين لأنه كان يتضمن وجهة نظر مختلفة تمامًا عن آراء الحكيم التى طالما أعلنها فى عهد عبد الناصر، وهى وجهة نظر مناقضة لما عرف عن علاقة الحب التى ربطت بينهما منذ قيام الثورة. كان الزعيم الذى حلم به الحكيم فى «عودة الوعى» هو عبد الناصر، وكان لدى عبد الناصر نفسه هذا الإحساس، لذلك أكرم الحكيم دائما وأحبه، ومن هنا كانت صدمة «عودة الوعى».

والحقيقة أن فقدان الوعى الذى أصاب الحكيم، تعرضت له أنا الآخر ولكن بشكل تدريجى. فعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ علقت عليها آمالا كبيرة، ورويدا رويدا بدأت هذه الآمال فى التضاؤل، خاصة بعد الصدمات التى تعرضنا لها، بداية من فشل الوحدة مع سوريا، وورطة حرب اليمن، ونكسة ١٩٦٧، وانتهاء بفرض النظام الديكتاتورى كأسلوب للحكم. وكان السبب الرئيسى الذى جعل كثيرين يغضبون من توفيق الحكيم، هو أن هجومه انصب بشكل مباشر على شخص عبد الناصر، وأنه حمله مسئولية كل الأخطاء.

فى رواياتى انتقدت نظام الحكم وحاولت توضيح الأخطاء، ولكنها كانت انتقادات موضوعية لم تتعرض لأشخاص. ففى رواية «ثرثرة فوق النيل» التى ظهرت فى عز

مجد عبد الناصر، وفى وقت كان فيه الإعلام الرسمى يحاول ليل نهار أن يؤكد للناس انتصار الثورة والنظام، نبهت إلى كارثة قومية، كانت قد بدأت تطل برأسها على السطح، وكان لابد أن تكون لها نتائجها الخطيرة. وكنت أعنى محنة الضياع وعدم الإحساس بالانتماء التى يعانى منها الناس، خاصة فى أوساط المثقفين، الذين انعزلوا عن المجتمع، وأصبحوا فى شبه غيبوبة، فلا أحد يعطيهم الفرصة ولا هم قادرون على رؤية الطريق الصحيح. وفى المحاولة التى قاموا بها لإيجاد هذا الطريق ارتكبوا حادثة رهيبة فى شارع الهرم ولاذوا بالفرار، وهى الحادثة التى تدل على أن عزلتهم وأنانيتهم دفعتهم للإقدام على هذا التصرف الخاطئ. بعض النقاد ربطوا بين حالة الغيبوبة التى يعيشها أبطال الرواية وتلك الحالة التى كانت تعيشها طائفة «الحشاشين»، إحدى الفرق المتطرفة التى ظهرت فى تاريخ الدولة الإسلامية، وكان زعيمهم حسن الصباح يوهمهم تحت تأثير تناولهم للحشيش أنهم فى الجنة، ويحرضهم على قتل الزعماء، وفى إحدى المرات كادوا يقتلون صلاح الدين الأيوبى. والفارق بينهما أن الغيبوبة التى يعيشها أبطال رواية «ثرثرة فوق النيل» تمثل نوعا من الانتحار الذاتى وطريقا للخلاص من المشكلات التى يواجهونها، أما زعيم الحشاشين، فكان يستغل هذه الحالة ليوجه أتباعه إلى عمل عنيف وهو القتل.

وفي رواية «اللص والكلاب» كان هناك نقد واضح لثلاث قضايا، الأولى: هى خيانة المبدأ، والثانية: مبدأ الاغتيال نفسه، والثالثة: الحلول الغيبية. وكنت أعنى أن أمور التصوف والدروشة لا تقدم للسالكين فيها سوى تسكين مؤقت، ولكنها لا تعالج المشكلة من أساسها. وكنت أنبه إلى خطورة تغلغل وانتشار الطرق الصوفية فى مصر بعد الثورة، حيث وجد فيها الناس بعض العزاء عن إلغاء الأحزاب والقوى السياسية التى تعبر عنهم، حتى أننى شعرت فى لحظة من اللحظات أن الشعب كله أصبح عبارة عن تجمعات من الدراويش. ومن الفرق الصوفية بدأت تظهر فى فترة لاحقة جماعات لا تؤمن بالحلول الغيبية والمسكنات، ولا تجد نفعا فى التصوف المسالم، واقتنعت بضرورة اللجوء إلى استخدام العنف والقوة.

وكانت رواية «الشحاذ» تعبيرا عن حالة الضياع والإحباط التى يعيشها المثقفون، وحاولت فيها أن أقول إننا عدنا، كما كنا فى أواخر الخمسينيات، نبحث عن طريق للخلاص، نبحث عما نسميه اليوم بالانتماء.. فرواية «الشحاذ» عبارة عن أغنية رثاء ذاتية لمثقف يسارى ضائع فعل كل شىء ولكنه لم يحصل على نتيجة، فيدخل فى صراع نفسى رهيب. ويسأل نفسه: أنا ابن من؟ وما هو الهدف من حياتى؟ ولماذا جئت إلى هذه الدنيا؟.. وهذه الأسئلة

لا ترد على ذهن الإنسان إلا فى حالات الإحباط واليأس. وفى تلك الأعمال ظهر بوضوح الانتقال من المستوى الاجتماعى إلى المستوى الفلسفى.

وفى رواية «ميرامار» تعرضت بصراحة لمشكلة الاتحاد الاشتراكى وصراع الطبقات فى المجتمع، وتعرضت كذلك للديكتاتورية، وانتقدتها بشدة. ومع كل ذلك ظهرت كتابات نقدية تهاجمنى وتتهمنى بنفاق السلطة فى تلك الأيام، وهؤلاء لا يعرفون أننى كنت أكتب الرواية، ثم أضع يدى على قلبى خشية الاعتقال. ثم ماذا يريدون منى بعد كل تلك الانتقادات الصريحة التى وجهتها إلى السلطة وكشفت فيها عن أخطاء خطيرة؟ وهى أمور ما كنت لالتفت إليها لو كان فى نيتى نفاق الحكام.

* * *

الفصل الثامن عشر

المذاهب السياسية

تعاطفت مع الشيوعية ورفضت الفاشية والنازية ـ معسكر الفاشست فى الإسكندرية ـ الشيوعيون الذين عرفتهم فى مصر ـ «هنرى كورييل» كان عميلا للإنجليز ـ لماذا لم تنتشر الشيوعية فى مصر؟! ـ الأسباب الحقيقية لانهيار الاتحاد السوفيتى ـ جورباتشوف من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ ـ لا أستبعد عودة صراع القوى العظمى وجرّ البشرية للدائرة الجهنمية من جديد ـ الشيوعيون العرب ما زالوا يعيشون فى أحلام ـ مذابح هتلر ضد اليهود صحيحة وأختلف مع رأى العقاد ـ فى الحرب العالمية الثانية أيدت الحلفاء رغم كراهيتى للإنجليز.

■ فى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن المذاهب السياسية الكبرى التى ظهرت فى هذا القرن، ويتوقف عند ثلاثة منها، وهى: الفاشية والنازية والشيوعية. ويحدد موقفه منها ويبين أسباب رفضه للفاشية والنازية وتعاطفه مع الشيوعية. ثم يتوقف طويلاً عند انهيار الاتحاد السوفيتى، ويتنبأ بالمصير الذى ستنتهى إليه الشيوعية.

تتشابك الأسئلة فى هذا الفصل وتتنوع، ولكنها تنطلق من محاور أساسية أهمها: تأثير انهيار الكتلة الشرقية على العالم العربى، وموقف الماركسيين العرب من الأحداث، وهل يتوقع نجيب محفوظ عودة العالم من جديد إلى الصراع بين القوى الكبرى أو الأقطاب؟ ولماذا اختلف مع العقاد حول قضية مذابح اليهود على يد هتلر؟ ثم لماذا لم تنتشر الشيوعية فى مصر؟.. ■

نجيب محفوظ: لا أستطيع أن أحدد بالضبط بداية اهتماماتى بالمذاهب السياسية ومتابعاتى للعقائد أو الأيديولوجيات الكبرى التى ظهرت فى هذا القرن. وما أذكره هو أننى كتبت مقالاً عن الاشتراكية فى مجلة «المجلة الجديدة» عام ١٩٣٠، كما تابعت ظهور الفاشية فى إيطاليا، وخاصة بعد أن امتد تأثيرها إلى مصر بقيام حزب «مصر الفتاة».

ومن الأمور التى ساعدت على معرفتى بالمذهب الفاشى فى ذلك الوقت غزو إيطاليا للحبشة، ووجود عدد كبير من الإيطاليين فى مصر، وكان لهم تنظيمات فاشستية ومعسكر فى كليوباترا بالإسكندرية، وكان أفراد ذلك المعسكر يقفون أمام بابه بدون سلاح ويحملون عصيًّا خشبية لمنع الناس من السير أمام المعسكر، وكان لهم نفوذ كبير خاصة «قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية». وقد ساعد على تقوية النفوذ الإيطالى فى مصر، تلك العلاقة الاستثنائية بين القصر الملكى وإيطاليا. وهى العلاقة التى بدأت تاريخيًا منذ نفى الخديو إسماعيل إلى إيطاليا، ثم تربية الملك فؤاد ـ صغيرًا ـ هناك. وكان من عادة الأسرة المالكة المصرية إرسال أمرائها إلى إيطاليا لتلقى التربية والتعليم. وكان الملك فؤاد نفسه ياورًا لملك إيطاليا، حيث كان الاثنان زميلين فى إحدى المدارس الإيطالية التى أُلحق بها الملك فؤاد ليتعلم أساليب الحكم. وتوثقت العلاقة إلى حد بعيد بين القصر الملكى وإيطاليا بمرور الوقت، وربما كان فاروق هو أول أمير من أسرة إسماعيل لا يتعلم فى إيطاليا. حيث فرض الإنجليز على والده

أثناء مرضه تعليمه فـى إنجلترا، وكان فاروق ما زال طفلاً، مما أثار عطفًا شعبيًا جارفًا نحو فاروق الطفل الذى انتزعه الإنجليز من حضن أمه!

وفى اعتقادى أن العقائد الثلاث الكبرى التى ظهرت فى تلك الأيام وهى: الفاشية والنازية والشيوعية، كانت ردود أفعال لسوء الأحوال القائمة. فالشيوعية ظهرت نتيجة لتردى أحوال العمال، والفاشية والنازية كانتا من النتائج المترتبة على شعور الشعبين الإيطالى والألمانى بالهوان والذل. فالألمان كان لديهم إحساس بالإذلال والمهانة بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى وخضوعهم لأحكام معاهدة فرساى. ولم تكن إيطاليا أقل شعورًا بالمهانة، رغم أنها خرجت منتصرة من الحرب، فقد شعر الإيطاليون بأنهم خُدعوا، وأن الدول المنتصرة فازت بمعظم الغنيمة واستولت على كل المستعمرات، ولم تترك لهم إلا الفتات، فأصبحوا فى وضع مماثل لألمانيا المهزومة. ونتيجة لذلك كان من السهل أن يظهر لدى الشعبين حلم العظمة وإعادة المجد القديم. ومن ثم فإن الفاشية والنازية، قامتا على أسس العنصرية وتضخم الذات والعظمة والشعور بالنقص، ولذلك نفرت منهما ورفضتهما منذ أن أدركت هذه الحقائق.

وفى المقابل تعاطفتُ بدرجة كبيرة مع الماركسية بسبب مبادئها الإنسانية، وغاية ما فى الأمر أنى استنكرت محاولة الروس فرضها ونشرها بالقوة، وتعصبهم الشديد لها، فى حين أن التعصب يكون للدين لا للفلسفة. أخذت على الماركسيين أسلوب حكمهم الديكتاتورى، فقد أصبح المذهب حقيقة قائمة وتأسست الدولة الشيوعية، فلماذا وعلى من كانوا يمارسون الديكتاتورية؟!. أما المبادئ الاقتصادية للنظام الشيوعى، فلم يكن لى أى اعتراض عليها، خاصة أن عيوبها لم تكن قد ظهرت بعد، وربما يرجع ذلك إلى أن الذين طبقوا النظام فى ذلك الوقت هم المؤمنون الأوائل به. وهؤلاء استطاعوا نقل روسيا من بلد متخلف تابع للعالم الثالث إلى إحدى القوتين العظميين فى العالم. وإذا كان الروس يسبون الشيوعية حاليًا ويقولون إنها سبب الخراب الذى أصابهم، فإن هذه الشيوعية نفسها هى التى رفعتهم إلى مصاف الدول العظمى، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

* * *

كان الاتحاد السوفيتى مشروعًا مثاليًا بحاجة إلى أناس مثاليين، وتحققت هذه المثالية بالفعل على يد الشيوعيين الأوائل الذين كانوا أكثر إخلاصًا وإيمانًا بالنظرية، فصنعوا مجد

الاتحاد السوفيتى، مثلما تحقق الإسلام المثالى فى عهد عمر بن الخطاب، لأنه وجد من يخلص له، ثم تحولت الأمور إلى شىء آخر بعد ذلك.. وأصيبت الشيوعية بالضعف فى فترة لاحقة لأن أبناء الشيوعيين الأوائل لم يكونوا بنفس الحماس، وأصبح «الابن» موظفًا «روتينيا»، ليس لديه الحافز للعمل والإنتاج، وأصبح منهم المختلس والمرتشى والمتسيب. ولكن السبب الأهم فى ضعفها هو الأسلوب الديكتاتورى للحكم، وربما كان لهذا النوع من الحكم مبرراته فى السنوات الأولى للثورة، عندما كان لها أعداء يتربصون بها ويريدون القضاء عليها بالقوة. ولكن بعد أن استقرت الثورة وقامت الدولة، فقد كان أفضل طريق للدفاع عنها هو الديمقراطية والحرية. ولكن هذا لم يحدث واستمر النظام الديكتاتورى يفرز سمومه حتى وصل فى عهد ليونيد بريجنيف إلى حد الفساد الطاغى، فقد كان الرجل مغرمًا بالسيارات الفارهة، ووصل عدد المليونيرات فى الاتحاد السوفيتى فى عهده إلى عدة ملايين!.

عند الحاكم الديكتاتورى حرية لا يتمتع بها الزعيم الديمقراطى، وعندما تقارن الحريات والسلطات التى منحها ستالين لنفسه تجدها أضعاف تلك الممنوحة للرئيس الأمريكى. فقد تم طرد الرئيس نيكسون من البيت الأبيض عندما إتضح أنه يتنصت على مكالمات هاتفية لخصومه، فلا أحد فوق القانون.

والشيوعية فلسفة كان فرضها بالقوة هو أكبر خطأ وقعت فيه، لأن الفلسفة لا يمكن فرضها بالقوة. وكان بإمكان الاتحاد السوفيتى أن يعيش إلى يومنا هذا، ويكون فى أحسن حال لو أدخل الديمقراطية وسمح بالنقد والمناقشة وحرية الرأى، ولكنهم كمموا أفواه الناس، ومن يفتح فمه رغم كل التضييق والمحاصرة، فإنه يجد نفسه منفيًا فى سيبيريا أو محكومًا عليه بالإعدام، ربما قبل أن يغلق فمه!. كان المسئولون السوفييت يعتبرون عرض أى وجهة نظر مخالفة كفرًا يستوجب إسكات صاحبه إلى الأبد، والأمر الذى لا شك فيه أن غياب الديمقراطية يحرم النظام ـ أى نظام ـ من مقومات حياته واستمراره.

وعندما كتبت عن الاشتراكية سنة ١٩٣٠ وقلت إنها نظرية المستقبل، كنت متعاطفًا مع الاشتراكية الإنجليزية (الفابية) وليس الماركسية اللينينية، وذلك لأن أخبار الثورة الشيوعية كانت ممنوعة فى مصر، وكانت معلوماتنا عنها ضئيلة ولا نعرف ماذا يحدث هناك فى موسكو، مثلما حدث مع ثورة الخومينى فى إيران فيما بعد. فقد كان الإنجليز يحظرون الكتابة والنشر فى هذا الموضوع، وربما لهذا السبب لم أعرف شيئًا عن الحزب الشيوعى

الأول الذى أسسه سلامة موسى وعبد الله عنان وحسنى العرابى. ولو عرفت لكنت وقفت ضد هذا الحزب، لأننى فى ذلك الوقت كنت أرفض قيام أى حزب آخر غير «الوفد» حتى يتم حل القضية الوطنية، وكنت أعتبر إنشاء أى حزب جديد بمثابة إضعاف لقوتنا الرئيسية، لأن الأحزاب الجديدة سوف تستقطب عددًا من الشباب، والقضية الوطنية تحتاج إلى جهود كل الشباب المصرى.

* * *

والشيوعيون الذين عرفتهم كانوا من الأجيال الجديدة، وهؤلاء كانوا أنشط من القدماء، ومن هؤلاء الشيوعيين رمسيس يونان ومحمود أمين العالم وغيرهما، عرفتهم من البداية، وكان منهم أناس مخلصون ويستحقون الاحترام بكل معنى الكلمة.. ومنهم من انخرط فى الشيوعية لأسباب شخصية ثم تخلى عنها بسهولة، وبعضهم انضم للتيار الإسلامى فيما بعد، والبعض الآخر أقام مشروعات تجارية استثمارية مخالفًا لكل مبادئ الشيوعية ومتجاوزًا حتى لعتاة الرجعية، وأصبحوا من الباشوات. فى حين أن بعض أبناء الباشوات اعتنقوا الشيوعية وكانوا أكثر إخلاصًا لها وإيمانًا بها مثل: نبيل الهلالى ومحمد سيد أحمد وإلهام سيف النصر. وأنا أعتبر نبيل الهلالى تحديدًا مثالاً للشيوعى النبيل المخلص، فقد اعتنق الشيوعية وأنفق من ماله الخاص فى سبيلها، بينما استفاد منها غيره وأقام المصانع والشركات الخاصة.

أنا لست ضد أن يعيش الشيوعى ويعمل فى مهن محترمة مثل الطب والهندسة، ولكن بشرط أن يحترم مبادئه ولا يرتكب ما يخالفها أو يتناقض معها. لقد قيل إن مؤسسى الحركة الشيوعية فى مصر كانوا من اليهود وأنا أشك فى هذه المعلومة. فقد اتضح أن «هنرى كورييل» كان عميلاً للإنجليز، واعترف بذلك فى مذكراته، ومن ثم فإن انضمامه للحركة الشيوعية تم بتدبير الإنجليز، على أساس أن الشيوعية ـ وهى ضد القوميات ـ يمكن أن يحطموا عن طريقها فكرة القومية العربية الوليدة آنذاك.

أما فى أثناء الحرب العالمية الثانية فقد ازدهرت الشيوعية بعد تحالف الاتحاد السوفيتى مع دول الحلفاء، وعلى رأسها إنجلترا، ولذلك تساهل الإنجليز وألغوا كثيرًا من القيود التى كانوا يفرضونها على الحركة الشيوعية.

ومن الظواهر اللافتة للنظر فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية أن عددًا ممن انضموا

إليها فى البداية، كانوا من الفنانين التشكيليين أصحاب النظريات القريبة من السيريالية. خاصة أن هذه الحركات لقيت اهتمامًا من الشيوعيين على اعتبار أنها محطمة للواقع القديم. وفى فترة لاحقة تخلى الشيوعيون عن عطفهم على تلك الحركات التشكيلية وأدانوها عندما اكتشفوا ابتعادها عن الواقعية، ومع ذلك ظل عدد من الشيوعيين المصريين متمسكًا بتلك النظريات غير الواقعية، والتفسير الوحيد لذلك هو عدم إخلاصهم للشيوعية. فأنا لا أفهم أن يكون المرء شيوعيًا ويعرف أن الشيوعية تتناقض مع مذاهب فنية معينة ثم يتمسك بها رغم ذلك. فالشيوعى الحقيقى هو الذى يبحث عن الأسلوب الذى يفهمه الرجل العادى، أما أن يكون الفنان شيوعيًا ويرسم لوحات سيريالية، فهذا ما لا أفهمه.

هذا التناقض يذكرنى بمخرج معروف لن أذكر اسمه، يدعى التقدمية ويستفيد من النقاد الشيوعيين فى بناء شهرته الفنية، وفى نفس الوقت يستفيد من التمويل الخارجى الغربى لأفلامه، كما أن هذه الأفلام صعبة ولا يفهمها الجمهور، وهذه تصرفات أناس غير مخلصين، فليس من المنطقى أن تكون شيوعيًا وتصنع أفلامًا لا يفهم منها الجمهور شيئًا.

والحقيقة التى لابد من الاعتراف بها هى أن الشيوعية لم تنجح فى مصر حتى وهى فى أحسن أحوالها. والسبب فى ذلك ليس كما قيل، لأن الشيوعية نظرية غريبة على المجتمع المصرى، فالديمقراطية أيضًا غريبة عليه. ولكن السبب الأهم هو قوة الدين الإسلامى فى نفوس المصريين، وكانت الشيوعية فى بدايتها ضد الدين بشكل عام. وأعتقد لو أن الشيوعية الروسية أطلقت حرية الدين مثلما فعلت الشيوعية الأوروبية لاعتنقها عدد كبير من الناس، خاصة أن الإسلام نفسه يتضمن الدعوة لمبادئ العدالة والتضامن والمساواة التى تنادى بها الشيوعية. وسبب آخر هام هو أن الشخصية المصرية لا تميل إلى المجتمع المغلق، فالمواطن المصرى يحب أن يرتاد المقهى ويدردش بحريته ويتكلم بصوت عال، ويلقى النكات، وهو لا يحب أجواء الكآبة والتزمت، بينما النظم الشيوعية تميل إلى الجو البوليسى الخانق والحكم الديكتاتورى، وربما لهذا السبب لم يزدهر الأدب فى ظل النظام الشيوعى، فمن الصعب وجود أدب عظيم فى ظل النظم الشمولية، سواء كانت شيوعية أو فاشية أو نازية.

ولكن فى ظل النظام الشيوعى ازدهرت الفنون المجردة مثل الباليه والرقص والموسيقى، لأنها فنون مجردة لا يمكنك أن تعرف ما يقصده بالضبط مؤلفها ومبتكرها. كما تفوق

الشيوعيون فى الألعاب الرياضية، فنظام التدريب عندهم يعتمد على التنظيم الشديد الذى يصل إلى حد القهر. أما الأدب فهو فن «مفضوح»، ويمكنك أن تفهم ما يقصده الكاتب حتى ولو من خلال الرمز، خاصة فى ظل نظام بوليسى يفسر الرمز بالشبهات. فلا يكون أمام الأديب حينئذ إلا أن يلتزم بمبادئ النظام الحاكم ويضع نفسه فى خدمته إذا كان منسجمًا مع نفسه، أما البعض الآخر فيتحول إلى أديب منافق أو منشق متمرد تكون نهايته سوداء. فالأديب الذى يحاول كتابة أدب إنسانى فى ظل حكم شيوعى، يتعرض فى أغلب الأحيان للمطاردة والسجن، لأن ما يكتبه غالبًا ما يتناقض مع مبادئ النظرية ومع ما يريده النظام الحاكم.

* * *

كان انهيار الاتحاد السوفيتى حدثًا مدويًا يستحق التأمل، لماذا؟، لأن الانهيار وقع فى ذروة قوة النظام السوفيتى وجبروته. فقد كان السوفييت يملكون مخزونًا من الأسلحة كفيلاً بتدمير الكرة الأرضية، وكانوا الأقوى عسكريًا، وكانت الولايات المتحدة تخشاهم وتنفق نصف ميزانيتها فى التسليح ونفقات حرب الكواكب. وكان تفكيك الاتحاد السوفيتى أمرًا يحتاج إلى حرب عالمية ثالثة على الأقل حتى تذعن الكتلة الشرقية وتغير نظمها الحاكمة وعقائدها السياسية. ولكن ما حدث فاق كل التوقعات، فقد انهار الاتحاد السوفيتى، وقال الروس إن النظام الشيوعى أضر بهم وكان سببًا فى تخلفهم وأنه يقودهم إلى الخراب ولابد من تغييره. والمشكلة التى تواجه دول الاتحاد السوفيتى السابق حاليًا هى كيف يتم التغيير؟، ومن هنا يأتى التخبط والفوضى الحادثة هناك. وفى رأيى أنه لابد من فترة انتقالية تكون بمثابة المحنة، ولا أستبعد أن تكون هناك فترات فشل أو ارتداد مؤقت، ولكن الحقيقة الناصعة التى أصبحت مؤكدة أن الرجوع إلى الماضى كما كان، أصبح أمرًا مستحيلاً. ليس معنى هذا أن روح الاشتراكية ماتت ومضمونها انتهى، أبدًا، إنما الذى انتهى بلا عودة هو نظامها القائم على الحكم الديكتاتورى. ويمكن بطبيعة الحال أن يأتى نظام جديد يتبنى فكرة العدالة والمساواة، وهذا النظام قابل للتحقق حتى فى البلاد الرأسمالية. فالاشتراكية لا تتناقض مع فكرة الحوار الديمقراطى وحرية الأديان، ويمكن تحقيق مبدأ العدالة والمساواة فى ظل النظم الديمقراطية الرأسمالية. ودليل هذا أن السيدة «مارجريت تاتشر» حصلت على الأغلبية فى الانتخابات البريطانية لمدة عشر سنوات رغم أنها من حزب «المحافظين»، وأغلبية الشعب البريطانى من «العمال»،وكان الأحق

بأصواتهم حزب «العمال» ولكنهم أعطوها لتاتشر، لأنها وفرت نوعًا من الرخاء للمجتمع مما انعكس على الطبقات الشعبية، ومن هنا نالت الأغلبية فى الانتخابات لفترة طويلة، فأى نظام سياسى إنما يرتكب خطأ لا يغتفر عندما يلغى الحرية أو يمنعها تمامًا.

عندما جاء جورباتشوف إلى الحكم فى الاتحاد السوفيتى وجد خللا ظاهرًا، وهو أن بلاده متطورة جدًا من الناحية العسكرية ولكن ينقصها الديمقراطية والحرية وتطوير النظام الاقتصادى، ولو استمر الحال على هذا المنوال فستعود مرة أخرى إلى دائرة العالم الثالث. ولذلك قاد ثورة الإصلاح التى عرفت باسم «البيروسترويكا»، وللأسف لم يتسن لى قراءة «البيروسترويكا»، ولكننى تابعت نتائجها.

واجه جورباتشوف انتكاسات وصلت إلى حد محاولة الانقلاب عليه ومحاولة اغتياله، ولكن العجلة لم تعد إلى الوراء، وإذا كان الرجل قد توارى عن الحياة السياسية فى بلاده، فإن إصلاحاته ماضية فى طريقها. أما رؤيتى لجورباتشوف كإنسان وقائد، رغم غيابه عن الساحة، فلا أستبعد أن يكون من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ، لأن الحركة التى قام بها غير مسبوقة بأى مثال، ونظريته لإعادة البناء والإصلاح كان لها تأثير هائل على مجرى التاريخ. والحقيقة أننى أحب جورباتشوف وأحترمه عقليًا ووجدانيًا، وطوال زعامته للاتحاد السوفيتى حاز عواطف لم ينلها زعيم آخر فى العالم.

وأعتبر الشعب السوفيتى من أنبل شعوب الأرض الآن لسبب قد تستغربه، وهو أن هذا «الشعب السوفيتى» قام بتجربة جديدة لم يعرفها العالم من قبل وهى «الشيوعية»، فإذا نجح فيها كان هذا النجاح بمثابة فتح للبشرية كلها، وإذا سقط يكون قد حذر العالم منها، وفى الحالتين هو الذى يدفع الثمن.

بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ثارت عدة تساؤلات:

أولها: سؤال هام عن مستقبل الشيوعية فى العالم؟، وأرى أن الشيوعية، كفلسفة تحمل مبادئ المساواة والعدالة بين البشر، لا يمكن أن تختفى، إنما الشيوعية كنظام حكم ودولة عظمى قائمة على الديكتاتورية كما كان الحال فى الاتحاد السوفيتى، فهو الأمر الذى أستبعد عودته إلى الحياة، ولكننى لا أستبعد وصول الأحزاب الشيوعية إلى الحكم فى أكثر من بلد، وفى ظل نظام ديمقراطى قائم على التعددية، مثلما هو حادث فى أوروبا، بشرط أن تغير الشيوعية من نفسها، وتأخذ بالمنهج الديمقراطى. وفى أغلب الأحوال ستظل الأحزاب الشيوعية فى أوروبا ـ فى تصورى ـ مجرد أحزاب معارضة.

السؤال الثانى: هل من الممكن أن يعود الصراع التقليدى بين القوى العظمى وتتجدد الظروف التى قادت إلى الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد ظهور عمالقة جدد على الساحة العالمية مثل ألمانيا واليابان؟ أنا شخصيًا لا أستبعد أن يعود الصراع وتعود البشرية إلى الدائرة الجهنمية من جديد. ولكن هناك عدة أمور تدعونى للتفاؤل، أولها: أن دولة مثل اليابان استطاعت أن تنتزع لنفسها مكانة دولية اقتصادية هائلة رغم أنها بلا جيش أو قوة عسكرية. وثانيها: أن الحرب بمعناها التقليدى القديم انتهت فى ظل وجود الأسلحة الفتاكة التى يمكن أن تبيد الجنس البشرى بأكمله، وفيها لا يكون هناك منتصر ومهزوم، وهو أمر يجعل الدول العظمى تتجنب الحروب. وثالثها: أن الدول العظمى تعرف أكثر من غيرها أن الأرض مهددة، ولديها إحصاءات ومعلومات رهيبة عن المخاطر التى تهدد الكرة الأرضية، ولذلك فهى تعرف أكثر من غيرها أن هذه المخاطر تقتضى التضامن والتعاون وليس الحرب.

والسؤال الثالث: هو عن أسباب استمرار الشيوعية فى بعض دول آسيا مثل الصين وكوريا الشمالية وفيتنام، ولماذا لم تسقط الشيوعية فيها مثلما سقطت فى الدولة الأم؟ وتفسيرى لذلك هو أن الشيوعية ما زالت تؤتى ثمارها فى هذه الدول مثلما كانت فى بداية التطبيق فى الاتحاد السوفيتى السابق. ثم إن هذه الدول تفرض الشيوعية على شعوبها بالقوة، بدليل أنه عندما حدثت المظاهرات الضخمة فى الصين، وهى مظاهرات «الميدان السماوى»، قمعتها الحكومة بالقوة، ومع ذلك أعتقد أن المصير واحد، وأن ما حدث للاتحاد السوفيتى سوف يحدث فى هذه البلاد.

سؤال رابع: عن مصير دول الاتحاد السوفيتى السابق بعد أن انهارت الرابطة المركزية التى تجمعها. وأعتقد أن هذه الدول سوف تمر ـ كما هو الأمر حاليًا ـ بأزمات متنوعة فى بداية الفترة الانتقالية، لأن الانتقال من نظام إلى آخر من أصعب ما يكون. ففى فترة بداية الثورة الصناعية فى أوروبا، وما شهدته من هجرات متتابعة للناس من الريف إلى المدن، حدثت متاعب كثيرة. وفى مدينة مثل لندن تكدس العمال فى الحوارى والطرقات، وأصبحت العاصمة البريطانية مثالاً للقذارة والأمراض والزحام والفوضى. وفى مجتمع عاش كل هذه السنوات تحت الحكم الشيوعى، فلا بد من فترة طويلة حتى يتعود الناس على نظام جديد قائم على الفكر الحر والاقتصاد الحر والاعتماد على الذات. فالعامل الذى كان يضمن مرتبه ومعاشه وعلاجه وتعليمه من الدولة، بات عليه أن يعتمد على نفسه وأن يقاتل من أجل لقمة العيش. وفى مصر ذقنا بعض هذه المصاعب فى فترة الانفتاح الاقتصادى التى

لقى فيها البعض ممن استفادوا من الانفتاح رواجًا، وتضاعفت دخولهم وانتقلوا إلى حياة مرفهة، وامتلأت الأسواق ببضائع مستوردة تباع بأسعار خيالية ويشتريها هؤلاء.. فى حين أن العمال والموظفين فى الحكومة والقطاع العام بقيت مرتباتهم كما هى تقريبًا منذ أيام «الانغلاق»، رغم أن السوق واحدة والأسعار تسرى على الجميع.

لا شك أن تلك الأزمة ستمر بها شعوب الاتحاد السوفيتى السابق، ولكن الأزمة الأكبر تكمن فى انفجار القوميات، لأن الرابطة التى كانت تجمع تلك الشعوب المختلفة انتهت. فما الذى يجبر شعوبًا مختلفة فى اللغة والقومية والدين والحضارة على العيش معًا فى ظل اتحاد سابق؟!. من هنا ثارت نزاعات بسبب هذه القوميات وصلت إلى حد القتال، ومن الاحتمالات الواردة أن تكتشف هذه الشعوب بعد فترة أن التضامن أفيد لها من الانفصال، فتجمعها رابطة أشبه بتلك التى تربط بريطانيا بمستعمراتها السابقة والتى يطلقون عليها مجموعة دول «الكومنولث». وقد اتفقت عدة دول بالفعل مع روسيا على نوع من هذه الروابط قد تزداد فعاليته بمرور الأيام. وأيًا كانت النتائج، فإن الرجوع للماضى أصبح أمرًا مستحيلاً، بعد أن اتضح خط السير وهو: الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. وعندما يتضح خط السير فلا يمكن أن تجبر الشعب على أن يسلك طريقًا آخر. فنحن فى مصر تحمسنا لنظام عبد الناصر على أساس أنه النظام الاشتراكى الذى سيحقق لنا العدالة التى نحلم بها، ثم اتضح أن التركيبة لم تنجح وأن العدل يمكن تحقيقه فى ظل نظام ديمقراطى.

نأتى إلى نقطة هامة أخرى وهى موقف الماركسيين العرب من انهيار الاتحاد السوفيتى، ثم تأثير هذا الانهيار على العالم العربى. والحقيقة أن الشيوعيين العرب مازالوا يعيشون فى الحلم القديم ولم يستوعبوا الأحداث، وهذا جزء من عيبهم القديم. ففى فترة سابقة كانت الخلافات بينهم لا تنتهى بسبب قضايا لا تمسهم مباشرة، مثل الخلاف بين أنصار تروتسكى وأنصار ستالين، وهذا يدل على عدم وجود تفكير أصيل لديهم. وأعتقد أن العالم العربى يمكنه الاستفادة من تلك التطورات العالمية ويسير فى اتجاه الريح السائدة فى العالم نحو الديمقراطية واقتصاد السوق والأخذ بالتكنولوجيا الحديثة والأساليب العلمية، إذ يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن أى تأخير فى الأخذ بهذه الأساليب هو تخلف عن العصر. ومن الدروس المستفادة أننا يمكننا حل المشاكل بالحوار وليس بالحرب، ولقد رأينا بأعيننا المتاعب التى تعرض لها الرئيس الأمريكى جورج بوش حتى يتمكن من استصدار قرار

الحرب ضد العراق، وكيف كان الاعتراض على الحرب فى الولايات المتحدة وفى جميع دول العالم، لأن الحرب لم تعد مقبولة.

لقد أشار البعض إلى أن العرب هم الخاسرون الأوائل من تفكك الاتحاد السوفيتى السابق، على أساس أنه كان يساندنا فى قضايانا. وأنا أقول ليست هناك خسارة، لأن العالم تحكمه الآن لغة المصالح، ويجب أن نحدد مصالحنا وأهدافنا ونحاول تحقيقها، دون أن نصطدم مع الكبار، بل نستفيد منهم. فلم تعد هناك سياسة «اللعب على الحبلين» أو الاعتماد على دولة عظمى فى كل شىء، وعلينا أن نسير فى مدار فلكى يقودنا إلى الأمام، دون أن نرتطم بكوكب يعطل توجهاتنا ومصالحنا. ولا أتفق مع القائلين بأن القضية الفلسطينية خسرت كثيرًا بسقوط الكتلة الشرقية التى كانت تدعمها، بل أرى أنها كسبت ولم تخسر، لأن قادتها الآن أصبحوا أكثر واقعية، وحصلوا على دعم من العالم كله وليس من الكتلة الشرقية وحدها.

* * *

أما عن الفاشية، فقد كانت سمعة إيطاليا قبل موسولينى من أسوأ ما يكون، وكنا نسمع أنها بلد من قطاع الطرق، وأنك إذا ركبت القطار من نابولى إلى روما، فلابد أن تتعرض لحادث سطو مسلح. فلما جاء موسولينى وحد إيطاليا وأعطاها سمعة عالمية جديدة، وعمل على عودة مجد الإمبراطورية الرومانية. ولا شك أننا فى مصر شعرنا بأن إيطاليا أصبح لها وزن، وأن الدول الكبرى فى ذلك الحين مثل إنجلترا وفرنسا بدأت تعمل لها ألف حساب. وظهر تأثير الفاشية فى مصر من خلال حزب «مصر الفتاة» الذى أسسه أحمد حسين، وكان أنصاره يرتدون قمصانًا زرقاء، ولكن عددهم كان قليلاً على الرغم من أن مبادئ «مصر الفتاة» كان من الممكن أن تغرى شبابًا مثلنا وتسحرهم. والواقع أن استقطاب «الوفد» لنا واقتناعنا بمبادئه وشعاراته جعلنا نقف ضد الفاشية، ولم يقتصر تأثير الفاشية على مصر وحدها، بل امتد إلى دول عربية أخرى، وقامت أحزاب متأثرة بها، مثل حزب «القوميون السوريون» الذى أسسه أنطوان سعادة فى لبنان، ومثل «القوميون» فى العراق بقيادة رشيد عالى الكيلانى الذى وصل إلى الحكم عن طريق الانقلاب العسكرى. ولم يكن لدى الفاشيين المصريين نفس الفرصة فى الانتشار والوصول إلى الحكم بسبب وجود الديمقراطية. ولا أبالغ إذا قلت إن ثورة ١٩١٩ هى التى زرعت الديمقراطية فى مصر ورعتها فصارت جزءًا من تراثنا. وصحيح أن الشعب المصرى تغافل عن جزء من هذا التراث الديمقراطى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، ربما بسبب نجاحها، ولكنه عاد يفكر فى هذا التراث بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. فالأمر

الذى لا شك فيه أن الديمقراطية ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩، وهذه الديمقراطية منعت انتشار الفاشية فى مصر، على الرغم من أن الملك كان فاشستيا، وكانت السراى مليئة بالإيطاليين مثل «فيروتستى» و «بوللى». ويعود التعاطف ـ كما سبق أن ذكرت ـ بين الملكية فى مصر وإيطاليا إلى أيام الخديو إسماعيل الذى تم نفيه إلى إيطاليا، ثم تربية الملك فؤاد هناك، الذى كاد يرسل ابنه فاروق إلى إيطاليا، لولا تدخل الإنجليز الذين أجبروه على إرساله إلى إنجلترا، وهو الأمر الذى أحدث أزمة كبرى فى حينه.

من الآراء التى قيلت بعد وفاة موسولينى أنه كان سياسيًا جيدًا فى الداخل ولكن مأساته تكمن فى أنه لم يكن يفهم فى السياسة الخارجية، وكان الكاتب «ألبرتو مورافيا» يردد هذا القول. وهو رأى أختلف معه إلى حد ما لأن موسولينى شعر بقوة إيطاليا وأراد أن يقتسم الكعكة مع إنجلترا وفرنسا، ورفض أن تستأثر الدولتان بكل المستعمرات، ولذلك قام بغزو الحبشة.. ولكن ما لا شك فيه هو أن موسولينى أحدث نهضة هائلة فى إيطاليا، وإذا كان قد وصل إلى السلطة بالقوة وزحف بالفاشست إلى روما، فإن هتلر على العكس، وصل إلى الحكم فى ألمانيا عن طريق الانتخابات. انتزع هتلر بذلك السلطة من « هندنبرج» ودبر حريق «الرايشستاغ» متهمًا الشيوعيين بتدبيره، وأعلن النازية وطبق النظام الديكتاتورى الفظيع الذى سار عليه.

فى وقت مبكر من حياتى قرأت كتاب هتلر «كفاحى»، وأدركت أنه لو قدر للألمان احتلال مصر فسيكون استعمارهم أسوأ من الاستعمار الإنجليزى، وسيطبقون علينا استعمارًا عنصريًا لا يعتبرنا أمة مستعمرة، وإنما حيوانات. ولذلك شعرت بنفور تام تجاه النازية، حتى عندما قامت الحرب العالمية الثانية أيدت الحلفاء على طول الخط، رغم عدائنا للإنجليز وخلافنا معهم، ورغم ميل الملك للألمان، وميل بعض كبار السياسيين التابعين له من أمثال على ماهر وغيره من طبقة «المستوزرين» الذين كانوا يرون أنفسهم أكفأ من «الوفد»، ولكن شعبية «الوفد» قد تمنعهم من الوصول إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة، فلم يجدوا غير الاعتماد على الإنجليز قبل معاهدة ١٩٣٦ وعلى الملك بعدها.

أما تعاطف الملك مع الألمان فيرجع إلى ميله للحكم الفاشستى الديكتاتورى، بينما كان الإنجليز يفرضون على الملك النظام الديمقراطى، ليس حبًا فى الديمقراطية، ولكن لأنهم يعرفون أن «الوفد» هو الممثل الحقيقى للشعب، ولن يستطيعوا التفاوض مع «الوفد» إلا بوصوله إلى الحكم عن طريق الانتخابات فى جو ديمقراطى. ولذلك عندما كانت تفشل

المفاوضات ويصطدم «الوفد» مع الإنجليز كانوا يعطون الضوء الأخضر للملك بتشديد قبضة الحكم الديكتاتورى بهدف تأديب «الوفد» وإذلاله.

ولما جاءت ظروف الحرب العالمية الثانية اضطر الطرفان لتقديم تنازلات، فكانت معاهدة ١٩٣٦، حيث كان هتلر فى ذلك الوقت يثير الرعب فى أوروبا، وحولت دعايته الرهيبة ألمانيا إلى بالون هائل ملىء بالهواء أكثر مما هو فى الحقيقة.

* * *

هناك عدة نقاط أحب أن أقف عندها:

أولاها : لماذا لم أهتم فى رواياتى بتأثير الفاشية والنازية على المجتمع المصرى فى تلك الفترة، رغم اهتمامى بالقوى الأخرى، مثل الشيوعيين والإخوان المسلمين إلى جانب الوفديين بالطبع؟!. والإجابة هى أن القوى الأخيرة كانت هى المسيطرة بالفعل على حركة المجتمع فى مصر، وكان جيلنا يتكون من الوفدى، الشيوعى، الإخوانى، والانتهازى. أما الباقون فكنت أراهم على الهامش أو فى الظل، وليس لهم جذور أو مستقبل، ولذلك لا يستحقون الاهتمام، خاصة أننى كنت رافضًا للنظام النازى العنصرى منذ البداية. فهو نظام قام على القهر والديكتاتورية، وجعل هتلر أشبه بالإمام الملهم، لا تجوز معارضته، حتى أنه اختلف ذات مرة مع أحد معاونيه وهو «روهم» قائد قوات العاصفة، فذهب إلى منزله، وقدم إليه المسدس وأمره بالانتحار ففعل. إلى هذا الحد كانت قسوته وديكتاتوريته.

* * *

أما النقطة الثانية: فتتعلق بالجرائم التى ارتكبها هتلر ضد اليهود، وأحب هنا أن أقف عند رأى للعقاد يقول فيه إن تلك الجرائم كانت بالاتفاق بين هتلر واليهود، أنا لا أتفق مع هذا الرأى بدليل أن اليهود ظلوا يطاردون القائد النازى «أدولف إيخمان» بعد انتهاء الحرب بسنوات وحاكموه وأعدموه. وهذا يدل على أن تلك الجرائم النازية ضد اليهود كانت حقيقة واقعة، خاصة أن هتلر اعترف فى كتابه «كفاحى» بكراهيته لليهود، وأنه يعتبرهم سبب الكوارث التى لحقت بألمانيا، وتسببت فى هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. ولذلك فاضطهاده لهم لم يقتصر على اليهود الألمان، بل امتد إلى اليهود فى بولندا وفى كافة البلاد التى قام بغزوها.

* * *

النقطة الثالثة: تتعلق بالإجابة عن هذا السؤال: كيف تفسر النهضة التى حدثت فى ظل هذه الأنظمة ـ الفاشية والنازية والشيوعية ـ رغم اعتمادها على أسلوب القهر والديكتاتورية؟. وعندما نعود إلى بدايات تاريخ الإنسان، نجد أن أنظمة الحكم بدأت بالاستبداد، بل إن الحكام فى تلك العصور اعتبروا أنفسهم بمثابة آلهة، ومن ثم فمخالفتهم تعتبر جريمة نكراء. هذا لم يمنع من أن تقوم فى ظل هذه النظم حضارات مزدهرة، مثل الحضارة الفرعونية والآشورية، لأن الحاكم الإله ـ إلى جانب استبداده وظلمه ـ له رغبات إصلاحية تنبع من أطماعه. وفى تاريخنا الحديث نموذج محمد على الذى أحدث نهضة كبيرة فى مصر، وأقام العديد من المشروعات الهامة مثل القناطر الخيرية وترعة المحمودية وبعض الصناعات المهمة الأخرى، وقام بتطوير الجيش. فى المقابل لم يكن محمد على يطيق المعارضة، حتى أنه غدر بالمماليك وذبحهم لكى لا ينازعوه فى الحكم. وعلى ذلك فالنهضة لا تتحقق بالديمقراطية فقط، كما أن الاستبداد لا يمنعها. كل ما فى الأمر أنه عندما يشترك الشعب فى تحقيق النهضة تكون أفضل وأبقى وتخدم أكبر عدد من الناس، وتميل مبادئها إلى الناحية الإنسانية وتتضاءل أخطاؤها. بينما إذا قامت النهضة على الاستبداد، فإنها تسقط أو تأفل نتيجة قرار خاطئ من الحاكم الديكتاتور. وفى ألمانيا النازية كان هتلر محبا لبلده إلى أقصى حد، ويريد أن يجعل منها أقوى دولة فى العالم، وكان صاحب خيال وآراء جريئة، ولكنه كان «سيد قراره»، ومن هنا فإن قرارا خاطئا اتخذه مثل «غزو روسيا» دون تدبير وتشاور، هدم كل ما بناه. بينما واجه الرئيس جورج بوش ـ كما سبق أن أشرت ـ صعوبات كثيرة حتى يحصل على موافقة الكونجرس والشعب الأمريكى بضرب العراق، لأنهم يعرفون فى البلاد الديمقراطية أن قرارا خاطئا ستكون له عواقب وخيمة، فيتحرون الدقة ويتشاورون ثم ينفذون رأى الأغلبية.

* * *

مع إيمانى بأن كبرى النهضات فى تاريخ البشرية صنعها حكام مستبدون بداية من الفرعونية والآشورية والبابلية، ووصولا إلى النهضة التى أحدثتها النظم الفاشية الحديثة، فإن أغلب النظم التى قامت على القهر والقوة انتهت نهاية سيئة. وربما كان الاستبداد فى العصور القديمة له ما يبرره، فلم تكن قوة الشعب قد ظهرت بعد، وكان المجتمع منقسما إلى طبقتين: طبقة الملوك والأمراء وطبقة العبيد. وكان الملوك يمنحون لأنفسهم سلطة مطلقة وتفويضا كاملا فى كل الأمور دون الرجوع إلى أحد، واتخاذ كافة القرارات طبقا لما يرونه مهما

كانت عواقبها. ومع التطور وظهور الأديان والديمقراطية، بدأت قوى الشعب فى الظهور، وحتى فى بدايات النظام الرأسمالى الديمقراطى، كانت الطبقات الدنيا من الشعب مطحونة. وعندما تقرأ روايات «تشارلز ديكنز» تكتشف أن هذا النظام فى بدايته لم يكن يعرف الرحمة، وأصدق تعبير عنه هو ما قاله داروين: «البقاء للأصلح». وكان للثورة الفرنسية دور كبير فى إرساء مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم كله، وإيقاظ الشعوب من غفوتها، وهذه المبادئ أعتبرها ثمرة لأفكار الفيلسوف العظيم «جان جاك روسو»، لأن بقية المستنيرين الذين قامت الثورة على أفكارهم من أمثال فولتير، كانوا من أنصار نظرية «المستبد العادل»، وليس لديهم إيمان بالشعب وحقوقه.

إن النظام الديمقراطى هو أفضل نظام لحياة الإنسان، حتى لو شابته بعض الأخطاء، ذلك أنه النظام الوحيد القادر على تصحيح نفسه بنفسه، والنظام الوحيد الذى يعطى الشعب حق محاسبة حكامه ومراجعتهم، بل وعزلهم إذا اقتضى الأمر كما حدث مع الرئيس الأمريكى نيكسون.

* * *

نقطة رابعة، وهى رد على رأى قال به الفيلسوف الألمانى الشهير شوبنهور. فهذا الفيلسوف له رأى معناه أن الشعب الألمانى هو من أغبى شعوب العالم، ولكنه استطاع أن يكون أكثر الشعوب تقدما وقوة لأنه استغنى عن الدين. هذا الرأى غير صحيح، لأن المذهب البروتستانتى أسسه الألمان، وحتى عندما قامت الثورة على الكنيسة فى أوروبا وتحقق التحرر الدينى، ظلت هناك بؤر دينية فى ألمانيا. والحقيقة أن سلطة الكنيسة كانت عائقا كبيرا أمام النهضة، لأن الكنيسة كانت لها سلطات واسعة، ومن يحاول الخروج عليها يكون مصيره الحرق والتنكيل. كان هناك تعصب دينى شديد، وهو الأمر الذى حاربه فولتير، وهو لم يحارب الدين كعقيدة كما هو شائع، بل حارب التعصب. بدليل أنه عندما هرب بعد قيام الثورة الفرنسية إلى بلدة «فرنية» أقام مزرعة خاصة، ورغم قلة عدد سكانها، فإنه لاحظ انتشار السرقة، فقام ببناء كنيسة، للحد من هذه الظاهرة. ورغم أنه طوال عمره كان يحارب الكنيسة، فقد أصبح هو الواعظ فى الكنيسة التى أنشأها، ومن كل آيات الكتاب المقدس، كان يركز على عبارة: «لا تسرق». وعندما كتب فولتير مسرحية «محمد» شكره البابا، وأمر الملك بتمثيلها فى قصره، وذات يوم شاهدها الكاردينال فاعترض عليها، وكان اعتراضه منصبا على أن فولتير يسخر فى مسرحيته من معجزات الإسلام، والإسلام

فى رأى الكاردينال ليس فيه معجزات، فهى تقتصر على المسيحية فقط. وذهب إلى الملك وأيقظه من نومه ليعاقب فولتير، فلما علمت مدام بومبادور أرسلت إلى فولتير، وطلبت منه الهروب خارج فرنسا.

* * *

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، انهار الصراع التقليدى الذى كان سائدا بين الشرق والغرب، وحل محله نظام أطلقوا عليه «النظام العالمى الجديد». أى تحول العالم من عالم تهيمن عليه القوة والمنافسة إلى عالم يتطلع للتعاون ويؤمن بسياسة المصالح. فهل هذا يعنى انتهاء الحروب الكبرى إلى غير رجعة؟. بعض المفكرين قالوا إن الحروب لا يمكن أن تختفى من العالم، وإن الشر صفة متأصلة فى الإنسان، وسوف تستمر الحروب والصراعات فى ظل النظام العالمى الجديد، كما كانت فى فترة احتدام الصراعات بين المذاهب السياسية الكبرى، بل هناك من قال إن التقدم البشرى أساسه الحروب!. وأنا أختلف مع هؤلاء لأن الإنسان لم يخلق مقاتلا، بل يولد وهو صفحة بيضاء والظروف المحيطة هى التى تدفعه للشر والقتال. فالإنسان الأول اضطر للقتال مع الطبيعة والحيوانات المفترسة حتى يحافظ على جنسه من الانقراض. إذن الظروف هى التى غيرت طباعه وجعلت قانون حياته هو «يا قاتل.. يا مقتول» بينما هو عندما ولد لم يكن قاتلا أو مقتولا!. ولو كانت الظروف سمحت له أن يعيش فى هدوء وسلام لعاش، فما الذى يدفعه للقتال والحرب ويضطره إليهما؟!

بعد ظهور المجتمعات، وهى مرحلة لاحقة فى تاريخ البشرية، اضطر الإنسان للصراعات والحروب. ففى مجتمع مثل المجتمع العربى الجاهلى كان منطق القوة هو السائد فى ظل ندرة المياه والمرعى والبحث عن الغذاء والحياة الآمنة. فالنفس البشرية ليست خيرة أو شريرة، بل هى تكون حسبما توجهها الظروف المحيطة. بدليل أنه بعد ظهور الإسلام تغير كثير من سلوكيات العرب. ومن هنا أقول إنه فى ظل النظام العالمى الجديد لن تنتهى محاولات الإنسان لتطوير أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة التقليدية، ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين أن تصنع السلاح لتدافع به عن نفسك وتستخدمه فى حالة الطوارئ، وبين أن تصنعه للفتك بالآخرين، وأيا كان الأمر، فإن التنافس الرهيب فى صناعة الأسلحة سوف يتراجع، وتوجه أغلب الجهود إلى البناء والتعمير. على سبيل المثال فإن الدول التى حرمت من تكوين الجيوش ومن صناعة السلاح مثل اليابان وألمانيا وجهت كل جهودها لتطوير نفسها،

فأصبحت أكثر تقدما من الدول التى انتصرت عليها فى الحرب. وأستطيع أن أقول كذلك إن القوة فى النظام العالمى الجديد ستكون للعلم والتكنولوجيا وليس للنبوت!

* * *

هناك رأى يقول إن السعادة البشرية لم تتحقق من خلال التقدم، وإن الإنسان فى هذا العصر ما زال يشعر بالتعاسة رغم التطور الهائل الذى وصل إليه والرفاهية الرهيبة التى يعيش فيها. وفى رأيى أن الإنسان لا يرضى أبدا عن واقعه ولا يقنع بما حققه مهما كان، وسيظل يحلم بواقع أفضل، فهذه هى طبيعته، وفى الفجوة بين الحلم والواقع، سيظل يتألم ويشكو. ففى أزهى عصور البشرية كان الإنسان يشكو ويئن، وفى أتعس العصور يمكنك أن تسجل نفس الشكوى والأنين. وأعتقد أن عدم القناعة هذا هو أساس التقدم والحافز للتطور. وعندما تقارن بين حال الإنسان قديما وحاله الآن تجد فارقا شاسعا فى صالح عصرنا الحاضر. فقد كانت الأمراض التافهة الآن من الممكن أن تفتك بالإنسان فيما مضى، فقد ماتت «أكتاتون» ابنة «أخناتون» بسبب الأنفلونزا، وكان وباء مثل «الطاعون» يحصد ربع سكان الأرض، الآن ظهرت وسائل تستطيع مقاومته والقضاء عليه. وفى ذروة مجد الإمبراطورية البريطانية كان الأمراء يقضون حاجتهم فى أوان يضعونها فى أركان غرف نومهم، ويأتى الخدم ليرفعوها فى الصباح ويلقوا ما بها. ورغم التطور الكبير الذى حدث فإن الإنسان يحن للماضى، ويتصور أن السعادة التى كان يعيش فيها أجداده تزيد عما هو موجود حاليا أضعافا مضاعفة، وهذه هى طبيعة الإنسان كما قلت، لا يقنع أبدا بما حققه.

* * *

الفصل التاسع عشر

النكسة والحلم الذى هوى

قبل النكسة كان لدىَّ إيمان بأننا الأقوى وأن انتصارنا أمر محتوم ـ كان يشغلنى سؤال واحد: هل تدخل أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل؟! ـ صباح المعركة طرت من الفرح عندما استمعت إلى بيانات أحمد سعيد ـ يوم الجمعة الحزين والخبر الصاعقة ـ تأثير الهزيمة على نفسى ـ إعادة التفكير فى أحلامنا الكبرى وفى إنجازات الثورة ـ «ثرثرة فوق النيل» هل تنبأت بالنكسة؟ يوم التنحى قال لى محمد عفيفى: «إن المظاهرات مدبرة»!! ـ عبد الناصر هو المسئول الأول عن النكسة ـ إسناد مسئولية الجيش لعامر خطأ لا يغتفر ـ كتبت مقالا أرثى فيه عبد الناصر من منطلق «اذكروا محاسن موتاكم» ـ مصر تعرضت لإهانة فى ١٩٦٧ لم تتعرض لها طوال تاريخها ـ السلبية التى يعيشها المصريون اليوم من نتائج النكسة.

■ **تعددت الآراء والاجتهادات واختلفت الروايات فى تفسير ما حدث صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن ما جرى فى ذلك اليوم تسبب فى سقوط كثير من الأحلام التى عاش جيل بأكمله يؤمن بها ويدافع عنها. وفى هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن نكسة ١٩٦٧ ويجيب عن أسئلة كثيرة من بينها: من المسئول عن النكسة؟ وهل كانت مظاهرات التاسع والعاشر من يونيو التى خرجت لتأييد عبد الناصر عقب خطاب التنحى الشهير مدبرة؟ ولماذا كتب مقالته الشهيرة فى «الأهرام» يرثى عبد الناصر رثاء حارا بعد وفاته رغم أنه يعتبره مسئولا عن أخطاء جسيمة؟ لنستمع إلى نجيب محفوظ وهو يقدم لنا الحقيقة كما يراها ويؤمن بها..** ■

نجيب محفوظ: عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تحمست لها إلى حد كبير، ومع مرور السنوات بدأت الأخطاء فى الظهور، مثل الفساد فى القطاع العام وانفصال سوريا، والتدخل فى اليمن، والاعتقالات العشوائية، والأسلوب الديكتاتورى فى الحكم. وكان الشىء الوحيد الباقى هو قوة الجيش وشخصية عبد الناصر. وقبل نكسة يونيو ١٩٦٧ بقليل شعرت من متابعتى للإذاعات والصحف أننا على وشك صدام عسكرى مع إسرائيل. والحقيقة أننى كنت أعتقد حتى تلك اللحظة أننا القوة العسكرية الضاربة فى الشرق الأوسط، وأن إسرائيل بمثابة شوكة فى ظهورنا، وإذا لم ننزعها فستظل المنطقة فى قلق واضطراب. وقد آن الأوان أن تحقق الثورة أغلى أهدافها بالقضاء على إسرائيل، ولم أكن أشك فى النتيجة، فزرع إسرائيل فى قلب الأمة العربية ظلم فادح، ولابد أن يزول. ولم تكن قدرة جيشنا على تحقيق الهدف المنشود تشغلنى بقدر ما كان يشغلنى التدخل الأمريكى فى الصراع لترجيح كفة إسرائيل. وكان السؤال الذى يلح على ذهنى هو: إذا قامت أمريكا بتوجيه إنذار لنا كما فعلت إنجلترا وفرنسا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، فماذا يكون موقفنا؟!.

فى صباح الاثنين، الخامس من يونيو ١٩٦٧، ذهبت إلى مكتبى فى مؤسسة السينما، واستقبلت مندوبين من الإذاعة المصرية وسجلت ـ بناء على طلبهم ـ نداء لجنودنا فى سيناء بصوتى ثم انهمكت فى عملى حتى التاسعة صباحًا، وفجأة سمعت صفارات الإنذار، إذن فقد اندلعت الحرب. وبسرعة لم أفكر إلا فى الحصول على جهاز راديو لأسمع الأخبار.

وجاءنا صوت أحمد سعيد، وهو الصوت الواثق الفخم يعلن فى زهو أننا أسقطنا مجموعة طائرات للعدو الإسرائيلى. وفى الحقيقة أننى لم أفرح لهذه الأخبار وشعرت بانقباض فى صدرى، لأن إسقاط طائرات إسرائيل يعنى أنهم هم الذين بادروا بالهجوم، وأننا فى موقف الدفاع، فاعترتنى حالة من الخوف والقلق. كانت كل الأخبار التى أعرفها عن المعركة من مصدر وحيد هو الإذاعة المصرية، ولم أفكر فى الاستماع إلى إذاعات أجنبية. ولكننى قابلت فى نفس اليوم ثروت أباظة وبدا عليه أنه يعرف تفاصيل ومعلومات كثيرة استقاها من محطات الإذاعة الأجنبية. ولأنه كان يعرف مدى انفعالى وتأثرى الشديد فلم يشأ أن يصدمنى بما يعرف. والغريب أنه سألنى أكثر من مرة عن آخر الأخبار التى أعرفها عن مصير المعارك، فأرد عليه بما سمعته من الإذاعة، وأذكر له آخر عدد طائرات أسقطناها، كما سمعتها من إذاعة «صوت العرب». فكان ينظر لى فى أسى ويقول لى: «على الله»، أى أنه ياليت ما أذكره له كان صحيحًا..!! فعشت فى حالة من القلق منذ اندلاع القتال من صباح الاثنين ٥ يونيو وحتى الجمعة ٩ يونيو. ففى صباح يوم الجمعة فتحت الراديو لأتابع أخبار المعركة فاستمعت إلى أغنية وطنية لا تدعو للتفاؤل. اصطحبت ابنتىَّ وذهبنا إلى حديقة «خريستو» فى الهرم، وأخذت معى جهاز راديو لأتابع ما يجرى أولا بأول. وكان الخبر الذى نزل علىّ كالصاعقة هو أن قواتنا المسلحة انسحبت إلى الضفة الغربية لقناة السويس. وأصبحت كالمجنون أتلهف على شخص يوضح لى الحقيقة، وعرفت من الإذاعة أن عبد الناصر سوف يذيع بيانًا فى المساء يتحدث فيه إلى الأمة. وفى مساء الجمعة ذهبت إلى مقهى «ريش» وجلست مع بعض الأصدقاء، وتحلقنا جميعًا حول جهاز راديو «ترانزستور» فى انتظار بيان عبد الناصر. وتحدث عبد الناصر ونحن نستمع فى صمت رهيب، وكان بيانًا مهيبًا، شعرت بعد انتهائه بأننى أصبت بشرخ فى داخلى، فانسحبت فى هدوء وعدت إلى بيتى.

إننى فى حياتى كلها، قبل ذلك اليوم أو بعده، لم يحدث لى ذهول وانكسار فى النفس مثلما حدث فى تلك اللحظة وما تلاها، حيث أصابتنى حالة فظيعة من الحزن والاكتئاب وعدم التصديق. كنت كمن يعيش فى حلم جميل، وفجأة سقط من فراشه على أرض صلبة خشنة، فحتى صباح الخامس من يونيو ٦٧ كان لدىّ اقتناع تام بأننا الأقوى والأعظم. لقد كنت واحدًا من بين الآلاف الذين شاهدوا الاستعراض العسكرى فى الرابع عشر من مايو ٦٧، ورأيت الدبابات المصرية وهى تسير كالأفيال فى شوارع القاهرة. كما استمعت إلى وقائع المؤتمر الصحفى الشهير لعبد الناصر، وكان مظهره يدل على أنه يتحدث حديث

الواثق القوى، وقال جملته الشهيرة: «أنا مش خرع زى مستر إيدن»!. كانت كل الأجواء تعطى إحساسًا باليقين والقوة، ومن هنا كان عمق الصدمة وهولها.

دعانا الدكتور ثروت عكاشة إلى مؤتمر تم ترتيبه على عجل، وقال لنا صراحة إن الطيران المصرى أصيب بنكسة. وأثناء المؤتمر وردت أخبار عن الفرقة الرابعة بالجيش تبعث على الأمل، وكانت تلك الأخبار بمثابة القشة التى يتعلق بها الغريق، ثم ما لبثت أن انقطعت القشة وعدنا إلى دوامة الصدمة.

أصبحت أحاديث ليالى القاهرة تدور حول موضوع واحد فقط، وهو الجيش وكيف تعرض لهذه الهزيمة الثقيلة. وكان كل متحدث يتطوع بالإفتاء حول أسباب الهزيمة، وتعددت الفتاوى، وخرج كل متحدث بأسباب يرى أنها هى التى قادتنا إلى الهزيمة، وتعددت الأسباب حتى اختلط الجد بالهزل.

هذه الهزيمة جعلتنى أعيد التفكير فى ثورة يوليو بصورة كاملة وأحاول معرفة ما حققته لمصر. وأدركت أننى قبل هزيمة يونيو ٦٧ كنت أعيش فى وهم كبير، وأننا أشبه بمن أقام بناءً شامخًا من الورق على الرمال، ثم جاءت موجة وأغرقت كل شىء. وأننا عشنا فى ظل شبح هائل ظل يرعب الناس، ثم طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح. وبدأت أسأل نفسى: هل نحن الذين اخترعنا هذا الوهم بإرادتنا وعشنا فيه؟ أم أننا خدعنا وتعرضنا لمن يضحك علينا، وعشنا وهما مصنوعًا بإتقان، وأن مخترعى هذا الوهم وحدهم يعرفون الحقيقة؟

أما الحقيقة الثابتة أمام عينىّ فهى أن أحلام الثورة كانت أحلامًا عشنا فيها سنوات طويلة، ثم أفقنا على الواقع المؤلم. وكان أكثر ما يؤلمنى هو أننا تحملنا الحكم العسكرى وعانينا من سيئاته، من أجل تحقيق الأهداف التى وعدونا بها، وتحملنا كل المصاعب فى سبيل تكوين جيش مصرى قوى يحفظ هيبتنا فى المنطقة. ورضينا بأن يسىء النظام الحاكم إلينا فى كل شىء إلا الجيش، ثم فوجئنا بتلك الهزيمة العسكرية الساحقة، وبتلك الخيبة القوية.

تابعت التطورات التى تلت النكسة خاصة عرض القضية فى مجلس الأمن، وتبين لى أن المسألة أكبر من إسرائيل، وأن الصراع ليس مجرد حرب بين دولتين تنتهى بانتصار إحداهما وهزيمة الأخرى، ويقوم المنتصر بفرض شروطه على المهزوم، مثلما حدث بين ألمانيا وفرنسا. اكتشفت أنها لعبة توازنات دولية، وأن الدول الكبرى التى ساهمت فى زرع

إسرائيل فى المنطقة شعرت بخطورة عبد الناصر فأرادت أن تقص ريشه. ومن خلال التأمل توصلت إلى عدة اقتناعات:

* من يريد أن يذبح إسرائيل عليه أن يذبح أولاً أمريكا والدول الغربية التى تساندها.

* أن تلك الدول كلما شعرت بقوة مصر تتزايد وبأن هذه القوة تشكل خطرًا على أمن إسرائيل، فإنها تسارع بالتدخل، سواء بشكل مباشر أو من وراء الستار، وقد حدث ذلك فى حروب ٤٨و ٥٦و ١٩٦٧.

* أن الحرب هى الحرب فى كل الدنيا، ونتيجتها إما مهزوم أو منتصر، وأن الهزيمة ليست نهاية الدنيا، وعلى المهزوم أن يعيد خلق نفسه من جديد. أما أن يدخل فى خندق اللا سلم واللا حرب فذلك وضع غير طبيعى ولم يحدث مثله فى التاريخ.

* وأن الهزيمة لم تكن عسكرية بقدر ما كانت هزيمة من الداخل.

هذه هى الاقتناعات الأربعة التى توصلت إليها من خلال تأملى لما جرى وذلك على المستوى السياسى. أما على المستوى الأدبى، فإن عددًا كبيرًا من النقاد أشار إلى أن رواياتى التى ظهرت قبل النكسة تنبأت بوقوعها ودقت أجراس الخطر، وأن ذلك ظهر بوضوح فى رواية «ثرثرة فوق النيل». كانت موضوعات رواياتى وأحداثها ـ فى الحقيقة ـ والتى كتبتها ونشرتها قبل الهزيمة، تحذر من حالة الفساد والتسيب والانحلال التى استشرت فى المجتمع، وتؤكد أن الأمور تنحدر نحو خطر كبير. وفى الواقع انتابنى منذ فترة طويلة إحساس متشائم تجاه مستقبل المجتمع المصرى، وهذا الإحساس مستمر إلى الآن. فهناك دلائل ونذر تدعو إلى التشاؤم والأمثلة عديدة: زيادة عدد البائسين فى المجتمع، والبائس كما هو معروف على استعداد لعمل أى شىء لأنه لا يملك شيئًا يخاف عليه، لقد هزتنى بعض الظواهر الإجرامية التى وقعت، مثل حادث الزوجة التى اختطفها عدد من الأشخاص من زوجها واغتصبوها بالتناوب أمام عينيه، وعصابة سرقة السيارات التى ضبطوها وتبين أن أعضاءها من طلبة الجامعات، وعصابة أخرى وجدوا أعضاءها من ضباط البوليس، وكل تلك الحوادث تعطى مؤشرات خطيرة على الحال الذى وصلنا إليه.

ورغم أننى كنت أتوقع حدوث نكسة ٦٧، فإننى فوجئت بها، تمامًا مثلما توقعت وفاة والدى رحمة الله عليه فى الأيام الأخيرة من حياته، وكنت أنتظر وفاته بين لحظة وأخرى، ومع ذلك كان خبر الوفاة مفاجأة لى، وكأننى لم أتوقع هذه الوفاة من قبل. وكما قلت إننا لم نهزم عسكريًا، لأننا لم ندخل الحرب، وسلمنا أسلحتنا منذ اللحظة الأولى. وفى مذكرات

كبار الضباط التى ظهرت فيما بعد، مثل مذكرات عصام دراز اتضح أن هناك مهازل حدثت من القيادة العسكرية، وكان هناك تخبط فى الآراء وصل إلى درجة أن الضابط المكلف بالهجوم على إيلات ظل ينتظر أمر الهجوم، وأعد قواته ومعداته، وأخيرًا وصله قرار الانسحاب، فأسقط فى يده حتى أنه تلعثم وهو يقرأ القرار على جنوده، وظل فى حالة ذهول من هذا القرار الغريب.

* * *

كان يوم تنحى عبد الناصر عن الحكم من الأيام التى لا أنساها فى حياتى. كنت أجلس فى مقهى «ريش» ـ كما أشرت ـ عندما أعلن عبد الناصر فى بيانه الشهير التنحى عن الحكم. لقد كنت قبل البيان بلحظات أنتظر أملاً ولو كاذبًا، ينقذنى من الحالة التى كنت أعيش فيها، وكان عبد الناصر هو رمز الأمل فى حياة جيلنا، وهو الزعيم الذى تعودنا أن نحصل منه على الأمل. ولما أذيع البيان تأكدت أننا وصلنا إلى القاع، ومع ذلك ثرت على فكرة التنحى ورفضتها.. وكنت مثل المصريين أشبه بمن أعطى توكيلاً لمحام كى يترافع عنه فى قضية مصيرية، ومع التوكيل أعطاه كل أوراق القضية، وقبل وأقر بحرية المحامى فى التصرف حسبما يرى.. وفى لحظة خاطفة خسر المحامى القضية وأعلن تخليه عن الاستمرار فيها.. وهنا لا يكون أمام صاحب القضية سوى خيار واحد وهو أن يتمسك بمحاميه مهما كانت الظروف، لأنه لا يعرف شيئًا عن تفاصيلها وأوراقها وملفها كله، ويطلب من محاميه الاستئناف والاستمرار معه. ولذلك خرجت جموع الشعب تعلن رفضها لفكرة تنحى عبد الناصر عن السلطة، وتمسكت به، لأنه كان المحامى الذى يملك كل أوراق القضية.

حاول صديقى المرحوم محمد عفيفى ـ فى أول لقاء جمعنا بعد خطاب التنحى ـ أن يقنعنى بأن المظاهرات التى خرجت لتأييد عبد الناصر وإعلان رفض تنحيه وتخليه عن السلطة كانت مدبرة. وحكى لى أنه كان فى منزله عندما سمع صوت عدد من سيارات اللورى الضخمة محملة بجمهور غفير، ووقفت هذه السيارات فى مكان فضاء متسع بجوار المنزل، وكان ذلك قبل خطاب التنحى بدقائق. وفور إذاعة الخطاب نزلت هذه الجماهير إلى الشوارع وهى تردد هتافات مؤيدة لعبد الناصر ولبقائه فى السلطة. وفى رأيى «أن هناك بعض المؤسسات مثل الاتحاد الاشتراكى وغيره رتبت مظاهرات خشية من رد الفعل السلبى للجمهور، ولكنهم فوجئوا بطوفان من البشر يخرج فى مظاهرات حاشدة رافضة تنحى عبد الناصر، ويجوز أن نوعى المظاهرات ـ المدبرة والتلقائية ـ خرجتا فى نفس اللحظة دون اتفاق. لقد كانت الجماهير تدرك أنه ليس هناك بديل لعبد الناصر، بعد

أن انسحب رفاق الثورة من المسرح: محمد نجيب، صلاح سالم، كمال الدين حسين، عبد اللطيف البغدادى، حسين الشافعى، وزكريا محيى الدين، أو تقلص دورهم، ولم يبق سوى عبد الناصر، فإذا هو ذهب معناه أن المسرحية انتهت والبلد انهار.

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن عبد الناصر بذل جهدًا كبيرًا فى السنوات الثلاث الأخيرة فى حياته، وهى السنوات التى تلت النكسة وحتى يوم وفاته، لإعادة تنظيم الجيش والدولة. واستطاع بهذا الجهد خاصة مع ما تحقق من إنجازات فى حرب الاستنزاف، أن يسترد كثيرًا من هيبته، ومن الأمل فى استعادة الكرامة المهدرة.

ساعده على ذلك الشعور الذى ترسخ لدى الناس بأن القوى الكبرى تآمرت عليه، وأنه لم يهزم من إسرائيل وحدها. ورغم الأمل الذى بدأ يتجدد فإن الناس كانت تتجرع المرارة والأسى، وظهر ذلك حتى فى النكات التى انتشرت فى تلك الفترة، ولم يسلم أى شىء من لسان الناس، بما فى ذلك الجيش وقواده. وكان أعداء عبد الناصر يروجون لهذه النكات وكنت أسمع بعضها وأضحك، ثم أشعر بالحزن عندما أحس أنها مغلفة بطابع الشماتة. كانت أغلب النكات تتميز بسخرية مريرة، ولم تكن هزلاً أو لمجرد الإضحاك والتسلية، بل كانت نابعة من قلب مذبوح يرقص من الألم.

* * *

لم أؤيد عبد الناصر عندما حاول أن ينفض يده من المسئولية ويلقيها على عبد الحكيم عامر وصلاح نصر، الأول كقائد للجيش المهزوم، والثانى كمدير للمخابرات الذى فاحت رائحته، وثبت أنه كان يمارس التعذيب والأساليب غير الإنسانية ضد المواطنين. حاول عبد الناصر أن يؤكد للناس أن مراكز القوى هى التى قادت مصر إلى الهزيمة، وأنه لم يقدر على منعها. وهذا فى رأيى تبرير غير منطقى، ولا يعفى عبد الناصر من المسئولية الكاملة لسبب بسيط جدًا، وهو أن عبد الناصر كان الحاكم بأمره فى مصر، والديكتاتور الذى يملك كل السلطات والصلاحيات، والزعيم الذى يأمر فيطاع. ثم أليس هو الذى وضع عبد الحكيم عامر على رأس الجيش؟، فكيف يعطى هذه المسئولية الخطيرة لشخص ليس أهلاً لها، حتى ولو كان صديقه المقرب وأحد قيادات الضباط الأحرار؟. فمهما كان حبه له، فإن هذا لا يعطيه مبررًا كى يمنحه كل هذه الصلاحيات ويسند إليه مسئولية القوات المسلحة، تلك المسئولية الخطيرة التى تحتاج إلى كفاءة عسكرية وقيادية متميزة.

وبالنسبة لأخطاء المخابرات وممارسات صلاح نصر، فأنا أعتقد أن المسئولين عن هذا الجهاز ما كانوا ليقدموا على ما اقترفوه دون علم عبد الناصر. ولو كانوا يعرفون أن هذا الزعيم الرهيب الذى يملك كل شىء، يحترم حقوق الإنسان ويرفض تلك الممارسات، ما واتتهم الجرأة على القيام بجرائمهم اللاإنسانية.. فما أتصوره هو أن هؤلاء كانوا مطمئنين لجانب عبد الناصر، وما كان بإمكانهم أن يجازفوا بأفعالهم تلك، لو كان لديهم شك فى اعتراضه عليها. ويؤكد تصورى هذا أن عبد الناصر كان لديه جهازه الخاص الذى يقدم له تقارير مفصلة عن كل ما يجرى فى البلد، بما فى ذلك النكات التى يتبادلها المواطنون على المقاهى، ولا شك أن ما كان يجرى فى المخابرات وصل إلى علمه.

لقد انتقدنى كثيرون ووجهوا إلىّ اللوم عندما كتبت مقالاً فى جريدة «الأهرام»[1] أرثى فيه عبد الناصر يوم وفاته مع علمى بأخطائه. وأقول لهؤلاء إنكم لو أمعنتم قليلاً فى قراءة المقال، فستجدون أن نصفه انتقادات لعصر عبد الناصر ومعارضة لحكمه.ثم إن للموت جلاله ورهبته، وعندما يذهب إنسان للعزاء فى ميت لابد أن يذكر محاسنه وينسى سيئاته، حتى يبرد الحزن على الأقل. فماذا ينتظر منى هؤلاء اللائمون؟ هل أقول للناس: «البقية فى حياتكم.. يلعن أبوه؟!».. يا سادة لا تحاسبوا الكتاب والمفكرين على أى فعل أو قول صدر منهم فى تلك الساعات العصيبة، لأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذا الحساب العسير.

* * *

كان مأخذى الأكبر على عبد الناصر فى السنوات التى تلت النكسة هو استمراره فى حكمه ذى الطابع الديكتاتورى. لقد قيل إن مصر فى حالة حرب والموقف معقد، وأنه لابد من التضحية بأى شيء حتى نستعيد هيبتنا وكرامتنا. وأقول إن كل ذلك لم يكن يمنع أن يسارع عبد الناصر إلى تكوين أى صورة من صور الديمقراطية وتعدد الآراء، بعد أن ثبت له بالدليل القاطع أن الديكتاتورية قادته إلى الهاوية. وبسبب تلك السياسة الخاطئة تعرضت مصر لإهانة لم تتعرض لها طوال تاريخها. والأدهى أن تأتى الإهانة على يد أبنائها الذين حكموها لأول مرة بعد أن ظلت آلاف السنوات تحت الحكم الأجنبى، من إغريق ورومان

---

(١) نص المقال الذى كتبه نجيب محفوظ فى رثاء عبد الناصر منشور فى هامش فصل سابق، وهو الفصل المعنون «زعماء مصر».

وعرب وأتراك وفرنسيين وإنجليز. وحتى فى ظل الحكم الأجنبى لم تستسلم مصر وكانت تقاوم بكل ما تملك من قوة. كان عدد جيش أحمد عرابى لا يزيد على أحد عشر ألفًا، وهو عدد لا يكفى لتأمين المحمل، ومعدات الجنود بدائية، ومعظم أفراد الجيش يجهلون فنون القتال، ومع ذلك تصدى للجيش الإنجليزى الرهيب، وظل يقاوم حتى آخر لحظة وهزمته الخيانة. وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر كان بحوزتهم أحدث الأسلحة المعروفة فى حينها وأشدها فتكًا، ومع ذلك لم يشعر المصريون بالخوف وتصدوا لهم بالسيوف والنبابيت، وقام أبناء الشعب البسطاء بثورتين متتاليتين ومات منهم الآلاف. وفى رأيى فإن المعجزة الكبرى لثورة ١٩١٩ ليست فى إلغاء الحماية أو وصول أبناء الشعب إلى الحكم، أو تكوين رأس المال الوطنى، وبعث الثقافة والفن، ولكن فى الثورة نفسها. لأن الشعب المصرى عاش سبعة آلاف عام بعيدًا عن السلطة، وكان الفلاح يفنى عمره فى الزرع والحصاد، ثم يترك الإدارة والحكم للصفوة. جاء الإغريق والرومان والعرب والأتراك والفرنسيون وهو لا يبالى، ولا تختلف عنده صورة الحاكم أو جنسيته، أو متى جاء أو متى رحل؟ فهو خاضع للاستعباد من جميع الحكام فى كل العصور. وقامت ثورة ١٩١٩ لتعيد إليه الثقة فى نفسه وتشعره بكيانه، وأذكر هنا حكاية بسيطة جرت وقائعها عام ١٩٣٠. ففى ذلك العام قاطع المصريون الانتخابات احتجاجًا على الدستور الذى فرضه إسماعيل صدقى باشا بعد إلغاء دستور ١٩٢٣. واقتحم البوليس إحدى القرى ومعه عدد من سيارات اللورى لحمل الناس بالقوة إلى مقار صناديق الاقتراع، فوجد القرية خاوية تمامًا، فقد فر كل سكانها ولاذوا بالجبال، حتى لا يشاركوا فى الانتخابات، وحتى ينفذوا المقاطعة، ويعلنوا رفضهم لدستور صدقى باشا، واضطرت الحكومة لتزوير الانتخابات بشكل فاضح. وبعد نجاح ثورة ١٩٥٢ فوجئ الناس فى مصر بأن على رأس السلطة رجلاً منهم، من بين أبناء الشعب البسطاء، وكله وطنية وحماس، وليس هناك ما يدعو للثورة عليه أو معارضته. خاصة أن أعماله كلها مثيرة للإعجاب سواء فى الداخل أو الخارج، فأيدوه، وساندوه. ثم اكتشفوا بعد فترة أن أسلوب الحكم الديكتاتورى لم يتغير، فبدأوا فى العودة من جديد إلى حالة الاستسلام والسلبية، ذلك الداء الذى عاش معهم سبعة آلاف سنة، وحاولت ثورة ١٩١٩ أن تعالجهم منه وجاء العلاج بنتائج إيجابية. وعندما يأتى من يحدثهم الآن عن الانتماء بعد أن عادوا إلى حالتهم الأولى لا يستجيبون، لأنهم لم يحصلوا على حقهم فى المشاركة وإبداء الرأى، فكان الاستسلام التام والسلبية العامة، مما أدى إلى كارثة ١٩٦٧.

* * *

الفصل العشرون

التطرف الدينى

الأقباط بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ـ الفساد أهم أسباب العنف الدينى فى السبعينيات ـ دور جماعة الإخوان المسلمين ـ السادات أخرج الإخوان من السجون لضرب الناصريين فقتلوه ـ فى السبعينيات قلت إن الحل الوحيد هو السماح للمتطرفين بتكوين حزب إسلامى ـ الأقباط أذكياء ولن يسعوا لتكوين حزب حتى لا يحكموا على أنفسهم بالعزلة ويصبحوا أقلية ـ فكرة الدولة الدينية غير صالحة الآن للتطبيق وهذه هى الأسباب ـ ٨٠٪ من قوانيننا الحالية مستوحاة من الشريعة الإسلامية، ودولتنا الآن إسلامية مستنيرة ـ تجربة الثورة الإسلامية فى إيران وهل لها دور فى اشتداد موجة العنف الدينى فى مصر ـ أختلف مع فكرة رجل الدين الحاكم فهى ضد العقل والعصر بل وضد الدين ـ الأزهر لم يعد منبعًا للمتطرفين ومنبعهم الآن الكليات العملية فى الجامعات المدنية ـ أطالب بثورة شاملة فى التعليم، ونظام التعليم الحالى ديكتاتورى ـ أؤيد عبد الناصر فى تطوير الأزهر ـ تطبيق الشريعة بحذافيرها كما يريد المتطرفون لا يصلح فى هذا العصر ـ قتل الإنجليز جهاد وطنى.

■ **فى هذا الفصل يصرح نجيب محفوظ بأكثر آرائه إثارة للجدل، حيث يؤكد أنه يعارض تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها كما يريد المتطرفون، ولابد من إيجاد بدائل قانونية عصرية مستمدة من روح الإسلام دون الإساءة لنصوص القرآن. وفى هذا الفصل يتناول الأديب الكبير بالرأى والتحليل عددًا من القضايا الشائكة، مثل دور جماعة الإخوان المسلمين فى التطرف الدينى فى مصر وفى قتل السادات، والثورة الإسلامية فى إيران، ومسئولية نظام التعليم الحالى فى تخريج المتطرفين، ودور الأزهر فى تغذية حركات التطرف فى السبعينيات..■**

نجيب محفوظ: استطاعت ثورة ١٩١٩ أن تقضى على ظاهرة التعصب الدينى والطائفية فى مصر، حيث لم تفرق بين مسلم وقبطى. ووصل الأقباط فى ظلها لأعلى المناصب فى الدولة، فكان منهم ويصا واصف الذى شغل منصب رئيس مجلس النواب دون اعتراض من أحد ومنهم مكرم عبيد الذى لعب دورًا بارزًا فى تاريخ الوفد، ولذلك لم نشعر فى تلك الفترة بوجود الطائفية أو التطرف الدينى. وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ أحيت الطائفية دون قصد، فمجلس قيادة الثورة لم يكن به قبطى واحد. وربما يعود ذلك إلى أن المجلس قام على التآمر وليس الاختيار، بمعنى أن مجموعة الضباط التى قامت بالثورة كانوا أصدقاء مقربين. وربما خشوا من أن يدخل بينهم فرد من الأقلية، حيث تخاف الأقليات ـ كما هو معروف ـ من التآمر. ولذلك عندما قامت الثورة كان المنظر مرعبًا بالنسبة للأقباط، لأنهم شعروا بأنهم غير ممثلين فى الثورة الجديدة، وبالتالى ليس لهم مستقبل فى مصر. وهاجر عدد كبير من الأقباط فى عهد عبد الناصر إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، على الرغم من أن الثورة لم تعاد الأقباط، حيث فتحت المدارس والوظائف للجميع. إلا أن الأقباط شعروا بأن مشاركتهم فى الحكم معدومة، والمزايا التى اكتسبوها فى ظل ثورة ١٩١٩ انتهت. وهذا الشعور لم يفارقهم منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، ومع ثورة يوليو برز شبح التطرف الدينى، ثم الفتنة الطائفية.

إن ظاهرة التطرف الدينى التى ظهرت بعد ثورة يوليو وبلغت ذروتها فى فترة السبعينيات لها أسبابها. وفى رأيى أن أهم الأسباب هى حالة الفساد والتضخم والغلاء التى عاشها المصريون فى تلك الفترة. ومن الطبيعى أن يكون رد الفعل للتطرف فى الفساد هو التطرف

السياسى والدينى، وكان الفساد هو التربة الخصبة التى أنبتت الجماعات المتطرفة. ساعد على بروز هذا التيار انضمام عدد كبير من الناس إلى تلك الجماعات المتطرفة، ليس اقتناعًا بمبادئها، ولكن نتيجة لحالة اليأس والإحباط التى يعيشونها بسبب الفساد والتضخم والغلاء. ولذلك أرى أنه عندما تتحسن الحالة الاقتصادية وتتوافر فرص العمل للشباب، مما يتيح لهؤلاء الشباب العثور على أماكن للسكن وفرص الزواج وتكوين أسرة، فإن ٦٠ إلى ٧٠٪ منهم سوف يتخلون عن تيار التطرف الذى لن يظل متمسكًا به سوى المتطرفين فعلاً وهم نسبة ضئيلة. السبب الثانى بعد أجواء الفساد هو التعذيب الذى تعرض له الإخوان المسلمون فى سجون عبد الناصر مما أدى إلى تبنى الجماعة لمبدأ «العنف فى مقابل العنف». لقد قام الإخوان المسلمون قبل ثورة يوليو بعمليات عنف واغتيالات، وأحد أجهزة الإخوان هو «الجهاز السرى» الذى نفذ جرائم معروفة. إلا أن مؤسس جماعة الإخوان الشيخ حسن البنا كان حقيقة ضد العنف ولا يشجع عليه، وهذا للحق والإنصاف[1]. ولكن بعد الصدام بين عبد الناصر والإخوان المسلمين والمذبحة التى تعرضوا لها ووضعهم فى السجون، اشتد تطرف الجماعة واعتنق أعضاؤها أفكارًا دموية، كانت هى السبب الرئيسى فى نشأة الجماعات المتطرفة الأخرى التى خرجت من عباءة الإخوان المسلمين. وعندما جاء أنور السادات أخرج الإخوان المسلمين من السجون، وشجعهم على النهوض من جديد بهدف ضرب الناصريين والشيوعيين. فبدأ الإخوان يسيطرون على الجامعات والنقابات حتى اشتد نفوذهم واتسع، وفى النهاية قتلوا السادات نفسه لأنهم حكموا على تصرفاته من وجهة نظرهم وليس من وجهة نظره هو بطبيعة الحال. والسادات فى هذا الموقف أشبه بمن لعب بالنار فأحرقته، فقد كان يظن أن إحسانه إلى الإخوان سوف يقابل بالإحسان، ولكنه قوبل بالقتل.

* * *

من الملاحظات اللافتة للنظر فى ظاهرة التطرف التى سادت فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة أن القاعدة العريضة للجماعات المتطرفة كانت من بين الشباب المستنير. فأغلبهم من خريجى الجامعات وبعضهم وصل إلى أعلى درجات العلم، على عكس

---

(١) هناك رأى آخر يقول إن الشيخ حسن البنا كان على معرفة تامة بحقيقة «الجهاز السرى» فى الإخوان وأنه كان يرعاه ويشجعه، ومن أبرز أصحاب هذا الرأى الدكتور رفعت السعيد فى كتابه المعروف عن الإرهاب.

الطرق الصوفية حيث تجد مريديها من عامة الناس البسطاء، ونادرا ما تجد منهم أحدًا من خريجي الجامعات، ونادرًا كذلك ما تخرج هذه الطرق الصوفية على النظام أو تميل إلى التطرف.

وعندما اشتدت موجة التطرف في السبعينيات قلت إن الحل الوحيد للقضاء على هذه الظاهرة هو السماح لهؤلاء المتطرفين بتكوين حزب سياسى. فتلك الخطوة ستضعهم فى حجمهم الحقيقى، وتجعلهم يخرجون من سراديب الظلام ومن التنظيمات السرية التى لن يبقى منها إلا المتطرفون الأصليون وهؤلاء أمرهم هين. وقد يقال إن المسيحيين سوف ينزعجون من هذا الإجراء، وربما يطالبون هم أيضًا بالسماح لهم بتكوين حزب مسيحى. إلا أننى أعتقد أن المسيحيين أذكى من ذلك، لأنهم إذا أسسوا حزبًا دينيًا لهم فسيجعلون من أنفسهم أقلية مثل اليهود قبل ثورة يوليو. والأفضل للمسيحيين أن ينتشروا بين كل الأحزاب فيكون لهم ثقل أكبر وتأثير أقوى. بل ما الذى يمنع القبطى من الدخول فى الحزب الدينى الإسلامى، فالإسلام عقيدة وتشريع مثل القانون الرومانى والفرنسى. فإذا كان الأقباط عاشوا تحت هذه القوانين فلماذا لا يجربون الشريعة الإسلامية، خاصة أنهم جزء أساسى من الوطنية المصرية وخيوطهم لا تنفصل عن نسيج المجتمع المصرى؟

وفى حالة السماح بتكوين حزب إسلامى يصبح من واجب الأحزاب الأخرى اللا دينية مثل الوطنى والوفد والتجمع أن تعيد تنظيم نفسها وتتحد فى حزب واحد. لأنه فى هذه الحالة لا داعى للتفرقة فيما بينها، لأن الهدف هنا واحد وهو إقامة حكومة مدنية دستورها مستمد من روح الشريعة الإسلامية. وأنا أعتقد أن هذا الحزب اللا دينى الموحد سوف يحصل على الأغلبية، خاصة أن الحزب الدينى ستحدث داخله صراعات وانشقاقات، ونحن نرى أن كل جماعة من الجماعات الدينية تكفر الأخرى. ومن هنا فلا خوف من إقامة حزب دينى، بل أظن أن السماح لهم بتكوين هذا الحزب هو مأزق يتعرض له المتطرفون لم يخطر لهم على بال.

من الظواهر اللافتة للنظر أن بعض المفكرين الذين ظلوا فترة طويلة داخل صفوف اليسار، مثل عادل حسين وطارق البشرى، ينادون الآن بإقامة حكومة دينية فى مصر، وقد مال توفيق الحكيم نفسه فى أواخر حياته لهذه الفكرة، ولكنى أرى أن هذا جنوح فى الفكر.. لأن إقامة دولة دينية يقودها رجال دين تضر أكثر مما تنفع وتعد قيدًا على المجتمع وانشقاقًا عن جادة

الصواب، والأفضل لمصر هو إقامة حكومة مدنية يتمتع دستورها بروح دينية، ويتأسس هذا الدستور على مبادئ الاجتهاد والتوافق مع العصر. وأعتقد أن الحكومة القائمة الآن مثال لذلك، فهى حكومة إسلامية متطورة، يؤيد ذلك ما قرأته وسمعته من مفكر إسلامى بارز هو خالد محمد خالد من أن ٨٠٪ من القانون المصرى مستوحى من الشريعة الإسلامية. فمسائل الزواج والطلاق والميراث والأحوال الشخصية كلها طبقًا للشريعة الإسلامية، ولا تختلف عنها فى أى شيء.

ليس فى الإسلام ما يدعو إلى قيام رجل الدين بشئون الحكم، بدليل أن أول حاكم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر الصديق كان اختياره سياسيًا وليس دينيًا. ولذلك حدث خلاف عند اختيار كل خليفة بعد محمد عليه الصلاة والسلام، بينما لم يحدث خلاف على الصلاة. وبعد تأسيس الدولة الإسلامية وانتشارها جغرافيًا، كانت تدار أمورها عن طَريق حكام عسكريين وليس رجال دين. وربما كان نجاح الثورة الإسلامية فى إيران واستيلاء رجال الدين على الحكم هو الذى طرح القضية بقوة على الساحة. وأنا لا أستطيع الحكم على تجربة الثورة الإسلامية فى إيران لأن أغلب معلوماتى أخذتها من خصومها، وهؤلاء يصورونها على أنها دموية وديكتاتورية. وللأسف هناك تعتيم شديد حتى الآن على هذه الثورة، فلا أستطيع أن أقول فيها رأيًا قاطعًا، سواء بالسلب أو الإيجاب.

* * *

أختلف مع الذين يرون أن الحكومة المصرية علمانية ولا دينية. فلا توجد حكومة تقف ضد الدين باستثناء الحكومة الشيوعية الصريحة، بل هذه الأخيرة تنازلت فى فترة لاحقة عن عدائها للدين. من هذا المنطلق أرى أن حكومتنا تنطبق عليها صفة «الحكومة الدينية»، لأنها تهتم بتعليم شعائر الإسلام وتقيم المساجد وتعتنى بها، وتخصص وزارة كاملة مهمتها الوعظ والإرشاد ونشر الإسلام. فكيف نقول إن هذه الحكومة ليست إسلامية؟ حكومتنا ذات نظام إسلامى متطور ومتحرر ويعى روح الدين، ومن ثم فإن اتهامات المتطرفين لها بالكفر ليس لها سند، بل إن هؤلاء المتطرفين ليس على لسانهم تهم غير الكفر والتكفير بلا ضابط. وأختلف أيضًا مع فكرة «رجل الدين الحاكم» الذى يأمر فيطاع ولا يرد له أمر. فهى فكرة خطيرة وضد العقل والعصر، بل وضد الدين، حيث نبعت منها فكرة تكفير المجتمع والهجرة وأخذ الناس بالشبهات بل وقتلهم. وربما كان مصدر فكرة رجل الدين الحاكم هو اعتقاد الشيعة فى مبدأ «الإمام المنتظر» المنزه عن كل خطأ. والبديل العملى العصرى لكل

هذه الأفكار المتطرفة هو تطبيق الديمقراطية الكاملة. بحيث يكون لكل تيار حزب سياسى يعبر عنه، حتى لو ترتب على ذلك ظهور أحزاب إسلامية وأخرى قبطية. وأؤكد أن الأقباط ليسوا من الغباء لكى يقيموا حزبًا مستقلاً، لأنهم بذلك يحكمون على أنفسهم بالعزلة، وبأن يتحولوا إلى أقلية عنصرية، والأقباط ليسوا أقلية عنصرية بل هم جزء لا يتجزأ من الوطنية المصرية.

* * *

نقطة أخرى أود التوقف عندها، وهى أن الأزهر لم يعد هو المدرسة التى يخرج منها المتطرفون، ففى فترة من الفترات وقف الأزهر ضد تيار الاستنارة، وكفّر محمد عبده وعلى عبد الرازق. كما هاجم الأزهريون سعد زغلول عندما كتب مقالاً يطالب فيه بإصلاح الأزهر، فتم فصله ولم يحصل على الشهادة الأزهرية. وترك طه حسين الأزهر ولم يكمل تعليمه فيه، فقد كانت العقلية الأزهرية تتفق، إن لم يكن مع التطرف، فعلى الأقل مع الرجعية. ولكن في الجيل الحالى انتقل مركز التطرف إلى الكليات العملية فى الجامعات المدنية، أى كليات الطب والهندسة والعلوم، مقارنة بالكليات التى تهتم بالثقافات الإنسانية مثل الآداب والحقوق. والواقع أن المناهج الدراسية فى الكليات العملية الآن تعانى من قصور خطير لأنها تهمل النواحى الإنسانية. فقديمًا كان خريجو المدارس العلمية ينافسون نظراءهم فى المدارس الأدبية فى قراءة الأدب والفكر والفن، ويدخلون فى جدل وحوار حول كتابات العقاد وطه حسين. لقد كان الدكتور أنور المفتى على درجة عالية من الثقافة التى كانت تؤهله للعمل بالنقد الأدبى، وكان زميلى فى مدرسة فؤاد الأول، وكنا نتسابق فى الحصول على أعلى الدرجات، وكان المفتى من أحسن التلاميذ فى كتابة موضوعات الإنشاء. من الضرورى أن نهتم بتدريس ما أسميه «الثقافة العامة للطلاب» ابتداء من المرحلة الابتدائية، لأن نقص هذه الثقافة هو أساس فساد التعليم الآن.

* * *

التعليم فى مصر يحتاج إلى ثورة، وطالما ناديت وطالبت بأن نقوم بهذه الثورة لنخلق مواطنًا ديمقراطيًا صالحًا للبحث العلمى. وصفة «ديمقراطى» هنا تعنى تخريج طالب متفتح لا يعتمد على الحفظ فقط، أو تفرض عليه الآراء والنظريات لكى يلتزم بها ولا يحيد عنها، وإنما يعرف كيف يبحث ويفكر ويبتكر ويتحاور. النظام التعليمى الحالى هو نوع من الديكتاتورية، ولابد من استبداله بنظام يسمح بالمناقشة والاختيار، ويسمح بتربية الطلاب

على حرية الرأى وعلى استخدام العقل. إن الثورة التى أنادى بها لا تقتصر على التعليم فقط، بل لابد أن تمتد إلى التربية أيضًا. فتكون هناك تربية دينية سليمة، ثقافية، قومية، وأخلاقية، وكل هذه الأنواع من التربية كانت متاحة فى أيامنا بسبب نظامنا التعليمى القديم. أنا لا أدعى أن التعليم قديمًا كان مثاليًا، لقد كانت لنا شكاوى وانتقادات كما كانت هناك عيوب فى النظام التعليمى. ولكن مع كل العيوب كانت كل مدرسة تضم مكتبة، ومجلة، وفرقة تمثيل، وجماعة خطابة، وفرقة موسيقية، بالإضافة طبعًا للمنهج الدراسى. والمدرسة يجب أن تكون بهذه الصورة وإلا لن يتحقق الهدف المرجو منها، ولن نحصل على خريجين بالشكل الذى نرتضيه، وتنتفى ضرورة المدرسة. فأن نترك الأطفال يرتعون فى الأمية والجهل بدون تعليم أفضل من تعليمهم بالصورة الحالية. فأقصى نتيجة يمكن أن يصلوا إليها فى ظل النظام الحالى أن يكونوا أشبه بأتباع الطرق الصوفية! إن المدرسة فى مصر بنظامها الحالى تقدم للمجتمع مادة خامًا للتطرف، ولا تقدم متعلمين مثقفين مستنيرين.

من أهم عيوب نظام التعليم الحالى هو أنه يفصل بين التعليم والتربية، وينظر للتربية على أنها من الكماليات، بينما التربية أهم من التعليم. وأؤكد أننى أفضل متعلمًا حاصلاً على مؤهل متوسط ولم يكمل دراسته الجامعية ويشغل وظيفة بسيطة، ولكنه يكون قد تلقى تربية جيدة ولديه انتماء، على متعلم آخر حاصل على أعلى الشهادات دون تربية جيدة أو انتماء. وفى الحقيقة فإننى تفاءلت واستبشرت خيرًا بالخطوات التى اتخذها وزير التعليم الأسبق الدكتور فتحى سرور على الرغم من ثورة الكثيرين على أفكاره، لأن جميع الأسر المصرية ترغب فى إلحاق أبنائها بالجامعات بأى شكل. ورغم الصعوبات الكبيرة التى اعترضته، ورغم الروتين الفظيع والإمكانيات الضعيفة، فإن الدكتور سرور كان يسير فى الاتجاه الصحيح لتطوير التعليم فى مصر، ولكنه لم يستمر وتم تكليفه برئاسة مجلس الشعب.

ونأتى إلى مشكلة أثارت جدلاً كبيرًا فى حينها، وهى القرارات التى اتخذها عبد الناصر لتطوير الأزهر، والتى اعترض عليها كثيرون، واعتبروها إضعافًا لدور الأزهر وانتقاصًا منه وتصفية له. فى رأيى أن تلك القرارات كانت سليمة وإيجابية، فليس هناك ما يمنع أن يتحول الأزهر إلى جامعة، يدرس طلابها العلوم الحديثة إلى جانب العلوم الدينية. أما أن يحتج البعض بأن خريجى الأزهر بعد تطويره ضعفاء فى المستوى العلمى، فإن هذا يرجع فى الأساس إلى ضعف مستوى التعليم فى مصر بشكل عام، وليس بسبب النظام الجديد. وقديمًا كان خريج الأزهر المميز بالعمامة متميزًا فى اللغة العربية وقواعدها ولا يخطئ فيها

أبدًا، والآن تدهور مستوى اللغة العربية، ليس بين خريجى الأزهر فقط وإنما بين خريجى التعليم المدنى أيضًا.

* * *

لقد ناصرت تطوير الأزهر لأننى كنت ألمس بنفسى أن أغلب الأزهريين الذين عرفتهم أيام الدراسة كانوا ساخطين على نظام التعليم الأزهرى والحياة الجافة التى يعيشها طالب العلم فى الأزهر. فقد كانت مناهج الأزهر قاسية ومجهدة، فمثلاً كان لابد للطالب الذى يريد الالتحاق بالأزهر، وغالبًا ما تكون سنه حوالى ١٢ عامًا، أن يحفظ القرآن كاملاً عن ظهر قلب. ولذلك أعتقد أن عملية تطوير الأزهر لم تواجه باعتراضات من هؤلاء الذين عانوا من الدراسة الأزهرية على النظام القديم. وأعترف ـ شهادة لله ـ أن حركات التطرف الحديثة لم يكن منبعها الأزهر بقدر ما جاءت من الكليات العملية فى الجامعات المصرية الأخرى، رغم تعاطف الأزهر مع الإخوان المسلمين. صحيح أن الأزهر أصبح جهة رسمية حكومية ولكن قلبه كان مع الإخوان. وتحضرنى هنا واقعة طريفة حدثت أثناء عملى بوزارة الأوقاف قبل الثورة، فقد حدث أن تشكلت وزارة جديدة غير وفدية، وبطبيعة الحال فإن الوزير الجديد كان غير وفدى. وفى اليوم الأول لمجيئه إلى الوزارة اصطف الموظفون أمام الباب ليكونوا فى استقباله، ووقفت مع زميلى «عبد السلام» فى ركن بعيد، فنحن الاثنان من أنصار الوفد. وعندما دخل الوزير هتف الموظفون: «يحيا وزير الأوقاف»، أما أنا وعبد السلام فكنا نهتف ولكن بصوت منخفض: «يسقط وزير الأوقاف»، والكل يظن أننا نشاركهم الهتاف !! وهكذا فعل الأزهر، رفض فى الظاهر أفكار التطرف، ولكن فى الباطن كان معها بقلبه.

* * *

يرتبط بقضية تطوير الأزهر نقطة أخرى كنت أشرت إليها فى بعض مقالاتى وهى تطوير أئمة المساجد. فنحن نعرف أن قسم الوعظ والإرشاد يتخرج فيه أئمة المساجد، وبما أن المنابر فى رأيى ذات تأثير أكبر من المدارس اقترحت تطوير الدراسة لهؤلاء الأئمة. وقلت إن المسألة أكبر من الاهتمام بتعليم الناس طريقة الوضوء، ولكن الأهم أن نوضح لهم رسالة الإسلام الحقيقية وتاريخ الحضارة الإسلامية وتاريخ الأديان.. ونصلهم بروح الإسلام الأصلية بوصفه دينا يعتبر العمل عبادة، والتفكير عبادة، والمعرفة عبادة، بحيث تصل هذه

الروح إلى كل فلاح فى القرية. فعن طريق هؤلاء الأئمة يمكن إحداث ثورة فى البلد، ثورة نظيفة، وعامة الناس ـ خاصة فى الريف ـ يحترمون رجال الدين ويقدرونهم حق التقدير، ويضعون آراءهم موضع التقديس. ومن الممكن إذا أردنا عمل ثورة حقيقية، أن ننشئ معهدًا للوعظ، يلتحق به خريجو كليات الطب والهندسة وغيرها من كليات القمة، بحيث يكون الخريج على مستوى من الوعى والإدراك لرسالة الوعظ والإرشاد. وفى هذه الحالة أظن أن تأثير الواعظ سيكون أقوى وأشد من وسائل الإعلام المختلفة وعلى رأسها التليفزيون.

* * *

عندما قامت ثورة ١٩١٩ كنت مؤيدًا لاستخدام العنف ضد الإنجليز، وكنت أعتبر اغتيالهم نوعًا من الجهاد الوطنى. فهناك حالات يكون فيها العنف مشروعًا ولا يمكن إدراجه تحت بند الإرهاب، ومنها قتال الإنجليز للحصول على الاستقلال، ومنها المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل فى سبيل الحصول على الاستقلال، بشرط أن يكون العنف موجهًا للإسرائيليين مباشرة وداخل حدودهم. لكن أن يتسلل فلسطينى إلى محطة مترو أو مقهى فى باريس ويزرع قنبلة ليقتل يهوديًا ويذهب ضحية العنف أطفال ونساء وأبرياء، فهذا يندرج تحت قائمة الإرهاب، ويخرج من نطاق المقاومة والجهاد والنضال.

وفى فترة ما بعد ثورة ١٩١٩، وبعد صدور دستور ١٩٢٣ وتحقيق جزء من مطالبنا الوطنية، عارضت الاغتيالات التى تمت، مهما كانت مبرراتها. فما دامت هناك ديمقراطية وصحافة حرة تستطيع من خلالها أن تعبر عن رأيك، فما حاجتك إلى الرصاص؟. والملاحظة اللافتة للنظر أن الاغتيالات التى حدثت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وقعت فى ظل حكومات غير ديمقراطية. فأحمد ماهر كان على رأس حكومة أقلية جاءت لتفرض آراءها وكان مصيره الاغتيال، والنقراشى شن حملة واسعة على الإخوان المسلمين وأدخلهم السجون فكان مصيره الاغتيال. والسادات نفسه قتل بعد أن ألغى الديمقراطية ولجأ إلى العنف بدلاً من الحوار الذى كان يدعو إليه ولكنه لم يحترمه فى النهاية. ولكن هذه الملاحظة التى أبديها لا تمنع من القول بأن هناك اغتيالات وقعت فى ظل نظم ديمقراطية، ولكن فى الغالب يكون القاتل مجنونًا. فالذى حاول اغتيال سعد زغلول مثلاً اتضح أنه مختل عقليًا وأودع فى مستشفى «الخانكة».

الإرهاب أو العنف قد يكونان رد فعل على فعل، ويكون للأخير أسبابه المنطقية.

فالمتطرفون الآن يحتجون على أشياء يعتبرونها فسادًا من وجهة نظرهم، وربما نشاركهم بعض الرأى فى حالات معينة مثل سوء استغلال السلطة للكسب المادى، فالأسباب هنا مقنعة، ولكن رد الفعل ـ وهو الاغتيال ـ أمر مرفوض. ولكى نقاوم ظاهرة الإرهاب فى مجتمعنا لابد أن ندرس الأسباب التى دعت هؤلاء المتطرفين إلى العنف ونحاول إصلاحها، بشرط أن يكون العنف هو آخر طريق نلجأ فيه لمقاومتهم، فالعنف ليس علاجًا أبدا للعنف ولن يكون.. ومن حسن الحظ أن جاء إلى كرسى وزارة الداخلية وزراء يدركون هذه النقطة، وهى أن علاج الإرهاب لا يكون بقتل المتطرفين، ولكن بإصلاحهم وإصلاح أحوال المجتمع، ولكن هؤلاء الوزراء كانوا قلة، ولم يتمكنوا من تنفيذ أفكارهم حتى النهاية.

والمشكلة الجدلية التى لا تنتهى وتعتبرها الجماعات المتطرفة شغلها الشاغل هى تطبيق الشريعة الإسلامية. وفى اعتقادى أن تطبيق الشريعة بحذافيرها طبقًا لمفهومهم أمر غير متاح فى ظل الظروف الحالية. فالأمم تعيش الآن على أساس مبدأ القوميات، ومن ثم فمن الصعب أن تجعل من مصر دار الإسلام وتطبق الشريعة على وطن يساوى بين جميع أبنائه على اختلاف دياناتهم وألوانهم وأشكالهم. فدار الإسلام الآن غير موجودة، وحل محلها وطن يخطو نحو القرن الحادى والعشرين، ويحاول أن يعيش العصر بكل ما فيه من متغيرات. وإذا نظرت إلى الدستور المصرى فستجد أن نسبة عالية من مواده على الأقل مستمدة من روح الشريعة الإسلامية، أى أننا نعيش فى دولة إسلامية، ولكنها دولة مدنية عصرية. وإذا قالوا إن الدستور لا يأخذ بالحدود التى نص عليها القرآن الكريم، أقول لهم إن سيدنا عمر أوقف العمل بأحكام دينية صريحة فى ظرف محدد. وهذا يدل على أن النص أحيانًا يكون موقوتًا، أى مرتبطًا بظروف معينة، وفى العصر الحديث من الممكن أن نجد بدائل عصرية دون الإساءة للنص الأصلى. ففى أيام الرسول ـ مثلاً ـ كان يطبق حد السرقة بقطع يد السارق، وكانت هذه القاعدة مقبولة فى ظل الظروف التى كان يعيشها المجتمع الإسلامى الأول. فلا توجد سجون، كما أن لغة القوة هى السائدة، فكان قطع اليد هو الأسلوب المناسب لزجر السارق، الآن توجد بدائل لهذه العقوبة يمكن أن تحقق نفس الهدف، مثل السجن والغرامة.

وعندما تنظر أيضًا إلى حد آخر من حدود الإسلام وهو الزنى، تجد أنك إذا طبقته كما هو فى الشرع، بوجوب وجود أربعة شهود ثقات، فمن الصعب على هذا الأساس أن تجد زانيا متلبسًا بجريمته، وقد يزنى شخص فى ميدان التحرير، ولا يشهد عليه أربعة ثقات، فلا

تنطبق عليه العقوبة. والنص القرآنى الذى يقول بجلد الزانى ورجم المحصن الغرض منه هو التخويف وليس العقاب. وعلى ذلك فأنا أميل إلى الرأى القائل بأن البدائل المدنية الحديثة يمكن أن تحل محل الحدود دون أن يطعن ذلك في النص أو ينتقص منه.

* * *

وخلاصة القول فإن الديمقراطية هى الحل للخروج من أزمة التطرف والإرهاب. أنا لست ضد حكم الإسلام، ولو وافقت أغلبية الشعب على تطبيق الشريعة كما يريد المتطرفون فسوف أقبل، لأننى إذا رفضت فى هذه الحالة لا أكون ديمقراطيًا. فالديمقراطية نزول على رأى الأغلبية، والدين الإسلامى دين مرن يحتوى على كل المبادئ الحديثة، الحرية والديمقراطية والاشتراكية، ويحث على العمل والإنتاج والابتكار. الإسلام دين كامل وهو أيضًا إنسانى وعالمى، فهو ليس مثل ديانة «الشنتو» اليابانية التى تقول لليابانى: «جزيرتك أُعظم جزيرة، وملكك أعظم ملك، ولابد أن تعمل لتضع جزيرتك فقط وملكك فقط فى المكانة اللائقة». والإسلام دين إنسانى مفتوح للجميع، ويتكلم بكل لغات العالم.

* * *

الفصل الحادى والعشرون

اللّه والإنسان

لم أقرأ كتابًا فى حياتى مرتين، و«القرآن» أقرأ فيه كل يوم ـ وصوت الشيخ على محمود الساحر ملأنى حبًا فى القرآن ـ الشيخ البربرى وطريقته الفريدة فى الترتيل ـ تأثير القرآن فى أعمالى الروائية ـ السورة التى سحرتنى ـ «الكتاب المقدس» قرأته بإمعان واستفدت منه فى «أولاد حارتنا» و «أيوب» ـ جذبتنى الصوفية ولكنى لم أقتنع برفضها للحياة ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق كان أستاذى فى النبل الإنسانى ـ فكرت فى إعداد رسالة ماجستير عن «فلسفة الجمال فى الإسلام» ـ فى المحاضرة قال الأستاذ: «سأشرح الدرس حتى يفهم أخونا نجيب محفوظ المسيحى»! ـ فى وزارة الأوقاف أخفيت ميولى الوفدية ـ الشيخ على عبد الرازق استقال من الوزارة لأن الملك لم يقدم إليه العزاء فى زوجته.

■ لم يقرأ نجيب محفوظ كتابًا واحدًا مرتين، والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة التى سار عليها طوال حياته، هو «القرآن الكريم»، حيث يواظب على قراءة أجزاء منه يوميًا. فما هى قصة نجيب محفوظ مع القرآن وما هى أسباب تعلقه به؟ وماهى أحب السور إليه؟ وما هو تأثير القرآن على أسلوبه وأدبه؟ ولماذا فكر فى إعداد رسالة ماجستير حول فلسفة الجمال فى الإسلام؟ ومن هو الشيخ صاحب أجمل صوت فى تلاوة القرآن فى رأيه؟ ومن هو الشيخ الذى يعتبره أستاذه فى النبل الإنسانى؟ هذه الأسئلة وغيرها يجيب عنها نجيب محفوظ فى هذا الفصل.. ■

نجيب محفوظ: لم أقرأ فى حياتى كتابًا واحدًا أكثر من مرة باستثناء كتاب واحد هو «القرآن الكريم». قرأت القرآن منذ الصغر، وتعلقت به، ومازلت أقرأ فيه بشكل يومى ولو أجزاء قليلة، قرأت كذلك كتب التفاسير، خاصة القرطبى وسيد قطب، وإن كان أكثرها راحة وسهولة بالنسبة لى هو «منتخب التفاسير» الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية.

وترجع عادة عدم قراءتى للكتاب الواحد أكثر من مرة إلى أننى بدأت تثقيف نفسى ثقافة أدبية فى وقت متأخر نسبيًا من حياتى، وبالتحديد بعد عامين من تخرجى فى الجامعة. فكان الوقت أمامى ضيقًا، وعلىّ أن أقرأ كل ما يقع تحت يدى، وكل ما يتعلق بالأدب، وهو كثير. ومن هنا لم يكن عندى الوقت لإعادة قراءة ما سبق أن قرأته حتى ولو نال إعجابى أكثر من غيره، فقد كنت أعتبر ذلك ترفًا لا أقدر عليه، ولا يسعفنى الوقت لأدائه، وهذه خطة لم أحد عنها أبدًا.

أما علاقتى بالقرآن الكريم والتى بدأت فى وقت مبكر من حياتى، فإنها توطدت أكثر بعد تعلقى بأصوات كبار القارئين فى ذلك العصر، خاصة «الشيخ على محمود» الذى كان يملك صوتًا موازيًا للوطن، فإذا كان مشهد الوطن يحرك مشاعرك، فكذلك كان صوت الشيخ على محمود فى ترتيله للقرآن. واعتدت على حضور ليلة حفنى الطرزى[1] التى

---

(١) هو حفنى الطرزى باشا أحد الشخصيات البارزة فى حزب الوفد القديم. ومن حديث نجيب محفوظ نفهم أنه كان معتادا على أن يقيم سرادقا فى حى الحسين مرتين فى كل عام، فى ذكرى مولد الحسين، وفى ذكرى وفاة سعد زغلول.

يحييها الشيخ على محمود فى أيام مولد سيدنا الحسين، وأظل ساهرًا حتى مطلع الفجر مبهورًا بصوته المعجز. وكنت أداوم على سماعه فى الوقت المخصص له بالإذاعة، وفى الذكرى السنوية لوفاة سعد زغلول كان يقام سرادق ضخم، وفى الغالب كان يحييه الشيخ على محمود والشيخ البربرى. ورغم أن السرادق كان يضم أكثر من ثلاثين ألف شخص، إلا أن صوت القارئ سواء أكان الشيخ على محمود أو الشيخ البربرى، كان يصل إلى الناس بسهولة دون استخدام الميكروفون الذى لم يكن قد ظهر حتى ذلك الوقت.

كان الشيخ البربرى، ولا أتذكر اسمه كاملا، له طريقة فريدة فى ترتيل القرآن، لم أسمعها من قارئ قبله أو بعده، فهى طريقة أقرب للخطابة، ولكن بشكل جميل مؤثر. وقد كان للقرآن وأسلوبه وموسيقاه العذبة أثر كبير فى أسلوبى فى الكتابة، وظهر ذلك بشكل واضح فى «أحاديث الصباح والمساء»، والتى قال عنها الناقد الدكتور محمد حسن عبد الله إن تلك القصص تسير على نفس المنهج الذى سارت عليه قصص القرآن، وأنه ظهر فيها تأثرى البالغ بأسلوب القصص القرآنى.

أما أكثر سور القرآن التى سحرتنى بموسيقاها وأسلوبها، فهى سورة «الرحمن». وأتذكر أن صحفيا أمريكيا جاء إلى القاهرة ليجرى معى حديثا، وسألنى عن علاقتى بالقرآن وتأثيره علىّ وأسئلة أخرى، ثم سافر عائدا إلى بلاده. وبعد بضعة أيام فوجئت برسالة بريدية منه، حيث أخبرنى أنه نسى سؤالا هاما ويريد منى الإجابة عنه، وكان السؤال هو: ما أحب سور القرآن إلى نفسك؟ وأرسلت له الإجابة: إنها سورة الرحمن.

والحقيقة أننى عندما وضعت لنفسى برنامجا للتثقيف الذاتى فى بداية حياتى، كان جزء كبير من هذا البرنامج يتعلق بدراسة الديانات الكبرى، وتاريخ الحضارة، والفكر الإنسانى. لذلك قرأت «الكتاب المقدس» بإمعان، وكان من مصادرى التى اعتمدت عليها فى كتابة رواية «أولاد حارتنا»، كما أننى اقتبست منه قصة «أيوب» التى تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائى قام ببطولته عمر الشريف. وهناك اختلافات كبيرة بين قصة «أيوب» فى «الكتاب المقدس» وقصة «أيوب» التى كتبتها أنا، إلا أن المصدر الرئيسى الذى أوحى إلىّ بكتابة القصة، هو ما جاء عنها «بالكتاب المقدس».

قرأت فى تاريخ الفكر الهندى وخاصة «البوذية»، وإن لم تستغرقنى كما استغرقتنى الكتابات الصوفية الإسلامية. ورغم أننى لا أومن بأفكار الصوفية ومعتقداتهم كما يؤمن

بها المتصوفون، فإننى وجدت فى قراءة كتبهم وتأملها راحة عقلية ونفسية كبيرة. جذبتنى فى الصوفية فكرة السمو الروحى، وفى المقابل لم أقتنع بفكرة رفض الدنيا، فلا أتصور مذهبا دينيا يرفض الدنيا أبدا. وظهر رأيى بوضوح فى رواية «اللص والكلاب» فى شخصية الرجل الصوفى الذى يلجأ إليه «سعيد مهران» عسى أن يجد عنده حلا لمشكلته، فلا يجد سوى لحظات من الراحة النفسية، هى أقرب إلى المسكنات، وليس فيها أى نوع من الحل الأساسى أو الدواء الشافى.

بلغ من تأثرى بالقرآن والكتابات الإسلامية أننى اخترت لرسالة الماجستير التى كنت أنوى إعدادها بعد تخرجى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب موضوعا عنوانه «فلسفة الجمال فى الإسلام».. وعرضت الموضوع على أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق فوافق عليه وتحمس له رغم جرأة الموضوع. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقبل فيها أستاذ للفلسفة الإسلامية موضوعا بهذه الخطورة، ولم يخش ما يمكن أن يجره عليه من مشاكل ومتاعب، خاصة بعد المتاعب التى تعرض لها المفكرون المستنيرون من أمثال طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى. كنت أنوى تقديم صورة جديدة للإسلام، أظهر فيها اهتمامه بالجمال والتذوق والانفتاح على العالم، وأنه لم يدع أبدا إلى الزهد والانغلاق. ولكننى لم أكمل مشروع دراسة الماجستير، لأننى انصرفت إلى الأدب وركزت جهدى كله فى مجاله.

وتحتاج علاقتى الوثيقة بالشيخ مصطفى عبد الرازق إلى وقفة. فالرجل لم يكن أستاذى فى الفلسفة فقط، بل كان أستاذا لى فى النبل الإنسانى. كان بيته بمثابة «النادى» لتلاميذه ومريديه، أما معاملته لنا ـ نحن تلاميذه ـ فكانت معاملة الأب لأبنائه. وقد تميز بسعة الصدر، فلم أره مرة واحدة محتدا أو منفعلا، وكل توتر الدنيا وضيقها إذا ما أتى إليه يسقط فى لحظة، وكان محبا للخير وينفق عن سعة رغم أنه لم يكن واسع الثراء. ربطتنى به علاقة مودة واحترام، وأغرب ما فى هذه العلاقة من ذكريات أنه بعد عامين كاملين من معرفتى به واعتزازه بى كتلميذ متفوق فى الفلسفة الإسلامية، كان لديه اعتقاد بأننى مسيحى، وفى إحدى محاضراته عن أصول الإسلام فوجئت به يقول: «إن الطلبة المسلمين يعرفون هذا الموضوع جيدا، ولكننى سأعيد شرحه مرة أخرى علشان أخونا نجيب محفوظ»، فرد أكثر من طالب بالقول: «يا مولانا ده مسلم»!!.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعرف فيها الشيخ مصطفى عبد الرازق أننى مسلم، فإلى هذه الدرجة بلغ الرجل من التسامح والرقى.

بعد تخرجى فى كلية الآداب عام ١٩٣٤ عملت موظفًا فى إدارة الجامعة وظللت بها حتى عام ١٩٣٩. كانت الأحوال وقتذاك فى منتهى الصعوبة، فقد كنا نعيش فترة ما بين الحربين العالميتين، فلا وظائف ولا ترقيات ولا علاوات بسبب ضعف الميزانية، وضاعت علىّ عدة ترقيات لهذا السبب، وفى عام ١٩٣٩ عُين الشيخ مصطفى عبد الرازق وزيرا للأوقاف، وفوجئت به يتصل بى ويخبرنى أنه اختارنى لأعمل معه فى وظيفة سكرتيره البرلمانى. وفى نفس الوقت عين زوج ابنته عباس محمود مديرا لمكتبه، وهو الذى ترجم فيما بعد كتاب «التجديد فى الفكر الإسلامى» لمحمد إقبال، وكان عباس محمود حاصلا على درجة الماجستير فى الفلسفة. ومن خلال وظيفتى مع الشيخ مصطفى عبد الرازق تمكنت من الحصول على علاوتين وقفزت إلى الدرجة السابعة، بينما ظل زملائى فى إدارة الجامعة على نفس درجتهم السابقة.

ظللت فى وزارة الأوقاف أكثر من عشرين عاما أعمل فى نفس الوظيفة ومع وزراء مختلفين فى اتجاهاتهم وانتماءاتهم السياسية. والطريف أننى عندما دخلت وزارة الأوقاف اعتقد العاملون فيها أننى من الأحرار الدستوريين، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق وحده يعلم بميولى الوفدية. وحتى فى وزارات الوفد لم أخبر وزراء الأوقاف بوفديتى خشية أن يعتبروا ذلك نوعا من النفاق.

كان من وزراء الأوقاف الذين عملت معهم الشيخ على عبد الرازق، شقيق أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق، والمقارنة بينهما لصالح الأخير. فقد كان الشيخ على مع ما يملكه من صفات طيبة ميالا للعنف والصدام، واصطدم بالملك فاروق نفسه عندما أراد الملك ضم بعض أراضى الأوقاف بالشرقية. فقد أرسل رئيس الديوان الملكى إليه يخبره برغبته فى ضم هذه الأراضى، فطلب الشيخ على مهلة زمنية لحين تعديل الميزانية. واعتبرها الملك إهانة له ولم يمض أكثر من أسبوعين وماتت زوجة الشيخ على، فلم يذهب الملك لعزائه، واعتبر الشيخ هذا الموقف من الملك ماسا بكرامته فقدم استقالته. وذهب إليه فى بيته رئيس الحكومة النقراشى باشا، يرجوه العدول عن الاستقالة حتى لا يزيد الموقف تأزما فى ظل الظروف التى كانت تمر بها الحكومة، ولكنه رفض، وقد كان شقيقه الشيخ مصطفى على العكس منه أكثر لينا وتسامحا.

ومن المواقف المشرفة للشيخ مصطفى عبد الرازق موقفه مع الدكتور طه حسين عقب فصله من الجامعة. فكما سمعت ظل الشيخ مصطفى يقدم للدكتور طه ما يشبه المرتب

الثابت من جيبه الخاص، حتى عاد الدكتور طه مرة أخرى إلى عمله. وفى كتابها «معك» تحدثت سوزان طه حسين عن الشيخ مصطفى عبد الرازق، وأشادت به، وقالت عنه إنه كان أقرب أصدقائها فى مصر، خاصة أنه كان يجيد اللغة الفرنسية، ووصفته بكل ما هو جميل وما هو جدير به.

* * *

وأخرج من هذه الجزئيات كلها بأن أقول لك: إن فى أعماق قلبى وروحى إيمانا بالله لم تنتزعه منى دراستى للفلسفة ولا تفكيرى المتصل فى مشاكل الإنسان والمجتمع والكون.

* * *

الفصل الثانى والعشرون

أزمة الخليج والمأزق العربى

نهضة العراق وخروجها من العالم الثالث ـ الغزو أمر مرفوض ـ الخوف من الاستعانة بقوات أجنبية ليس له ما يبرره ـ أكره الحرب ولا أقبل أن يحدث للعراق ما حدث لألمانيا فى الحرب العالمية ـ الأزمة لها نتائجها الإيجابية أيضا ـ قضية توزيع الثروات العربية وموقفى منها ـ التشابه بين صدام حسين وعاشور الناجى فى رواية «الحرافيش» ـ أزمة الخليج والمأزق الذى تعيشه الأمة العربية ـ الديمقراطية هى الحل الوحيد للخروج من المأزق ـ دور ياسر عرفات وموقف الفلسطينيين ـ مشاركة القوات المصرية فى حرب الخليج ـ وقفة مع الماركسيين العرب والجماعات الإسلامية ـ فرصة صدام الذهبية لأن يصبح صلاح الدين الأيوبى الجديد ـ لماذا فشل العراقيون فى تحويل الأزمة إلى فيتنام أخرى؟ ـ موقف حزب العمل المساند للعراق ـ معاداة أمريكا الآن أصبحت بطولة زائفة.

■ كانت حرب الخليج الثانية حدثا زلزل أركان المنطقة العربية كلها، ومازلنا نعانى من آثار هذا الزلزال حتى الآن. فما هو رأى نجيب محفوظ فى هذه الأزمة؟ وماذا يقول عن موقف مصر خلالها؟ وموقف الذين ساندوا العراق والذين عارضوه؟.

فى هذا الفصل يجيب نجيب محفوظ عن كل الأسئلة التى طرحتها عليه خلال الأزمة، بل ويعرض توقعاته لمصير المنطقة العربية بعد انتهاء الحرب، وقد كان تسجيل هذا الحديث مع نجيب محفوظ بعد قيام القوات الدولية بضرب العراق فى فبراير ١٩٩١ بخمسة أيام.. ■

نجيب محفوظ: قبل نشوب الحرب العراقية الإيرانية بشهور قليلة زارنى صديق كان يعمل فى العراق وقتذاك وأمضى هناك سنوات طويلة. وقال لى: إن العراق على وشك أن يودع العالم الثالث إلى الأبد، ويدخل فى مصاف الدول المتقدمة، وحدثنى عن التطور المذهل الذى حققه العراق والإنجازات الهائلة فى كل المجالات، وما يعيشه المواطن العراقى من رخاء ورفاهية. وقد سعدت بما سمعت من الصديق، ولكن سعادتى لم تطل، فبعد قليل وقعت الحرب بين العراق وإيران، فحل مكان السعادة الانزعاج الشديد. لأن الحرب تعنى خسارة كبيرة للعراق، منتصرا أو مهزوما، ففى حالة الانتصار سيعود ممزقا ومثقلا بأعباء الحرب وتكاليفها الباهظة، وهذا كفيل بوقف عجلة التنمية والتقدم. وقد تجددت الآمال بعض الشىء عندما انتهت الحرب، وعشت مع الآخرين فى حلم «مجلس التعاون العربى» الذى يضم مصر والعراق والأردن واليمن. لم تكن قدرات الدول الأربع الاقتصادية جيدة، ولكن التعاون فى حد ذاته أمر محمود ومطلوب، ويد على يد يمكن أن تفعل الكثير. وبدأت فى متابعة أخبار المجلس الوليد، مثل توحيد الشبكة الكهربائية والتكامل الاقتصادى والاستثمارات والمشروعات المشتركة، وهى أخبار أحيت فى نفسى الآمال القديمة.

وللأسف لم تلبث هذه الآمال أن تبددت فى صباح الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ عندما سمعت خبر اجتياح العراق لأراضى الكويت، وما تبع ذلك من أزمات ومشاكل سوف تعانى منها الأمة العربية لسنوات طويلة قادمة. لقد كنت أتوقع نوعا من التصعيد والتوتر بين

العراق والكويت، لأن الأجواء بين البلدين لم تكن صافية، وقبل الغزو بيوم واحد هاجم صدام حسين حكومة الكويت هجوما عنيفا، ولكننى لم أتوقع أبدا أن يصل الخلاف إلى حد الاجتياح العسكرى، فقد كنت أحسب أنه سيقتصر على التصريحات العنيفة والحرب الإعلامية، وقد يصل الأمر إلى الشكوى فى الجامعة العربية أو مجلس الأمن. ولكن الغزو وقع، وهو أمر مرفوض ويعتبر خرقا لميثاق الجامعة العربية والأمم المتحدة وكل المواثيق الدولية، وكنت بطبيعة الحال أؤيد انسحاب الجيش العراقى وعودة الحكومة الشرعية إلى الكويت.

لم يكن هناك مبرر لتخوف البعض من الاستعانة بالقوات الأجنبية وخشيتهم العودة إلى نظام الانتداب، ومن بقاء هذه القوات فى بلادنا بعد انتهاء الأزمة، وبالتالى عودة الاستعمار الذى كافحنا وناضلنا فى سبيل إخراجه من بلادنا، وأنه من الأفضل أن نحل الأزمة دون التدخل الأجنبى. إن الذين رفعوا شعار الحل العربى كانوا مثاليين أكثر مما ينبغى، لأن القوات القادمة من أركان الكرة الأرضية المختلفة، ليست قوات أجنبية بل هى قوات عالمية، احتشدت بناء على قرارات مجلس الأمن لإعادة حق مغتصب لدولة معترف بها وذات سيادة وعضو فى المجتمع الدولى. ولم يكن سبب مجىء هذه القوات إلى بلادنا الكويت أو السعودية، ولكن السبب كان غزو العراق للكويت، فمجىء هذه القوات الدولية هو أمر فرضته الظروف، واللوم إذن يوجه إلى من كان السبب فى خلق هذه الظروف.

إن فكرة تكوين جيش عربى موحد لتحرير الكويت أمر صعب المنال، إن لم يكن مستحيلاً فى ظل ما تمر به الأمة العربية من ضعف وخلافات، وحتى فى حالة نجاح العرب فى تكوين هذا الجيش، والاتفاق على رأى موحد، فسوف يكون قد مضى من الوقت ما يمكن القوات العراقية من اجتياح كل الدول الخليجية. أنا لست من أنصار الحرب، بل أكرهها من ناحية المبدأ، ذلك لأن نتيجتها الأكيدة هى الخراب والدمار لكل الأطراف. ولذلك ما كنت أفضل أن تكون هى الحل لأزمة الخليج، فخراب العراق وتدمير مؤسساته، هو أمر ليس فى صالح العرب، خاصة أن العراق قوة نعتز بها وكنا ندخرها للشدائد. وأعتقد أن حصار العراق كان كافيًا لحل الأزمة مع شىء من الصبر، لأن الحصار لا يمكن أن يأتى بنتائجه فى ساعات، ولا يمكن لدولة مهما كانت قوتها أن تتحمله مدة طويلة، بشرط استثناء المواد الغذائية والأدوية لحاجة الشيوخ والأطفال. ولا أقبل أن يحدث للعراق ما حدث لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى من تجويع للشعب الألمانى كله. لقد نجح الحصار فى إسقاط «غليوم»، ولكن الاعتبارات الإنسانية يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

إلى جانب النتائج السلبية الكثيرة التى ترتبت على أزمة الخليج، كانت هناك نتائج إيجابية أيضًا. فلا أعتقد بعد الذى حدث للعراق أن حاكمًا عربيًا سوف يفكر فى العدوان على دولة عربية مجاورة، وأعتقد كذلك أن دول الخليج الغنية سوف تعيد حساباتها فى مساعدة الدول العربية الفقيرة. وأنا لا أطالبهم بالتبرع والهبات، بل باستثمار جزء من ثرواتهم فى تلك الدول، ومن ثم تعود الفائدة على الطرفين وتضيق الفجوة الهائلة بينهما. وربما يقضى هذا على ـ أو على الأقل يخفف من ـ جزء كبير من الحقد والغضب اللذين يملآن صدور فقراء العرب، عندما يسمعون ويقرأون تلك الأخبار التى تستفز مشاعرهم عن تصرفات أثرياء الخليج فى أوروبا.

أثارت أزمة الخليج مشكلة توزيع الثروات العربية، فالعراقيون يقولون إن توزيع الثروة البترولية غير عادل، وأن الاستعمار أقام حدودًا جغرافية مفتعلة، جعل بها الثروة فى أيدى الأقلية، بينما حرم منها الأقطار ذات الكثافة البشرية والتاريخ الحضارى القديم، ولابد من إعادة توزيع هذه الثروة توزيعًا عادلاً ولو بالقوة. وأنا لا أوافق على هذا الرأى، ذلك لأن الثروات ملك لأصحابها، ونفس الدول التى تملك الثروة حاليًا كانت فى يوم ليس ببعيد فقيرة، ومنها من كان يأكل ويتعلم من هبات دول ـ فقيرة الآن ـ مثل مصر. وعندما كنت أعمل فى وزارة الأوقاف كانت مصر تقيم «تكية» لفقراء السعودية فى كل من مكة والمدينة. وكان السعوديون راضين بأحوالهم، ومتكيفين مع أوضاعهم، وعندما جاءتهم الثروة واكتشفوا البترول فى أراضيهم، فلا يحق لأحد أن يطالبهم بنصيب فيها، فبأى وجه يطالب؟ كل ما يمكن أن نطالب به هو إقناع أصحاب الثروات بالاستثمار فى البلدان العربية الفقيرة، وهذا الأمر يتحقق بالحوار داخل الجامعة العربية، وعن طريق كتابات المفكرين وأصحاب الرأى، وبالمساعى السلمية، والعلاقات الودية، وبالإقناع، وليس باستخدام القوة كما يقول العراقيون. لأن استخدام القوة يعنى العودة إلى زمن الجاهلية الأولى، ويؤدى إلى تحويل المنطقة إلى ساحة حرب ونزاع لا ينتهى. ثم إن الدول الخليجية أدركت بالفعل ضرورة مساعدة الدول العربية الفقيرة، وساهم صندوق الاستثمار الكويتى مساهمات فعالة فى حركة التنمية فى عدد كبير من الدول العربية والنامية بشكل عام. ووقف إلى جوار العراق فى حربه مع إيران، وقدم له ثمانية مليارات جنيه، ومن ثم لا نستطيع أن نقبل الصورة التى حاول العراق رسمها لأثرياء الخليج، والتى تقدمهم فى شكل رجل يلهث وراء نزواته وشهواته دون أى إحساس بالمسئولية.

ذهب بعض الكتّاب إلى تشبيه صدام حسين بعاشور الناجى الحفيد فتوة «الحرافيش» الذى حمل النبوت فى يده وراح يفرض الإتاوات على القادرين، معلنًا أن هدفه هو توزيعها على المحتاجين. وفى رأيى أن الاختلاف الجوهرى بينهما أن الناجى حاول تحقيق العدل من وجهة نظره فى الحارة التى يقوم بحمايتها ولم يفكر فى تصدير محاولته للحارات المجاورة. أما صدام حسين فلم يكتف ببلده، بل امتدت أنظاره إلى الجيران وحاول فرض أفكاره بالقوة، وهذه سياسة لم تعد تصلح الآن فى ظل النظام العالمى الراهن.

كنت أتمنى لو أن صدام حسين طلب عقد اجتماع قمة عربى فى إطار الجامعة العربية، يوضح فيه للزعماء العرب رؤيته للتفاوت الكبير فى الثروات والدخول ويشرح لهم ما تعانيه بعض الدول العربية من ضيق وفقر، ويطرح ضرورة قيام البلدان العربية الغنية بواجبها القومى. لو فعل صدام حسين ذلك لأيدته الجماهير العربية وتحول إلى بطل قومى، ومن خلال الضغط الجماهيرى، كان لابد أن تسارع البلدان العربية الغنية إلى تنفيذ الكثير مما ينادى به.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح للعالم فتوة أكبر ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية، فتوة يمتلك قوة هائلة، ولديه مصالحه وأطماعه الخاصة. وأفضل سياسة يمكن أن تنتهجها الدول الصغيرة فى ظل هذا النظام هى أن تحاول تحقيق مصالحها دون أن تستفز الفتوة الأكبر أو تحاول إثارته. الوضع الآن أشبه بحركة الأفلاك، شمس كبيرة تدور حولها مجموعة كبيرة من الكواكب، والكوكب الذى يحاول الخروج عن مساره يكون معرضًا للانفجار والتلاشى. والأمثلة كثيرة، أشهرها ما حدث لعبد الناصر، حيث دخل فى صدام مع الفتوة الأكبر دون أن يقدر إمكانياته الحقيقية، ولم يؤمن بالمثل الشعبى القائل: «على قد لحافك مد رجليك»، ومد قدميه أبعد كثيرًا من الغطاء الذى يملكه، والنتيجة يعرفها الجميع. المطلوب من الدول الصغيرة اتباع سياسة عاقلة متوازنة لتحقيق مصالحها، وكم من دول صغيرة لا تملك قوة عسكرية أجبرت العالم كله على احترامها وتقديرها، وهى لا تملك التفوق العسكرى أو أى مخزون من الأسلحة المدمرة، ولكنها تمتلك ما هو أقوى، وهو سلاح الحضارة والتفوق التكنولوجى، وعلى رأس هذه الدول: السويد والدنمارك وسويسرا. وعندما دعوت للسلام مع إسرائيل كنت أدعو لاتباع هذه السياسة العاقلة حيث كان واضحًا للجميع أننا لا نحارب إسرائيل وحدها، وأننا لا نملك من القوة ما يجعلنا نستمر فى سياسة نطح الصخر.

لقد كشفت أزمة الخليج بوضوح عن المأزق الحاد الذى تعيشه الأمة العربية، وسيكون لهذه الأزمة نتائج كثيرة، سواء انتهت بانسحاب العراق من الكويت أو بالتدخل العسكرى أو بتراجع العراق عن طريق الحصار، ومن نتائج هذه الأزمة انقسام الأمة العربية إلى قسمين، وإن كانت الجامعة العربية تجمعهما معًا، قسم يضم مصر وسوريا والمغرب ودول الخليج، وقسم آخر يضم العراق والدول التى ساندته. والخروج من هذا المأزق يقتضى عدة خطوات جادة من أهمها:

أولا: السعى نحو النظام الديمقراطى الحقيقى الذى يضمن مصالح الشعوب العربية، ذلك أن أغلب الدول العربية الآن محكومة بنظم لا تمت للديمقراطية بصلة. ففى ظل النظام الديمقراطى الحقيقى لا يمكن أن يفكر حاكم فى غزو دولة مجاورة هكذا بقرار فردى لا راد له.

ثانيًا: تشكيل محكمة عدل عربية يكون هدفها الأساسى حل الخلافات القائمة بين البلدان العربية.

ثالثًا: قيام الدول البترولية الغنية فى العالم العربى باتخاذ خطوات جادة وفعلية لمساعدة الدول الفقيرة من خلال توجيه جزء من عائدات البترول للاستثمار فيها.

رابعًا: أن ترسم الدول العربية سياستها الخارجية بشكل واقعى دون أن تستفز القوى الكبرى أو تصطدم بها، لأننى أخشى أن ترفض هذه القوى، بعد الاضطراب العالمى الذى سببته حرب الخليج، إخراج قواتها العسكرية من هذه المنطقة غير المستقرة. بحجة أنه بعد عدة سنوات يمكن أن يظهر صدام جديد، وأنه ليس فى وسعها تحمل تلك الخسائر الباهظة التى تتعرض لها بين حين وآخر، ومن الأفضل أن تبقى قواتها فى المنطقة منعًا لحدوث تلك التصرفات غير العاقلة.

والحقيقة أن الديمقراطية الصحيحة وليست المزيفة هى الحل الوحيد لمنع تلك التصرفات غير العاقلة. وقد يقال إن الديمقراطية فى العالم الثالث على وجه التحديد مهددة بعاملين رئيسيين هما: التدخل الأجنبى فى حالة اصطدام مصالحها بمصالح القوى الكبرى، والانقلابات العسكرية. وفى رأيى أنه لا خوف على الديمقراطية الصحيحة من التدخل الأجنبى لأن الشعب كله يؤازرها ويلتف حولها ويحميها. وبالنسبة للجيش فهو جزء من الأمة ولا يمكن أن يفكر فى الانقلاب على الأوضاع إذا كانت الديمقراطية تسير فى الاتجاه الصحيح. فهل سمعت يومًا عن محاولة انقلاب عسكرى فى الولايات المتحدة أو

إنجلترا أو فرنسا؟. ولولا التصرفات الخرقاء للملك فاروق وعداؤه للديمقراطية والأحداث المضطربة والقلاقل الاجتماعية، ما فكر الجيش المصرى فى التدخل وانتزاع السلطة عام ١٩٥٢، ولبقيت مصر ملكية حتى اليوم واحتفظت بنظامها الديمقراطى.

عندما قامت القوات العراقية بغزو الكويت ساند الفلسطينيون العراق منذ اليوم الأول، وبرروا موقفهم بفشل المساعى السلمية وتعنت إسرائيل الذى يدعو إلى الإحباط، وأنهم وجدوا فى الجيش العراقى بارقة أمل فى تحقيق أحلامهم. وهذا المنطق له ما يبرره فى القراءة الدولية له. ولكن أصحاب هذا المنطق نسوا أن هذا الغزو الذى أيدوه أدى إلى انقسام الصف العربى، فى حين أن القضية الفلسطينية تحتاج إلى جمع الصفوف، وكان الأولى بياسر عرفات أن يقوم بدور الوسيط لحل الأزمة، بدلاً من موقفه المساند للغزو. هذا الموقف الذى أضر بقضيته بعد أن فقد تأييد الدول الكبرى من ناحية، وتمويل الدول العربية البترولية من ناحية أخرى.

وكما برر الفلسطينيون موقفهم من تأييد الغزو يمكننا أن نبرر موقف الفقراء العرب، فلم أستغرب تأييد الفقراء فى البلدان العربية للعراق بسبب تصريحات صدام حسين المثيرة عن توزيع ثروات البترول على المحتاجين. وماذا عن موقف مصر؟... فى اعتقادى أن الموقف المصرى كان نابعًا من إخلاص مصر الشديد لميثاق الجامعة العربية الذى يرفض عدوان بلد عربى أو أجنبى على دولة عضو بالجامعة، ومن التزام بميثاق الأمم المتحدة الذى يرفض أيضًا مبدأ العدوان. ولذلك لم تتردد مصر فى إدانة الغزو بصراحة وطالبت بانسحاب القوات العراقية وإعادة الشرعية إلى الكويت متمثلة فى أميرها وحكومتها وثرواتها وسيادتها على أراضيها.

وبالنسبة لمشاركة القوات المصرية ضمن القوات الدولية، والاعتراضات التى أبداها البعض برفض هذه المشاركة، على اعتبار أنها ستقوم بقتال قوات عربية، فالرأى عندى أن هذه الاعتراضات لا محل لها، ذلك أن القوات العراقية هى التى بدأت بالعدوان على القوات العربية الكويتية. ثم إن الملك فهد عاهل السعودية هو الذى طلب مشاركة القوات المصرية لحماية بلد مهدد بالاكتساح، فكان لابد أن نلبى الطلب. الموقف المصرى إذن منطقى وسليم وقائم على مبادئ وأسس. وفى أثناء احتدام الأزمة خرجت أصوات ترى أن سبب الفقر والتخلف والمشاكل التى تعانيها مصر هو انتماؤها العربى، ولكى تتخلص من تلك المشاكل يجب أن تتخلص أولاً من هذا الانتماء. ورأيى أن مصر لا يمكن أن تتخلص

أبدًا من هذا الانتماء العربى، فهو قدرها الذى لابد أن تتحمله، وبالتالى عليها أن تتحمل كذلك كل تبعاته. ولا يمكن أن تحل مشاكل مصر إلا بتضامنها مع بقية البلدان العربية، هذا التضامن هو الأساس الأول للتنمية. والتضامن هنا ليس اقتصاديًا فحسب، بل يشمل كذلك الاتفاق السياسى، بحيث لا يقدم حاكم عربى على تصرف يكون من شأنه تعريض المنطقة كلها للخطر.

ومن الظواهر اللافتة للنظر أن أغلب الماركسيين المصريين وقفوا إلى جانب الكويت والسعودية ضد العراق، وقد كان من المنتظر أن يحدث العكس. بينما وقف عدد من زعماء الاتجاهات الإسلامية مع العراق ضد السعودية، بينما كان من المتوقع أن يحدث العكس كذلك. وتفسير هذا التناقض عندى أن موقف الماركسيين كان نابعًا من نظرة عقلانية للأمور، ولأنهم وجدوا أن التصرف العراقى زعزع ما يمكن تسميته بالأمن القومى العربى، ومن الممكن أن يتسبب فى حرب طاحنة نتيجتها المتوقعة هى القضاء على مصادر القوة الموجودة فى أيدى العرب. أما موقف الاتجاهات الإسلامية فلم يكن تأييدًا للعراق بقدر ما هو رفض لوجود القوات الأجنبية فى الأماكن المقدسة. وهذا الرفض مجرد حجة واهية، لأن هذه القوات ذهبت لحماية الأماكن المقدسة من الخراب والدمار. ثم إننا لا يمكن أن ننظر إليها على أنها نوع من الاستعمار الأجنبى، لأنها جاءت بدعوة من دول عربية وبقرار من مجلس الأمن. وفرق كبير بين قوات دولية جاءت لإعادة الحقوق لأصحابها، وبين تلك الحملات الاستعمارية التى غزت الشرق فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ورغم أننا نتحدث اليوم بعد مرور خمسة أيام فقط على بدء المعارك العسكرية، فإننى أعتبرها بطولة غير عادية من العراق أن يصمد أمام هذه الغارات الجوية الكثيفة والصواريخ طوال هذه الأيام. لأن هذا الضرب المكثف لو وجه للولايات المتحدة الأمريكية لخرجت أصوات عديدة تنادى بالاستسلام. ومن الأمور التى تصيبنى بالألم الشديد والحزن العميق هذه المحنة التى يتعرض لها الشعب العراقى، ويستبد بى القلق الطاغى على مصير هذا البلد الشقيق، وكل أمنيتى هى أن يظل محتفظًا بقوته التى هى جزء أساسى من القوة العربية. وفى الوقت نفسه أتمنى أن تنتصر القوات الدولية على العراق حتى تعود الحقوق لأصحابها. ومما يزيد من شعورى المتناقض هذا تلك الحسابات الدقيقة التى تنفذ بها القوات الدولية هجومها على العراق، إذ هى تبتعد بقدر الإمكان عن الأهداف المدنية، وهى حسابات وأساليب لها هدف إنسانى، إلا أن لها أضرارًا، إذ تطيل أمد الحرب، وهو

ما يهدف إليه العراق. والحل الوحيد في رأيي هو الحسم العسكرى السريع حتى لا يفلت زمام الأمور من يد القوات الدولية وتزداد الخسائر. هذا حل صعب على النفس، ولكنه الشر الذى لابد منه، خاصة فى ظل امتلاك العراق لبعض أسلحة الدمار الشامل. وطبقًا لما أعلنته الولايات المتحدة فإن العراق أنفق ٥٠ مليار دولار على شراء الأسلحة و٣٠ مليار دولار أخرى على تخزينها، وأخشى ما أخشاه هو أن يستخدم العراق أسلحة الدمار الشامل التى يملكها، ففى هذه الحالة يكون قد كتب للعراق الهلاك، لأنه سيضطر القوات الدولية لاستخدام ما لديها من أسلحة مماثلة، بل أشد فتكًا، وبما أن المعركة فوق أراضى العراق فإن النتيجة المتوقعة فى هذه الحالة هى محو هذا البلد من الوجود.

ومن الأمور التى تدعو للأسف أن صدام حسين كانت لديه فرصة نادرة لأن يصبح زعيمًا عربيًا لم تعرفه المنطقة منذ أيام صلاح الدين الأيوبى. وذلك لو أحسن التصرف فى أموال البترول العراقى، ووجه جهده لحل مشكلات المنطقة الحقيقية، واستخدم قوته للضغط على إسرائيل، بدلاً من توجيهها لتهديد أمن جيرانه العرب، وللأسف انقلب صدام بدلاً من ذلك إلى العدوان على جيرانه وتهديدهم، والغريب أن إسرائيل كانت أكثر عقلانية وحكمة فى هذه الأزمة، فرغم أن صدام حسين قام بضرب تل أبيب لأول مرة منذ إنشائها، فإنه لم يحقق أى نتيجة إيجابية. اتخذت إسرائيل جانب الاتزان، ليس حبًا فى الاتزان، ولكن بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية، وكسبت التعاطف الدولى، وظهرت أمام العالم بمظهر الحمل الوديع. لقد اغتبط بعض البسطاء من عامة الناس فى العالم العربى لتلك الصواريخ التى سقطت على تل أبيب، واعتبروا ذلك نصرًا للعرب، على أساس أنها المرة الأولى فى تاريخ دولة إسرائيل التى يضرب فيها العرب عاصمة إسرائيل، ولم يكن ذلك ضعفًا من القادة السابقين، فقد كان بإمكان عبد الناصر أن يضربها، وتوافرت للسادات فرصة تاريخية نادرة للزحف إليها وتكسير أبوابها، ولكنه رفض نصيحة رئيس أركانه الفريق الشاذلى. ذلك أن السادات كان يقدر العواقب كما قدرها عبد الناصر، لأن إحدى النتائج المحتملة أن تضطر إسرائيل لاستخدام ما لديها من أسلحة نووية، وهنا تحدث كارثة يعم تأثيرها على الجميع.

وإذا فقد حاكم العراق عقله واستخدم ما لديه من أسلحة فتاكة فقل: «على العراق السلام»!. وأتوقع ألا تدخل إسرائيل طرفا فى المعركة لأنها من الذكاء بحيث تدرك أن هذا هو منتهى أمل صدام حسين. فالنتيجة المتوقعة هى أن تتحول المنطقة كلها إلى ساحة قتال،

بل ربما إلى حرب عالمية ثالثة. وما يردده العراقيون عن تحويل الأزمة إلى فيتنام فى السابق، أمر غير وارد، بل هو احتمال مستحيل، لأسباب عديدة منها أن طبيعة الأرض بما تحويه من غابات وعرة فى فيتنام كانت تساعد أهلها على قتال الأمريكيين. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الاتحاد السوفيتى كان يزود الفيتناميين بأحدث الأسلحة التى لم تكن تقل قوة عن السلاح الأمريكى. بل يمكن القول إن السوفييت هم الذين كانوا يحاربون القوات الأمريكية فى فيتنام، أما العراق فمعزولة ولا تجد دولة قوية تساندها بهذا الشكل. وفى الحرب الحالية فى الخليج ليس هناك مجال للشائعات والأخبار الكاذبة والضحك على الشعوب والرأى العام، ففى أثناء الحرب الفيتنامية كان ربع الأخبار فقط صحيحًا والباقى مجرد شائعات. أما الآن فلا مجال للشائعات أو التخمينات، فمن يشاهد شبكة الـ CNN كأنه يشاهد المعارك من ساحة القتال.

ما تفسير الموقف الذى اتخذه حزب العمل المصرى بالوقوف إلى جانب العراق؟...
أولاً: لست مع التفسيرات السهلة التى تدعى أنه حصل على أموال من العراق، وأن زعماءه عملاء للعراق، ذلك أن منهم من له تاريخ ومواقف مشرفة. والأمر الذى لا شك فيه أن الأزمة سببت انقسامًا عربيًا على مستوى الدول، وعلى مستوى الشعب الواحد، وذلك نتيجة اختلاف الرؤى، فهناك فريق تمسك بالمبادئ، وفريق آخر غلّب المصلحة عليها. وفى اعتقادى أن الموقف الحاد الذى وقفه حزب العمل وجريدة «الشعب»، هو نوع من الديمقراطية المغالى فيها، ذلك أن وقت الحرب يحتاج إلى نوع من الانضباط، ولا يتحمل أبدًا الاختلاف الحاد. بدليل أنه فى إنجلترا أم الديمقراطية فى العالم دخل بعض كبار المفكرين السجن، لأنهم جاهروا برأى مخالف أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما طالبوا بوقف الحرب، وعارضوا موقف حكومة إنجلترا وسخروا منها.

رغم ما سببته أزمة الخليج من خسائر فادحة للعرب على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإننى متفائل بالنسبة لنتائجها بعيدة المدى. ذلك أن الأزمات الطاحنة التى تمر بها الشعوب، تجعلها تعيد التفكير فى أوضاعها، وتسعى إلى تجديد نفسها، فقد أدت هزيمة العرب فى حرب ١٩٤٨ إلى تغيير الأوضاع الخاطئة فى عديد من الدول العربية. كذلك أثبتت أزمة الخليج بما لا يدع مجالاً للشك ضرورة التعاون العربى، ليس فى إطار الجامعة العربية، لأنه أصبح صعبًا بعد الانشقاق الذى أحدثته الأزمة، ولكن فى إطار مجموعة الدول القادرة على حماية الأمن القومى العربى، والتى تتوافر فيها

الثروات البشرية والطبيعية. وأتوقع أن تكون مصر وسوريا ودول مجلس التعاون الخليجى هى نواة هذا التعاون، لحين انضمام دول أخرى بعد تضميد الجراح.

من نتائج الأزمة الإيجابية أيضًا أنها أكدت لإسرائيل أن تعنتها فى الحل السلمى لم يعد مستساغًا، وأن شعورها بالقوة والتفوق هو شعور زائف. كانت إسرائيل قبل الأزمة لديها اقتناع بأن العرب أمامهم مائة عام على الأقل حتى يقفوا أمامها موقف الند، ويصلوا إلى مستوى من التقدم العسكرى والتكنولوجى يمكن أن يهدد أمنها، وجاءت حرب الخليج لتثبت للإسرائيليين أنهم يعيشون فى وهم، فقد ظهر من يهدد أمنهم ويضرب قلب تل أبيب دون أن تمر كل هذه السنوات التى توقعوها. وأظن أن هذا الدرس سيجعل إسرائيل مضطرة للسير فى طريق السلام وتصفية خلافاتها مع العرب.

وماذا عن الموقف الأمريكى؟... ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن دفاعًا عن المبادئ والشرعية بقدر ما هو حماية لمصالحها فى المنطقة، ولحسن حظها جاء موقفها متوافقًا مع إرادة أهل المنطقة، ورغبتهم ومصالحهم، وهذا التوافق لم يحدث فى تاريخ العلاقات الأمريكية ـ العربية إلا نادرًا. والذين هاجموا الموقف الأمريكى من الأزمة لم يكن رأيهم موضوعيًا، بقدر ما كان هذا الرأى ناتجًا عن تأثير رواسب قديمة. وبفعل الكراهية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب تأييدها المطلق لإسرائيل. الذين عارضوا الموقف الأمريكى من الأزمة مازالوا يعيشون فى الماضى، ولا يريدون أن يتأقلموا مع المتغيرات العالمية الجديدة. فلو أحسن العرب التعامل مع الولايات المتحدة فمن الممكن أن يغيروا موقفها تجاه إسرائيل، أو يكفلوا على الأقل تعاملها على قدم المساواة معهم. فالعداوة الآن ليس لها ما يبررها، وأشعر بالدهشة من الذين يصورون الولايات المتحدة ليل نهار على أنها العدو الأول للعرب. على الرغم من أن هذا «العدو الأول» يقدم لمصر سنويًا منحة قدرها ٢,١ مليار دولار ويزودنا بخبراء وخبرات فى مجال التنمية، ويقدم لنا السلاح، ويساعدنا فى التوصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية، فإذا كانت هذه هى العداوة فمرحبًا بها.

معاداة أمريكا الآن هى بطولة زائفة وحماقة ليس لها أى مبرر، وواجب العرب أن يستفيدوا من الوضع الحالى الذى تتوافق فيه المصالح الأمريكية مع مصالحهم. فماذا يضيرنا لو ارتبطنا بصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ما دام فى ذلك مصلحتنا؟ فإذا كانت مصلحة مصر أن ترتبط بعلاقات طيبة مع دول حوض النيل حتى تضمن عدم العبث بحصتها من المياه، فماذا يمنعها من الارتباط بعلاقات مماثلة مع الولايات المتحدة إذا كان فيها الخير لها؟

من الواضح أن كلمة «مصلحة» اكتسبت سمعة سيئة على مدار القرون الماضية، وباسم هذه الكلمة ارتكبت أبشع جنايات فى التاريخ: استعمار وحروب ومكائد وخديعة. واعتاد الرجل العادى على وضع كلمة «مصالح» فى مقابل كلمة «مبادئ»، بينما إذا سألت نفسك ماذا تعنى مصلحة الدولة؟، فإن الإجابة ببساطة هى: المقومات الأساسية التى تبنى عليها حضارة تلك الدولة، مثل مياه النيل بالنسبة لمصر، أو البترول بالنسبة للدول الغربية. إذن المصلحة فى حد ذاتها خير مطلق ولا توجد مصلحة شريرة وأخرى خيّرة، ولكن الشر يكمن فى الطرق والوسائل السيئة التى يتم اللجوء إليها للمحافظة على المصلحة، أو المبالغة فى المحافظة عليها، على حساب مصالح الآخرين. بعض الدول تعتبر هذا الأسلوب مشروعًا فى ظل المنافسة العنيفة والصراع الشديد الذى يحكم العالم اليوم، وأعتقد أن تلك الأساليب غير الأخلاقية فى طريقها للزوال.

الذين وقفوا إلى جوار العراق فى هذه الأزمة برروا موقفهم بمبررات عديدة منها، أن الاستعمار هو الذى صنع تلك الدول الخليجية الضئيلة المساحة والسكان مثل الكويت وغيرها، ويرون أن هذه الدول لا تستحق أن تكون دولاً منفصلة، والأفضل للعرب دمجها فى دولة واحدة، وهو ما حاول العراق تنفيذه، فلماذا تقفون ضده؟ تبرير آخر، وهو أن حكام الكويت فضلوا استثمار أموالهم فى أوروبا وأمريكا وحرموا منها الدول العربية.

ويمكننى الرد على المبرر الأول بأن وجود تلك الدول سبق اكتشاف البترول بحقب طويلة. وكانت فى الأصل عبارة عن قبائل، ثم تحولت بمرور الزمن إلى إمارات، واتخذت أسماءها الحالية. وفى أوروبا نفسها حدث هذا التحول، حتى وصلت الدول إلى شكلها الحالى، ثم إن المجتمع الدولى اعترف بتلك الدول، وأصبح لها سفارات وممثلون فى كل دول العالم، ولا يمكن محوها بهذه السهولة.

أما قيام الكويت باستثمار أموالها فى أوروبا وأمريكا، فلها كل الحق فى ذلك، أولاً: لأن المناخ السياسى والاقتصادى القائم فى العالم العربى لا يصلح للاستثمار. وكيف يصلح الاستثمار فى دول تصادر أموال أبنائها وتضعها تحت الحراسة؟، وليس فيها الأمان السياسى الذى هو الشرط الأول للاستثمار! وثانيًا: إن صاحب رأس المال يهمه أن يستثمر أمواله فى المكان الذى يعطيه أكبر عائد، وهكذا فعلت الكويت. وثالثًا: فإن الكويت لم تقصر فى حق جيرانها وأشقائها فى العالم الثالث وليس فى العالم العربى فقط، وكان لها صندوق للاستثمار يساهم فى تنمية الدول العربية والإفريقية أيضًا. وإذا كان هناك مجال

للوم فيجب أن نوجهه إلى أنفسنا أولاً، لأننا صنعنا بأيدينا مناخًا ساهم فى هروب رؤوس الأموال الوطنية المصرية للخارج، ويقدرها الأستاذ محمد حسنين هيكل بحوالى ١٢٠ مليار جنيه. ثم بعد ذلك نحاول تبرير أخطائنا بتعليقها على شماعة القوى الأجنبية، وكيف أنها تعمل جاهدة على خلق مناخ مضطرب في المنطقة حتى تمنعها من الاستقرار ولا تعطيها الفرصة للتفكير فى التنمية والتقدم!!... كلها مبررات واهية نحاول بها خداع النفس وإسكات الضمير.

ومن مصلحة الغرب الآن أن تتقدم ما تعرف بدول العالم الثالث، أن تنهض هذه الدول، وتقول الوداع لعصور البداوة والتخلف، فهو بذلك يجعل منها سوقًا لصناعاته ومنتجاته التكنولوجية المتقدمة، فكيف تكون سوقًا وأهلها يعيشون فى عصر الخيام والجمال والإبل؟.

المؤيدون للعراق يقولون فى سياق حججهم إن الولايات المتحدة الأمريكية تكيل فى سياستها الخارجية بمكيالين. فقد جندت كل طاقتها وعبأت حلفاءها الغربيين لنجدة الكويت وتطبيق قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية. فلماذا لم تفعل نفس الشيء بالنسبة للقضية الفلسطينية وهناك قرارات صريحة من مجلس الأمن تطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة؟ وبالفعل توجد قرارات دولية بشأن القضية الفلسطينية، ولكن هذه القرارات صدرت فى وقت كان العالم منقسمًا فيه إلى معسكرين كبيرين متنافرين. وبعد زوال النظام القديم وميلاد نظام عالمى جديد، أصبحت فيه الولايات المتحدة سيدة العالم بلا منازع، يجب أن نحكم على مواقف أمريكا ابتداء من هذا الميلاد. وكان أول اختبار حقيقى لها هو أزمة الخليج، وعندما تنتهى هذه الأزمة نطرح القضية الفلسطينية إلى دائرة الضوء وعندها نحكم على الموقف الأمريكى.

إن شخصية الرئيس العراقى صدام حسين مثيرة للجدل والخلاف، ورغم ما قيل عنها وفيها، فإن انطباعاتى الشخصية عنه أنه زعيم وطنى شعبى، قدّم للعراق إنجازات لم يقدمها حاكم قبله. وهو فى هذا الإطار يقترب إلى حد كبير من شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، وفى المقابل توجد اختلافات شديدة بينهما أيضًا .. فصدام حسين لا يقدر عواقب قراراته، وهو رجل يستخدم كل أساليب العنف ضد خصومه، أما عبد الناصر فكانت كل أهدافه شريفة، وعيبه الأساسى أنه لم يستطع الموازنة بين تلك الأهداف وما يملك من قوة.

والخلاصة أن أزمة الخليج كشفت عن عمق المحنة التى يعيشها العالم العربى. وهى

محنة حضارية فى الأساس، أكدت أننا لم نصل بعد للمستوى الذى يؤهلنا للحياة فى هذا العصر. والطريق الوحيد لعبور هذه المحنة يتمثل فى الديمقراطية الصحيحة، واحترام حقوق الإنسان العربى ومنحه الفرصة فى الحياة الحرة الكريمة[1].

* * *

(١) تم هذا الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ كما سبق أن ذكرت فى مقدمته بعد خمسة أيام من بدء حرب الخليج الثانية فى فبراير ١٩٩١، والآن وبعد مرور سبع سنوات على انتهاء هذه الحرب، حدث تحول فى الرأى العام العربى لابد من الإشارة إليه، فقد أصبح هناك تعاطف واسع مع العراق، ولم تتمكن أمريكا من توجيه ضربة عسكرية للعراق، بعد أن أعدت لهذه الضربة إعدادا كاملا فى يناير ١٩٩٨، وذلك لظهور معارضة عربية قوية وشاملة لهذه الضربة، كما أن جزءا مهما من الرأى العالمى حتى فى أمريكا نفسها قد عارضها أيضا، ووقفت ثلاث دول كبرى ضدها بشكل صريح وهى: روسيا والصين وفرنسا، وأصبحت ظروف العراق المأساوية فى ظل حصار دام حتى الآن سبع سنوات موضعا للاستنكار والرفض فى العالم العربى وفى كثير من بلاد العالم المختلفة.

الفصل الثالث والعشرون

متفرقات

الحشيش والنكتة فى مصر ـ المقاهى فى حياتى مخزن ضخم للأفكار والشخصيات ـ الكتابة بين دخان السجائر وأنغام الموسيقى ـ حكايتى مع المرض طريفة ومريرة ـ رياضة المشى ـ حسين حجازى وفريق «قلب الأسد» ـ دم سلمان رشدى ـ ثورة يوليو تخلصنى من الطربوش! ـ اللقاء الأخير مع سيد قطب ـ «العائش فى الحقيقة» ـ الفرعونيات ـ صديقى الكلب «جاك» ـ حكايتى مع الجنرال «بيليد» الإسرائيلى ـ العضو الوحيد ـ سنوات العقم ـ لقاء مع آرثر ميلر ـ عضو الكونجرس فى مقهى على بابا ـ رواياتى فى أيدى السياح ـ النكسة واللامعقول ـ أنا وماركيز ـ لم أحرض على قتل السادات ـ الإسلام والغناء ـ الحرافيش ـ حكاية عن الشرقاوى ـ اعتماد خورشيد وكتابها ـ موسيقى «الثلاثية» ـ لغة بيرم التونسى ـ عشت فى عوامة على النيل سبع سنوات ـ خطاب من جاكلين كنيدى.

■ كان الحوار مع نجيب محفوظ يتناول أحيانًا بعض الجزئيات المتفرقة، والتى لا تدخل ضمن الموضوعات الرئيسية لفصول الكتاب المختلفة، وهذه المتفرقات لها قيمتها وطرافتها وعذوبتها الخاصة بها، كما أن هذه المتفرقات تلقى بعض الأضواء الكاشفة على الجانب الإنسانى فى شخصية نجيب محفوظ، وتقدم لمحات من بعض تجاربه الخاصة وأفكاره ومشاعره حول الحياة والناس، وتضيف هذه المتفرقات خطوطًا مهمة إلى اللوحة الفنية المتكاملة التى رأيناها لنجيب محفوظ فى الفصول السابقة، وفى هذه المتفرقات يتحدث نجيب محفوظ فى إشارات خاطفة وسريعة ولكنها عميقة وممتعة، ومن هنا كان الحرص على جمع هذه المتفرقات فى فصل خاص ومستقل من فصول هذا الكتاب..■

الحشيش والنكتة

نجيب محفوظ: يقال إن الصوفيين هم أول من اكتشف «الحشيش» واستخدموه، بعد أن وجدوا أنه يعطيهم شعورًا «بالانبساط» والتبسط، مما يساعدهم ويسعفهم فى تجربة التجلى والوصول. وفى بدايات هذا القرن، كان «الحشيش» من المواد المحتقرة فى مصر، ولا يستخدمه سوى «أراذل» الناس، ولا تقربه الفئات المحترمة. وكانت كلمة «حشّاش» تعنى أن صاحبها أقرب إلى فئات الحرامية والنشالين، ثم انقلب الوضع. فعندما قامت الحرب العالمية الأولى اختفت الخمور الجيدة من السوق، ولم يكن أمام الفئات العليا من المجتمع إلا استخدام الحشيش، وأصبح فى بيوت كثيرة «غرزة» صغيرة للحشيش بدلاً من البار. وساعد على انتشار الحشيش أنه لم يكن ممنوعًا بحكم القانون، بل كان الناس يدخنونه فى المقاهى، وأكثر عقوبة لحشّاش، هى الغرامة وكانت قروشًا معدودة.

والطريف أن أحد أنصار الحشيش وكان رئيسًا لإحدى الجمعيات الخيرية بمصر وهو «الدكتور غلوش»، قام بحملة منظمة فى الصحف للدفاع عن الحشيش، ولبيان عدم وجود أضرار له. وكانت وجهة نظر «الدكتور غلوش» هى: كيف تبيح الحكومة تناول الخمور وتحرم الحشيش وهو أقل ضررًا وخطورة؟. كان ذلك بعد أن شددت الحكومة عقوبة «تعاطى» الحشيش، وقيل وقتئذ إن الإنجليز هم الذين أوعزوا للحكومة بتغليظ العقوبة،

بهدف الترويج للخمور الإنجليزية. وقد التقيت مع « الدكتور غلوش» وجلست معه عدة مرات، ووجدت فيه شخصية ظريفة جدًا، كما قرأت له مقالات عديدة فى الصحف دفاعًا عن الحشيش. وأوضح لى الدكتور أدهم رجب فيما بعد صحة أقوال الدكتور غلوش، فيما يتعلق بعدم وجود أضرار للحشيش. وكل ما فى الأمر أن الحشيش يؤدى إلى احتراق كمية كبيرة من السكر فى الدم، والعلاج أو الوقاية هنا من الأمور البسيطة، ويتركز ذلك فى التغذية الجيدة.

وفى رأيى أن مساواة الحشيش بالمواد المخدرة الأخرى التى انتشرت مؤخرًا مثل «الهيروين» ليس بمنطقى، لأن «الهيروين» من المواد التى تدمر الجسم وتقضى على عقول الشباب. وربما كان سيد درويش من أوائل الذين تنبهوا إلى هذا الفارق، فعندما لحن أغنية عن «الكوكايين» هاجمه بشدة وحذر من خطورته، وأذكر أن عددًا من كبار الكتّاب السياسيين مثل عباس محمود العقاد، شنوا حملة شديدة على تعاطى «الكوكايين»، عندما بدأ فى الانتشار فى فترة ما بين الحربين العالميتين. وعندما غنى سيد درويش للحشيش فى أغنيته المعروفة عن «الحشاشين» لم يهاجمه أحد، وكانت كلمات هذه الأغنية فيها نوع من البهجة والسخرية، ولا يقف سيد درويش ضد الحشيش إلا عند الشدائد والأزمات الوطنية. وأقول هنا إنه يجب إعادة النظر فى العقوبة الخاصة بالحشيش، فربما تؤدى إلى التخفيف من خطر المخدرات وصنوف الإدمان الرهيبة الأخرى.

وعن طريق صديقى «الشماع» الذى كان يعمل فى الغورية، عرفت «الحشيش»، وفى ذلك الوقت، كان تدخين الحشيش يتم بصورة علنية فى المقاهى كما أشرت. حتى أننى أذكر أن «الشماع » كان يجلس فى مقهى «على يوسف»، وينتظر حتى يأتى «عسكرى الدرك» الموجود فى الشارع حتى يشرب معه «التعميرة»!. وفى اعتقادى الشخصى أن الأوضاع السيئة التى عاشها الشعب المصرى، وما تعرض له من ظلم وقهر، كانت سببًا أساسيًا فى إقباله على «الحشيش». لأنه وجد فيه نوعًا من المسكِّن لآلامه وأوجاعه، يخفف عنه ولو لساعات، ما يمر به من هموم وأزمات، حتى أصبح تدخينه بالنسبة لهم عادة شعبية مثل شرب الشاى والقهوة. وأكاد أقول إنه ما من مصرى من أولاد البلد إلا ويحمل صفة «حشّاش»، إلا إذا كانت هناك ظروف قهرية منعته، حتى أن غير القادر منهم تجده على استعداد لأن يخدم فى «الغرزة» مقابل «نفَسين»!!.

كان الحشيش للشعب المصرى نعم الصديق، لأنه خفف عن الناس المرارة التى

يعيشونها فى نهارهم، وكان بمثابة المسكِّن للأوجاع فى الليل. وساعد على انتشار الحشيش بين جماهير الشعب خاصة الطبقات الفقيرة، أنهم لا ينظرون إليه نظرة التحريم الدينى التى يرونها فى الخمر. فالإنسان المصرى لديه استعداد لأن يدخن الحشيش ولكنه لا يتناول البيرة مثلاً، رغم أنها أخف أنواع الخمور، وذلك لاعتقاده أنه لا يوجد نص دينى قاطع يحرّم الحشيش بالتحديد.

وترتبط بالحشيش ظاهرة ميزت الشعب المصرى وجعلته يشتهر بها بين أمم الأرض وهى النكتة. فالثروة الكبيرة من «النكت» مرتبطة بالحشاشين، والنكتة هى الفن الوحيد فى مصر الذى ليس له مؤلف محدد، لأن تأليفها يأتى جماعيًا، وغالبًا ما يأتى فى «قعدة حشيش»، وحين تنتشر النكتة يهتم الناس بمضمونها، ولا يهتمون أبدًا بمصدرها. وقد يقال إن فن السخرية والتنكيت يولد مع القهر، وفى رأيى أن هذه الظاهرة تكاد تقتصر على الشعب المصرى وحده. فهناك شعوب كثيرة تعرضت للقهر مثل الشعب الروسى، ومع ذلك لا تجد عندهم فن السخرية والتنكيت كما هو الأمر لدينا. وربما يكون هذا راجعًا إلى طبيعة الشعب الروسى الذى يميل إلى الانكماش والعزلة، على عكس الشعب المصرى الذى يميل إلى الانفتاح والمشاركة ومحبة الحياة فى جماعات. والظاهرة الغريبة فى الشخصية المصرية أن لديها الاستعداد للسخرية والضحك والتنكيت فى عز المآسى والكروب، وطالما سخروا من حكامهم بالأغانى والنكتة، وهذا مرجعه فى رأيى إلى أن الإنسان المصرى لا يميل إلى العنف وتغيير الأوضاع بالقوة، ولا يثور إلا إذا فاض به الكيل، فتكون الثورة حينئذ هى الحل الأخير.

حياتى فى المقاهى

لعبت المقاهى دورًا كبيرًا فى حياتى، وكانت بالنسبة لى مخزنًا بشريًا ضخمًا للأفكار والشخصيات. ومن أوائل المقاهى التى جلست عليها فترة طويلة من حياتى قهوة «قشتمر»، وكنت وقتذاك من سكان العباسية، ولى فيها شلة ضخمة، جمع بين أفرادها، حب كرة القدم وحياتنا فى نفس الحى كجيران، ولم يكن لأعضاء هذه الشلة أى علاقة بالأدب.

كانت قهوة «قشتمر» تبتعد عن قهوة «عرابى» الشهيرة بمسافة محطة ترام واحدة، ويوجد موقعها على ناصية شارع يؤدى إلى حى الظاهر، واسم هذا الشارع هو «قشتمر»، فسمي

المقهى باسمه.. وحسب معلوماتى فإن «قشتمر» هذا اسم وزير مملوكى.. ولم نكن وقتئذ نجرؤ على الجلوس فى «قهوة عرابى» لأن أساتذتنا وآباءنا والجيل الأكبر منا كانوا يجلسون عليها. ولما ذهب ذلك الجيل السابق علينا، وتقدم بنا العمر، أصبحنا ـ نحن شلة العباسية ـ من رواد قهوة «عرابى».

أما ندوة «الأوبرا» فترجع بداياتها إلى سنة ١٩٤٣، وكانت عبارة عن جلسة عادية، ثم أخذت تتسع، حتى تحولت إلى «ندوة» يؤمها الأدباء والمثقفون، وتطرح فيها الكتب والأعمال الفنية للمناقشة. استمرت الندوة منتظمة لعدة سنوات لم يعكر صفوها شىء، حتى جاء يوم تقرر فيه أن يمر موكب الرئيس عبد الناصر مصطحبًا ضيفًا أجنبيًا من ميدان الأوبرا، فى طريقه إلى الجامع الأزهر، واقتضت إجراءات الأمن تأمين طريق الموكب. ولاحظ المخبرون أن هناك عددًا كبيرًا من «الأفندية» يفدون إلى الكازينو، وفوجئنا بضابط برتبة كبيرة، يتجه إلينا مستفسرًا عن أسباب وجودنا معًا وبكل هذا العدد. أخبرنا الضابط أنها «ندوة» أسبوعية اعتدنا على إقامتها منذ عام ١٩٤٣، ولم يسترح الضابط لهذا التبرير، ووزرع مجموعة من المخبرين على منافذ الكازينو المطلة على الشارع. وأثناء مرور الموكب وقفنا جميعًا فى النوافذ لتحية الرئيس عبد الناصر ورددنا هتافات مؤيدة له. وبعد مرور الموكب بسلام جاءنا الضابط مرة أخرى ليبلغنا بأن أى تجمع يزيد على خمسة أشخاص لابد أن يحصل على تصريح من قسم البوليس التابع له مكان الاجتماع. ونبهنا إلى ضرورة الحصول على «إذن» كل أسبوع إذا أردنا أن تكون ندوتنا قانونية. وبالفعل قبل موعد الندوة كان يذهب أحد روادها إلى قسم عابدين للحصول على التصريح، وأصر مأمور القسم حتى يأذن لنا، بأن نسمح لأحد المخبرين بحضور الندوة، ليقوم بكتابة تقرير عما دار فيها من أحاديث ومناقشات. المضحك فى الأمر أن المخبر كان يجلس مثل الكرسى لا يفهم شيئًا، فكيف يصل تفكير «مخبر سرى» محدود الثقافة والإدراك إلى فهم أحاديث حول «كافكا» و «سارتر» و «كامى» وأشباههم من كبار الكتّاب العالميين. وفى إحدى المرات فوجئت بالمخبر السرى فى نهاية الندوة يتعلق بثيابى ويرجونى متوسلاً، أن أساعده فى كتابة التقرير الذى سيرفعه للمأمور، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلناه، ويخشى أن يتعرض للعقاب، إن هو عاد إلى القسم خالى الوفاض، ولم ينجز ما عهد إليه. وبالفعل كنت ألخص له الندوة، وتدريجيًا كدت أتحول إلى مخبر سرى. وذات مرة أرسلنا عبد الله الطوخى إلى قسم عابدين للحصول على التصريح المعتاد، ويبدو أن اسم الطوخى

كان مدرجًا على القائمة السوداء بوصفه شيوعيًا، فلم يمنحوه التصريح المطلوب، وبدأنا نتعرض لمضايقات. وكان من رواد الندوة محام معروف وقتذاك اسمه «هارفى أسعد» نصحنى بنقل الندوة إلى مكان آخر، واقترح مكانًا يعرفه ويثق فى أنه سيعجبنى، واصطحبنى إلى مقهى «ريش». أعجبنى المقهى ونقلنا إليه الندوة، ولكن واجهتنا بعد فترة مشكلة من نوع جديد، وهى أن المقهى يرتاده عدد كبير من الأدباء والمثقفين فى مصر، فكانوا يختلطون بأعضاء ندوتنا الأصليين، وأصبح من الصعب إقامة الندوة، وكان لابد من البحث عن مكان جديد. وبعد البحث والتقصى استقرت الندوة فى كازينو «قصر النيل»، حيث استمر عقد الندوة لفترة طويلة.

من أغرب المقاهى التى شاهدتها فى حياتى «قهوة أحمد عبد الله» فى خان الخليلى. ووجه الغرابة أنها كانت تحت الأرض، كنا نجلس فيها ونرى من نوافذها الناس وهم يمشون فوقنا. وكانت تأخذ الشكل الدائرى، وفى وسطها فسقية، ومحيط الدائرة عبارة عن حجرات صغيرة، كل حجرة بها منضدة وعدد من الكراسى. وكانت «قهوة أحمد عبد الله» شهيرة بأنها تقدم أحسن شاى فى مصر، ومن إعجابى بها ذكرتها بالاسم فى «الثلاثية». وقد حضرت تأسيس هذه القهوة وكنت وقتذاك فى مرحلة الطفولة، وذهبت لأشاهد العمال وهم يضعون الأساس لها، وأخذتنى سنة من النوم وأنا أجلس فى مدخلها، واستيقظت مع دخول الليل، بعد أن نبهنى أحد العمال.

الكتابة بين دخان السجائر وأنغام الموسيقى

اختلف النظام الذى أتبعه فى الكتابة باختلاف المراحل التى مررت بها فى حياتى، وهى ثلاث: مرحلة الوظيفة، ومرحلة ما بعد المعاش، ومرحلة ما بعد جائزة نوبل. فى مرحلة الوظيفة كنت أفرغ من عملى فى الثانية ظهرًا وأعود إلى البيت لتناول الغداء ثم أستريح لبعض الوقت، ثم أجلس على مكتبى عندما تدق الساعة الرابعة، وأبدأ بالكتابة لمدة ثلاث ساعات، ثم تليها ثلاث ساعات أخرى للقراءات المتنوعة. وكنت أبدأ بالكتابة أولاً، لأننى إذا جعلتها بعد القراءة، فلن أنام الليل، لأن الكتابة تصيبنى بصداع يتلوه الأرق، وكان علىَّ أن أستيقظ مبكرًا لألحق بمواعيد العمل، وكان الموظف فى تلك الأيام ملتزمًا إلى أقصى درجات الالتزام، لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك.

لم يكن جلوسى اليومى للكتابة بالأمر السهل، لأنه يقتضى أولاً أن يكون موضوع الكتابة قد تخمّر فى ذهنى، وكان هذا الأمر يجعلنى فى حالة تفكير مستمر، أثناء وجودى فى الوظيفة، وفى أوقات العمل، وفى أثناء المشى، وحتى فى وقت تناول الطعام، وفى كل مرة تأتينى تفصيلة من جسم الرواية، وما الرواية إلا مجموعة تفاصيل صغيرة تتجمع وتكوّن العمل الروائى فى النهاية.

الجلوس للكتابة يقتضى كذلك أن يكون لديك الاستعداد النفسى لها، وفى البداية كنت أجد صعوبة فى تهيئة نفسى للكتابة، وأظل ممسكًا بالقلم لمدة ساعة كاملة بدون أن أكتب كلمة واحدة، ومن خلال التعود، وممارسة هذا النظام الصارم، أصبح الاستعداد للكتابة يأتينى بمجرد الجلوس على المكتب، خاصة عندما يكون الموضوع قد اختمر فى ذهنى واستوى ولم يبق إلا تفريغه على الورق. فى بعض الأحيان كنت أسجل بعض الملاحظات والأفكار العابرة التى تأتينى أثناء وجودى خارج المنزل، فى ورقة صغيرة حتى لا أنساها، وكنت أهتم بتسجيل هذه الملاحظات خلال فترة اهتمامى بالكتابة الواقعية. أجلس على المقهى مثلاً، فتجذب اهتمامى ملاحظات وتفاصيل صغيرة كانت تفيدنى أثناء الكتابة. وفى مرحلة لاحقة لم يعد لتلك التفاصيل نفس الأهمية، حيث انصب اهتمامى الأكبر على الفكر والتأمل.

وفى مرحلة الوظيفة كنت أمنح نفسى إجازة من الأدب يومى الخميس والجمعة، إلى جانب الإجازة الإجبارية السنوية طوال شهور الصيف بسبب الحساسية التى تصيب عينى. وكانت تلك الإجازة تمتد من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، أى خمسة شهور كاملة، كنت ممنوعًا فيها من الكتابة، ولولا اضطرارى للقراءة والكتابة أثناء عملى الوظيفى، لامتنعت عنهما نهائيًا خلال هذه الشهور الخمسة. وقد استأذنت طبيبى المعالج الدكتور «الطاروطى» فى هذا الاستثناء، فوافق على مضض، لأنه لم يكن يحبذ أى إجهاد للعين طوال هذه الشهور.

ترتبط الكتابة عندى بعادتين، الأولى: هى التدخين الذى مارسته منذ أن كنت طالبًا فى المرحلة الثانوية واستمر معى حتى الآن. كنت فى البداية أدخن الشيشة، ثم وجدت أنها غير عملية، ففى أثناء الكتابة، كنت أضطر إلى التوقف، وأضع «الروب دى شامبر» فوق البيجامة التى أرتديها، وأنزل إلى المقهى لتدخين الشيشة. فلم يكن فى إمكانى تدخينها فى البيت، حيث لا أحد يساعدنى فى تجهيزها. فاستبدلت الشيشة «بالبايب»، واكتشفت بعد

فترة أن «البايب» يحتاج إلى خدمة مثل «الشيشة» ولم يكن أمامى سوى السجائر، فللأسف لا يوجد هناك ما هو أسهل منها. أنا لست من الذين يسرفون فى التدخين، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن أدخن أكثر من علبة سجائر واحدة فى اليوم، كما أننى أستغل أى فرصة لأوزع من هذه العلبة على الأصدقاء، وفى المقابل لا آخذ منهم، لأننى لا أغير النوع الذى أدخنه.

وإلى جانب السجائر أحب أن تكون هناك خلفية موسيقية أثناء الكتابة، أجعلها فى هامش الشعور ولا ألتفت إليها، ثم إننى لا أتناول أى مشروبات بما فيها الشاى والقهوة. ويدهشنى ما أسمعه عن بعض الكتّاب الذين يحرصون على تناول الخمر أو الحشيش، حتى يهيئوا أنفسهم للكتابة. فعندما أمسك بالقلم لابد أن أكون فى أقصى درجات الوعى والتركيز والانتباه. ثم إننى لا أستطيع الكتابة إلا على مكتبى فى البيت، أما خارجه فلا يمكننى الإمساك بالقلم، وكل أعمالى الروائية كتبتها فى البيت، باستثناء السيناريوهات، فأغلبها قمت بكتابتها على المقهى، وذلك لأنها لا تحتاج إلى نفس درجة التركيز التى تحتاجها الروايات.

عندما أشرع فى كتابة عمل روائى جديد أبدأ بكتابة المسودة بحرية وسرعة وتدفق، وفى الغالب فإن كتابة الرواية تستغرق شهرًا. أما بقية شهور السنة فأمضيها فى «التبييض»، والإبداع الحقيقى يكون فى العملية الأخيرة، هذا النظام سرت عليه منذ الرواية الأولى وحتى الرواية الأخيرة. مع ملاحظة أننى أعطى لنفسى فرصة من الوقت لا تزيد على أيام معدودة بين مرحلتى «التسويد» و «التبييض»، بحيث أكون خرجت خلال هذه الأيام من الحالة النفسية التى كنت عليها وأنا أكتب، واستعدت لياقتى الذهنية. وفى بداية حياتى الأدبية كنت أستخدم القلم الرصاص فى «التسويد» والقلم الحبر فى «التبييض»، وعندما ظهرت الأقلام الفلوماستر الجافة أعجبتنى، واستخدمتها منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

لم تكن الساعات الثلاث المخصصة للقراءة يوميًا ترتبط بما أكتب، حيث وضعت لنفسى نظاما فى القراءة، بحيث لا يمر عام إلا وأكون أخذت نصيبًا من كافة المجالات: فى التراث، والسياسة، والثقافة العامة، والثقافة العلمية، والأدب العالمى، وغير ذلك. ولم ترتبط الكتابة عندى بالقراءة إلا فى الفترة التى كتبت فيها الروايات الفرعونية، حيث اقتضى الأمر منى دراسة علم «المصريات»، خاصة وقد كان لدىَّ النية لكتابة تاريخ مصر بأكمله فى سلسلة من الأعمال الروائية، كما فعل «جورجى زيدان» فى تاريخ الإسلام.

وعندما خرجت إلى المعاش لم يختلف نظام الكتابة كثيرًا، حيث خصصت فترة الصباح للكتابة، فأذهب إلى المقهى مبكرًا، ثم أعود لأبدأ الكتابة ولمدة ثلاث ساعات. أما القراءة فكانت فى فترة ما بعد الظهيرة حتى بدايات الليل.

قبل حصولى على جائزة نوبل أصبت بضمور فى شبكية العين، مما جعل موضوع القراءة والكتابة من الأمور العسيرة والمرهقة، وسبب لى هذا الأمر إزعاجًا شديدًا، وهدم النظام الذى سرت عليه طيلة حياتى، بل لم يعد هناك نظام أصلاً. امتنعت عن القراءة نهائيًا، وأصبحت أقصى مدة أجلس فيها إلى مكتبى لممارسة الكتابة ساعة واحدة فى اليوم.

وقد يثير هذا النظام الدقيق الذى اتبعته فى حياتى بعض الاستغراب. ذلك أن هناك من يعتقد أن النظام الصارم يتناقض مع الأدب وما يرتبط به من إلهام، فالإلهام الفنى ليس له موعد أو ترتيب ولا يعرف النظام، وفى رأيى أن النظام لا يتناقض أبدًا مع الإلهام. ربما يحدث شىء من التناقض إذا كان الأمر يتعلق بالشعر، ذلك أن الشعر ليس له موعد، فقد يأتيك شيطان الشعر فى أى مكان، وفى وقت قد يكون الشاعر فيه غير مستعد للكتابة، ومن ثم لابد أن يكون على أتم الاستعداد لتسجيل ما يأتيه حتى ولو كان فى دورة المياه، أما بالنسبة لفن الرواية، فيمكن أن يحكمه النظام فى الكتابة، وهنا لا يحدث التناقض بين النظام فى العمل وحرية الإلهام. وتاريخ الأدب العالمى يقدم لنا نماذج عديدة ممن ساروا على نظام صارم فى حياتهم، مثل «جورج صاند»، التى كانت تبدأ الكتابة ليلاً ولا تنتهى إلا مع مطلع الصبح، وتنام ساعات النهار. وهناك «بلزاك» و «فلوبير» و «تولستوى»، كل منهم كان له نظام فى الكتابة، لم يتغير منذ أن أدركتهم حرفة الأدب.

رحلتى مع المرض

حكايتى مع المرض طريفة ومريرة فى الوقت نفسه، وكان أول مرض أصبت به فى حياتى هو الحساسية، ففى السنة التى أنهيت فيها دراستى الجامعية، وبعد حصولى على الليسانس، سافرت إلى الإسكندرية لتمضية الصيف، ثم عدت إلى القاهرة استعدادًا لتسلم وظيفتى. فشعرت فى تلك الأيام بتورم فى عينى، فظننت أنه من تأثير ماء البحر ورمال الشاطئ الناعمة، وذهبت لاستشارة طبيب عيون، فأخبرنى بأننى مصاب بالرمد الربيعى. ولم

أفهم المعنى، فشرح لى أن هذا المرض هو نوع من الحساسية يصيب العين فى إحدى سنوات العمر، ويشفى منه الإنسان، ولا يعود إليه المرض ثانية، وعالجنى بالمرطبات، وطمأنتنى شقيقتى رحمها الله، وعندما أخبرتنى بأنها أصيبت بهذا المرض مرة، ولم يعاودها بعد شفائها منه، ولكن فى السنة التالية أصابنى نفس المرض واستمر معى من أول الربيع حتى أوائل الشتاء. فذهبت إلى الطبيب مرة أخرى، فقال لى إن حالتى شديدة وقد تلازمنى خمس سنوات على الأكثر. ووصف لى قطرة ومرهما وبعض الأدوية، ونصحن بعدم القراءة والكتابة وارتداء نظارة لحجب الشمس والأتربة، طوال شهور المرض. وظللت على هذا الحال خمس سنوات، أشعر بأن عينى أغلقتا اعتبارا من أواخر شهر أبريل من كل عام، وبأنهما مليئتان بالأتربة من تحت الجفون. والتزمت بتعليمات الطبيب، وبعد مرور السنوات الخمس ذهبت إليه، فقال لى إن حالتى مزمنة، وقد تستمر حتى بلوغى سن الخامسة والثلاثين. ولم تتوقف الحساسية عند عينى فقط ولكنها امتدت إلى الجلد، وبدأت تظهر على جلدى بقع صغيرة تصاحبها نوبات من الحك المتصل. وقد أورثت بنتَىَّ الحساسية وتجدهما ممنوعتين من شرب اللبن ومشتقاته.

أما مرض السكر فقد أصبت به وأنا على مشارف الخمسين واكتشفته مصادفة، ففى أحد الأيام قرأت فى الصحف إعلانا عن شركة الشرق للتأمين، واتصلت بها هاتفيا لمزيد من التفاصيل عن بوليصة التأمين على الحياة ومزايا هذا التأمين، فجاءنى مندوب عن الشركة اسمه «فاروق المصرى» وطلب منى الذهاب إلى مقر الشركة فى اليوم التالى. وعندما ذهبت طلبوا منى الخضوع للكشف الطبى، وتم عرضى على إخصائى مرض السكر «الدكتور البدرى» الذى أحالنى إلى الدكتور «المسلمانى» إخصائى التحاليل الطبية التابع للشركة. وبعد يوم كامل من التحاليل الشاملة المعروفة باسم «كيرف» علمت أننى مصاب بمرض السكر، وأن نسبته فى دمى فوق الـ ٤٠٠، وهذه نسبة مرضية. رغم ذلك لم أكن أشعر بأى أعراض، ونصحنى الكاتب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله بضرورة العلاج على يد الطبيب الدكتور البدرى الذى كان صديقا له، وكان معروفا بحبه للأدب والأدباء، وأخذت فى التردد على الدكتور البدرى للعلاج. ثم بدأت أشكو من بعض الآلام فى الصدر والظهر، فطلب منى الدكتور البدرى التوجه إلى طبيب متخصص فى الروماتيزم، وذهبت إلى إخصائى فى هذا المرض، حيث حدد لى أنواعا من الأدوية. ولكننى قبل التوجه إلى الصيدلية لشرائها ذهبت للدكتور البدرى الذى قرأ الروشتة، وسألنى عما إذا كان طبيب

الروماتيزم علم بأننى مريض بالسكر؟. فقلت له: نعم، فغضب الدكتور البدرى وقال: «أما ابن كلب صحيح، كل الأدوية التى كتبها لك من شأنها أن ترفع عندك نسبة السكر»، وطلب منى شراء دواء اسمه «سيدال» لتناوله إذا ما فاجأتنى أزمة سكر، إلا أنه فى يوم ما التقيت بتوفيق الحكيم وشكوت له من آلام الروماتيزم وعلاجه، فقال لى: «بسيطة.. تناول قرص أسبرين صباحا وقرصا فى المساء». وبالفعل سرت على نصيحة الحكيم فشعرت بتحسن، وما زلت حتى الآن أعمل بنصيحته المفيدة.

اعتدت على الكشف الطبى الدورى ثلاث مرات فى السنة، تقلصت إلى مرة واحدة، ثم امتنعت نهائيا لأننى زهقت. والحقيقة أن مرض السكر اضطرنى لاتباع نظام غذائى قاس. ففى الصباح يكون إفطارى عبارة عن قطعة جبن قريش وبسكويت مخصوص لمرضى السكر بالإضافة إلى فنجان نسكافيه مع قليل من اللبن. أما الغداء فعبارة عن خضار وقطعة لحم وسلطة وربع رغيف، أما العشاء فهو مكون من فول مدمس وعلبة زبادى. وطوال اليوم لا أشرب سوى ثلاثة فناجين من القهوة السادة لأننى لا أتمتع بطعم السجائر بدون القهوة، وأحيانا أرتشف من الفنجان رشفة واحدة فقط. من بين المضاعفات التى سببها لى مرض السكر إصابتى بضعف فى السمع، ثم فقدت السمع فى أذنى اليمنى تماما. وعندما ذهبت للعلاج لدى الدكتور على المفتى أدركنى اليأس من علاجها نهائيا، فقد قال لى: «مفيش فايدة»!، وذهبت للدكتور «حندوسة» فقال لى نفس الجملة. كان الحل الوحيد هو وضع سماعة فى أذنى اليمنى وهو ما لجأت إليه وعملت واحدة فى مركز السمع. أيضا من مضاعفات مرض السكر أننى أصبت بضمور فى شبكية العين، وفقدت البصر فى عينى اليمنى تماما حوالى ثلاثين يوما، وبعد علاج مكثف عاد إليها نور ضعيف. وضمور الشبكية مع ضعف السمع، لم يعد يمكننى من مشاهدة التليفزيون أو المسرح، كما أنه يمنعنى من القراءة.

وبسبب مرضى الحساسية والسكر منعنى الأطباء من التعرض للشمس وأكل الحلويات وأنواع عديدة من الفاكهة مثل البلح والتين والعنب والمانجو، لأن نسبة الجلوكوز بها عالية. وسمح لى الأطباء بتناول حبة فاكهة واحدة فى اليوم، مثل برتقالة أو شىء من هذا القبيل، وحتى الشاى أشربه سادة، وعندما عرضوا علىّ استخدام أقراص «السكارين» الخاصة بمرض السكر واظبت عليها لفترة، ثم توقفت لأنها لم تكن مريحة لى.

من الأمور التى ساعدتنى على مقاومة مرض السكر، إلى جانب تنظيم الأكل، عادة

المشى اليومية، فهى عادة قديمة وثابتة حتى من قبل إصابتى بهذا المرض، ففى الشتاء أمشى حوالى ساعة يوميا، تقل فى الصيف بسبب الحر.. وبالنسبة لمواعيد نومى فقد اعتدت على دخول الفراش مع منتصف الليل، لكننى لا أنام إلا بعد ذلك بساعة، ثم أستيقظ فى حوالى الثالثة أو الرابعة صباحا، ثم أنام نصف ساعة ممددا فى السرير، وأستيقظ بعدها. وقلة النوم تتعبنى جدا، ولذلك أعوضها بالنوم خلال فترة النهار، وللأسف لا يأتينى النوم بسهولة، والغريب أننى عندما أسافر إلى الإسكندرية أنام نومًا عميقا، ولذلك أذهب إليها بين فترة وأخرى حتى أستمتع بالنوم.

رياضة المشى

فى أثناء سنوات الوظيفة كنت أنام فى الحادية عشرة مساء وأستيقظ قبل السادسة صباحا، حتى يتسنى لى ممارسة رياضة المشى. تلك الرياضة التى حافظت عليها طوال حياتى، كنت أنزل من ترام العباسية وأسير على قدمى حتى أصل إلى وزارة الأوقاف، مرورا بشارعى سليمان باشا وقصر النيل. وبعد الزواج وانتقالى إلى شقتى الحالية فى العجوزة زادت المسافة التى أمشيها. كنت أسير من شارعى الجبلاية والبرج، ثم كوبرى قصر النيل إلى وزارة الأوقاف. وكانت المسافة تستغرق ساعة يوميا، وبعد المعاش حافظت على هذه العادة، وبدلا من الذهاب إلى الوزارة كان المطاف ينتهى إلى مقهى «على بابا» فى ميدان التحرير.

حسين حجازى وفريق قلب الأسد

قد لا يصدق أحد أننى كنت فى يوم من الأيام «كابتن» فى كرة القدم. واستمر عشقى لها حوالى عشر سنوات متصلة، فى أثناء دراستى بالمرحلتين الابتدائية والثانوية. ولم يأخذنى منها سوى الأدب، ولو كنت داومت على ممارستها فربما أصبحت نجما من نجومها البارزين. وعلاقتى بالكرة ترجع إلى الفترة التى انتقلنا فيها إلى العباسية، كنت وقتذاك قد التحقت بالمدرسة الابتدائية، واصطحبنى شقيقى ذات يوم لزيارة صديق حميم له من عائلة الديوانى، وهى عائلة معروفة، ومن أبنائها أطباء ومستشارون. كان بيت هذا الصديق يطل على محطة للسكة الحديد، وعندما فرغنا

من تناول الغداء اقترح أن يصطحبنا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم بين فريق مصرى وآخر إنجليزى. وكم كانت دهشتى كبيرة عندما فاز الفريق المصرى، فقد كنت أعتقد حتى ذلك الوقت أن الإنجليز لا ينهزمون حتى فى الرياضة. رجعت يومئذ إلى البيت وذهنى كله معلق بكرة القدم، وبأسماء الفريق المصرى الذى هزم الإنجليز، وخاصة كابتن الفريق حسين حجازى نجم مصر ذائع الصيت فى ذلك الوقت. طلبت من والدى أن يشترى لى كرة، وألححت عليه حتى وافق، وبدأت أمضى وقتا طويلا فى فناء المنزل، ألعب الكرة بمفردى، ومحاولا تقليد ما شاهدته فى تلك المباراة التى خلبت عقلى، وبسرعة شديدة استطعت أن أتقن المبادئ الأساسية للعبة، وانضممت إلى فريق «التيمبل» فى المدرسة الابتدائية، وهو فريق الصغار، وكان يوجد فريق آخر للكبار. كانت الدراسة الابتدائية فى ذلك الوقت لا تلتزم بسن محددة للالتحاق بها، فكنت تجد إلى جانب الأطفال الصغار فى سن الثامنة أو التاسعة، شبابا تجاوز العشرين، ولهم شوارب كبيرة، ولذلك كان هناك فريق للكبار فى نفس المدرسة. وكان من بين أعضاء فريق الكبار الكابتن ممدوح مختار الذى كان يلعب بين صفوف الفريق الأول بالنادى الأهلى، وهو من عائلة صقر التى اشتهر منها عبد الكريم صقر ويحيى صقر. وفى فريق «التيمبل» لعبت فى مركز الهجوم، وتحديدا فى مركز الجناح الأيسر، رغم أننى لا أجيد اللعب بقدمى اليسرى، وكان ذلك المركز يحد كثيرا من حركتى، ومع ذلك كنت هداف الفريق، وأكثر لاعبيه إحرازا للأهداف. ولما انتقلت إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية تغيّر مركزى، وأصبحت ألعب كقلب دفاع، وأجدت فى المركز الجديد لدرجة أن كثيرين ممن شاهدونى فى ذلك الوقت تنبأوا لى بالنبوغ فى كرة القدم، وبأننى سألعب لأحد الأندية الكبيرة، ومنها إلى «الأولمبياد» مع المنتخب الوطنى. ومن هنا كانت دهشة زملائى عندما انتقلنا إلى الدراسة الجامعية، ورفضت الانضمام إلى فريق الكرة بالجامعة. ومنذ ذلك الحين، انقطعت صلتى بكرة القدم من ناحية الممارسة، ثم انقطعت صلتى بها من ناحية المشاهدة والمتابعة بعد اعتزال الكابتن حسين حجازى.

وحسين حجازى عندى هو حقيقة رأيتها وأسطورة سمعت عنها، فقد رأيته فى أواخر حياته الكروية قبل اعتزاله اللعب.. ونظرا لشعبيته الرهيبة وموهبته الفذة ظل يمارس اللعب حتى شارف الأربعين من عمره، وهى سن كبيرة بالنسبة للاعبى كرة القدم. ففى الغالب يعتزل النجوم بعد تخطى سن الثلاثين بقليل. وحتى فى هذه السن المتقدمة كان حسين حجازى له ثقله فى الملعب، وفى المرات التى شاهدته أعجبنى فيه ميزات، منها أنه يقوم

بدور المايسترو لفريقه خير قيام، وأن لعبه نظيف، فلم يحدث أن ارتكب خطأ متعمدا ضد لاعب من الفريق المنافس، ومنها قوة تسديده على المرمى، لدرجة أنه كان كثيرًا ما يسدد الكرة من منتصف الملعب، فتدخل المرمى.

هذا ما رأيته بعينى، أما ما سمعته فهو أقرب إلى الأساطير، ولا أعرف مدى صحته، لأن جزءا منه حدث فى إنجلترا، والآخر فى فترة لم أشاهده فيها. فقد قيل إن والده أرسله فى بعثة دراسية إلى إنجلترا، وهناك سرقته الكرة من الدراسة، وبرع فى كرة القدم، حتى أنهم ضموه للمنتخب الإنجليزى، وأصبح أحد أبرز نجومه، وتحدثت عنه الصحف الإنجليزية. بل قيل إنهم غيروا القوانين الإنجليزية خصيصا حتى يصبح حسين حجازى «كابتن» للفريق الإنجليزى. وقيل إن ملك أسبانيا حضر مباراة مهمة بين إنجلترا وأسبانيا، وبهره أداء حسين حجازى، لدرجة أنه عقب المباراة حرص على مصافحته وقال له: «كنت أود أن تكون من الأسبان وتلعب لفريقنا»!. ثم عاد حسين حجازى إلى مصر وانضم لفريقنا القومى، وشارك معه فى أولمبياد ١٩٢٩، واحتل الفريق المصرى المركز الرابع، إذا لم تخنى الذاكرة. وكان حسين حجازى نجم الفريق وأشادت به الصحف الأوروبية، وخصته بالمديح، هو و«السوالم». ولقب «السوالم» كنا نطلقه على لاعبين يحملان اسم «سالم»، هما محمد وأحمد سالم. وأذكر أن مستر «وولف» مدرسنا الإنجليزى فى المدرسة الثانوية كان يدخل الفصل حاملا معه جريدة التايمز الإنجليزية، ويقرأ لنا ما كتبته عن الفريق المصرى أثناء «الأولمبياد».

إلى جانب حسين حجازى من النجوم المشهورين فى تلك الفترة «على الحسنى» وكان من فتوات بولاق، ويلعب فى مركز قلب الدفاع، وتميز ببنيانه القوى وطريقة لعبه العنيفة. وإن كان «مرعى» حارس المرمى أشد منه عنفا، حيث كان شعاره فى اللعب «إللى يفوت يموت». وكان «مرعى» أشبه بالعملاق، لدرجة أنه كان يصد الكرة بيد واحدة، ويتلقفها كما يتلقف البرتقالة، حتى أن الكرة كانت تستقر فى يده ولا تتحرك أبدا. وفى «المرايا» أشرت إلى شخصية «على الحسنى»، وبعد نشر الرواية، فوجئت به يتصل بى تليفونيا، ليشكرنى على تذكرى له. جاءنى صوته ضعيفا خافتا، وعرفت أن المرض أنهكه، وأنه لا يغادر فراشه، وتعجبت من الحال الذى وصل إليه هذا العملاق.

إلى جانب هؤلاء كان هناك «جميل الزبير» و«سيد أباظة» و«محمود مختار التتش» و«ممدوح مختار» و«محمد سليمان» الذى كنا نطلق عليه لقب «هندنبرج». وإذا كان حسين

حجازى هو كابتن الفريق المصرى، فقد كنت أنا كابتن فريق «قلب الأسد» الذى كونته مع أصدقائى فى العباسية أثناء دراستى الابتدائية، وكان مقره شوارع العباسية. كنا نستضيف أحيانا فرقا من الأحياء المجاورة فى مباريات ساخنة، ونذهب لنلاعبهم فى أرضهم بالمثل. وعندما أخذنى الأدب واستغرقتنى القراءة والكتابة لم أستمر فى متابعة ومشاهدة الأجيال الجديدة، ولم أعرف منهم سوى عبد الكريم صقر، الذى أكد لى صديقى عبد المنعم الشويخ أنه لاعب فذ لم تنجب الملاعب المصرية مثله، وكان ذلك فى سنوات تالية لاعتزال «حسين حجازى».

ولم أعرف أحدا من الأجيال الحالية، وأذكر أن أحد الصحفيين رتب لقاء مشتركا جمعنى بنجم الكرة محمود الخطيب، وكان وقتها نجم النجوم وحديث الناس، ولم أشأ أن أخبره خلال اللقاء بانقطاعى عن مشاهدة الكرة، وأن علاقتى بها انقطعت مع اعتزال حسين حجازى. وأحيانا أفتح التليفزيون فأجد مباريات كرة القدم، فيأخذنى الحنين القديم، وأندمج فى المشاهدة، وفى أثناء إذاعة مباريات كأس العالم أظل متابعا لإحدى المباريات دون أن أعرف الفريقين المتباريين، والملاحظة التى لفتت نظرى أن نجوم كرة القدم الآن أصبحوا أكثر ثراء من نجوم السينما، بينما كان دخل لاعب الكرة، قديما، ضعيفا جدا، حتى أن «على الحسنى» بعد اعتزاله لم يجد ثمن الدواء. وكان اللاعب يمارس الكرة على سبيل الهواية، بينما له حرفة أخرى يتكسب منها رزقه. ولم يكن يتفرغ لها إلا أولاد الذوات مثل حسين حجازى، فهو ابن أحد الأعيان، وأذكر أثناء عملى فى وزارة الأوقاف أن قابلنى شاب عرفنى بنفسه على أنه ابن حسين حجازى، فصافحته بحرارة شديدة وقلت له: «تعالى لما أبوسك.. دا أنا صفقت لأبوك لما إيدى اتهرت»!.

لفت نظرى كذلك الانتشار الرهيب لكرة القدم، وربما يكون مرجع ذلك للإذاعة والتليفزيون والصحف التى أصبحت تفرد للكرة مساحة كبيرة. وفى أيامنا كان الاهتمام أقل من ذلك بنسبة كبيرة، لانشغال الناس بالقضايا السياسية. أما عن التعصب الذى يشكون منه الآن بين جماهير الأندية فكان موجودًا فى أيامنا أيضا. خاصة فى المباريات بين فرق القاهرة والإسكندرية، وفى المباريات التى كانت تذهب فيها فرق القاهرة للعب فى الثغر ـ كما كنا نسميه ـ تتحول الإسكندرية إلى ثكنة عسكرية وتعلن حالة الطوارئ تحسبا لشغب الجمهور.

دم سلمان رشدى

عندما أصدر آية الله الخومينى فتواه الشهيرة بإهدار دم الكاتب الهندى سلمان رشدى بسبب روايته «آيات شيطانية»، جاءنى مندوبون من صحف وإذاعات وقنوات تليفزيون من شتى أنحاء العالم ليتعرفوا على رأيى فى هذه القضية، وسجلت أكثر من اثنى عشر حديثا، وفى الإجابة عن سؤال هو:

ـ ما رأيك فى «آيات شيطانية»؟!.

قلت:

ـ لم أقرأها. وليكن سؤالكم هو: ما رأيك فى رئيس دولة يهدر دم كاتب فى دولة أخرى لأنه أبدى رأيا مخالفا فى عقيدة مشتركة؟. إن ما فعله الخومينى ضد الإسلام وضد القانون الدولى والمبادئ الإنسانية، وللكاتب كل الحرية فى أن يقول رأيه، والفكر يرد عليه بالفكر وليس بالرصاص.

بعد ذلك قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين وعرفت أن «آيات شيطانية» رواية وليست كتابا كما كنت أتصور، وأن بها تجديفا وشطحات شرحها بهاء فى صورة شاملة عميقة جعلتنى أعيد النظر فى المسألة. وفى حديث لشبكة «بى. بى. سى» الإنجليزية، قلت رأيًا جديدًا بناء على المعلومات التى استقيتها عن الرواية، وملخص ما قلت هو أن ما كتبه سلمان رشدى يدخل تحت بند السب والقذف وعليه أن يتوب، والإسلام يقبل التوبة إذا كانت صادقة مخلصة، وهذا ليس معناه مصادرة حرية الفكر، فما كتبه فى روايته كان من منطلق حرية الفكر، وتراجعه سيكون من نفس المنطلق. سألنى المحاور: وبماذا تنصح سلمان رشدى فى مخبئه؟. فأجبت: من الصعب أن أوجه نصيحة لكاتب من المفروض أنه من قادة الفكر، فالأمر يرجع فى الأساس إلى ضميره. فإذا كان متمسكا بآرائه التى احتوتها الرواية، فليس عندى نصيحة، ولا أستطيع أن أجبره على تغييرها. أما إذا شعر بخطئه وندمه، ففى هذه الحالة أوجه له هذه النصائح:

* أولا: أن يعلن توبته كما يطلب منه.

* ثانيا: أن يمنع ما استطاع ترويج الرواية.

* ثالثا: أن يتبرع بأرباحه منها لإحدى الجهات الإسلامية.

ويبدو أن بعض الكتّاب فى مصر حاولوا استغلال رأيى الأول الذى قلته فى القضية قبل أن تتضح الصورة بالنسبة لى، ومنهم من حاول تشويه كلامى والهجوم علىّ مثل فهمى هويدى، ولم يشفع لى رأيى الأخير المبنى على معلومات صحيحة، وهو آخر آرائى فى تلك القضية. وفى حدود علمى بالشريعة الإسلامية لا يجوز تنفيذ حكم القتل فى المرتد إلا إذا استتابه أولو الأمر، فإن تاب ورجع، يُلغى حكم القتل، وتكون توبته مقبولة. ولذلك اعترضت على تصريح المرشد الجديد لإيران على خامنئى الذى أكد فيه أن فتوى الخومينى قائمة ولن تلغى، واعتراضى مبنى على عدة أسباب.

أولاً: أنه حكم متعسف وغير إسلامى لأنه يقفل باب التوبة، والله تعالى يقول: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾. والتاريخ الإسلامى يحكى لنا قصة السيدة التى ذهبت إلى النبى واعترفت بارتكابها جريمة الزنى، فحاول أن يراجعها ويجعلها تعيد التفكير فى اعترافها. هذه هى سماحة الإسلام كما نفهمها.

ثانيا: أن الذين أصدروا حكمهم على الرواية وشنوا الحملة على صاحبها لم يقرأوها، وبنوا حكمهم على تلخيصات لها، أو على حكم الآخرين عليها. والمنطق يقول إنه كان عليهم أن يقرأوا الرواية ويفهموا مغزاها جيدا ويردوا على صاحبها.

ثالثا: أن الإسلام طالما تعرض لحملات افتراء وتشويه، ولم تزده هذه الحملات إلا قوة وصلابة. وفى رأيى أن الفكرة السليمة إذا تعرضت لهجوم تزداد قوة فى نفوس معتنقيها، خاصة عندما تكون حجج الهجوم واهية، والدفاع عنها مبنيا على براهين ساطعة واضحة.

رابعا: أن سلمان رشدى فى حدود علمى أعلن صراحة إسلامه وأسفه على ما بدر منه، ومن ثم تكون توبته مقبولة، فالإسلام لا يحاسب على النيات.

الطربوش

قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، كان الطربوش من الأمور الهامة جدا فى مصر. وعندما كنا تلاميذ صغارا كان الزى الرسمى هو البنطلون القصير والقميص والطربوش، وبعد تخرجى

فى الجامعة فإن الطربوش كان من المظاهر الضرورية للوظيفة. ولم يكن فى وسع أى موظف أن يدخل مكتب رئيسه فى العمل عارى الرأس. ورغم أهمية الطربوش كان بعض المتفرنجين الذين تعلموا فى أوروبا، يهاجمونه، ويرونه بدعة تركية غريبة على المجتمع المصرى، خاصة أنه لا يناسب الجو الحار. فالطربوش فى الصيف يجعل من يرتديه يتصبب عرقا، كما أنه لا يحجب عنه الشمس. وكان من هؤلاء المعارضين الدكتور محمود عزمى الذى كان يدعو إلى لبس «القبعة» بدلا من الطربوش، واشتهر بارتدائه «البرنيطة» الأوروبية. وكان شارع محمد على هو المكان المفضل الذى أشترى منه طرابيشى، وكثيرا ما أزعجنى الاضطرار للقيام «بكى» الطربوش بين حين وآخر، ويتزايد هذا الإزعاج عندما أذهب للجلوس فى مقهى، حيث أحتار فى أى مكان أضعه. وبعد الثورة خلعت الطربوش مثلما خلعه كل الأفندية، وإن كان البعض استعاض عنه بأغطية رأس مختلفة تقى من حر الصيف. وأشهر هذه الأغطية «البيريه» الذى ابتكره فى مصر توفيق الحكيم وأصبح من لوازمه وعلما عليه. ولم أحاول وضع أى شىء على رأسى بعد أن تخلصت من الطربوش...

اللقاء الأخير مع سيد قطب

سيد قطب هو أول ناقد أدبى التفت إلى أعمالى وكتب عنها، وكان ذلك فى الأربعينيات. وتعرفت عليه فى ذلك الوقت حيث كان يجىء بانتظام للجلوس معنا فى كازينو «أوبرا»، وكانت العلاقة التى تربطنا أدبية أكثر منها إنسانية.

ميز سيد قطب فى تلك المرحلة تحرره وذكاؤه وموهبته الأدبية، خاصة أنه كان من تلاميذ العقاد المخلصين. والعقاد ـ على ما أذكر ـ هو الذى توسط له لدى النقراشى باشا لإرساله فى بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكنت أعده لسنوات طويلة من رواد الاستنارة والفكر الجرىء المتحرر. وكان آخر لقاء جمعنا معا فى بيته فى حلوان، حيث ذهبت لزيارته بصحبة آل السحار عقب خروجه من السجن بعفو صحى. ذهبت إليه رغم معرفتى بخطورة هذه الزيارة، وبما يمكن أن تسببه لى من متاعب أمنية. فى تلك الزيارة تحدثنا فى الأدب ومشاكله، ثم تطرق الحديث إلى الدين والمرأة والحياة. كانت المرة الأولى التى ألمس فيها بعمق مدى التغيير الكبير الذى طرأ على شخصية سيد قطب وأفكاره.. لقد رأيت أمامى إنسانًا آخر، حاد الفكر، متطرف الرأى، ويرى أن المجتمع عاد إلى الجاهلية الأولى، وأنه

مجتمع كافر لابد من تقويمه بتطبيق شرع الله انطلاقا من فكرة «الحاكمية». وسمعت منه آراءه دون الدخول معه فى جدل أو نقاش حولها، فماذا يفيد الجدل مع رجل وصل إلى تلك المرحلة من الاعتقاد المتعصب. وعرفت منه أنه تلقى عرضا للعمل فى العراق، ورغم إغراءاته المادية ومميزاته الكبيرة فإنه رفضه لأنه لا يريد أن يترك مصر، وبقى فيها لقضائه وقدره.

عندما سمعت بخبر اشتراك سيد قطب فى مؤامرة قلب نظام الحكم، وصدور حكم الإعدام عليه، لم أتوقع أبدا تنفيذ الحكم، وظننت أن مكانته ستشفع له. وإن لم يصدر عفو عنه، فعلى الأقل سيخفف الحكم الصادر ضده إلى السجن المؤبد على الأكثر، ثم يخرج من السجن بعد بضع سنوات، وخاب ظنى ونفذ حكم الإعدام بسرعة غير معهودة، أصابتنى بصدمة شديدة وهزة عنيفة. فرغم الخلاف الفكرى بينى وبين سيد قطب، فإننى كنت أعتبره حتى اليوم الأخير من عمره، صديقا وناقدًا أدبيًا كبيرًا، كان له فضل السبق فى الكتابة عنى، ولفت الأنظار إلىّ، وفى وقت تجاهلنى فيه النقاد الآخرون.

ولتأثرى بشخصية سيد قطب وضعتها ضمن الشخصيات المحورية التى تدور حولها رواية «المرايا» مع إجراء بعض التعديلات البسيطة. ولكن الناقد المدقق يستطيع أن يدرك أن تلك الشخصية فيها ملامح كثيرة من سيد قطب.

«العائش فى الحقيقة»

عندما كتبت الروايات الفرعونية الثلاث فى بداية رحلتى مع الأدب، كان فى نيتى أن أواصل السلسلة، وأكتب التاريخ الفرعونى كله بنفس الطريقة. ولما حدث التحول ولم أواصل العمل فى هذا الاتجاه، بقيت فى وجدانى شخصية «أخناتون» بكل ما تحمله من ثراء وغموض. وبعد سنوات طويلة وقع فى يدى كتاب باللغة الفرنسية عن «أخناتون» يتضمن آراء غريبة ومتناقضة لم أسمع بها من قبل. أثار الكتاب ما أحمله فى وجدانى من تقدير لهذه الشخصية، وقررت التوقف عند «أخناتون» والكتابة عنه. فجاءت رواية «العائش فى الحقيقة» لا تتضمن رؤية درامية بقدر ما هى عرض لوجهات النظر المختلفة فى هذه الشخصية التاريخية المثيرة. خاصة أننى أضفت للرواية شخصيات من صنع خيالى ليس لها أصل تاريخى.

و«أخناتون» كما تصورته هو شخصية سابقة لعصرها، مثيرة للتعاطف معها، مضحية فى سبيل فكرتها وما تؤمن به من مبادئ، فهو رجل يدعو إلى السلام والتوحيد فى عصر كان يرفض مثل هذه الأفكار. ومن الثابت تاريخيا أن الكهنة هم الذين تآمروا عليه ليقضوا على أفكاره التى كانت تمثل ضررا شديدا على مصالحهم ونفوذهم. ومن خلال قراءاتى للتاريخ الفرعونى لفتت نظرى ملاحظة هامة، وهى أن سيطرة الكهنة على الحكم كانت تشتد وتظهر أكثر وضوحا فى فترات الضعف التى تمر بها البلاد، وكان حكمهم مرتبطا دائما بالتدهور وانتشار الفساد.

الفرعونيات

مع تأثرى بأجواء حى الحسين القديم والحارة الشعبية، كان من المفترض أن تكون بدايتى الروائية فى أعمال مثل «زقاق المدق»، و«خان الخليلى»، وتلك الأعمال التى تتناول الحارة المصرية. غير أن ما حدث كان شيئا آخر، حيث اعتمدت فى رواياتى الأولى على موضوعات من التاريخ الفرعونى، وهى المرحلة الأدبية التى يسميها النقاد «الفرعونيات»، ممثلة فى «عبث الأقدار» و«كفاح طيبة» و«رادوبيس». هذه المفارقة لها أسباب، أولها: زياراتى المتكررة للمتحف المصرى مع أمى فى طفولتى ومشاهداتى المستمرة للآثار الفرعونية، وثانيها: تأثرى بالروائى الإنجليزى المعروف «والتر سكوت»، وطريقته واهتمامه بالرواية التاريخية. ولكن أهم الأسباب جميعا هو قوة التيار الفرعونى فى العشرينيات من هذا القرن، خاصة بعد اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون». وكان ذلك حدثا ضخما جدا، ولا يقدر ضخامته، إلا الذين عاشوا فى تلك الفترة، وربما لم يعرفه الجيل الحالى إلا من خلال الكتب.

كان المد الفرعونى على أشده فى بدايات هذا القرن، وله أنصاره الذين يدافعون عنه باستماتة. وأذكر أنه بعد صدور دستور ١٩٢٣ وإجراء الانتخابات البرلمانية، نادى أصحاب المد الفرعونى بقيادة عثمان محرم، بتصميم قاعة البرلمان على الطراز الفرعونى، واصطدموا مع أنصار التيار الإسلامى، فى الوقت الذى كان الاتجاه القومى العروبى ليس له صوت مسموع، وانتصر التيار الفرعونى، وأقيم البهو الفرعونى فى البرلمان، وهذا البهو موجود إلى اليوم.

امتد تأثير المد الفرعونى إلى كافة المجالات خاصة فى الشعر والغناء، فقد كتب الشعراء قصائد كثيرة عن مجد المصريين القدماء، ونظموا أغنيات كنا نرددها نحن الصغار من أمثال «إحنا أبونا توت عنخ آمون». وبتأثير هذا المد وتشبعا به كتبت رواياتى الأولى، بعد أن قرأت كل ما هو متاح عن التاريخ الفرعونى، مع نية صادقة ورغبة قوية فى كتابة سلسلة روايات تشمل كل مراحل التاريخ الفرعونى. والغريب أننى بعد كتابة الروايات الثلاث شعرت بفتور شديد وتراجع فى حماسى لذلك التيار، ووجدت نفسى متجها لمصر المعاصرة، وللحارة المصرية، بكل ما فيها من مشكلات وقضايا وهموم ونماذج إنسانية. والحارة فى رواياتى بقدر ما هى واقعية، فإنها كانت عندى وسيلة تتسع لكل القضايا التى أتناولها. فالحارة فى رواياتى ـ خاصة فى المرحلة التى يسميها النقاد باسم «الواقعية» ـ كانت موازية للمجتمع كله بقضاياه، وصراعاته وهمومه. تجد ذلك فى «القاهرة الجديدة»، و«زقاق المدق» و«خان الخليلى»، و«بداية ونهاية»، وأمثالها، وفى مرحلة تالية أخذت الحارة مفهوما أوسع من المجتمع، حيث امتدت لتكون موازية للكون كله، وتجد ذلك فى «أولاد حارتنا» مثلا. وكانت روايتى الأولى التى كتبتها بعد فترة الفرعونيات هى «القاهرة الجديدة»، وقد تأثرت فيها بأجواء الدراسة الجامعية. فقد كانت الحياة الجامعية أقرب مكان لذاكرتى الواعية، فهذه الرواية ظهرت تقريبا عام ١٩٤٠، ولكنى بدأت فى وضع خطوطها الرئيسية حوالى العام ١٩٣٦، أى بعد تخرجى فى الجامعة بعامين فقط. فكانت حياة الجامعة مسيطرة على ذهنى تماما، ومنها جاءت أحداث وشخصيات «القاهرة الجديدة».

صديقى الكلب «جاك»

عندما انتقلنا إلى العباسية طلبت من والدى أن يحضر لى كلبا صغيرا لأقوم بتربيته واللعب معه. وبعد إلحاح أصبح عندى كلب أسود، سرعان ما تعلقت به، وجعلته صديقى المقرب، وأطلقت عليه اسم «جاك» عاش معى «جاك» فترة بلا مشاكل أو متاعب، إلى أن عض ذات يوم صديقى سعد الدين ـ وهو ابن عمة إحسان عبد القدوس ـ وكان جارى فى العباسية ـ وكثيرًا ما كان يأتى ليلعب معى فى فناء منزلنا، كما كنا أحيانًا نمارس هواية تمثيل بعض المشاهد المسرحية، وأصبح فيما بعد وكيلاً لوزارة الثقافة. بعد أن عضه «جاك» حمله أهله إلى المستشفى، وطلب الطبيب أن نأتى «بجاك» ليكشف عليه خشية أن ينقل داء «الكلب» إلى سعد الدين. وتحرر محضر بالواقعة فى قسم الشرطة، ودفع والدى

غرامة مالية لأننا نقتنى كلبًا بدون الحصول على رخصة. غضب والدى مما جرى وأمرنى بطرد الكلب من المنزل لأنه يؤذى الجيران وحدثت بسببه مشاكل. وأمام إصرار والدى وضعت «جاك» فى «مقطف» ـ حقيبة مفتوحة من القش ـ وحملته إلى هضبة الهرم، وتركته هناك وأنا فى غاية الحزن والأسف. وانقلب حزنى وأسفى إلى فرحة غامرة ودهشة عندما عدت إلى البيت لأجد «جاك» فى انتظارى، عائدًا وحده، بعد أن قطع كل هذه المسافة ما بين الهرم والعباسية. وعندما علم والدى بما جرى وافق على الاحتفاظ بـ «جاك» شرط أن نبقيه داخل المنزل، ولا ندعه يهبط إلى الفناء، وتعهدت أمام أبى أن «جاك» لن يؤذى أحدًا من أصدقائى أو جيرانى بعد الآن. وعاش معنا «جاك» سنوات طويلة، ولا أتذكر الآن كيف انتهت حياة «جاك»، وكل ما أذكره أنه ترك لنا كلبة صغيرة من نسله، ماتت وهى فى حالة وضع، وحزنت عليها، وقررت بعدها ألا أقتنى كلبًا أبدًا. واستمر قرارى ساريًا إلى أن تزوجت وأنجبت ابنتَىَّ اللتين ألحتا علىَّ لكى أقتنى لهما كلبًا تلعبان به. ورفضت ـ مثل والدى رحمه الله ـ وعارضت الطلب لفترة من الوقت، ولما زاد الإلحاح ذهبنا إلى أحد المحال، واشتريت لهما كلبًا وكلبة، عاشا معنا سنوات، وأنجبا عدة مرات، وكنت أوزع من نسلهما على أصدقائى، خاصة عادل كامل. وأقف هنا لأروى حادثتين فى منتهى الغرابة عن الكلاب، تدلان على أن الغريزة أقوى من الذكاء أحيانًا:

* **الحادثة الأولى**: وقعت فى بيت عادل كامل، فعندما أعطيته «كلبة» على سبيل الهدية كانت صغيرة جدًا ومغمضة العينين، وقد نمت وكبرت عنده، وأصبحت فى منتهى الشراسة. حتى أنه كان يغلق عليها باب الغرفة، ولا يدعها تخرج فى حالة وجود ضيوف، وفى إحدى سهراتنا بمنزله استغلت الكلبة فرصة سهو منه ودخلت علينا، وهجمت على الحاضرين ومزقت ملابسهم، وعندما جاءت عندى أخذت تتمسح فى ملابسى، وكأنها تقبِّلنى. أصبح الموقف بيننا كحبيب يعانق حبيبه بعد طول غياب، وتعجب الحاضرون من هذا الصنيع، حتى أن زوجة عادل كامل كانت تضرب كفًا بكف من شدة الدهشة، وأدركت أن الكلبة شمت فى ملابسى رائحة أمها وأبيها الموجودين عندنا، ورغم أننى أعطيتها لعادل كامل وهى صغيرة السن، فإنها مع ذلك لم تنسهما. وفى كل مرة أذهب فيها إلى منزل عادل كامل، يحدث للكلبة هياج بمجرد أن تسمع صوتى، وتأخذ فى النباح، وتصدر أصواتًا غريبة، كأنها تنادى علىَّ أو تحملنى السلام إلى والديها، وكانت زوجة عادل كامل تعلق على ذلك بسخرية فتقول: إنها تخدم هذه الكلبة وتطعمها وتسقيها، ثم تنساها فى دقيقة واحدة!

* **أما الحادثة الثانية:** فلا تقل غرابة، ففى شهر مايو من كل عام كان طبيب بيطرى يأتى إلى منزلنا ليقوم بإعطاء الكلب والكلبة حقنة تطعيم ضد الأمراض. وفى أول مرة جاء فيها قام بمهمته فى سلام، وفى السنة الثانية وفى نفس الموعد، دق جرس الباب، وفوجئت بالكلب والكلبة دون أن نعرف من الطارق يختبئان تحت المقاعد. ووجه الغرابة أنهما فى كل مرة يدق جرس الباب يهجمان عليه ويقومان بالنباح المتصل، وفى هذه المرة اختلف الأمر.

وفتحت الباب لأجد الطبيب البيطرى أمامى وهو يحمل حقيبته ويدخل ويبدأ فى تجهيز حقنة التطعيم. أصابتنى حالة من الذهول، فقد مر عام كامل على الحقنة الأولى، فكيف عرفا أنه الطبيب؟، شىء غريب حقًا! وماتت الكلبة والكلب بشكل طبيعى بعد أن وصلا إلى سن الشيخوخة، وحملتهما زوجتى ودفنتهما فى إحدى المناطق الخاوية خارج العباسية، وبقى من نسلهما كلب نحتفظ به حتى الآن، واسمه «على بابا». وأغرب ما فيه تعلقه الشديد بنا، لدرجة أننى بنيت له حجرة خشبية فى بلكونة الشقة، وقفلت البلكونة بلوح زجاجى، ولكننى فوجئت به يثور على هذا السجن. وظل يضرب على الحائط حتى نزف منه الدم، واضطررنا لإخراجه. وفى كل مرة نأخذه معنا فى جولات خارج المنزل أشعر بضيقه من الناس والشوارع، وبمجرد أن تقف السيارة أمام المنزل، يقفز منها بسرعة، ويجرى باتجاه الشقة، ولا يستريح إلا إذا دخلها، وأخذ يتجول فيها.

حكاية «بيليد» الإسرائيلى

ذات يوم وصلنى خطاب من الولايات المتحدة الأمريكية يقول مراسله إنه بصدد إعداد رسالة دكتوراه عنى فى إحدى الجامعات الأمريكية ويريد منى أن أرسل له مجموعة من المعلومات عن حياتى ونشأتى وتربيتى وثقافتى والعوامل التى أثرت فى تكوينى. وبالفعل أرسلت له ما طلب، وبعد فترة من الوقت وصلتنى نسخة من رسالة الدكتوراه، أهدتها لى الجامعة التى حصل منها الباحث على درجة الدكتوراه. وعندما قرأت الرسالة اكتشفت أن الباحث إسرائيلى واسمه «ماتاتياهو بيليد»، ويعمل أستاذًا فى الجامعة العبرية فى تل أبيب. شعرت بضيق فى البداية، ثم قلت لنفسى إننى لن أعيق شخصًا يريد أن يعد رسالة جامعية عنى، حتى أسأل عن ديانته أولاً، واستعدت هدوئى من جديد. بعد ذلك اتصل بى الضابط

المختص بشئون الصحافة فى وزارة الداخلية وأظن أن اسمه اللواء سيد زكى، طالبًا موعدًا لمقابلتى فى «الأهرام». ظننت أن وزارة الداخلية علمت بحكاية الباحث الإسرائيلى «بيليد»، وكان ذلك تقريبًا فى العام الذى خرجت فيه إلى المعاش، أى سنة ١٩٧١، وقررت «الأهرام» ضمى إلى مجموعة كتّابها المتفرغين. سألنى اللواء سيد زكى بالفعل عن حكاية «بيليد»، ففتحت درج مكتبى وأخرجت خطابه الذى أرسله لى، وقلت إننى أرسلت برد يتضمن المعلومات المطلوبة عنى، ولم أكن أعرف أنه إسرائيلى، إلا بعد أن بعثوا لى بنسخة من رسالة الدكتوراه. واقتنع سيد زكى بروايتى، وقال لى: «إن الحكاية واضحة»، واعتبر المسألة منتهية، وأضاف: «إذا طلبوك فى المخابرات وسألوك عن هذا الموضوع قدم لهم الخطاب الذى تحتفظ به والذى أرسله إليك الباحث فى أول الأمر». ولم تطلبنى المخابرات وانتهى الموضوع عند هذا الحد. وعندما قرأت رسالة الدكتوراه بإمعان وجدت أن «بيليد» هذا توصل من خلال قراءته لأعمالى وتحليله لشخصياتها وأحداثها، إلى نتيجة جديدة. وهى أننى أميل إلى الاتجاه الإسلامى وليس الماركسى كما قال النقاد العرب. وذلك من وجهة نظره يرجع إلى أن نهايات رواياتى تتوافق إلى حد كبير مع المبدأ القرآنى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾.

سنوات العقم

منذ عام ١٩٨٧، أى فى السنة التى سبقت حصولى على جائزة نوبل، وأنا أعيش فى حالة غريبة من العقم الإبداعى، وأشعر بعدم ميل إلى الكتابة، وتذكرنى هذه الحالة بفترة انقطاعى عن الكتابة عقب ثورة يوليو ١٩٥٢. والفارق بين الحالتين هو أننى فى فترة الانقطاع التى حدثت بعد الثورة شعرت أننى لم يعد لدىَّ ما أكتبه، بعد أن حققت الثورة كثيرًا مما كنت أتمنى تحقيقه من خلال كتاباتى الروائية. أما فى هذه الحالة والمستمرة عندى حتى الآن، فأشعر بأن الدافع للكتابة موجود، ولدىَّ موضوعات عديدة ومشروعات كثيرة لأعمال روائية، ولكننى عندما أمسك بالقلم تزول كل دوافع الكتابة، وتهدأ النشوة الداخلية، فأضع القلم من جديد.

والسبب فى هذه الحالة الغريبة هو أننى كلما هممت بالشروع فى الكتابة يواتينى شعور داخلى بأن الموضوع قديم، وسبق أن عالجته فى أعمال سابقة، أو أن المشكلة تافهة ولا

تستحق الكتابة عنها.. هذا على الرغم من أن المجتمع الآن ملىء بالمشكلات التى تصلح فى أغلبها للمعالجة الفنية، لكنى كما قلت أشعر أنها مشكلات قديمة. فعندما قدمت شخصية «محجوب عبد الدايم» الانتهازية فى «القاهرة الجديدة» أصيب الناس بالدهشة، وكانت أشبه بالاكتشاف. أما الآن فيوجد مليون «محجوب عبد الدايم»، ولم تعد شخصيته تثير الاستغراب أو الدهشة. ولذلك يلاحظ القراء أن كل إنتاجى ـ تقريبًا ـ خلال الفترة الأخيرة، تدور أحداثه فى الزمن الماضى، ولا يأخذ صفة المعاصرة، وذلك فى أعمال «صباح الورد» أو «قشتمر» أو «الفجر الكاذب».

سبب آخر لحالة الانقطاع هذه، وهو سبب عام فى مجمله، يتمثل فى أن الأديب عندما يتقدم به العمر، ينحصر تفكيره فى الزمن والموت وقضايا فلسفية، وتشعر فى كتاباته بالشجن والرغبة فى العودة إلى الماضى.

وهناك سبب ثالث يتمثل فى الضعف الذى أصاب عينى والشعور الشديد بالإرهاق كلما مارست عملية الكتابة، وأصبح جهدى الآن ينحصر فى كتابة «وجهة نظر» التى تنشر كل يوم خميس فى «الأهرام» بشكل أسبوعى منتظم. وأحيانًا ترد على ذهنى أثناء الكتابة أفكار لقصص قصيرة، فأدونها فى بضعة سطور، على أمل أن أعود إلى استكمالها بعد ذلك، والقصص التى أنتهى منها أرسلها للنشر فى مجلة «نصف الدنيا».

وبعد حصولى على جائزة نوبل سألنى أحدهم: هل ستضع فى حساباتك عندما تكتب بعد ذلك القارئ العالمى الذى أصبح متابعًا لأعمالك مثل القارئ المحلى تمامًا؟ والحقيقة أن حساباتى لم تتغير، لأننى كاتب مخلص جدًا لما يدور فى نفسى، وعندما أمسك القلم وأبدأ فى الكتابة، لا أعبأ بشىء، ولا أفكر فى شىء، وأنسى كل الحسابات، ولا يهمنى سوى إرضاء ذاتى ومزاجى الشخصى. ثم إننى أكتب بلغة محلية، والعالم لا يقرأ إلا أعمالى التى يختارها ويترجمها على مسئوليته، وأيًا كان الأمر، ومهما كانت النتائج، فأنا لا أخشى المواجهة.

لقاء مع آرثر ميلر

بعد حصولى على جائزة نوبل اتصل بى موظف فى السفارة الأمريكية بالقاهرة، وأخبرنى أن الكاتب المسرحى الأمريكى الكبير آرثر ميلر موجود فى مصر ويريد مقابلتى. رحبت

باللقاء لأن ميلر من الكتاب الذين أحبهم، خاصة منذ أن قرأت له مسرحية «وفاة بائع متجول» مترجمة إلى اللغة العربية، وبعدها أصبحت من المتابعين لأعماله، ومن قرائه الدائمين أيضًا. وفى الموعد المحدد ذهبت إلى الفندق الذى ينزل فيه، يرافقنى موظف السفارة الذى رتب اللقاء. وعندما صعدنا لحجرته بالفندق، فوجئت بإحدى السيدات ممددة على السرير بالطريقة الأمريكية، وعرفت أنها زوجته. لم أكن أعلم أن ميلر تزوج بعد مارلين مونرو، وازدادت دهشتى عندما لمحت فتاة صغيرة السن تلعب فى مرح بجوارنا، وعلمت أنها ابنته، ولم أكن أعلم أيضًا أن ميلر أنجب. دار بيننا حوار طويل حول جائزة نوبل، وقد قال لى إنها شىء عارض فى حياة الأديب الحقيقى، قد تجىء أو لا تجىء، وحدثته عن أعماله وإعجابى بها، وأخبرنى كم هو حزين لأنه لم يقرأ لى أى عمل لأنه لم يعثر وقتئذ على أعمال لى مترجمة إلى الإنجليزية. ورغم قصر المدة التى أمضيتها مع آرثر ميلر فإننى شعرت بارتياح شديد تجاهه على المستوى الشخصى، وانصرفت من اللقاء وأنا فى غاية السعادة، لأننى قابلت كاتبًا جذبتنى أعماله، وكنت أتمنى أن أراه.

لقاء مع عضو الكونجرس على المقهى

بعد حصولى على جائزة نوبل زار القاهرة عضو بارز فى الكونجرس الأمريكى لا أذكر اسمه الآن، مع أن زيارته لمصر أثارت ضجة فى حينها، وطلب لقائى، وحددت له موعدًا فى مقهى على بابا بميدان التحرير. ودار بيننا حوار طويل حول الأدب وجائزة نوبل، ثم سألنى سؤالاً ظاهره أدبى، ولكننى شعرت بأن له دلالات سياسية. كان السؤال: إذا كتبت «زقاق المدق» الآن، فما هى التغيرات التى طرأت عليه بعد كل تلك السنوات، ولا بد أنك ستضيفها إليه؟. وفهمت أن الهدف الحقيقى من وراء السؤال هو معرفة رأيى فى التطورات التى حدثت فى المجتمع المصرى، وأجبت عليه بطريقة أقرب إلى الديبلوماسية. قلت له لابد أن «زقاق المدق» سوف يختلف عما كان عليه عندما كتبت الرواية لأول مرة، ولا شك أن سلوكيات الأشخاص ستتغير وتختلف العلاقات فيما بينهم، ولابد أن بطلة الرواية «حميدة» ستذهب إلى الجامعة الأمريكية للدراسة، ولم تشف إجابتى غليله.

رواياتى فى أيدى السياح

منذ ١٥ عامًا أو يزيد اتفقت مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة على أن تكون مسئولة عن مشروع لترجمة أعمالى إلى اللغات الأوروبية، وبالفعل ترجموا أكثر من عشر روايات.. والشيء الذى لفت انتباهى وأثار دهشتى فى هذا المشروع أننى فوجئت بهم يعرضون كتبى المترجمة فى الفنادق المصرية. وعرفت أن عددًا كبيرًا من السائحين الذين يفدون للقاهرة يقبلون على شراء هذه الروايات المترجمة، وأن بعض الروايات يباع منها فى الموسم السياحى أكثر من ألف نسخة. ولم أكن أتصور أن السائح الأوروبى الذى جاء من أجل مشاهدة الأهرام وأبى الهول يمكن أن يدفع نقوده فى شراء روايات لكاتب مصرى، وحقيقة سررت جدًا من هذه الفكرة.

النكسة واللامعقول

عندما ظهر تيار اللامعقول فى الأدب الأوروبى وازدهر فى فترة الستينيات جذبنى، وأعجبتنى الأعمال التى عبرت عنه، خاصة كتابات يونسكو وسارتر وألبير كامى. كان سبب إعجابى بهذا التيار هو انطباق الشكل على المضمون، فالشكل الروائى يدخل فى إطار اللامعقول أو العبثى وكذلك المضمون. وعندما قرأت مسرحية «نهاية اللعبة» لصمويل بيكت، كتبت فى جريدة «المساء» مقالة نقدية أشرح فيها ما يقصده، وأفسر المستغلق منها. وربما كان توفيق الحكيم هو أول من حاول تقليد هذا التيار فى الأدب العربى عندما كتب «يا طالع الشجرة»، وأنا لم أحاول الكتابة فى هذا الاتجاه، لأنى لا أحب الكتابة لمجرد التقليد. ثم جاءت هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، فشعرت أننى فقدت اتزانى، وأن الشكل الواقعى البسيط لا يصلح للتعبير عن هذه الحالة، التى كانت فى رأيى أقرب إلى العبث. وفى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ وجدت نفسى مدفوعًا لتيار اللامعقول، لأننى وجدته أكثر تعبيرًا عن الحالة التى كنا نعيشها. فكتبت «تحت المظلة» (مسرحية) والتى تعتبر أقرب أعمالى إلى تيار العبث. وعندما بدأت فى استعادة التوازن العقلى والروحى، عدت مرة أخرى إلى الشكل الواقعى البسيط، وخلعت ثوب اللامعقول. والملاحظة التى لابد من الالتفات إليها هى أن أول مجموعة قصصية ظهرت لى فى الأربعينيات بعنوان «همس الجنون»، كانت فيها نزعة أقرب إلى اللامعقول. ولكننى لا أستطيع تصنيفها تحت هذا التيار، لأن

مـوضـوعـها كـان يستـدعى أن تأخذ هذا الشكل، على عكس «تحت المظلة» التى اقتربت فيها من هذا التيار بإرادتى واختيارى.

أنا و «ماركيز»

الصديق جمال الغيطانى هو أول من لفت نظرى إلى كتابات الروائى الكولومبى «جابرييل جارثيا ماركيز»، وأكد لى أنه روائى مبدع يستحق القراءة والمتابعة، وكان ذلك قبل حصوله على جائزة نوبل بسنوات.

والحقيقة أن جائزة نوبل لم تضف كثيرًا لماركيز، لأنه كان يتمتع قبلها بشهرة كبيرة فى أوروبا، وكانت أعماله تلقى رواجًا لدى القارئ الأوروبى، خاصة أن أدب أمريكا اللاتينية خرج من عنق الزجاجة منذ سنوات طويلة، وأصبح من الآداب المحبوبة فى أوروبا. وجائزة نوبل على العموم لا تمثل فائدة كبيرة بالنسبة للأديب الأوروبى المستقر صاحب القاعدة الجماهيرية العريضة. فى حين أنها تمثل فائدة مضاعفة بالنسبة لأديب من أفريقيا أو العالم العربى مثلاً، لأنها تلفت الأنظار إليه، وتساهم فى رواج أعماله، وتتيح ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الأوروبية.

نافس «ماركيز» على الجائزة أديب من المجر وآخر من أمريكا اللاتينية قيـل إنـه كـان أحـق بالجائزة من «ماركيز»، ولكن اللجنة رأت أن تعطيها لأديب له شهرة عالمية لتحسين سمعة الجائزة، وحتى تكون موضع ثناء وتقدير من دول العالم الثالث. ولجنة نوبل فى هذا السلوك تذكرنى بجائزة الدولة التقديرية عندنا، التى تنهال عليها اللعنات والشتائم فى عام، وفى عام آخر تقابل جوائزها بترحاب شديد إذا أحسنت الاختيار. و «ماركيز» من أدباء نوبل القلائل الذين استفادت منهم الجائزة أكثر مما استفادوا هم منها.

روايتى لم تحرض على اغتيال السادات

عندما وقعت حادثة المنصة التى قتل فيها السادات، كنت أيامها أنشر رواية مسلسلة فى جريدة «مايو» التى تعتبر جريدة السادات لأنها هى الناطقة بلسان حزبه الحاكم، واسم الرواية «ليالى ألف ليلة»، وفى الرواية تحريض على قتل الحاكم. فلما وقعت حادثة المنصة

توقف نشر حلقات الرواية لمدة أسبوعين لضيق المساحة، ولحرص الجريدة على متابعة أخبار حادث الاغتيال ونتائجه. ثم عادت الجريدة لنشر بقية الحلقات، ثم ظهرت الرواية فى كتاب. وبعد صدور الكتاب قرأت مقالة نقدية للدكتور يحيى الرخاوى الطبيب النفسى المعروف عن الرواية، يؤكد فيها أننى تأثرت بحادث قتل السادات، وأن العنف الموجود فى الرواية، هو نتيجة لمتابعتى للحادث. ويبدو أن الدكتور الرخاوى لم يعرف أن الرواية نشرت مسلسلة فى جريدة «مايو» قبل صدورها فى كتاب، وأن النشر كان سابقًا للحادث. وحمدت الله أنه لم ينتبه إلى ذلك، ولم ألفت نظره إلى الخطأ الذى وقع فيه، لأنه لو أشار إلى أن الرواية كانت سابقة للحادث، فلربما اعتبرونى من بين المحرضين على الجريمة وقدمونى للمحاكمة.

الحرافيش

كل رواياتى التى كتبتها فى فترة السبعينيات تتميز بوجود خط نقدى صارم وتعرية واضحة لمرحلة الانفتاح. وعندما تقرأ روايات «أهل القمة» و «الحب فوق هضبة الهرم» و «الباقى من الزمن ساعة»، تلاحظ وجود انتقادات صريحة لهذه السياسة. ولكن هناك رواية واحدة يمكننا أن نستثنيها من هذا الخط، وهى رواية «الحرافيش»، فهى مليئة بالبهجة والإشراقات الروحية والفنية، وبعيدة عن جو الحزن والمشاكل، والتفسير الوحيد لذلك هو أننى كتبتها عقب انتصار أكتوبر ١٩٧٣، وكانت الأجواء فى مصر وقتذاك توحى بالتفاؤل والأمل والإشراق. فانعكس ذلك على جو الرواية التى نشرت لأول مرة مسلسلة فى مجلة «أكتوبر» عندما كان يرأس تحريرها أنيس منصور. وكنت قد أرسلت الرواية بعد كتابتها إلى على حمدى الجمال لنشرها فى «الأهرام»، ودخل أنيس منصور إلى مكتب على حمدى الجمال فلمح الرواية على مكتبه، فصمم على أن يحصل على الرواية، وينشرها فى مجلة «أكتوبر» التى كان يرأس تحريرها، وهو ما حدث، وكان ذلك فى عام ١٩٧٦.

حكاية عبد المنعم الشرقاوى

روى لى توفيق الحكيم ذات مرة أن عبد المنعم الشرقاوى، المحامى الشهير وأستاذ القانون المعروف وشقيق الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى، قد تم القبض عليه قبل

سنة ١٩٦٧ وكان التحقيق معه يتم فى المخابرات وعلى يد صلاح نصر، مدير المخابرات فى ذلك الوقت. وأثناء التحقيق مع الشرقاوى وتحت تأثير التعذيب الذى تعرض له، «ورّط» معه أحد المحامين المشهورين، فتم القبض على هذا المحامى، واعترف ـ تحت التعذيب ـ بأشياء لم يرتكبها. ودخل المحامى السجن وظل به سنوات، وبعد خروجه من السجن كتب مذكرات يروى فيها ما تعرض له من ظلم وتعذيب. وكان هذا المحامى صديقا لتوفيق الحكيم. وقد تصالح المحامى الشهير بعد خروجه من السجن مع عبد المنعم الشرقاوى، وصفح عنه رغم أنه كان سببًا فى سجنه وتعذيبه(١).

اعتماد خورشيد

لم أقرأ كتاب «اعتماد خورشيد» الذى تتحدث فيه عن «شهادتها على انحرافات صلاح نصر»،مدير المخابرات المصرية حتى اعتقاله سنة ١٩٦٧. وقد روى لى أحد أصدقائى بالتفصيل ما ورد فى هذا الكتاب من وقائع وأحداث مختلفة. ومن خلال رواية الصديق أحسست كأننى قرأت الكتاب، ولقد شعرت بالاشمئزاز من الأشياء القذرة والفضائح المثيرة التى تضمنها هذا الكتاب، ولم أشعر لحظة واحدة بالاحترام لهذا الكتاب أو لما ورد فيه.

موسيقى «الثلاثية»

أغرب رأى سمعته عن «الثلاثية» هو الذى ذكره لى الأديب الفرنسى الذى ترجمها إلى اللغة الفرنسية. فماذا قال؟ أكد أن الرواية بأجزائها الثلاثة عبارة عن عمل موسيقى متكامل، وشبهها بالأوبرات الموسيقية الكبيرة، وقال إن كل جزء من الرواية يقابل جزءًا فى الأوبرا. وشرح لى كيف أن الجزء الأول فى الرواية يقابل الجزء الأول فى الأوبرا وهو التمهيد، والثانى يقابل الجزء العاطفى، والجزء الثالث هو الختام. ولا أذكر تفاصيل شرحه

(١) لم يتذكر نجيب محفوظ اسم المحامى صديق توفيق الحكيم، ولكن ملابسات القصة تشير إلى المحامى المعروف محمد شوكت التونى، الذى دخل السجن فى الفترة السابقة على نكسة ١٩٦٧ وكتب مذكراته عن سجنه وتعذيبه.

بالضبط، ولكن ما أذكره هو قوله إننى كنت متأثرًا عند كتابة «الثلاثية» بتراث الموسيقى المصرية وكان عندى رؤية موسيقية عريضة. وقام هذا الأديب الفرنسى بإصدار كتاب موضوعه الأغانى الموجودة فى «الثلاثية»، وزارنى أربع مرات قبل إصدار الكتاب ليسألنى عن أصل كل أغنية وردت فى أجزاء الرواية. ولكننى لم أشف غليله، لأن هناك أغنيات كثيرة كنت أحفظها وأوردتها فى الرواية بدون أن أعرف أصلها. ويبدو أن ذلك كان نتيجة تأثرى بالفترة التى ترددت فيها على مسارح روض الفرج فى صباى بصحبة والدى.

لغة بيرم

أسعدنى الحظ بالعمل مع بيرم التونسى، حيث شاركته فى كتابة الحوار لعدد من الأفلام السينمائية التى أسند إلىَّ منتجوها كتابة السيناريو لها.

كانت اللغة التى استخدمها بيرم التونسى فى حواراته جديدة علىَّ تمامًا، وظننتها فى البداية مقتبسة من لهجة البدو فى تونس. ثم اتضح لى أنها لغة فنية خالصة اخترعها بيرم، وليس لها شبيه فى اللهجات العربية. وما أذكره أن بيرم نظم قصيدته الشهيرة التى هاجم فيها الملك فؤاد وطعن فى شرف الملكة نازلى، وخرج بعدها منفيًا طريدًا. ثم عاد فى عهد الملك فاروق. وكان تصورى عنه قبل أن أقابله أنه صاحب شخصية مرحة ودودة، ثم اكتشفت أن صاحب هذه الموهبة الزجلية الفكاهية الساخرة الرهيبة، يحمل شخصية منكمشة متحفظة، ويتكلم بحذر شديد، ولا يعطيك الفرصة لأن تعرفه من الداخل.

كان الرجل يقدرنى كأديب روائى ويتابع أعمالى، وكنت فى المقابل أقدره كشاعر وأعتبره فلتة زمانه.

الدهبية

كان من بين أحلام الصبا أن أسكن فى «دهبية» على النيل، وحققت هذا الحلم بعد زواجى، حيث انتقلت مع زوجتى إلى «دهبية» فى شارع النيل، وكانت تحمل رقم (٣). الدهبية الأولى كانت تسكنها عائلة «الشيخ» التى جاء منها المخرج كمال الشيخ. والثانية خاصة بلاعب كرة قدم كان معروفًا فى ذلك الوقت واسمه «جميل الزبير»، وهو سودانى

الجنسية وكان يلعب فى مركز الجناح الأيسر فى فريق النادى الأهلى. وكان والده الزبير باشا من تجار العبيد، واستدعاه الخديو إسماعيل إلى مصر وحدد إقامته، حتى يمنعه من ممارسة هذه التجارة، وأنجب ابنه الزبير فى مصر. وفى الجهة المقابلة لنا كانت هناك «دهبية» خاصة بعلى باشا ماهر، وأخرى سكنتها منيرة المهدية فى أواخر أيامها، بعد أن حجت بيت الله واعتزلت الغناء. أما «الدهبية» التى سكنتها مع زوجتى فكانت مكونة من طابقين، الأول يقطنه أصحابها، والثانى استأجرته منهم. وكان الطابق الثانى مكونًا من حجرة مكتب وغرفة نوم صغيرة وأخرى كبيرة ومرافق وصالة واسعة مقسمة إلى صالون استقبال وحجرة سفرة. وكنت عندما أفتح النافذة أجد نفسى فى وسط نهر النيل. صحيح أن السكن فى الدهبيات أو العوامات كان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت، لكن السبب فى حبى لها هو صديقى المرحوم محمد عفيفى. فقد استأجر عوامة جميلة جدًا مع مجموعة من أصحابه، وكنت أذهب لزيارتهم وأستمتع بالجلوس معهم وأستمتع بمنظر النيل. وعندما استأجرت «الدهبية» وكان مكانها عند كوبرى الجلاء تقريبًا، تمنيت أن أقيم فيها طول العمر. كنت أستمتع بالحياة فيها وأستمتع بمنظر النيل، ولكن وقعت حادثة اضطرتنا لتركها.

كان الداخل إلى «الدهبية» لابد أن يمر فوق سقالة خشبية حتى يصل إليها، وحدث أن غرقت بنت الجيران الصغيرة، وهى تعبر السقالة. وكنتُ فى ذلك الوقت قد أنجبتُ ابنتى أم كلثوم، فلما عدت إلى الدهبية فى ذلك اليوم المشئوم قالت لى زوجتى: «إن لم تبحث لنا عن شقة سكنية بعيدا عن هذه الدهبية فسوف أعود إلى الإسكندرية ومعى البنت».!. كان تهديدها جادا لدرجة أننى نزلت فورا، وأخذت أدور على الشقق حتى عثرت على الشقة التى أسكنها حاليا فى شارع النيل بالعجوزة.

لم يكن البحث عن شقة فى ذلك الوقت يمثل أى مشكلة مثلما هو حادث الآن. فلو ذهبت اليوم لأستأجر شقة أقل من المتوسطة، مثل شقة العباسية، لابد أن أدفع عشرات الآلاف من الجنيهات. قديما كان الوضع مختلفا، فعندما ذهبت لاستئجار شقتى الحالية كتبت عقدا شهريا أدفع بموجبه ٣٠ جنيها شهريا، وكان مبلغا ضخما آنذاك، وبعد أن وقعت العقد بأيام قليلة صدر قانون الإسكان الجديد الذى خفض الإيجار إلى ٢٠ جنيها. لقد اضطررت لترك «الدهبية» بعد أن عشقت الحياة فيها، وأتذكر صباحات رائعة فى نافذة «الدهبية»، واستمتعت بمنظر النيل والزهور فى شارع الجبلاية، وفى الليل كنت أسهر مع القمر. ورغم أنى سكنت فى «الدهبية» من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦١ فإن هذه السنوات مرت علىّ فى لمح البصر.

وإلى جانب شقة العجوزة ـ ١٧٢ شارع النيل ـ استأجرت شقة فى الإسكندرية، ولهذه الشقة حكاية. فقد كنت معتادا على استئجار شقة فى الإسكندرية خلال شهر سبتمبر من كل عام لنمضى فترة الصيف، وكان إيجارها فى المتوسط ٢٥ جنيها شهريا. وذات يوم وأنا فى مكتبى بمؤسسة السينما وصلنى خطاب من أحد أصدقائى يخبرنى بضرورة حضورى إلى الإسكندرية لمعاينة شقة جديدة فى حى محرم بك، لكى أستأجرها إذا أعجبتنى. وخرجت من مكتبى إلى الإسكندرية مباشرة دون أن أتصل بزوجتى، وقابلت صديقى وهو من «الدمايطة الشاطرين»، وكان لديه بيت مكون من طابقين.. وقرر الاكتفاء بالطابق الأول له ولأسرته وتأجير الطابق الثانى لإحدى الأسر طول العام بدلا من شهور الصيف فقط، خاصة أن الرجل كان متدينا وعنده بنات، فخشى من تأجيرها للطلبة أو لأحد العزاب. وطلب منى ٨٠ جنيها فى السنة كلها كإيجار للشقة بما فيها نفقات المياه والكهرباء والبواب، فأعجبتنى، ووجدتها فرصة جيدة وكتبت عقد الإيجار. كانت الشقة مكونة من حجرتين صغيرتين ومطبخ وصالة ومرافق وبلكونة، وكانت البلكونة على البحر وتطل على حديقة وقصر قديم. ولما جاءت أسرتى لمشاهدة الشقة سخروا منى واعتبروها ضيقة، ولكن بعد فترة عرفوا قيمة هذه الشقة الضيقة، لأنه لولاها ما صيفنا. فإيجار الشقق ارتفع بعد ذلك بشكل جنونى. والشقة التى كنا نستأجرها بـ ٢٥ جنيها وصلت إلى ٣ آلاف جنيه حاليا. وقامت زوجتى وهى من الإسكندرية أصلا بفرشها وترتيبها وحولتها إلى شقة جميلة، اعتدنا أن نمضى فيها ثلاثة شهور من صيف كل عام.

وفى الإسكندرية كنت أنزل البحر قبل أن أصاب بالحساسية، وفى ذات مرة نزلت ابنتاى البحر وخرجتا وهما تشكوان من حك فى جلدهما. وقال الطبيب إن سبب بعض البقع فى الجلد هو التلوث فى البحر، ولم يكن تلوث البحر ظاهرة شائعة آنذاك. ومن ذلك اليوم قررت ابنتاى مقاطعة البحر، كما سبق لى أن قاطعته بسبب الحساسية، وأصبحت الإسكندرية بالنسبة لابنتىَّ مدينة مملة. كانتا تذهبان للجلوس فى مقهى، وأذهب أنا بمفردى أو بصحبة توفيق الحكيم إلى البحر. أما زوجتى فكانت تذهب للبحر أحيانا ولكنها لا تنزل فيه أبدا. وبعد أن عرفت ابنتاى بوجود رحلات سياحية جماعية لتمضية فصل الصيف فى الخارج، أصبحتا تعشقان المجموعات السياحية، وتسافران مرة إلى النمسا، وأخرى إلى أسبانيا، وثالثة إلى سويسرا، أما الإسكندرية فقد تركتاها لى. وكانت مشكلة هذه المجموعات السياحية أن مدة الرحلة لا تزيد على أسبوع أو عشرة أيام، تعودان بعدها إلى

شقة العجوزة لا تغادرانها، ولم أكن أستطيع أن أتركهما بمفردهما بطبيعة الحال. وحلا لهذا الإشكال كنت أمضى أسبوعا فى الإسكندرية ومثله مع البنتين فى القاهرة وأصبحت منذ ذلك الحين أمضى شهور الصيف على هذا المنوال.

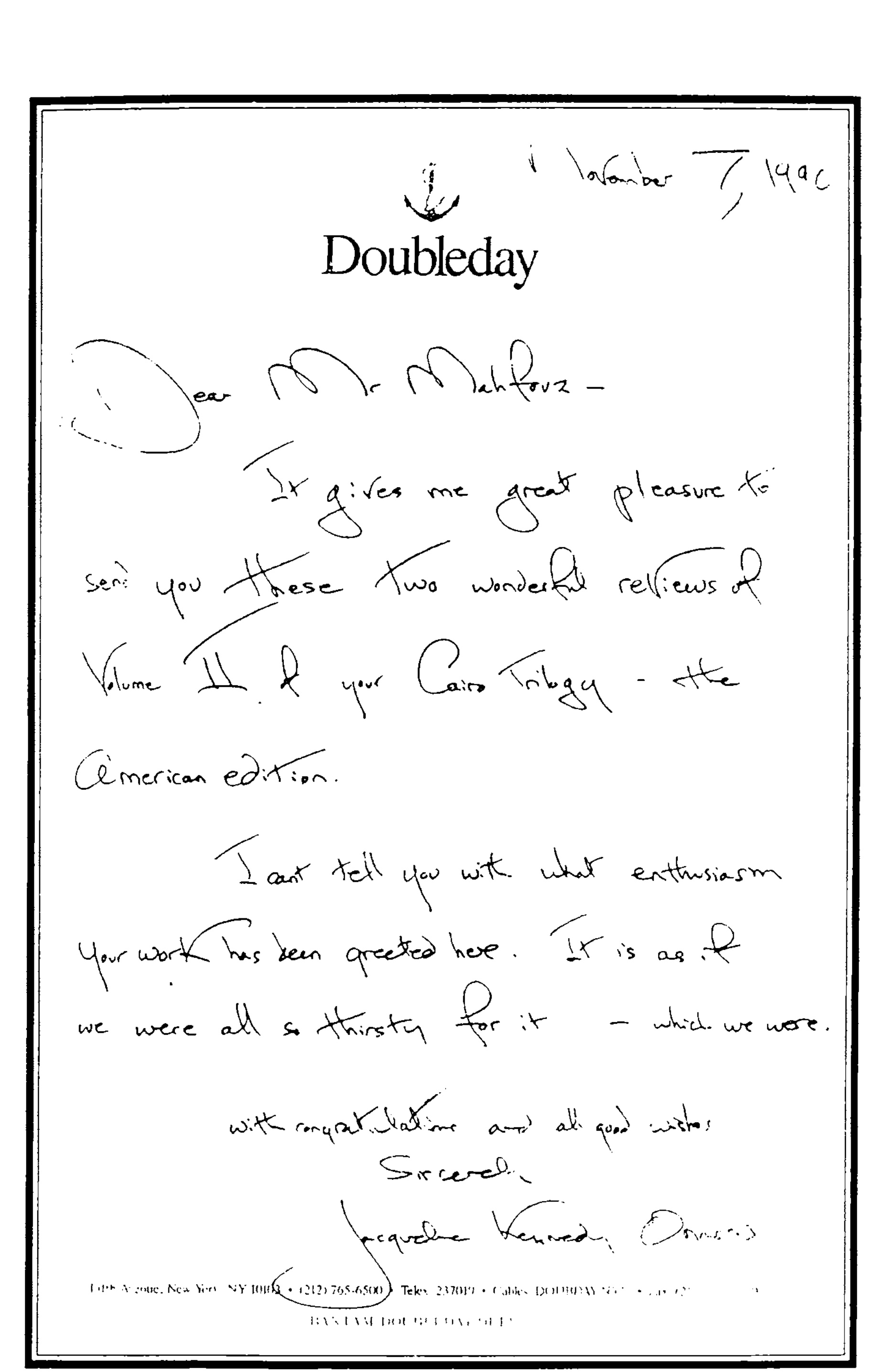
خطاب من جاكلين كنيدى

تلقيت خطابا من السيدة جاكلين كنيدى جاء فيه:

«عزيزى نجيب محفوظ: يسرنى أن أبعث إليك بتعليقين ممتازين حول المجلد الثانى من الطبعة الأمريكية من روايتك (الثلاثية) المعروفة: (قصر الشوق). لا أستطيع أن أصف لك الحماس الذى قوبلت به روايتك. لقد أحسسنا جميعا كما لو كنا متعطشين إلى أبعد حد لقراءة مثل هذا العمل. مع أخلص التهنئة وأطيب التمنيات.

المخلصة جاكلين كنيدى أوناسيس ـ ٧ نوفمبر ١٩٩٠.

* * *



November 7, 1990

Doubleday

Dear Mr Mahfouz –

It gives me great pleasure to send you these two wonderful reviews of Volume II of your Cairo Trilogy – the American edition.

I can't tell you with what enthusiasm your work has been greeted here. It is as if we were all so thirsty for it – which we were.

With congratulations and all good wishes

Sincerely,

Jacqueline Kennedy Onassis

Avenue, New York, NY 10103 • (212) 765-6500 • Telex 237019 • Cables DOUBDAY

BANTAM DOUBLEDAY DELL

صورة من خطاب جاكلين كنيدى إلى نجيب محفوظ

الفصل الرابع والعشرون

جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ

مقدمات ودلائل سبقت محاولة اغتيال نجيب محفوظ ـ الإمام الخوميني يهدر دم سلمان رشدي ومحفوظ يعترض ـ صحيفة «النور» الدينية تعتبر سلمان رشدي ونجيب محفوظ وجهين لعملة واحدة ـ عمر عبد الرحمن في مسجده بالفيوم يفتي بأن نجيب محفوظ «مرتد» ـ نص فتاوى تكفير محفوظ المتعددة ـ محفوظ يظن أن قاتله قارئ يتقدم منه لمصافحته ـ نص التقرير الطبي عن عملية إنقاذ محفوظ ـ سر الضبط السريع للإرهابيين الذين حاولوا اغتيال نجيب محفوظ ـ المحاولة الأولى: باقة زهور وزى خليجي ـ بيان للإخوان المسلمين يستنكر الاعتداء على الأديب الكبير ـ إميل حبيبي يقول لمحفوظ: أوْهَمْنا أعداء الثقافة بأن دمنا مباح ـ محفوظ لم ير وجه المجرم وشعر كأن وحشا نشب أظافره في عنقه ـ محفوظ يأسف لوضع حواجز أمنية بينه وبين الناس ـ فشل خطة خطف نجيب محفوظ واحتجازه رهينة ـ المجرم يقول قبل إعدامه: «لم نقرأ «أولاد حارتنا» ولست نادما!!.

■ جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ والتى وقعت يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤ لم تحدث هكذا فجأة، بل كان لها مقدمات واضحة. فمنذ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨، وهو يتعرض لحملة شديدة من جانب أنصار التيار الدينى المتطرف، بحجة أنه حصل على الجائزة بسبب رواية «أولاد حارتنا»، وهى الرواية التى يعتقدون أنها كفر صريح. وقبل ست سنوات من محاولة الاغتيال، أصدر الشيخ عمر عبد الرحمن مفتى تنظيم الجهاد المتطرف فتوى صريحة بإهدار دم نجيب محفوظ عقابا له على الرواية، وعلى موقفه من أزمة سلمان رشدى. وهذا الملف الخاص عن القضية ينقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية؛ الأول: عن مقدمات حادث الاغتيال، والثانى: عن وقائع الحادث نفسه، والثالث: عن تطورات ما بعد الحادث حتى صدور الحكم على المتهمين فى قضية محاولة الاغتيال والتى حملت رقم (٢٤) جنايات عسكرية.. ■

مقدمات حادث الاغتيال

جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ لم تحدث فجأة، بل سبقتها مقدمات ودلائل تشير إلى وجود نوايا للاعتداء عليه من جانب الجماعات المتطرفة، وذلك بسبب موقفه المعارض لفتوى الإمام الخومينى بإهدار دم سلمان رشدى عقابا له على روايته «آيات شيطانية» التى تعتبرها الجماعات الإسلامية كفرا واضحا ومساسا بالإسلام ورسوله. ففى ١٨ فبراير ١٩٨٩ نشرت جريدة «أخبار اليوم» فى صفحتها الأولى تحت عنوان «نجيب محفوظ: الفكر لا يحارب إلا بالفكر» ما يلى:

«أدان الكاتب الكبير نجيب محفوظ قرار الإمام الخومينى بإهدار دم الكاتب الهندى سلمان رشدى بسبب تأليفه كتاب «آيات شيطانية». قال نجيب محفوظ: إن محاربة الفكر لا تكون إلا بالفكر. وقد ألفت المئات من الكتب ضد الإسلام طوال القرون الماضية، ورغم ذلك فقد انتشر الإسلام وقويت شوكته، وذلك لأنه لا يمكن لكتاب مهما كان شأنه أن يهز عقيدة أو دينًا».

وفى اليوم نفسه نشرت جريدة «الأهرام» قصة خبرية حول أزمة سلمان رشدى اختتمتها الصحيفة بالقول:

«وفى نفس الوقت أعلن الأديب المصرى نجيب محفوظ أنه يجب عقاب الإمام الخومينى على قراره بقتل سلمان رشدى».

وكان نجيب محفوظ قد أدلى بتصريح لوكالة رويتر البريطانية حول نفس الموضوع وبثته الوكالة فورا حيث قال:

«إن القتل جريمة، والتحريض عليه أيضا جريمة. وأضاف أنه لم يقرأ الرواية التى رفضها الأزهر، ويرى أن الطريق الأفضل هو تحليل الرواية والرد المنطقى على ما تحتويه».

لم يكن نجيب محفوظ يستطيع أن يعلن هذه الآراء ويمضى فى أمان، فإن محفوظ الذى ينادى بحق الحرية لأى شخص، والذى لا يرى القتل والاغتيال والتحريض عليهما من الأعمال المناسبة للتعامل مع الفكر والأدب، لم يسلم من المتطرفين والمتشددين، الذين إذا لم تكن معهم فأنت ضدهم وعدوهم كما يتصورون، وتفاعلت القضية بشكل لم يخطر على بال أحد. ففى يوم الأربعاء ٢٢ فبراير ١٩٨٩ صدرت صحيفة «النور» الإسلامية، وقد شغلت قضية سلمان رشدى المانشيت الرئيسى لها وأكثر من نصف العدد المكون من عشر صفحات من القطع الكبير للصحف. وربطت «النور» بين سلمان رشدى ونجيب محفوظ واعتبرتهما وجهين لعملة واحدة، بل اعتبرت أن سلمان رشدى من تلاميذ رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» الذين باعوا أنفسهم للشيطان على حد تعبير الصحيفة. وفى مقال على الصفحة الأخيرة بأكملها فضلا عن بقية للمقال فى الداخل كتب مصطفى عدنان[١] يقول:

«لن أغضب بعد أن نزل نجيب محفوظ منذ أيام ليناضل مع توءم «أولاد حارته»، مع مؤلف «آيات شيطانية»، فقد عذرته لأن هذا قد يطرح قضية دمه».

وربما كان هذا التهديد الصريح لحياة نجيب محفوظ هو أول تهديد من نوعه ينشر فى الصحافة المصرية كما كتب الناقد السينمائى سمير فريد فى مقال له بمجلة «لوموند ديبلوماتيك» ـ عدد مارس ١٩٨٩ ـ تعليقا على مقال الصفحة الأخيرة بجريدة «النور».

---

(١) مصطفى عدنان هو اسم مستعار للكاتب الصحفى رائد العطار، وهذا ليس مجرد اجتهاد قابل للخطأ، بل هو حقيقة يمكن إثباتها بالمقارنة بين كتابات مصطفى عدنان وكتابات رائد العطار، ومن الطريف أن رائد العطار نفسه لم يكن ينفى أنه صاحب المقالات الموقعة باسم «مصطفى عدنان».

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تلقف أئمة التطرف الإشارة، وبدأت منابر المساجد التى كانوا يسيطرون عليها تبث سمومها. فعلى مدار العام ١٩٨٩ ردد الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن فى أكثر من خطبة له بمسجده فى الفيوم فتواه بأن نجيب محفوظ مرتد عن الإسلام. وكان الشيخ عمر قد أدلى بحديث لجريدة «الأنباء» الكويتية فى أبريل ١٩٨٩ جاء فيه:

«إنه من ناحية الحكم الإسلامى فسلمان رشدى ومثله نجيب محفوظ مرتدان، وكل من يتكلم عن الإسلام بسوء فهو مرتد، والحكم الشرعى أن يستتاب، فإن لم يتب قتل. لو نُفذ هذا الحكم فى نجيب محفوظ عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب سلمان رشدى».

وهكذا كانت الفتاوى جاهزة لإراقة دم الكاتب الكبير، ولا يبقى بعد ذلك أمام المتطرفين غير التنفيذ!

يوميات محاولة الاغتيال

الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤.

الساعة الخامسة مساءً أمام منزل نجيب محفوظ (١٧٢ شارع النيل ـ العجوزة).

كان الكاتب الكبير يستعد للذهاب كعادته كل يوم جمعة إلى ندوته الأسبوعية التى يلتقى فيها أصدقاءه وتلاميذه ومريديه فى كازينو «قصر النيل». أمام المنزل كان صديقه الدكتور البيطرى «فتحى هاشم» يقف فى انتظاره لينقله إلى الكازينو، بسيارته «الفيات ـ ريجاتا» الحمراء والتى تحمل رقم ٣٢٨٧٩٦ ملاكى القاهرة. وبمجرد أن جلس نجيب محفوظ فى المقعد الأمامى للسيارة، واستدار الطبيب فتحى هاشم ناحية الباب الآخر للسيارة وهم بفتحه، اقترب أحد الأشخاص من نجيب محفوظ. فى البداية ظن الكاتب الكبير أنه واحد من القراء يتوجه لمصافحته كما اعتاد منذ سنوات طويلة خاصة فى فترة ما بعد حصوله على جائزة نوبل. ولكن الشخص الغريب باغته واستل «مطواة» وطعنه بها فى رقبته محدثا جرحا غائرا ولاذ بالفرار.

وحدث ارتباك شديد فى المكان مما أدى إلى تضارب فى سرد واقعة هروب المجرم حيث قال البعض إنه هرب فى سيارة مرسيدس صفراء كانت بانتظاره، وهو ما ثبت عدم صحته فيما بعد. فقد استغل المجرم حالة الفوضى والارتباك التى أحدثها وفر على قدميه

ليلتقى بباقى المجموعة الإرهابية فى مكان قريب من بيت نجيب محفوظ. ولم يتمكن الطبيب فتحى هاشم من ملاحقة المجرم لأنه انشغل فى إسعاف نجيب محفوظ، وكان تصرفه سليما. فقد أسرع بتوصيل الكاتب الكبير إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة والذى يقع على بعد أقل من دقيقة واحدة من مكان الحادث، وأدخل محفوظ على الفور إلى غرفة العمليات وهو ينزف، وتم استدعاء عدد كبير من أهم الأطباء المصريين لمتابعة حالة نجيب محفوظ. واستدعى الأطباء أحد أصدقاء نجيب محفوظ وهو يحمل نفس فصيلة دمه (B) وذلك لتعويض النزيف الحاد، بعد أن ثبت إصابته الشديدة فى شرايين الرقبة من الناحية اليمنى. وقد وصف الأستاذ الدكتور سامح همام أستاذ جراحة الأوعية الدموية بطب القاهرة الذى أجرى عملية لإيقاف النزيف، فى حديث صحفى منشور بمجلة «المصور» الأسبوعية القاهرية حالة نجيب محفوظ بقوله:

«أحدثت الطعنة تهتكا فى عضلات الرقبة من الجهة اليمنى وتهتكا بالوريد الودجى الخارجى والداخلى الأيمن. هذا التهتك رغم خطورته لم يكن هو الذى يهدد كاتبنا الكبير بصفة أساسية بل التهديد الأخطر كان من النزيف الشريانى المندفع من عمق الجرح، والذى ثبت أنه قادم من الشريان الفقرى الأيمن المخترق للنتوءات المستعرضة للفقرات العنقية. هذا الشريان بالذات له وضعه التشريحى الخاص، فهو يمثل مشكلة كبيرة لصعوبة الوصول إليه والتحكم فيه، إذ إنه عميق جدا داخل العنق، ومحاط بنتوءات عظمية، وإصابته من الحالات النادرة التى تقابل أى طبيب جراح. وقد قررنا استئصال أجزاء من النتوءات العظمية من الفقرات العنقية الثالثة والرابعة والخامسة الموجودة أمام الشريان. وبهذا تمكنا من تعرية الجزء المصاب من الشريان بطول يصل إلى ٨ سم، وتمت عملية علاجه، واستغرقت العملية ساعتين، تم خلالهما نقل ٨ لترات دم إلى جسم نجيب محفوظ لتعويضه عما فقده أثناء النزف».

تكون الفريق الجراحى المساعد للدكتور سامح همام من كل من الدكتور أحمد البشرى الأستاذ المساعد بقسم الجراحة فى طب القاهرة، والدكتور محمد حسنى مدرس الجراحة بالكلية نفسها، بالإضافة إلى طبيب من مستشفى الشرطة.

وأصدرت وزارة الداخلية بيانا حول الحادث أكدت فيه على لسان مصدر أمنى مسئول أن الاعتداء وقع حوالى الخامسة والربع مساءً، وقام أحد الأشخاص بالتعدى عليه بآلة حادة أحدثت به إصابة بالرقبة، ونقل إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة. وقال المسئول الأمنى إن

الأطباء المعالجين للأديب الكبير أكدوا أن حالته الصحية مطمئنة، وأن أجهزة الأمن تقوم بمواصلة جهودها لضبط الجناة.

وانتقل إلى المستشفى فور إعلان الخبر وزير الصحة الدكتور على عبد الفتاح وكان فى غرفة العمليات عند الإعلان عن الحادث، ووزير الثقافة فاروق حسنى، ووزير الداخلية اللواء حسن الألفى. وحضر للمستشفى عدد كبير من الأدباء والفنانين منهم: ثروت أباظة ويوسف القعيد وجمال الغيطانى ومجيد طوبيا والمخرج توفيق صالح والفنان أحمد مظهر، بالإضافة إلى زوجة نجيب محفوظ وابنتيه. وأوفد الرئيس حسنى مبارك، حاتم سليمان أمين رئاسة الجمهورية إلى المستشفى بعد إذاعة الخبر للاطمئنان على صحة نجيب محفوظ وإبلاغه تمنيات الرئيس له بالشفاء العاجل.

وقامت نيابة العجوزة بمعاينة موقع الحادث مساء نفس اليوم، وتبين من المعاينة وجود آثار دماء متساقطة على باب السيارة الأيمن، وعلى المقعد الذى كان الأديب الكبير يجلس عليه، وطالبت النيابة بسرعة ضبط وإحضار الجناة.

أكد الأطباء الذين أجروا العملية الجراحية العاجلة لنجيب محفوظ أن حالته الصحية تحتاج إلى مراقبة دقيقة لمدة ٧٢ ساعة حتى تستقر تماما. وكان أول ما طلبه نجيب محفوظ بعد أن أفاق من البنج نظارته الطبية وسماعة الأذن.

قبل الحادث بحوالى ثلاث ساعات، أى فى حوالى الثانية من ظهر يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، اتصلت الإذاعة السويدية بالأديب الكبير نجيب محفوظ، وسألته عن الأديب اليابانى «كونزوا» الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٩٤ فى ليلة الحادث، فأجابها نجيب محفوظ بأنه لا يعرف هذا الأديب ولم يقرأ له.

السبت ١٥ أكتوبر ١٩٩٤.

نجحت مباحث أمن الدولة فى القبض على اثنين من الإرهابيين المشتبه فى ارتكابهم لجريمة الاعتداء على نجيب محفوظ، بينما لقى اثنان آخران مصرعيهما فى اشتباك مع الشرطة داخل وكر للإرهابيين بمنطقة عين شمس شرق القاهرة، وتبين أن الجناة ينتمون للجناح العسكرى فى تنظيم «الجماعة الإسلامية» المحظورة بمصر. وأصدرت وزارة الداخلية البيان التالى:

«خلال فترة زمنية وجيزة لم تتجاوز ٢٤ ساعة تمكنت أجهزة مباحث أمن الدولة من

خلال قاعدة معلوماتها عن العناصر الإرهابية وخرائط بؤرها وجهود البحث المكثفة والتحريات الموسعة، من ضبط العناصر التى ارتكبت الحادث الإجرامى الأثيم بالاعتداء الوحشى على الكاتب الكبير نجيب محفوظ. وجاء اختيار الجناة لتوقيت ارتكاب الحادث فى نفس يوم حصول الكاتب الكبير على جائزة نوبل منذ ٦ سنوات، والتى طوقت أعناق المصريين بالفخر والتقدير، ليؤكد مدى الحقد الأسود الذى سيطر على نفوس العناصر الإرهابية المتطرفة تجاه مصر ورموزها ومواطنيها، وأهدافهم الدنيئة فى تقويض كل الإنجازات الوطنية فى مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتجردهم من كل معانى الإنسانية والوطنية. وارتكزت خطة مباحث أمن الدولة للبحث عن أعضاء التحرك الإرهابى الذى اضطلعت عناصره بتنفيذ الجريمة البشعة ضد الكاتب نجيب محفوظ بطعنة بمدية برقبته أثناء تواجده بالسيارة رقم ٣٢٨٧٩٦ ملاكى القاهرة أمام منزله بالعقار رقم ١٧٢ شارع النيل بالعجوزة مساء يوم ١٤ الجارى، على سرعة التحرك وتمشيط منطقة الحادث، وإحكام السيطرة على منافذها، والوقوف على خطوط ومسارات الهروب المحتملة للجناة، ومناقشة الشهود الذين أدلوا بأوصافهم وأسلوب تحركهم على مسرح الجريمة، واستخدام الأساليب العلمية الحديثة فى تحديدهم ورصد حركتهم واتصالاتهم من خلال شبكة مراقبات واسعة، والسيطرة عليها باستخدام مجموعة من الأكمنة السرية المدعومة لاسلكيا. وتتابعت النتائج الإيجابية للخطة محققة لأهدافها بتوفيق من الله تعالى، حيث نجحت مجموعات العمل المكلفة بمهام البحث فى تحديد المجموعة القيادية للتحرك الإرهابى وأوكارهم الرئيسية ومواقع اتصالاتهم وأماكن اختفائهم. وتبين قيام الإرهابى «باسم محمد خليل شاهين» بمسئولية هذا التحرك عقب دفعه للبلاد بتكليف من القيادات الهاربة لتنظيم الجماعة الإسلامية بالخارج لتخطيط وتنفيذ العديد من عمليات العنف والإرهاب التى تستهدف بعض الشخصيات، فضلا عن القيام ببعض عمليات التفجير. ودلت التحريات على أن المتطرف «باسم» محكوم عليه بالسجن ٣ سنوات فى القضية رقم ٢٣٠/ ٩٢ حصر أمن دولة عليا (اغتيال د. فرج فودة). كما أكدت المعلومات قيام قيادات التنظيم بالخارج بربط الإرهابى «باسم» بإحدى المجموعات العنقودية بالداخل، التى تحددت قيادتها التنظيمية فى كل من:

* محمد خضير أبو الفرج المحلاوي: متهم هارب فى العديد من قضايا العنف وقضايا تفجيرات البنوك.

* عبد الحميد محمد أبو زيد.

* المكنى محمد (ويحمل بطاقة مزورة باسم: محمد ناجى محمد مصطفى).

* أحمد حسنى حسن طلبة.

* محمد عبد القاهر السيد.

* حسين على بكر الشرنوبى.

وجميعهم من العناصر المعروفة بانتهاج أعمال العنف والإرهاب.

وبعرض المعلومات التى تم الوقوف عليها تفصيلا على المستشار المحامى العام لنيابة أمن الدولة العليا، أصدر إذنا بضبط جميع العناصر المرتبطة بهذا التحرك، وتفتيش أوكارهم، ومواقع اختفائهم، وبادرت مجموعات مكافحة الإرهاب بمباحث أمن الدولة بتنفيذ الأذون الصادرة، وأسفرت عن الآتى:

* المبادرة بضبط كل من المتهمين عبد الحميد محمد أبو زيد ،ومحمد خضير أبو الفرج المحلاوى بمنطقة المطرية.

* مداهمة المقهى الكائن بتقاطع شارع عين شمس مع شارع إبراهيم عبد الرازق، والذى اتخذه المتهمون «باسم محمد خليل شاهين»، و«عمرو محمد محمد إبراهيم» و«حسين على بكر الشرنوبى» و«المكنى محمد» وكرا لهم. وقد بادروا بإطلاق النيران تجاه قوة الضبط فور وصولها، واضطرت للتعامل معهم بالقدر الملائم للسيطرة على الموقف، مما نتج عنه إصابة الأول ووفاته متأثرا بجراحه، وإصابة الرابع، وأحد المواطنين الذين تواجدوا بالمقهى.

* ثم ضبط كل من المتهمين «أحمد حسنى حسن طلبة» و«محمد عبد القاهر» بأوكار اختفائهما بمحافظتى القاهرة والجيزة.

أدلى المتهمون باعترافات تفصيلية حول مسئوليتهم عن تنفيذ الحادث الإجرامى ضد الكاتب الكبير نجيب محفوظ وذلك على النحو التالى:

- قيام أعضاء المجموعة القيادية برصد منزل الكاتب العالمى عدة مرات للوقوف على مواعيد مغادرته ووصوله لمنزله ووجود حراسة مرافقة له من عدمه.

ـ الاتفاق على تنفيذ جريمتهم الإرهابية باستخدام السلاح الأبيض بعد الإيحاء للمارة بأنهم من المعجبين بالكاتب الكبير مستغلين كبر سنه وضعف حركته.

ـ قيام الإرهابى «باسم محمد خليل شاهين» وبصحبته الإرهابى المكنى محمد فى اليوم السابق على الحادث بارتداء زى أبناء الدول الخليجية، وحملهما لباقة من الزهور، وتوجها لمنزل نجيب محفوظ، لتنفيذ جريمة الاعتداء عليه هناك، إلا أن أهدافهما لم تتحقق نتيجة لعدم تواجده بالمنزل.

ـ فى يوم الحادث توجه كل من المكنى محمد والذى يحمل بطاقة مزورة باسم «محمد ناجى محمد»، والمتهم «عمرو محمد محمد إبراهيم» إلى مكان إقامة الكاتب الكبير حاملين أسلحة بيضاء، وحال مشاهدتهما له داخل سيارة أحد أصدقائه، عاجله الأول بطعنة فى رقبته، باستخدام مطواة، ثم فرا هاربين للالتقاء بباقى المجموعة أعلى كوبرى ٦ أكتوبر.

ـ تبين أن ما أثير حول هروب المتهمين بسيارة ماركة مرسيدس لم يكن دقيقا، حيث تبين من التحقيقات عدم صحة ذلك.

فى هذا اليوم عبرت الدولة والرأى العام السياسى والثقافى عن كامل اهتمامهم بنجيب محفوظ وضرورة إحاطته بكل عناية.

فقد أصدر الرئيس حسنى مبارك قرارا بعلاج الكاتب الكبير على نفقة الدولة سواء فى الداخل أو الخارج. أما رئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقى فقد زار نجيب محفوظ فى المستشفى وبصحبته وزير المالية الدكتور محمد الرزاز ووزير الداخلية اللواء حسن الألفى. وقد بادر محفوظ رئيس الوزراء عند دخوله حجرته بقوله: «خطوة عزيزة»... ولما تقدم منه الدكتور الرزاز مصافحا داعبه بقوله: «والله أنا مسدد الضرائب»!.. وكان ثروت أباظة قد زاره فى صباح هذا اليوم، ووقف بجانبه باكيا، فنظر إليه نجيب محفوظ قائلا: «أنت جاى تعيط هنا.. هو أنت اللى انضربت؟!».

وفى هذا اليوم أعلن أطباء مستشفى الشرطة بالعجوزة أن الكاتب الكبير يجتاز مرحلة الخطر ويسترد وعيه كاملا. كما بعث السكرتير العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس غالى برقية إلى نجيب محفوظ قال فيها: «دعواتنا إلى الله مع الملايين من أبناء مصر والعالم أن يحفظكم وأن يديمكم رمزا وفخرا لمصر». وأصدر اتحاد الكتّاب المصرى بيانا يدين فيه الحادث، كما أصدر الاتحاد العام للفنانين العرب بيانا قال فيه: «إن هذا الاعتداء ليس موجها ضد نجيب محفوظ وحده، ولكن ضد كل كتّاب وفنانى ومفكرى مصر والعالم

العربى». ووصلت إلى الرئيس مبارك برقية عاجلة من الرئيس التونسى زين العابدين بن على، وبرقية مماثلة لنجيب محفوظ بإدانة الحادث.

الأحد ١٦ أكتوبر ١٩٩٤.

أكدت التقارير الطبية تحسن صحة نجيب محفوظ وتوقعت خروجه من المستشفى بعد أسبوع. ووصل إلى الكاتب الكبير نبأ القبض على الجناة، فكان أول تعليق له هو: «أحمد الله على استقرار أمن مصر، ولكل ظالم نهاية، وأدعو الإرهابيين لإلقاء السلاح، وأن يكون الحوار بالكلمة وليس بالسلاح». فى الوقت نفسه أصدرت جماعة الإخوان المسلمين المحظورة فى مصر البيان التالى:

«إن الإخوان المسلمين وقد هالهم ما وقع من اعتداء على الأديب الأستاذ نجيب محفوظ يؤكدون إدانتهم واستنكارهم لأى عدوان من أى مصدر أو جهة على الدماء والأرواح الآمنة، أو على أمن واستقرار مصر وأبنائها. وهم إذ يسألون الله عز وجل أن يحفظ مصر وشعبها وأن يلهم جميع المواطنين ـ حكاما ومحكومين ـ الرشد والرشاد، وصون ورعاية الحقوق والأمانات والحرمات، يؤكدون على أسلوب الحوار بالمنطق والحجة، وصولا إلى الحق، من خلال الإقناع، تجنبا لسبل الانزلاق إلى الفتن والمخاطر التى تهدم وتخرب، وتقطع الطريق أمام الإصلاح الصحيح، ومن ثم تحول دون صحوة الأمة وغايتها فى بناء مجتمع الحب والأخوة والعدل والأمن والحرية».

وتوالت بيانات الإدانة والاستنكار من مجلس الشعب ونقابة الصحفيين والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان. وعلى مستوى التحقيقات، فقد أصدر المستشار رجاء العربى النائب العام قرارا بإحالة ملف التحقيقات فى القضية إلى نيابة أمن الدولة العليا. وبدأت النيابة تحقيقاتها بإشراف المستشار هشام سرايا المحامى العام، وقررت حبس المتهمين ١٥ يوما على ذمة التحقيقات، بعد أن وجهت إليهم عدة اتهامات من بينها: الاشتراك فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب أعمال إرهابية، والشروع العمد مع سبق الإصرار والترصد فى قتل الكاتب الكبير نجيب محفوظ، وإحراز أسلحة نارية وبيضاء بدون ترخيص، وحيازة منشورات مناهضة تم ضبطها فى أوكارهم.

ووصل فى هذا اليوم إلى الكاتب الكبير نجيب محفوظ عدد كبير من برقيات التهنئة بنجاته واستنكار الحادث، ومنها برقية الكاتب الفلسطينى إميل حبيبى التى جاء فيها:

«أنا لا أستبعد أن يكون المعتدى كاتبا أديبا أو شاعرا أو ناقدا زميلا، حتى ولو لم يكن زميلا، فبأيدينا أهدرنا دماء بعضنا البعض، حتى أوهمنا أعداء الثقافة بأن دمنا مباح. فلعل بلوغ السكين عنق نجيب محفوظ يوقظنا على المصيبة قبل أن تبلغ الزبى، يقينا أن المعتدى واحد من الخفافيش، ولكن من أوهم الخفافيش بأن الشمس لم تشرق بعد على مجتمعنا، ومن علمها طعن الحناجر (بالحاء لا بالخاء). وإذ أهنئ بالسلامة شيخنا وفارس حرية التعبير فى ديارنا نجيب محفوظ، فإنى أدعو المهنئين لأن يضيفوا إلى دعائهم قليلا من الابتعاد عن تكفير الرأى الآخر. وقد يجد نجيب محفوظ عزاء فى حالنا التى كثيرا ما قادتنا إلى ترديد شعر المتنبى:

كفا بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا..»

وتعدد زوار نجيب محفوظ، فقد زاره هذا اليوم كل من رئيس مجلس الشعب الدكتور فتحى سرور ونائب رئيس الوزراء وزير الزراعة الدكتور يوسف والى وأمين التنظيم بالحزب الوطنى كمال الشاذلى ووزير الشئون البرلمانية الدكتور محمد زكى أبو عامر ووزير التعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين ومحافظ الجيزة الدكتور عبد الرحيم شحاتة والكاتب الإسلامى الدكتور مصطفى محمود ووزير الإعلام الأسبق محمد فائق وسفير تونس بالقاهرة. وقد بدأ نجيب محفوظ العلاج الطبيعى تحت إشراف العميد طبيب يسرى الحفناوى، بالإضافة إلى طاقم طبى مكون من الدكاترة سامح همام وأحمد البشرى ومصطفى الشربينى وعبد الحارث أحمد وأسامة النحاس وعلى صادق.

الاثنين ١٧ أكتوبر ١٩٩٤.

نشرت صحيفة «الأهرام» الصادرة فى هذا اليوم أول حديث للصحافة يدلى به الكاتب الكبير نجيب محفوظ بعد الحادث. وقد أجراه معه قبل النشر بيوم واحد الكاتب الصحفى محمد سلماوى. ومما قاله فى الحديث:

«إننى لم أر الشاب الذى اعتدى علىّ.. لم أر وجهه.. الذى حدث هو أننى وأنا أهمّ بركوب السيارة لأذهب لموعدى مع أصدقائى فى الندوة الأسبوعية، وجدت شخصا يقفز بعيدا، وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة، وكأن وحشا قد نشب أظافره فى عنقى.. وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث..».

«إن الشاب الذى رأيته يجرى كان شابا يافعا فى ريعان العمر.. كان من الممكن أن يكون بطلا رياضيا أو عالما أو واعظا دينيا.. فلماذا اختار هذا السبيل؟. لست أفهم!..».

«سيعز علىّ كثيرا أن أرغم على الابتعاد عن الناس، وأن تكون بينى وبينهم حواجز أمنية. إن حياتى كانت دائما وسط الناس. ولم أر منهم إلا كل الحب.. لماذا تريدوننى أن أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التى طالما أحاطنى بها الناس؟!..».

فى صباح هذا اليوم زارت حرم رئيس الجمهورية السيدة سوزان مبارك نجيب محفوظ واطمأنت على حالته الصحية، وأعرب الكاتب الكبير عن تقديره وامتنانه لزيارة السيدة قرينة الرئيس، وقال لها: «زيارتك هذه بالدنيا كلها». وزارته كذلك قرينة الدكتور عاطف صدقى، ووزير السكان الدكتور ماهر مهران، ورئيس حزب الأمة أحمد الصباحى، ورئيس قطاع الإنتاج بالتليفزيون المصرى ممدوح الليثى، وسفير السويد بالقاهرة، ومدير الإدارة العامة للشئون المعنوية بالقوات المسلحة اللواء سمير فرج نائبا عن المشير حسين طنطاوى وزير الدفاع.

أحدث تقرير طبى أكد استقرار الحالة الصحية لنجيب محفوظ تماما بعد أن أمكن السيطرة على اضطراب ضربات القلب والارتفاع الطفيف فى الضغط ونسبة السكر، وقرر الأطباء منع الزيارة عنه بشكل مؤقت حرصا على عدم تعرض الكاتب الكبير للإجهاد.

وصدرت فى هذا اليوم إدانه قوية للحادث من البابا شنودة بطريرك الكرازة المرقسية بمصر، ووصفه فى تصريح له عقب عودته من زيارة للولايات المتحدة بأنه اعتداء على رمز من رموز مصر، وقال إن الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامى لم يقرأوا أى عمل من أعماله الأدبية.

الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٩٤

تعرف الشاهد الرئيسى فى القضية الدكتور البيطرى فتحى هاشم على صورة المتهم الأول محمد ناجى مصطفى الذى نفذ الجريمة خلال عرض مجموعة من الصور عليه. وعثرت مباحث أمن الدولة على الملابس التى كان يرتديها المتهم محمد ناجى ـ ويعمل نقاشا ـ وقت ارتكاب الجريمة والتى أخفاها داخل أحد الأوكار بمنطقة «الخصوص» بحى الخانكة، وهى عبارة عن قميص مقلم وبنطلون. وكشفت التحقيقات الموسعة مع خلايا التنظيم الإرهابى المتهم فى الحادث عن أنهم خططوا لتفجير معرض القاهرة الدولى للكتاب المقرر عقده فى يناير ١٩٩٥. وكشفت التحقيقات أيضا عن مفاجأة مثيرة حيث

اعترف المتهمون بأنهم خططوا لاختطاف الكاتب الكبير داخل سيارة أجرة واحتجازه كرهينة داخل وكرهم بالخانكة مقابل الإفراج عن عدد من قياداتهم المحتجزين بالسجون، إلا أن تأخر المتهمين فى إحضار السيارة حال دون تنفيذ عملية الاختطاف، وأدى لتعجل المتهم محمد ناجى بطعن نجيب محفوظ.

ضم فريق التحقيقات مع المتهمين رؤساء النيابة: ياسر رفاعى وعلى الهراوى وعادل فياض وعبد المنعم الحلوانى، ووكلاء النيابة: محمد حلمى قنديل وعمرو فاروق وهشام عبد المعطى وأشرف العشماوى.

الأربعاء ١٩ أكتوبر ١٩٩٤.

وجه الكاتب الكبير نجيب محفوظ من غرفة العناية المركزة بمستشفى الشرطة بالعجوزة رسالة إلى مؤتمر المثقفين الذى عقد فى اليوم التالى (الخميس) بمسرح البالون القريب من المستشفى ومن منزل الكاتب الكبير، قال فيها:

«فليجتمع المثقفون جميعا حول مبدأ واحد هو الحرية، لأن الثقافة لا تكون إلا بالحرية، فلنترك جميع خلافاتنا جانبا، ونتفق على رفع راية الحرية عالية فى وجه جميع أشكال العنف والإرهاب».

وفى اليوم نفسه اتهم الأديب جمال الغيطانى فى حديث له مع جريدة «الوفد» المعارضة، الإخوان المسلمين بتنفيذ حادث الاغتيال قائلا:

«ليس فى هذا شك، فهم أصحاب المصلحة فى تصفيته جسديا، وأعتقد أن جماعات الإرهاب هى مجرد أذرع للإخوان واليد الطولى لهم. جماعة الإخوان هى الخطر الحقيقى الذى يهددنا..».

الخميس ٢٠ أكتوبر ١٩٩٤.

أدلى نجيب محفوظ بأقواله اليوم أمام النيابة، وفيها اتهم جماعة الدكتور عمر عبد الرحمن مفتى الجماعة الإسلامية بتدبير وارتكاب الحادث. وقال أمام رئيس نيابة أمن الدولة العليا عادل فياض إن عمر عبد الرحمن أصدر فتوى بإهدار دمه عام ١٩٨٨ عقب حصوله على جائزة نوبل للآداب، وأن أحد الصحفيين الكويتيين أبلغه بهذه الفتوى. ومن بين أقوال نجيب محفوظ فى جلسة استغرقت ٣ ساعات مع رئيس النيابة:

«إن مرتكبى الحادث وغيرهم من أنصار هذه الجماعة لم يقرأوا رواية «أولاد حارتنا». فالرواية لا تتعارض مع الأديان أو تطعن فى الذات الإلهية، فهى تعرض تصورا للخير والشر، لكن هؤلاء فسروا الرواية حسب هواهم».

السبت ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤.

رفض الكاتب الكبير نجيب محفوظ فكرة السفر إلى ألمانيا لإجراء عملية جراحية لإزالة المياه البيضاء من عينيه. وقال إنه يفضل أن يجريها فى مصر على يد الأطباء المصريين الذين يتميزون بقدرات مهنية عالية. وفى هذا اليوم زاره وزير الإعلام صفوت الشريف.

الأربعاء ٢٦ أكتوبر ١٩٩٤.

أعادت جريدة «الأهالى» المعارضة ـ لسان حال حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ـ نشر رواية «أولاد حارتنا» مع مقدمة قصيرة بعنوان: «لماذا هذه الرواية الآن؟». وقالت «الأهالى»:

«لأن مبدعها الأصيل يرقد حاليا فى مستشفى الشرطة، مصابا بمطواة فى رقبته، طعنه بها شقى من الأشقياء، الذين قال لهم فقهاء الحاكمية: إن «أولاد حارتنا» رواية ملحدة، وصاحبها ملحد، لابد من استتابته وقتله..».

وكتب الدكتور جابر عصفور مقدمة نشرتها جريدة «الأهالى» مع نص الرواية.

وفى هذا اليوم كشف المتهم الأول فى الجريمة تفاصيل مثيرة فى حديث نشرته جريدة «الأهرام». فقد روى المتهم الفتاوى الصادرة من قادة الجماعة الإسلامية بمصر بإهدار دم نجيب محفوظ بحجة تعرضه للدين الإسلامى فى رواية «أولاد حارتنا». وقال:

«لم نقرأ الرواية ولكن تكليفا صدر إلينا بقتل مؤلفها بعد قيام الجماعة باغتيال فرج فودة. وأضاف أنه ليس نادما على ما فعل، ولو قدر له الخروج من السجن فسيعيد ارتكاب المحاولة».

الخميس ٢٧ أكتوبر ١٩٩٤.

رد الكاتب الكبير نجيب محفوظ على أقوال المتهم الأول محمد ناجى فى حديثه «للأهرام». وقال نجيب محفوظ:

«لا يجوز الحكم بالكفر غيابيا على الناس دون مناقشتهم. كما لا يجوز إصدار الأحكام من أشخاص غير مؤهلين للفتوى، ولا يفهمون دينهم الفهم الصحيح».

«مازلت أكرر أن «أولاد حارتنا» مجرد عمل أدبى يجب النظر إليه بهذا المفهوم، وأنها رواية تنتهى بتأكيد أهمية الإيمان بوجود الذات الإلهية».

الثلاثاء ١ نوفمبر ١٩٩٤.

صدر قرار بإحالة المتهمين فى حادث الاعتداء على نجيب محفوظ إلى القضاء العسكرى...

الثلاثاء ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤.

لقاء تاريخى بين نجيب محفوظ والشيخ محمد الغزالى بمستشفى الشرطة بالعجوزة حيث ما زال نجيب محفوظ يقيم منذ وقعت محاولة الاغتيال. تم اللقاء فى غرفته رقم ٩٢٠ بالدور التاسع وحضره الكتّاب: أحمد بهجت ويوسف القعيد ومحمد عبد القدوس وجمال الغيطانى ويحيى مختار (قاص مصرى معروف بكتاباته عن أهل النوبة) وذلك بالإضافة إلى زوجة نجيب محفوظ وابنتيه ونجل الشيخ الغزالى. ومما قاله الشيخ الغزالى فى هذا اللقاء:

«لقد أدنت محاولة الاغتيال فى اليوم التالى لوقوعها، أنا ضدها على طول الخط، والمحاولة لا يقرها شرع ولا دين، والإسلام دين السماحة والعقل والتفكير».

«الذى يفتى فى الناس لابد أن يكون من العلماء الذين يعلمون أصول الدين، والشيخ كشك[١] رجل جاهل، وقد كتبت عنه، ووقف ضدى».

«أما عمر عبد الرحمن فهو إنسان مريض».

---

(١) هو المرحوم الشيخ عبد الحميد كشك، وكان خطيبا لمسجد كوبرى القبة، وقد تعود فى خطبه التى كان يلقيها يوم الجمعة من كل أسبوع، أن يهاجم نجيب محفوظ بعنف ويتهمه بالارتداد عن الإسلام، وقد أصدر الشيخ كتابا بعنوان: «كلمتنا فى أولاد حارتنا» يردد فيه اتهامه لنجيب محفوظ بالارتداد عن الإسلام. وقد منعت الدولة الشيخ عبد الحميد كشك من الخطابة فى المسجد فى سنواته الأخيرة لما دأب عليه من التحريض على القتل والإرهاب.

الثلاثاء ٦ ديسمبر ١٩٩٤.

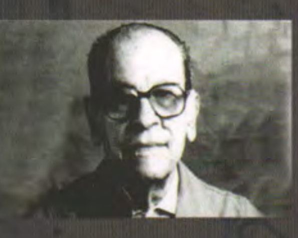
عقدت المحكمة العسكرية العليا أولى جلساتها لنظر القضية التى حملت رقم (٢٤) جنايات عسكرية إدارة المدعى العام الاشتراكى لسنة ١٩٩٤.

الأربعاء ١١ يناير ١٩٩٥.

أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها فى قضية محاولة اغتيال نجيب محفوظ. وقضت بإعدام كل من المتهم الأول محمد ناجى محمد مصطفى والمتهم الثالث محمد خضير أبو الفرج المحلاوى. وبالسجن المؤبد لكل من المتهم الثانى عمرو محمد محمد إبراهيم، والمتهم الرابع حسين على بكر. وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما للمتهم الخامس محمد عبد القاهر السيد. وبالأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات لكل من المتهم العاشر ياسر أبو عطية والثانى عشر عبد الحميد محمد أبو زيد. وبالسجن ٥ سنوات على المتهم السادس على جمعة على، وبالسجن ٣ سنوات على كل من المتهم الثامن مصطفى عبد الباقى، والتاسع أحمد حسن أحمد، والثالث عشر محمد معوض عبد الرحمن، والخامس عشر فيصل شحاته محمد. كما قضت المحكمة ببراءة كل من المتهم السابع عبد الناصر جمعة على، والرابع عشر على حسن سباق، والسادس عشر صلاح محمد محروس.

وكان قرار الاتهام قد شمل ١٦ متهما، وحملت القضية رقم ٩١٧ لسنة ١٩٩٤ حصر أمن دولة عليا، وأصبحت تحمل رقم (٢٤) جنايات عسكرية لعام ١٩٩٤. وضم قرار الإحالة ٢٥ شاهدا للإثبات أبرزهم الدكتور فتحى هاشم، والطفل يوسف شوقى (١٢ سنة) الذى شهد هروب الجناة. واستمعت المحكمة إلى مرافعات ١٦ محاميا من بين ٢٥ محاميا أثبتوا حضورهم كموكلين عن المتهمين الستة عشر. وأكدت المحكمة فى أسباب حكمها أن أعضاء التنظيم أرادوا جرح أمن وسلامة بلدهم بأيديهم، وأنهم هدفوا لاغتيال الرموز الفكرية، حيث لم يكن حادث نجيب محفوظ إلا بداية لسلسلة من الجرائم.

* * *



صفحات من مذكرات نجيب محفوظ

برغم أن الكاتب الكبير **نجيب محفوظ** رفض بإصرار أن يكتب سيرته الذاتية، فقد نجح الناقد الكبير **رجاء النقاش** في إقناعه بأن يحكيها له بدلًا من كتابتها. وعلى مرّ ١٨ شهرًا من أغسطس ١٩٩١ روى **محفوظ** سيرة حياته للنقّاش مسلّطًا الضوء على جوانب عديدة من شخصيته كان أغلبها بمثابة مفاجآت لقرائه ومحبيه. هنا يدلي الكاتب الكبير برأيه في كل صغيرة وكبيرة عن الأدب والسينما والسياسة في مصر؛ فيصف مراحل طفولته وتجارب شبابه، ثم يتناول رواياته التي أثارت أزمات صحفية وسياسية، كما يدلي بآراء صريحة في زعماء مصر منذ **سعد زغلول** إلى الآن، وكذا قصته مع جائزة **نوبل** وأثرها في حياته. وقبل أن يختتم **النقّاش** كتابه باستعراض محاولة اغتيال **محفوظ** وملابسات الحادث والقضية، وغير ذلك الكثير من الأسرار التي تُنشر لأول مرة تجده في هذا الكتاب يقدّم سيرة ذاتية غير رسمية **لنجيب محفوظ**.

رجاء النقاش (١٩٣٤-٢٠٠٨) واحد من أهم النقاد في العالم العربي. اكتشف العديد من المواهب والأسماء التي أصبحت أعلامًا في الثقافة العربية مثل **محمود درويش والطيب صالح** وغيرهما. من أهم مؤلفاته: «محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة»، «**بين المعداوي وفدوى طوقان**»، «**في حب نجيب محفوظ**».

دار الشروق
www.shorouk.com



تصميم الغلاف عمرو الكفراوي